شَـرْح
العَقِيـدة الواسِطيَّة

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء

ضَبطَ نَصَّه وعلَّق عليه وخرَّج أحاديثه
أبو أنس أشرف بن يوسف بن حسن

الناشر
دار العقيدة للتراث

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٥١٣٥

I.S.B.N. 977-347-058-X

الناشر

دار العقيدة

الإسكندرية : ١٠١ ش الفتح - باكوس ت : ٥٧٤٧٣٢١

القاهرة : ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

* مقدمة التحقيق *

إن الحمدَ للهِ نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه ، ونَعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ، ومِن سيئاتِ أعمالِنا ، مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضْلِلْ فلا هادىَ له .

وأشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شَرِيكَ له ، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه .

﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمنوا اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عظِيمًا ﴾

[الأحزاب : ٧٠ - ٧١]

أمَّا بعدُ ؛ فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللَّهِ تعالى ، وخيرَ الهَدْيِ هَدْىُ محمدٍ ﷺ .

وبعدُ : فبينَ يديك - أخي القارئَ - شرحٌ موجَزٌ للعقيدةِ الواسطيةِ التى ألَّفها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحِمه اللَّهُ[1]، وقد قمتُ بتخريجِ الأحاديثِ والآثارِ الواردةِ

(١) العقيدة الواسطية كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه فى مجلس واحد بعد العصر بِناءً على طلب من بعض قُضاةِ واسط ، وذلك بعد اقتحام المغولِ التتارِ العراقَ وبعضَ نواحيها ، فعاثوا فى الأرض الفساد ، وقتلوا العباد .

وليس ذلك فحَسْبُ ، بل عَمَدوا إلى تضليل الناس وتشكيكهم فى عقائدهم .

فكتب هذا القاضى الواسطى إلى شيخ الإسلام يشكو إليه ما الناس فيه من غلبة الجهل ، =

فى هذا الشرحِ المبارَكِ ، كما قمتُ بضبطِه ضبطًا إعرابيًا ، مع ضبطِ ما يُشْكِلُ من بِنْيةِ الكلمةِ ، مُتَحَرِّيًا فى ذلك الدِّقَّةَ ، مراجعًا فى ذلك قواميسَ اللغةِ ، وهذا يَظْهَرُ جَلِيًّا لمن له عِلمٌ بالعربيةِ .

وقد وضَعْتُ بعض التعليقاتِ على شرحِ فضيلةِ الشيخِ الفوزانِ حفِظَه اللَّهُ ، من الكتبِ المُعْتَمدةِ عندَ أهلِ السنةِ رحمهم اللَّهُ .

كما أنِّى قد قمتُ بعَزْوِ ما ذكَرَه الشيخُ الشارحُ حفِظَه اللَّهُ مِن أقوالِ أهلِ العلمِ إلى مصادرِها الموجودةِ فيها .

وما ذكَرَه الشيخُ حفِظه اللَّهُ من إجماعاتٍ أو نَقْلٍ للتواتُرِ قد قُمْتُ بتوثيقِ ذلك عن طريقِ عالمٍ أو أكثرَ من السلفِ قد نَصُّوا على هذا الإجماعِ ، أو هذا التواتُرِ .

كما أنى قد ترْجَمْتُ لما ورَدَ فى الكتابِ من أعلامٍ وفِرَقٍ ، وقد قمتُ بصناعةِ فهرسةٍ شاملةٍ لهذا الكتابِ على صِغَرِ حَجْمِه حتى يَسْهُلَ البحثُ على قارئِه .

وأخيرًا أسْأَلُ اللَّهَ تعالى أن يَتَقَبَّلَ منى هذا العملَ ، فاللَّهُ يَعْلَمُ ما مَدَى المجهودِ الذى بُذِل فيه حتى يَخْرُجَ سليمًا من التصحيفاتِ ، أو السَّقَطاتِ ، وفى ضبطِه وتخريجِ أحاديثِه وآثارِه .

وصلَّى اللَّهُ وسلَّمَ وبارَكَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصَحْبِه أجمعين ، وآخرُ دعْوانا أنِ الحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمِينَ .

وكتب

أبو أَنَس أشرف بن يوسف بن حسن

الأول من شهر رجب ١٤٢٤

= وشدة الظلم ، ودروس الدين وشحة العلم ، وسأله أن يكتب له عقيدة .
فلم يوافق شيخ الإسلام – بادئ ذى بدء – واعترض قائلًا : قد كتب الناس عقائد أئمة السنة .
فألحَّ قاضى واسط فى طلبه ، وكرَّر سؤاله قائلًا للشيخ : ما أُحِبُّ إلا عقيدةً تكتبها أنت .
فكتب له الشيخ رحمه الله على نحو ما ذكرْتُ قبلُ .

ترجمةُ الشيخِ صالحِ بنِ فَوْزَانَ

* هو الشيخُ صالحُ بنُ فَوْزانَ بنِ عبدِ اللَّهِ الفَوْزانُ .

* عُضْوُ هيئةِ كِبارِ العلماءِ ، وعُضْوُ اللجنةِ الدائمةِ للإفتاءِ والبُحوثِ العِلْميةِ ، وإمامُ وخطيبُ جامعِ الأميرِ متعبِ بنِ عبدِ العزيزِ بالرياضِ .

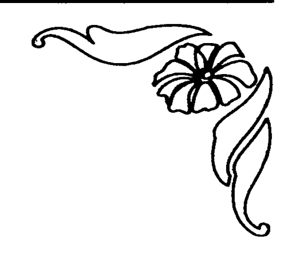
كما تقلَّد من الوظائفِ أيضًا مديرَ المعهدِ العالى للقضاءِ .

* له - حفظه اللَّهُ - مجهودٌ كبيرٌ فى الدعوةِ إلى اللَّهِ فى جميعِ المجالاتِ ، من تدريسٍ ، وإفتاءٍ ، وخَطابةٍ ، ورُدودٍ عِلْميةٍ ، ومقالاتٍ متنوِّعةٍ فى المَجَلَّاتِ الإسلاميةِ .

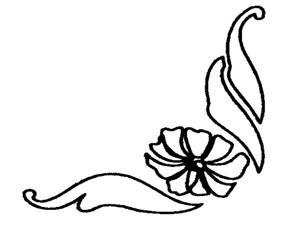
* **ومن مُؤَلَّفاتِه** : شرحُ العقيدةِ الواسطيةِ ، والمُلَخَّصُ الفِقْهىُّ ١/ ٢، وكتابٌ فى المباحثِ الفَرْضيةِ ، وتنبيهاتٌ على أحكامٍ تَخْتَصُّ بالمُؤْمِناتِ ، وتَعْقِيباتٌ على كتابِ السَّلَفيةِ ليست مذهبًا للبوطيِّ ، ومِن مشاهيرِ المُجَدِّدين فى الإسلامِ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ وشيخُ الإسلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ ، والمُنْتَقَى مِن فتاوَى الشيخِ صالحِ بنِ فَوْزانَ ١/٣، كما أنه دائمُ الإجابةِ على أسئلةِ المُسْتَمِعِين فى البَرْنَامَجِ الشَّهيرِ نورٌ على الدَّرْبِ .

جَزاه اللَّهُ خيرًا عما يُقَدِّمُه للإسلامِ والمسلمين . آمِينَ .

* * *




متن
العقيدة الواسطية




بسم الله الرحمن الرحيم

مَتْنُ العقيدةِ الواسطيةِ

مقدمةُ المؤلف

الحمدُ للهِ الذى أرْسَل رسولَه بالهُدَى ودينِ الحقِّ ؛ ليُظْهِرَه على الدينِ كلِّه ، وكَفَى باللَّهِ شهيدًا ، وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، إقرارًا به وتوحيدًا ، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ تسليمًا مَزيدًا .

أمَّا بعـدُ : فهذا اعتقادُ الفرقةِ الناجيةِ المنصورةِ إلى قيامِ الساعةِ ؛ أهلِ السنةِ والجماعةِ ، وهو الإيمانُ باللهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقدرِ ؛ خيرِه وشرِّه .

ومِن الإيمانِ باللَّهِ ؛ الإيمانُ بما وصَف به نفسَه فى كتابِه ، وبما وصَفَه به رسولُه مِن غيرِ تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومِن غيرِ تَكْييفٍ ، ولا تمثيلٍ .

بل يُؤْمِنون بأنَّ اللهَ سبحانَه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

فلا يَنْفُونَ عنه ما وصَف به نفسَه ، ولا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مَواضعِه ، ولا يُلْحِدُونَ فى أسماءِ اللهِ وآياتِه ، ولا يُكَيِّفُونَ ، ولا يَمَثِّلُونَ صفاتِه بصفاتِ خلقِه .

لأنه سبحانَه لا سَمِيَّ له ، ولا كُفْءَ له ، ولا نِدَّ له .

ولا يُقاسُ بخلقِه سبحانَه وتعالى ؛ فإنه أعْلَمُ بنفسِه وبغيرِه ، وأصْدَقُ قِيلًا ، وأحسنُ حديثًا مِن خلْقِه .

ثم رُسُلُه صادقون مَصْدُوقون بخلافِ الذين يَقُولون عليه ما لا يَعْلَمون .

ولهذا قال: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢].

فسبَّح نفسَه عمَّا وَصَفه به المُخالِفون للرُّسُلِ، وسلَّم على المُرْسَلِين لسلامةِ ما قالوه مِن النقصِ والعيبِ.

وهو سبحانَه قد جمَع فيما وصَف، وسمَّى به نفسَه بينَ النفيِ والإثباتِ، فلا عُدولَ لأهلِ السنةِ والجماعةِ عمَّا جاء به المُرْسَلون؛ فإنه الصراطُ المستقيمُ؛ صراطُ الذين أنْعَم اللَّهُ عليهم مِن النبيِّين والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصالحين.

الاستدلالُ على إثباتِ أسماءِ اللَّهِ وصفاتِه من القرآنِ الكريمِ

١- الجمعُ بينَ النفيِ والإثباتِ في وصفِه تعالى:

وقد دخَل في هذه الجملةِ ما وصَف اللهُ به نفسَه في سورةِ الإخلاصِ التي تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآنِ.

حيثُ يقولُ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

وما وصَف به نفسَه في أعظمِ آيةٍ في كتابِه، حيثُ يقولُ: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولهذا كان مَن قرَأ هذه الآيةَ في ليلةٍ لم يَزَلْ عليه من اللهِ حافظٌ، ولا يَقْرَبُه شيطانٌ حتى يُصْبِحَ.

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : ٥٨] .

٢- الجمعُ بيـنَ عُلُوِّه وقربه وأَزَلِيَّته وأَبَدِيَّته :

وقوله سبحانه : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

٣- إحاطةُ علمِه بجميع مخلوقاته :

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [التحريم : ٣] ، ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [الحديد : ٤] .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

وقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

٤- إثباتُ السمعِ والبصرِ للهِ سبحانَه :

وقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

٥- إثباتُ المَشِيئةِ والإرادةِ للهِ سبحانَه :

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩] .

وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

وقوله : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ

حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة : ١] .

وقوله : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

٦- إثباتُ مَحَبَّةِ اللهِ ومَوَدَّتِه لأوليائِه على ما يليقُ بجلالِه :

وقوله : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] ، ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ [البروج : ١٤] .

٧- إثباتُ اتصافِه بالرحمةِ والمغفرةِ سبحانَه وتعالى :

وقوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة : ١] ، ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] ، ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٣] ، ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الأحقاف : ٨] ، ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] .

٨- ذِكْرُ رِضَا اللهِ وغضبِه وسَخَطِه وكراهتِه فى القرآنِ الكريمِ ، وأنه مُتَّصِفٌ بذلك:

وقوله : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [البينة : ٨] ، ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾ [النساء: ٩٣].

وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ [محمد: ٢٨].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقوله: ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقوله: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣].

٩- ذِكْرُ مَجِيءِ اللهِ سبحانَه لفَصْلِ القضاءِ بينَ عبادِه على ما يليقُ بجلالِه:

وقوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢]، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥].

١٠- إثباتُ الوجهِ للهِ سبحانَه:

وقوله: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨].

١١- إثبات اليدَيْنِ للهِ تعالى في القرآنِ الكريمِ:

وقوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

١٢- إثباتُ العينَيْنِ للهِ تعالى:

وقوله: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى

ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: ١٣، ١٤]، ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩].

١٣- إثباتُ السمعِ والبصرِ للهِ تعالى :

وقوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١]، ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقوله : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ [العلق: ١٤]، ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٨- ٢٢٠]، ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

١٤- إثباتُ المكرِ والكيدِ للهِ تعالى على ما يليقُ به :

وقوله : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣].

وقوله : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ٥٠]، وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

١٥- وَصْفُ اللهِ بالعَفْوِ والمغفرةِ والرحمةِ والعِزَّةِ والقدرةِ :

وقوله : ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩]، ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله عن إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

١٦- إثباتُ الاسمِ للهِ ، ونفيُ المثلِ عنه :

وقوله : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] .

وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] ، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ٤] ، ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢] ، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

١٧- نفيُ الشريكِ عن اللهِ تعالى :

وقوله : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : ١١١] ، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن : ١] .

وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ١ ، ٢] ، ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١ ، ٩٢] ، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٤] .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

١٨- إثباتُ استواءِ اللهِ على عرشِه :

وقوله: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى

الْعَرْشِ ﴾ فى سبعةِ مواضعَ ، فى سورةِ « الأعراف » قولُه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وقال فى سورةِ « يُونُسَ » ، عليه السلامُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يونس : ٣] .

وقال فى سورةِ الرَّعْدِ : ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الرعد : ٢] .

وقال فى سورةِ طه : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٤] .

وقال فى سورةِ الفُرْقانِ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

وقال فى سورةِ الم السَّجْدَةَ : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [السجدة : ٤] .

وقال فى سورةِ الحديدِ : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الحديد : ٤] .

١٩- إثباتُ عُلُوِّ اللهِ على مخلوقاتِه :

وقولِه : ﴿ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] ، ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : ١٥٨] ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] ، ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [غافر : ٣٦، ٣٧] . ﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك : ١٦، ١٧] .

٢٠- إثباتُ مَعِيَّةِ اللهِ تعالى لِخَلْقِه :

وقولِه : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ

فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] ، ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٧] .

وقوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] ، ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] ، ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

٢١- إثباتُ الكلامِ للهِ تعالى :

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٢] .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١١٦] ، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] ، ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] ، ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] ، ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠] ، ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] ، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٦٥] ، ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] ، ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥] ، ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الفتح : ١٥] ، ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا

مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الكهف: ٢٧]، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦].

٢٢- إثباتُ تنزيلِ القرآنِ مِن اللهِ تعالى :

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠١- ١٠٣].

٢٣- إثباتُ رؤيةِ المؤمنينَ لربِّهم يومَ القيامةِ :

وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٣٥]، ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]. ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥].

وهذا البابُ في كتابِ اللَّهِ كثيرٌ، مَن تدبَّر القرآنَ طالبًا للهُدَى منه تبيَّن له طريقُ الحقِّ.

* * *

الاستدلالُ على إثباتِ أسماءِ اللهِ وصفاتِه من السنةِ

« فصلٌ » :

ثم في سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فالسنةُ تُفَسِّرُ القرآنَ، وتُبَيِّنُه، وتَدُلُّ عليه، وتُعَبِّرُ عنه.

وما وصَف الرسولُ ﷺ به ربَّه عزَّ وجلَّ مِن الأحاديثِ الصِّحاحِ، التي تَلَقَّاها

أهلُ المعرفةِ بالقَبولِ وجَب الإيمانُ بها كذلك .

١- ثبوتُ النزولِ الإلهيِّ إلى سماءِ الدنيا ، على ما يليقُ بجَلالِ اللهِ :

مثلُ قولِه ﷺ : « يَنْزِلُ ربُّنا إلى السماءِ الدنيا كلَّ ليلةٍ ، حينَ يَبْقَى ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ ، فيقولُ : مَن يَدْعُونى فأَسْتَجِيبَ له ؟ مَن يَسْأَلُنِى فأُعْطِيَه ؟ مَن يَسْتَغْفِرُنى فأَغْفِرَ له ؟ » متفقٌ عليه.

٢- إثباتُ أن اللهَ يَفْرَحُ ويَضْحَكُ :

وقولِه ﷺ : « لَلَّهُ أَشَدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه المؤمنِ التائبِ مِن أحدِكم براحلتِه » . الحديثَ ، متفقٌ عليه.

وقولِه ﷺ : « يَضْحَكُ اللهُ إلى رجلَيْنِ ، يَقْتُلُ أحدُهما الآخرَ ، كلاهما يَدْخُلُ الجنةَ » . متفقٌ عليه.

٣- إثباتُ أنَّ اللهَ يَعْجَبُ ويَضْحَكُ :

وقولِه ﷺ : « عَجِبَ ربُّنا مِن قُنُوطِ عبادِه ، وقُرْبِ غيرِه ، يَنْظُرُ إليكم أَزِلِينَ ، قَنِطِينَ ، فيَظَلُّ يَضْحَكُ ، يَعْلَمُ أن فرَجَكم قريبٌ » . حديثٌ حسنٌ.

٤- إثباتُ الرِّجْلِ والقدمِ للهِ سبحانَه :

وقولِه ﷺ : « لا تَزالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فيها ، وهى تَقولُ : هل مِن مَزِيدٍ ؟ حتى يَضَعَ ربُّ العِزَّةِ فيها رِجْلَه – وفى روايةٍ : عليها قدمَه – فيَنْزَوِى بعضُها إلى بعضٍ ، فتَقُولُ : قَطْ قَطْ » . متفقٌ عليه.

٥- إثباتُ النداءِ والصوتِ والكلامِ للهِ تعالى :

وقولِه ﷺ : « يقولُ اللهُ تعالى : يا آدمُ . فيقولُ : لبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ . فيُنادِى بصوتٍ : إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أن تُخْرِجَ مِن ذريتِك بَعْثًا إلى النارِ » . متفق عليه.

وقولِه ﷺ : « ما مِنكم مِن أحدٍ إلا سيُكَلِّمُه ربُّه ، ليس بينَه وبينَه تُرْجُمانٌ ».

٦- إثباتُ عُلُوِّ اللهِ على خَلْقِه ، واستوائِه على عرشِه :

وقولِه ﷺ في رُقْيةِ المريضِ : « ربَّنا اللهَ الذى فى السماءِ ، تقدَّس اسمُكَ ، أمْرُك فى السماءِ والأرضِ ، كما رَحْمَتُك فى السماءِ ، اجْعَل رحمتَكَ فى الأرضِ ، اغْفِرْ لنا حُوبَنا وخَطايانا ، أنت ربُّ الطَّيِّبِينَ ، أَنْزِلْ رحمةً مِن رحمتِك ، وشِفاءً مِن شفائِك على هذا الوجَعِ فيَبْرَأَ » . حديثٌ حسنٌ ، رواه أبو داودَ وغيرُه.

وقولِه : « ألا تَأْمَنُونى وأنا أمينُ مَن فى السماءِ » . حديثٌ صحيحٌ.

وقولِه ﷺ : « والعرشُ فوقَ الماءِ ، واللَّهُ فوقَ العرشِ ، وهو يَعْلَمُ ما أنتم عليه » . حديثٌ حسنٌ ، رواه أبو داودَ ، وغيرُه.

وقولِه ﷺ للجاريةِ : « أين اللهُ ؟ » قالت : فى السماءِ . قال : « مَن أنا ؟ » قالت : أنت رسولُ اللهِ . قال : « أَعْتِقْها ؛ فإنها مؤمنةٌ » . رواه مسلمٌ.

٧- إثباتُ مَعِيَّةِ اللهِ تعالى لـخَلْقِه ، وأنَّها لا تُنافِى عُلُوَّه فوقَ عرشه :

وقولِه ﷺ : « أفضلُ الإيمانِ أن تَعْلَمَ أنَّ اللهَ معَك حيثُما كنتَ » . حديثٌ حسنٌ.

وقولِه : « إذا قام أحدُكم إلى الصلاةِ فلا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وجهِه ، ولا عن يَمِينه ؛ فإنَّ اللهَ قِبَلَ وجهِه ، ولكن عن يسارِه ، أو تحتَ قدمِه » . متفقٌ عليه.

وقولِه ﷺ : « اللهمَّ ربَّ السماواتِ السبعِ والأرضِ ، وربَّ العرشِ العظيمِ ، ربَّنا وربَّ كلِّ شىءٍ ، فالقَ الحَبِّ والنَّوَى ، مُنْزِلَ التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ، أَعُوذُ بك مِن شرِّ نفسى ، ومِن شرِّ كلِّ دابةٍ ، أنت آخِذٌ بناصيتِها ، أنت الأولُ فليس قبلَك شىءٌ ، وأنت الآخرُ فليس بعدَك شىءٌ ، وأنت الظاهرُ فليس فوقَك شىءٌ ، وأنت الباطنُ فليس دونَك شىءٌ ، اقْضِ عنِّىَ الدَّيْنَ ، وأَغْنِنى مِن الفقرِ » . رواه مسلمٌ.

وقولِه ﷺ لـمَّا رفَع الصحابةُ أصواتَهم بالذكرِ : « أيُّها الناسُ ، أرْبَعُوا على

أنفسِكم ، فإنَّكم لا تَدْعُونَ أصمَّ ، ولا غائبًا ، إنما تَدْعُونَ سميعًا بصيرًا قريبًا ، إنَّ الذى تَدْعُونه أقربُ إلى أحدِكم مِن عُنُقِ راحلتِه » . متفقٌ عليه.

٨- إثباتُ رؤيةِ المؤمنين لربِّهم يومَ القيامةِ :

وقولِه ﷺ : « إنكم ستَرَوْنَ ربَّكم كما تَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ ، لا تُضامُّونَ فى رؤيتِه ، فإن اسْتَطَعْتُم أن لا تُغْلَبُوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ ، وصلاةٍ قبلَ غروبِها فافْعَلُوا » . متفقٌ عليه .

مَوْقِفُ أهلِ السُّنَّةِ مِن هذه الأحاديثِ

التى فيها إثباتُ الصفاتِ الرَّبَّانِيَّةِ

إلى أمثالِ هذه الأحاديثِ التى يُخْبِرُ فيها رسولُ اللهِ ﷺ عن ربِّه بما يُخْبِرُ به ؛ فإنَّ الفرقةَ الناجيةَ ؛ أهلَ السنةِ والجماعةِ يُؤْمِنون بذلك ، كما يؤمنون بما أخْبَرَ اللهُ به فى كتابِه ، من غيرِ تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومن غيرِ تكييفٍ ، ولا تمثيلٍ .

مكانةُ أهلِ السنةِ والجماعةِ بينَ فِرَقِ الأمةِ

بل هم الوسَطُ فى فرقِ الأُمَّةِ ، كما أن الأمةَ هى الوسطُ فى الأُمَمِ .

فهم وَسَطٌ فى بابِ صفاتِ اللهِ سبحانَه وتعالى بينَ أهلِ التعطيلِ ؛ الجَهْمِيةِ ، وأهلِ التمثيلِ ؛ المُشَبِّهةِ .

وهم وَسَطٌ فى بابِ أفعالِ اللهِ بينَ القَدَريةِ والجَبْرِيةِ .

وفى بابِ وَعيدِ اللهِ بينَ المُرْجِئةِ والوعيديةِ مِن القدريةِ وغيرِهم .

وفى بابِ أسماءِ الإيمانِ والدينِ بينَ الحَرُوريَّةِ والمُعْتَزِلةِ ، وبينَ المرجئةِ والجهميةِ .

وفى أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بينَ الرافضِ والخوارجِ .

* * *

وجوبُ الإيمانِ باستواءِ اللهِ على عرشِه وعُلوهِّ على خلقِه ومَعِيَّتِه لخلقِه ، وأنه لا تنافِيَ بينَهما

« فصلٌ » :

وقد دخَل فيما ذكَرْناه مِن الإيمانِ باللَّهِ الإيمانُ بما أخبَر اللهُ به في كتابِه ، وتَواتَر عن رسولِه ، وأجمَع عليه سلفُ الأمَّةِ مِن أنه سبحانَه فوقَ سماواتِه على عرشِه ، عَلِيٌّ على خلقِه ، وهو سبحانَه معهم أينَما كانوا ، يَعْلَمُ ما هم عاملون ، كما جمَع بينَ ذلك في قولِه : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

وليس معنى قولِه : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ . أنه مُخْتَلِطٌ بالخلقِ ؛ فإن هذا لا تُوجِبُه اللغةُ ، وهو خلافُ ما أجمَع عليه سَلَفُ الأُمَّةِ ، وخلافُ ما فَطَر اللهُ عليه الخَلْقَ ، بل القمرُ آيةٌ مِن آياتِ اللهِ ، مِن أصغرِ مخلوقاتِه ، وهو موضوعٌ في السماءِ ، وهو مع المسافرِ وغيرِ المسافرِ ، أينَما كان .

وهو سبحانَه فوقَ عرشِه ، رَقيبٌ على خلقِه ، مُهَيْمِنٌ عليهم ، مُطَّلِعٌ عليهم ، إلى غيرِ ذلك مِن معاني ربوبيتِه .

ما يَجِبُ اعتقادُه في عُلوهِّ ومَعِيَّتِه سبحانَه ، ومعنى كونِه سبحانَه في السماءِ ، وأدلةُ ذلك

وكلُّ هذا الكلامِ الذي ذكَره اللَّهُ مِن أنه فوقَ العرشِ ، وأنه معَنا ، حقٌّ على حقيقتِه ، لا يَحتاجُ إلى تحريفٍ ، ولكن يُصانُ عن الظنونِ الكاذبةِ ، مثلَ أن يُظَنَّ أن ظاهرَ قولِه : « في السماءِ » . أنَّ السماءَ تُقِلُّه أو تُظِلُّه ، وهذا باطلٌ بإجماعِ أهلِ العلمِ

والإيمانِ ؛ فإنَّ اللهَ قد ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ، وهو الذى ﴿ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ ، ويُمْسِكُ السماءَ أن تَقَعَ على الأرضِ إلا بإذنِه ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

* * *

وجوبُ الإيمانِ بقُرْبِه مِن خَلْقِه ، وأنَّ ذلك لا يُنافِي عَلوَّه وفَوْقِيَّتَه

« فصلٌ » :

وقد دخَل فى ذلك الإيمانُ بأنه قريبٌ مِن خَلْقِه ، مجيبٌ ، كما جمَع بينَ ذلك فى قولِه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآيَةَ [البقرة: ١٨٦] ، وقولِه ﷺ : « إنَّ الذى تَدْعُونَه أقربُ إلى أحدِكم مِن عُنُقِ راحلتِه ».

وما ذُكِر فى الكتابِ والسنةِ مِن قربِه ومَعِيَّتِه ، لا يُنافِى ما ذُكِر من عُلُوِّه وفوقيَّتِه ؛ فإنه سبحانَه ليس كمثلِه شىءٌ فى جميعِ نُعوتِه ، وهو عَلِىٌّ فى دُنُوِّه ، قريبٌ فى عُلُوِّه .

وجوبُ الإيمانِ بأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ حقيقةً

« فَصْلٌ » :

ومِن الإيمانِ باللهِ وكتبِه الإيمانُ بأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ ، مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ ، منه بدَأ ، وإليه يعودُ ، وأنَّ اللَّهَ تكَلَّم به حقيقةً ، وأنَّ هذا القرآنَ الذى أُنْزِل على محمدٍ ﷺ هو كلامُ اللهِ حقيقةً ، لا كلامُ غيرِه .

ولا يجوزُ إطلاقُ القولِ بأنه حكايةٌ عن كلامِ اللَّهِ ، أو عبارةٌ عنه ، بل إذا قرَأه الناسُ ، أو كتَبُوه فى المصاحفِ لم يَخْرُجْ بذلك عن أن يكونَ كلامَ اللهِ تعالى

حقيقةً ؛ فإنَّ الكلامَ إنما يُضافُ حقيقةً إلى مَن قاله مُبْتَدِئًا ، لا إلى مَن قاله مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا .

وهو كلامُ اللَّهِ ؛ حروفُه ومَعانيه ، ليس كلامُ اللَّهِ الحروفَ دونَ المعاني ، ولا المعانيَ دونَ الحروفِ .

وجوبُ الإيمانِ برؤيةِ المؤمنينَ ربَّهم يومَ القيامةِ ، ومواضعُ الرؤيةِ

« **فَصْلٌ** » :

وقد دخَل أيضًا فيما ذكَرْناه مِن الإيمانِ به وبكتبِه وبملائكتِه وبرسلِه ، الإيمانُ بأن المؤمنين يَرَوْنَه يومَ القيامةِ عِيانًا بأبصارِهم ، كما يَرَوْنَ الشمسَ صَحْوًا ، ليس دونَها سَحابٌ ، وكما يَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البَدْرِ ، لا يُضامُّون فى رؤيتِه ، يَرَوْنَه سبحانَه ، وهم فى عَرَصاتِ القيامةِ ، ثم يَرَوْنَه بعدَ دخولِ الجنةِ ، كما يشاءُ اللَّهُ سبحانَه تعالى .

ما يَدْخُلُ فى الإيمانِ باليومِ الآخِرِ

« **فصلٌ** » :

١- ما يكونُ فى القبرِ :

ومِن الإيمانِ باليومِ الآخِرِ الإيمانُ بكلِّ ما أخْبَر به النبىُّ ﷺ مما يكونُ بعدَ الموتِ ، فيُؤْمِنون بفتنةِ القبرِ ، وبعذابِ القبرِ وبنعيمِه .

فأمَّا الفتنةُ فإنَّ الناسَ يُفْتَنُونَ فى قبورِهم ، فيُقالُ للرجلِ : مَن ربُّك ؟ وما دينُك ؟ ومَن نبيُّك ؟

فيُثَبِّتُ اللَّهُ الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ فى الحياةِ الدنيا ، وفى الآخرةِ ، فيقولُ المؤمنُ : اللَّهُ رَبِّى ، والإسلامُ دينى ، ومحمدٌ ﷺ نَبِيِّى .

وأمَّا المرتابُ فيقولُ : هاه هاه ، لا أدْري ، سمِعْتُ الناسَ يقولون شيئًا فقُلْتُه ،

فيُضْرَبُ بمِرْزَبَّةٍ مِن حديدٍ ، فيَصِيحُ صَيْحةً ، يَسْمَعُها كلُّ شيءٍ إلَّا الإنسانَ ، ولو سمِعَها الإنسانُ لَصَعِق .

٢- القيامةُ الكبرى ، وما يجرى فيها :

ثم بعدَ هذه الفتنةِ ، إما نعيمٌ ، وإما عذابٌ إلى أن تقومَ القيامةُ الكبرى ، فتُعادُ الأرواحُ إلى الأجسادِ .

وتقومُ القيامةُ التى أخبَرَ اللَّهُ بها فى كتابِه ، وعلى لسانِ رسولِه ، وأجْمَع عليها المسلمون ، فيقومُ الناسُ مِن قبورِهم لربِّ العالمين ، حُفاةً ، عُراةً ، غُرْلًا .

ما يجرى فى يومِ القيامةِ :

وتَدْنُو منهم الشمسُ ، ويُلْجِمُهم العرقُ ، وتُنْصَبُ الموازينُ ، فتُوزَنُ فيها أعمالُ العبادِ ، ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٢، ١٠٣] .

وتُنْشَرُ الدَّواوينُ ، وهى صحائفُ الأعمالِ ، فآخِذٌ كتابَه بيمينِه ، وآخِذٌ كتابَه بشمالِه ، أو مِن وراءِ ظهرِه ، كما قال سبحانَه وتعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٣، ١٤] .

ويُحاسِبُ اللَّهُ الخلائقَ ، ويَخْلُو بعبدِه المؤمنِ ، فيُقرِّرُه بذنوبِه ، كما وُصِف ذلك فى الكتابِ والسنةِ .

وأمّا الكفارُ فلا يُحاسَبون مُحاسَبةَ مَن تُوزَنُ حَسَناتُه وسيئاتُه ؛ فإنه لا حَسَناتِ لهم ، ولكن تُعَدُّ أعمالُهم ، فتُحْصَى ، فيُوقَفون عليها ، ويُقَرَّرون بها ، ويُجْزَوْنَ بها .

حوضُ النبىِّ ﷺ ، ومكانُه ، وصفاتُه :

وفى عَرَصاتِ القيامةِ الحوضُ المورودُ للنبىِّ ﷺ ، ماؤُه أشدُّ بياضًا من اللبنِ ،

وأحلَى من العسلِ ، آنيتُه عددُ نجومِ السماءِ ، طولُه شهرٌ ، وعرضُه شهرٌ ، مَن يَشْرَبْ مِنه شربةً لم يَظْمَأْ بعدَها أبدًا .

الصِّراطُ ومعناه ومكانُه وصفةُ مرورِ الناسِ عليه :

والصراطُ منصوبٌ على مَتْنِ جَهَنَّمَ ، وهو الجِسرُ الذى بينَ الجنةِ والنارِ ، يَمُرُّ الناسُ عليه على قَدْرِ أعمالِهم ، فمِنهم مَن يَمُرُّ كلَمْحِ البَصَرِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالبَرقِ الخاطفِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالريحِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالفرسِ الجَوَادِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كرِكابِ الإبلِ ، ومنهم مَن يَعْدُو عَدْوًا ، ومنهم مَن يَمْشِى مَشْيًا ، ومنهم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا ، ومنهم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا ، ويُلْقَى فى جَهَنَّمَ ؛ فإنَّ الجسرَ عليه كَلاليبُ تَخطِفُ الناسَ بأعمالِهم .

القَنطرةُ بيـنِ الجنةِ والنارِ :

فمَن مَرَّ على الصراطِ دخَل الجنةَ ، فإذا عبَروا عليه وُقِفوا على قَنْطَرةٍ بينَ الجنةِ والنارِ ، فيُقْتَصُّ لبعضِهم مِن بعضٍ ، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخولِ الجنةِ .

أولُ مَن يَسْتَفْتِحُ بابَ الجنةِ ، وأولُ مَن يَدْخُلُها ، وشفاعاتُ النبيِّ ﷺ :

وأولُ مَن يَسْتَفْتِحُ بابَ الجنةِ محمدٌ ﷺ ، وأولُ مَن يَدْخُلُ الجنةَ مِن الأممِ أمتُه .

وله ﷺ فى القيامةِ ثلاثُ شَفاعاتٍ : أمَّا الشفاعةُ الأولى فيَشْفَعُ فى أهلِ الموقفِ حتى يُقْضَى بينَهم بعدَ أن يَتَرَاجَعَ الأنبياءُ ؛ آدمُ ونوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ابنُ مريمَ عن الشفاعةِ ، حتى تَنْتَهِىَ إليه .

وأمَّا الشفاعةُ الثانيةُ فيَشْفَعُ فى أهلِ الجنةِ أن يَدْخُلوا الجنةَ ، وهاتان الشفاعتان خاصَّتان له .

وأمَّا الشفاعةُ الثالثةُ فيَشْفَعُ فيمَن اسْتَحَقَّ النارَ ، وهذه الشفاعةُ له ولسائرِ النبيِّين والصِّدِّيقِين وغيرِهم ، فيَشْفَعُ فيمَن اسْتَحَقَّ النارَ أن لا يَدْخُلَها ، ويَشْفَعُ فيمَن دخَلَها أن يُخْرَجَ منها .

إخراجُ بعضِ العُصاةِ مِن النارِ برحمةِ اللهِ ، بغيرِ شفاعةٍ ، واتساعُ الجنةِ عن أهلِها :

ويُخْرِجُ اللَّهُ تعالى مِن النارِ أقوامًا بغيرِ شفاعةٍ ، بل بفضلِه ورحمتِه ، ويَبْقَى فى الجنةِ فَضْلٌ عمَّن دخَلَها مِن أهلِ الدنيا ، فيُنْشِئُ اللَّهُ لها أقوامًا ، فيُدْخِلُهم الجنةَ .

وأصنافُ ما تضَمَّنَتْه الدارُ الآخرةُ مِن الحسابِ والثوابِ والعقابِ والجنةِ والنارِ ، وتفاصيلُ ذلك مذكورٌ فى الكتبِ المُنَزَّلةِ مِن السماءِ ، والآثارِ مِن العلمِ المأثورِ عن الأنبياءِ .

وفى العلمِ الموروثِ عن محمدٍ ﷺ مِن ذلك ما يَشْفِى ويَكْفِي ، فمَن ابتغاه وجَدَه .

* * *

الإيمانُ بالقَدَرِ وبيانُ ما يَتَضَمَّنُه

« وتُؤْمِنُ الفرقةُ الناجيةُ ؛ أهلُ السنةِ والجماعةِ بِالقَدَرِ خيرِه وشرِّه ، والإيمانُ بالقَدَرِ على دَرَجَتَيْن ، كلُّ درجةٍ تَتَضَمَّنُ شيئين :

تفصيلُ مَراتبِ القَدَرِ

الدرجةُ الأولى وما تَتَضَمَّنُه :

فالدرجةُ الأولى : الإيمانُ بأنَّ اللَّهَ تعالى عَلِم ما الخلقُ عامِلون بعلمِه القديمِ ، الذى هو موصوفٌ به أزلًا وأبدًا ، وعَلِم جميعَ أحوالِهم مِن الطاعاتِ والمعاصِى والأرزاقِ والآجالِ ، ثم كتَب اللَّهُ فى اللوحِ المحفوظِ مقاديرَ الخلقِ ، فأولُ ما خلَق اللَّهُ القلمُ ، قال له : اكْتُبْ ، قال : ما أَكْتُبُ ؟ قال : اكْتُبْ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ .

فما أصاب الإنسانَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَه ، وما أخْطَأَه لم يَكُنْ لِيُصِيبَه ، جَفَّت الأقلامُ ، وطُوِيَت الصُّحُفُ .

كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

وقال : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] .

وهذا التقديرُ التابعُ لعلمِه سبحانَه يكونُ في مواضعَ جملةً وتفصيلًا ، فقد كتَب في اللوحِ المحفوظِ ما شاء ، وإذا خلَق جسدَ الجنينِ قبلَ نَفْخِ الرُّوحِ فيه بعَث إليه مَلَكًا ، فيُؤْمَرُ بأربعِ كلماتٍ ، فيقالُ له : اكْتُبْ رزقَه وأجلَه وعملَه وشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ ، ونحوَ ذلك ، فهذا التقديرُ قد كان يُنْكِرُه غُلاةُ القَدَريةِ قديمًا ، ومُنْكِروه اليومَ قليلٌ .

الدرجةُ الثانيةُ ، وما تتضمنُه :

وأما الدرجةُ الثانيةُ : فهي مشيئةُ اللَّهِ النافذةُ وقدرتُه الشاملةُ ، وهو الإيمانُ بأنَّ ما شاء اللَّهُ كان ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ ، وأنه ما في السماواتِ وما في الأرضِ مِن حركةٍ ، ولا سكونٍ إلا بمشيئةِ اللهِ سبحانَه ، لا يكونُ في مُلْكِه ما لا يُرِيدُ .

وأنه سبحانَه وتعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، مِن الموجوداتِ والمعدوماتِ ، فما من مخلوقٍ في الأرضِ ، ولا في السماءِ إلا اللَّهُ خالقُه سبحانَه ، لا خالقَ غيرُه ، ولا ربَّ سِواه .

١ ، ٢ - لا تعارُضَ بينَ القَدَرِ والشرعِ ، ولا بينَ تقديرِه للمعاصي وبغضِه لها :

ومع ذلك فقد أَمَرَ العبادَ بطاعتِه وطاعةِ رسلِه ، ونهاهم عن معصيتِه .

وهو سبحانَه يُحِبُّ المُتَّقِين والمُحْسِنين والمُقْسِطِين ، ويَرْضَى عن الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ ، ولا يُحِبُّ الكافرين ، ولا يَرْضَى عن القومِ الفاسِقين ، ولا يَأْمُرُ بالفحشاءِ ، ولا يَرْضَى لعبادِه الكفرَ ، ولا يُحِبُّ الفسادَ .

٣ - لا تَنافِيَ بينَ إثباتِ القَدَرِ ، وإسنادِ أفعالِ العبادِ إليهم حقيقةً ، وأنهم يَفْعَلُونَها باختيارِهم :

والعبادُ فاعلون حقيقةً ، واللَّهُ خلَق أفعالَهم ، والعبدُ هو المؤمنُ والكافرُ ، والبَرُّ والفاجرُ ، والـمُصَلِّي والصائمُ ، وللعبادِ قُدْرةٌ على أعمالِهم ، ولهم إرادةٌ ، واللَّهُ خالقُهم ، وخالقُ قُدْرتِهم وإرادتِهم ، كما قال تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٨، ٢٩] .

وهذه الدرجةُ مِن القدرِ يُكَذِّبُ بها عامةُ القَدَريةِ ، الذين سمَّاهم النبيُّ ﷺ مجوسَ هذه الأمةِ ، ويَغْلُو فيها قومٌ مِن أهلِ الإثباتِ حتى سَلَبوا العبدَ قدرتَه واختيارَه ، ويُخْرِجُون عن أفعالِ اللهِ وأحكامِه حِكَمَها ومَصالِحَها .

حقيقةُ الإيمانِ ، وحكمُ مُرتَكِبِ الكبيرةِ

« **فصلٌ** » :

ومِن أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ أنَّ الدينَ والإيمانَ قولٌ وعملٌ ؛ قولُ القلبِ واللسانِ ، وعملُ القلبِ واللسانِ والجوارحِ ، وأنَّ الإيمانَ يَزيدُ بالطاعةِ ، ويَنْقُصُ بالمعصيةِ ، وهم مع ذلك لا يُكَفِّرون أهلَ القِبْلةِ بمطلقِ المَعَاصِي والكبائرِ ، كما يَفْعَلُه الخوارجُ ، بل الأُخُوَّةُ الإيمانيةُ ثابتةٌ مع المعاصِي ، كما قال سبحانَه وتعالى في آيةِ القِصاصِ : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، وقال : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ٩، ١٠] .

ولا يَسْلُبون الفاسقَ المِلِّيَّ الإسلامَ بالكُلِّيةِ ، ولا يُخَلِّدونه في النارِ ، كما تقولُ المعتزلةُ ، بل الفاسقُ يَدْخُلُ في اسمِ الإيمانِ المطلَقِ ، كما في قولِه : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء : ٩٢] ، وقد لا يَدْخُلُ في اسمِ الإيمانِ المطلَقِ ، كما في قولِه تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ

إِيمَانًا ﴾ [الأنفال : ٢] ، وقولِه ﷺ : « لا يَزْنِي الزاني حينَ يَزْنِي ، وهو مؤمنٌ ، ولا يَسْرِقُ السارقُ حينَ يَسْرِقُ ، وهو مؤمنٌ ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حينَ يَشْرَبُها ، وهو مؤمنٌ ، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ ، يَرْفَعُ الناسُ إليه فيها أبصارَهم حينَ يَنْتَهِبُها ، وهو مؤمنٌ ».

ونقولُ : هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ ، أو : مؤمنٌ بإيمانِه ، فاسقٌ بكبيرتِه ، فلا يُعْطَى الاسمَ المُطْلَقَ ، ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسمِ .

* * *

الواجبُ نحوَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وذِكْرُ فضائِلِهم

« فصلٌ » :

« ومن أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ سلامةُ قلوبِهم وألسنتِهم لأصحابِ رسو اللهِ ﷺ ، كما وصَفَهم اللَّهُ به في قولِه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] ، وطاعةُ النبيِّ ﷺ في قولِه : « لا تَسُبُّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيدِه لو أنَّ أحدَكم أنْفَق مثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلَغ مُدَّ أحدِهم ، ولا نَصِيفَه ».

فَضْلُ الصَّحابةِ ، وموقفُ أهلِ السنةِ والجماعةِ منه ، وبيانُ تفاضُلِهم :

ويَقْبَلون ما جاء به الكتابُ والسنةُ والإجماعُ مِن فضائلِهم ومَراتِبِهم ، ويُفَضِّلون مَن أَنْفَق مِن قبلِ الفتحِ - وهو صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ وقاتل ، على مَن أَنْفَق مِن بعدُ ، وقاتَل ، ويُقَدِّمون المهاجرين على الأنصارِ .

ويُؤْمِنون بأنَّ اللَّهَ قال لأهلِ بدرٍ ، وكانوا ثلاثَمائةٍ و بِضْعةَ عشَرَ : « اعْمَلوا ما شِئْتُم فقد غفَرْتُ لكم » .

وبأنه لا يَدْخُلُ النارَ أحدٌ بايَع تحتَ الشجرةِ ، كما أخبَر به النبيُّ ﷺ ، بل لقد

رضِى اللّٰهُ عنهم ، ورَضُوا عنه ، وكانوا أكثرَ مِن ألفٍ وأربعمائةٍ .

ويَشْهَدون بالجنةِ لمن شهِد له رسولُ اللّٰهِ ﷺ ، كالعشرةِ، وثابتِ بن قيسِ بنِ شَمَّاسٍ، وغيرِهم مِن الصحابةِ .

ويُقِرُّون بما تواتَر به النقلُ عن أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبى طالبٍ رضِى اللّٰهُ عنه، وغيرِه مِن أن خيرَ هذه الأُمَّةِ بعدَ نبيِّها أبو بكرٍ ، ثم عمرُ ، ويُثَلِّثُون بعثمانَ ، ويُرَبِّعون بعليٍّ رضِى اللهُ عنهم ، كما دلَّت عليه الآثارُ .

وكما أجْمَع الصحابةُ على تقديمِ عثمانَ فى البيْعةِ ، مع أنَّ بعضَ أهلِ السنةِ كانوا قد اختلَفوا فى عثمانَ وعليٍّ رضِى اللهُ عنهما ، بعدَ اتفاقِهم على تقديمِ أبى بكرٍ وعمرَ ، أيُّهما أفضلُ ؟ فقدَّم قومٌ عثمانَ ، وسكَتوا ، وربَّعوا بعليٍّ ، وقدَّم قومٌ عليًّا ، وقومٌ توَقَّفوا ، لكن اسْتَقَرَّ أمرُ أهلِ السنةِ على تقديمِ عثمانَ ، ثم عليٍّ .

* * *

حكمُ تقديمِ علىٍّ رضِى اللهُ عنه على غيرِه مِن الخلفاءِ الأربعةِ فى الخلافةِ

وإن كانت هذه المسألةُ – مسألةُ عثمانَ وعليٍّ – ليست من الأصولِ التى يُضَلَّلُ المخالفُ فيها عندَ جمهورِ أهلِ السنةِ ، لكن المسألةُ التى يُضَلَّلُ فيها مسألةُ الخلافةِ ، وذلك أنهم يُؤْمِنون أنَّ الخليفةَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ أبو بكرٍ ، ثم عمرُ ، ثم عثمانُ ، ثم عليٌّ ، ومَن طعَن فى خلافةِ أحدٍ من هؤلاءِ الأئمةِ ، فهو أضلُّ مِن حمارِ أهلِه .

مكانةُ أهلِ بيتِ النبىِّ ﷺ عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ :

ويُحِبُّون آلَ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وَيَتَوَلَّوْنَهم ويَحْفَظون فيهم وصيةَ رسولِ اللهِ ، حيث قال يومَ غَدِيرِ خُمٍّ : « أُذَكِّرُكم اللهَ فى أهلِ بيتي ».

وقال أيضًا للعباسِ عمِّه ، وقد اشْتَكَى إليه أن بعضَ قريشٍ يَجْفُو بنى هاشمٍ ،

فقال : « والذى نفسى بيدِه ، لا يُؤْمِنون حتى يُحِبُّوكم للّهِ ولقَرَابَتى » . وقال : « إن اللّهَ اصْطَفَى بنى إسماعيلَ ، واصْطَفَى مِن بنى إسماعيلَ كِنانةَ ، واصطَفى مِن كِنانةَ قريشًا ، واصْطَفَى مِن قريشٍ بنى هاشمٍ ، واصْطَفانى مِن بنى هاشمٍ ».

مكانةُ أزواجِ النبىّ ﷺ عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ :

ويتَوَلَّوْن أزواجَ رسولِ اللهِ ﷺ ؛ أمهاتِ المؤمنين ، ويُؤْمِنون بأنَّهن أزواجُه فى الآخرةِ ، خصوصًا خديجةَ رضِى اللّهُ عنها ، أمَّ أكثرِ أولادِه ، وأولَ مَن آمَن به ، وعاضَدَه على أمرِه ، وكان لها منه المنزلةُ العاليةُ ، والصِّدِّيقةَ بنتَ الصِّدِّيقِ رضِى اللهُ عنهما ، التى قال فيها النبىُّ ﷺ : « فَضْلُ عائشةَ على النساءِ كفَضْلِ الثَّرِيدِ على سائرِ الطعامِ ».

تَبَرُّؤُ أهلِ السنةِ والجماعةِ مما يقولُه الـمُبْتَدِعةُ فى حقِّ الصحابةِ وأهلِ البيتِ :

ويَتَبَرَّؤُون مِن طريقةِ الروافضِ الذين يَبْغَضون الصحابةَ ، ويَسُبُّونهم ، ومِن طريقةِ النَّواصِبِ الذين يُؤْذُون أهلَ البيتِ بقولٍ أو عملٍ .

ويُمْسِكون عما شَجَر بينَ الصحابةِ ، ويقولون : إن هذه الآثارَ الـمَرْوِيَّةَ فى مَساوِيهم ، منها ما هو كذبٌ ، ومنها ما قد زِيد فيه ، ونقَص ، وغُيِّر عن وجهِه الصريحِ .

والصحيحُ منه هم فيه مَعْذُورُون ، إمَّا مُجْتَهِدون مُصيبون ، وإما مُجْتهدون مُخْطِئون .

وهم مع ذلك لا يَعْتَقِدون أن كلَّ واحدٍ مِن الصحابةِ معصومٌ عن كبائرِ الإثمِ وصغائرِه ، بل تَجوزُ عليهم الذنوبُ فى الجملةِ ، ولهم فى السوابقِ والفَضائلِ ما يُوجِبُ مغفرةَ ما يَصْدُرُ منهم إن صدَر ، حتى إنهم يُغْفَرُ لهم مِن السيئاتِ ما لا يُغْفَرُ لمن بعدَهم ؛ لأنَّ لهم مِن الحسناتِ التى تَمْحُو السيئاتِ ، ما ليس لمن بعدَهم .

وقد ثبَت بقولِ رسولِ اللّهِ ﷺ أنهم خيرُ القرونِ ، وأن الـمُدَّ مِن أحدِهم إذا

تصَدَّق به كان أفْضَلَ مِن جبلِ أُحُدٍ ذهبًا ممَّن بعدَهم ، ثم إذا كان قد صدَر مِن أحدِهم ذنبٌ ، فيكونُ قد تاب منه ، أو أتَى بحسناتٍ تَمْحُوه ، أو غُفِر له بفضلِ سابقتِه ، أو بشفاعةِ محمدٍ ﷺ ، الذى هم أحقُّ الناسِ بشفاعتِه ، أو ابْتُلِى ببلاءٍ فى الدنيا كُفِّر به عنه .

فإذا كان هذا فى الذنوبِ المُحَقَّقةِ فكيف بالأمورِ التى كانوا فيها مُجْتَهِدِين ، إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخْطَأوا فلهم أجرٌ واحدٌ ، والخطأُ مغفورٌ لهم .

ثم إن القَدْرَ الذى يُنْكَرُ مِن فعلِ بعضِهم قليلٌ ، نَزْرٌ ، مَغْفورٌ فى جَنْبِ فضائلِ القومِ ومحاسِنِهم مِن الإيمانِ باللَّهِ ورسولِه ، والجهادِ فى سبيلِه ، والهجرةِ ، والنُّصْرةِ ، والعلمِ النافعِ ، والعملِ الصالحِ .

ومَن نَظَر فى سِيرةِ القومِ بعلمٍ وبَصِيرةٍ ، وما مَنَّ اللَّهُ عليهم به مِن الفضائلِ عَلِم يقينًا أنهم خيرُ الخلقِ بعدَ الأنبياءِ .

لا كان ولا يكونُ مثلُهم ، وأنهم الصَّفْوةُ مِن قرونِ هذه الأمةِ ، التى هى خيرُ الأممِ ، وأكرمُها على اللَّهِ تعالى .

مذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ
فى كراماتِ الأولياءِ

ومِن أصولِ أهلِ السنةِ التَّصْديقُ بكَراماتِ الأولياءِ ، وما يُجْرِى اللَّهُ على أيديهم مِن خوارقِ العاداتِ فى أنواعِ العلومِ والمُكاشَفاتِ ، وأنواعِ القدرةِ والتأثيراتِ ، والمأثورِ عن سالفِ الأممِ فى سورةِ الكهفِ وغيرِها ، وعن صَدْرِ هذه الأمةِ مِن الصحابةِ والتابعين وسائرِ فِرَقِ الأمةِ ، وهى موجودةٌ فيها إلى يومِ القيامةِ .

* * *

« فَصْلٌ »

فى صفاتِ أهلِ السنةِ والجماعةِ ، ولِـمَ سُمُّوا بذلك

ثم مِن طريقةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ اتِّباعُ آثارِ رسولِ اللهِ ﷺ باطنًا وظاهرًا ، واتِّباعُ سبيلِ السابقين الأوَّلين مِن المهاجرين والأنصارِ ، واتِّباعُ وصيةِ رسولِ اللهِ ﷺ حيث قال : « عليكم بسُنَّتى وسنةِ الخلفاءِ الراشدين المَهْدِيِّين مِن بعدِي ، تَمَسَّكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ ، وإياكم ومُحْدثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ » .

ويعْلَمون أن أصدقَ الكلامِ كلامُ اللهِ ، وخيرَ الهديِ هَدْىُ محمدٍ ﷺ ، ويُؤْثِرون كلامَ اللهِ على غيرِه مِن كلامِ أصنافِ الناسِ ، ويُقَدِّمون هدىَ محمدٍ ﷺ على هديِ كلِّ أحدٍ ، ولهذا سُمُّوا أهلَ الكتابِ والسنةِ .

وسُمُّوا أهلَ الجماعةِ ؛ لأن الجماعةَ هى الاجتماعُ ، وضدُّها الفُرْقةُ ، وإن كان لفظُ الجماعةِ قد صار اسمًا لنفسِ القومِ المُجْتَمِعين .

والإجماعُ هو الأصلُ الثالثُ الذى يُعْتَمَدُ عليه فى العلمِ والدينِ ، وهم يَزِنُونَ بهذه الأصولِ الثلاثةِ جميعَ ما عليه الناسُ مِن أقوالٍ وأعمالٍ باطنةٍ أو ظاهرةٍ ، مما له تَعَلُّقٌ بالدينِ .

والإجماعُ الذى يَنْضَبِطُ هو ما كان عليه السلفُ الصالحُ ؛ إذ بعدَهم كثُر الاختلافُ ، وانْتَشَرت الأُمَّةُ .

* * *

« فصلٌ »

فى بيانِ مُكملاتِ العقيدةِ من مكارِمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الأعمالِ التى يَتَحلَّى بها أهلُ السنةِ

ثم هم مع هذه الأصولِ يَأْمُرُون بالمعروفِ ، ويَنْهَوْن عن المنكرِ ، على ما تُوجِبُه الشريعةُ ، ويَرَوْنَ إقامةَ الحجِّ والجهادِ والجُمَعِ والأعيادِ مع الأمراءِ ، أبرارًا كانوا أو فُجّارًا ، ويُحافِظون على الجماعاتِ ، ويَدِينون بالنصيحةِ للأمةِ ، ويَعْتَقِدون معنى قولِه ﷺ : « المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا » . وشبَّك بينَ أصابعِه. وقولِه ﷺ : « مَثَلُ المؤمنين فى تَوَادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم ، كمَثَلِ الجسدِ ، إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سائرُ الجسدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ ».

ويأمُرُون بالصبرِ عندَ البلاءِ ، والشكرِ عندَ الرخاءِ ، والرضا بمُرِّ القَضاءِ ، ويَدْعُون إلى مكارمِ الأخلاقِ ، ومحاسِنِ الأعمالِ ، ويَعْتَقِدون معنى قولِه ﷺ : « أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا ».

ويَنْدُبون إلى أن تَصِلَ مَن قَطَعَك ، وتُعْطِيَ مَن حَرَمَك ، وتَعْفُوَ عمَّن ظَلَمَك ، ويَأْمُرُون بِبِرِّ الوالدَيْنِ ، وصلةِ الأرحامِ ، وحُسْنِ الجِوَارِ ، والإحسانِ إلى اليَتَامَى والمساكينِ وابنِ السبيلِ ، والرِّفْقِ بالمَمْلوكِ ، ويَنْهَوْن عن الفخرِ والخُيَلاءِ والبَغْيِ والاستطالةِ على الخَلْقِ بحقٍّ ، أو بغيرِ حقٍّ ، ويَأْمُرُون بمعالى الأخلاقِ ، ويَنْهَوْن عن سَفْسَافِها .

وكلُّ ما يقولونه ويفعلونه مِن هذا وغيرِه ، فإنما هم فيه مُتَّبِعون للكتابِ والسنةِ ، وطريقتُهم هى دينُ الإسلامِ ، الذى بعَثَ اللهُ به محمدًا ﷺ .

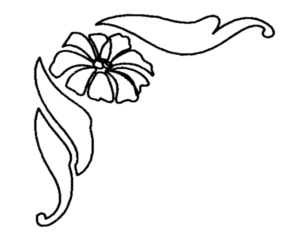
لكن لمَّا أخْبَرَ النبيُّ ﷺ أن أُمَّتَه سَتَفْتَرِقُ على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً ، كلُّها فى النارِ إلا واحدةً ، وهى الجماعةُ. وفى حديثٍ عنه أنه قال : « هم مَن كان على مثلِ ما

أنا عليه اليومَ وأصحابي ». صار المُتَمَسِّكون بالإسلامِ المَحْضِ الخالصِ عن الشَّوْبِ ، هم أهلَ السنةِ والجماعةِ ، وفيهم الصِّدِّيقُونَ ، والشُّهَداءُ ، والصالحون ، ومنهم أعلامُ الهُدَى ، ومَصابِيحُ الدُّجَى ، أُولُو المَناقِبِ المأثورةِ ، والفضائلِ المذكورةِ ، وفيهم الأبدالُ ، وفيهم أئمةُ الدِّينِ ، الذين أجْمَعَ المسلمون على هدايتِهم ، وهم الطائفةُ المنصورةُ ، الذين قال فيهم النبيُّ ﷺ : « لا تَزَالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي على الحقِّ منصورةً ، لا يَضُرُّهم مَن خالَفَهم ، ولا مَن خذَلَهم ، حتى تقومَ الساعةُ ».

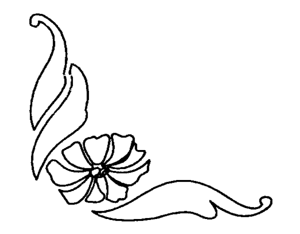
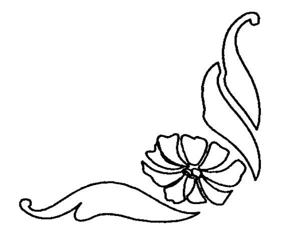
نَسْأَلُ اللَّهَ أن يَجْعَلَنا منهم ، وأن لا يُزِيغَ قلوبَنا ، بعدَ إذ هدانا ، وأن يَهَبَ لنا مِن لَدُنْهُ رحمةً ، إنه هو الوَهَّابُ ، واللَّهُ أعلمُ .

وصلَّى اللَّهُ على محمدٍ وآلِه وصَحْبِه ، وسلَّمَ تَسْليمًا كثيرًا .

* * *




شرح العقيدة الواسطية



بسم الله الرحمن الرحيم

* مُقَدّمة الشارح *

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ ، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمدٍ ، وعلى آلِه وصحبِه أجمعين ، وبعدُ فهذا شرحٌ مُخْتَصَرٌ على العقيدةِ الواسطيةِ لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ ، جَمَعْتُه مِن المصادرِ التاليةِ :

١- الرَّوْضةُ النَّدِيَّةُ شرحُ العَقِيدةِ الواسطيةِ ، للشيخِ زيدِ بنِ عبدِ العزيزِ ابنِ فياضٍ .

٢- التنبيهاتُ السَّنِيةُ على العقيدةِ الواسطيةِ ، للشيخِ عبدِ العزيزِ بنِ ناصرِ الرَّشيدِ .

٣- التنبيهاتُ اللَّطيفةُ فيما احْتَوَت عليه الواسطيةُ مِن المباحثِ المُنِيفةِ ، للشيخِ عبدِ الرحمنِ بنِ ناصرِ السَّعْديِّ .

٤- نقَلْتُ مِن فوائدَ عَلَّقْتُها على نُسْختي وقتَ الطَّلَبِ .

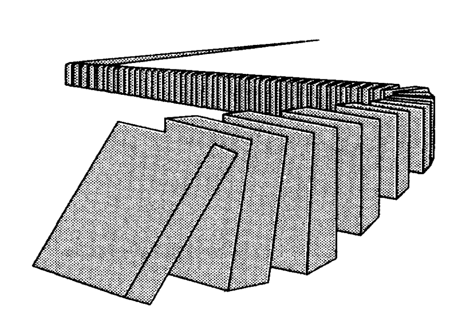
٥- وفيما يَتَعَلَّقُ بتفسيرِ الآياتِ نقَلْتُ من كتبِ التفسيرِ ، كـ « فتحِ القَديرِ » للإمامِ محمدِ بنِ عليٍّ الشوكانيِّ ، وتفسيرِ القرآنِ العظيمِ ، للشيخِ إسماعيلَ بنِ كثيرٍ .

وكانت جامعةُ الإمامِ محمدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميةُ قد طبَعَتْه عدةَ مراتٍ ، ووزَّعَتْه على طلبةِ المرحلةِ الثانويةِ ، فشكَر اللهُ للقائِمين عليها ،

وزادهم من الخيرِ والتوفيقِ لما فيه صلاحُ المسلمين .

كما أني أَسْأَلُ اللَّهَ أن يَنْفَعَ به ، ويَجْعَلَه مُؤَدِّيًا للمطلوبِ مِن توضيحِ هذه العقيدةِ العظيمةِ ، وأن يَغْفِرَ لي ما وقَع مني من خطأ ، ويُثِيبَني على ما فيه من صوابٍ ، إنه سميعٌ مجيبٌ ، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ وآلِه وصَحْبِه ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمين .

المؤلف



قال الـمُصَنِّفُ :

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

الشرحُ :

ابْتَدَأ المصنفُ ، رحِمه اللهُ ، كتابَه بالبَسْملةِ؛ اقتداءً بالكتابِ العزيزِ ، حيث جاءت البسملةُ فى ابتداءِ كلِّ سورةٍ ، ما عدا سورةَ « براءةٌ » ، واقتداءً بالنبيِّ ﷺ ، حيث كان يَبْدَأُ بها فى مُكاتَباتِه[(١)] .

وقولُه : (بسمِ اللهِ) . الباءُ للاستعانةِ ، والاسمُ فى اللغةِ ما دلَّ على مُسَمًّى ، وفى الاصطلاحِ : ما دلَّ على معنًى فى نفسِه ، ولم يَقْتَرِنْ بزمانٍ[(٢)] .

والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ يَنْبَغِى أن يُقَدَّرَ متأخِّرًا ليُفِيدَ الحصرَ[(٣)] .

(١) ومن ذلك الكتاب الذى أرسله النبى ﷺ إلى عظيم بُصْرَى « هِرَقْل » ، وفيه : بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد اللَّه إلى هِرَقْل عظيم الروم ... الحديث .

رواه أحمد ١/ ٢٦٢، ٢٦٣ (٢٣٧٠) ، والبخارى (٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣) ، ومسلم ٣/ ١٣٩٣ (١٧٧٣) .

وقال النووى رحمه اللَّه فى شرح صحيح مسلم ٦/ ٣٥١: فى هذا الكتاب – أي : كتاب النبى ﷺ إلى هرقل – جُمَل من القواعد ، وأنواع من الفوائد ... منها : استحباب تصدير الكتاب بـ « بسم اللَّه الرحمن الرحيم » ، وإن كان المبعوث إليه كافرًا . اهـ

(٢) انظر شرح الآجرومية لفضيلة الشيخ ابن عثيمين رحمه اللَّه ص ٢٢، ٢٣، بتحقيقنا .

(٣) **قال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه اللَّه في شرح العقيدة الواسطية ١/ ٣٧:**

وإعراب البسملة ومعناها تكَلَّم فيه الناس كثيرًا ، وفى متعلَّقها ، وأحسن ما يقال فى ذلك أنها متعلِّقة بفعل محذوف متأخِّر مناسب للمقام ؛ فإذا قدَّمْتَها بين يدى الأكل يكون التقدير : بسم اللَّه آكُلُ ، وبين يدى القراءة يكون التقدير : بسم اللَّه أقرأُ .

نقدره فعلًا ؛ لأن الأصل فى العمل الأفعال ، لا الأسماء ، ولهذا كانت الأفعال تعمل بلا شرط ، والأسماء لا تعمل إلا بشرط ؛ لأن العمل أصل فى الأفعال ، فرع فى الأسماء . =

....

واللهِ : عَلَمٌ على الذاتِ المقدَّسةِ ، ومعناه : ذو الأُلوهيةِ والعُبوديةِ على خلقِه أجمعين ، مُشْتَقٌّ مِن أَلَهَ يَأْلَهُ أُلُوهةً ، بمعنى عَبَد يَعْبُدُ عِبادةً ، فاللهُ إلهٌ ، بمعنى مألوهٌ؛ أى : معبودٌ .

= ونقدِّره متأخِّرًا لفائدتين :

الأولى : الحصر ؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر ، فيكون « بسم اللَّه أقرأ » بمنزلة « لا أقرأ إلا باسم اللَّه » .

الثانية : تَيَمُّنًا بالبَداءةِ باسم اللَّه سبحانه وتعالى .

ونقدِّره خاصًّا ؛ لأن الخاص أدل على المقصود من العام ؛ إذ من الممكن أن أقول : التقدير : باسم اللَّه أبتدئ ، لكن « باسم اللَّه أبتدئ » لا تدل على تعيين المقصود ، لكن « بسم اللَّه أقرأ » خاص ، والخاص أدل على المعنى من العام . اهـ

وأما فائدة حذف العامل فى « بسم اللَّه » فقد ذكرها ابن القيم رحمه اللَّه فى بدائع الفوائد ١/٣٢ ، فقال رحمه اللَّه : لحذف العامل فى « بسم اللَّه » فوائد عديدة :

منها : أنه موطن لا ينبغى أن يتقدم فيه سوى ذكر اللَّه ، فلو ذكرت الفعل ، وهو لا يستغنى عن فاعله ، كان ذلك مناقضًا للمقصود ، فكان فى حذفه مُشاكَلةُ اللفظ للمعنى ؛ ليكون المبدوء به اسم اللَّه ، كما نقول فى الصلاة « اللَّه أكبر » ومعناه : من كل شىء ، ولكن لا نقول هذا المقدَّر ، وليكون اللفظ مطابقًا لمقصود الجَنَانِ ، وهو ألاَّ يكون فى القلب إلا اللَّه وحده ، فكما تجرَّد ذِكْرُه فى قلب المُصَلِّى تجرَّد ذِكْرُه فى لسانِه .

ومنها : أن الفعل إذا حُذِف صح الابتداء بالتسمية فى كل عمل وقول وحركة ، وليس فعلٌ أولى بها من فعل ، فكان الحذف أعم من الذكر ؛ فإن أيَّ فعل ذكَرْتَه كان المحذوف أعمَّ منه .

ومنها : أن الحذف أبلغ ؛ لأن المتكلِّمَ بهذه الكلمة كأنه يَدَّعِى الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل ؛ فكأنه لا حاجة إلى النطق به ؛ لأن المشاهدة والحال دالة على أن هذا وكل فعل فإنما هو باسمه تبارك وتعالى ، والحَوَالة على شاهد الحال أبلغ من الحوالة على شاهد النطق ، كما قيل :

ومِن عَجَبٍ قولُ العَواذِلِ مَن به ... وهل غيرُ مَن أهْوَى يُحَبُّ ويُعْشَقُ . **اهـ**

الحمدُ للهِ الذى أَرْسَلَ رسولَه بالهُدَى ودينِ الحقِّ ؛ ليُظْهِرَه على الدينِ كلِّه ، وكَفَى باللهِ شَهِيدًا ، وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، إقرارًا به وتوحيدًا ، وأشْهَدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُهُ ، صلَّى اللهُ عليه ، وعلى آلِه وسلَّم تسليمًا مَزيدًا .

(والرحمنِ الرحيم) : اسْمان كَريمان من أسمائِه الحُسْنَى ، دالَّانِ على اتصافِه تعالى بالرحمةِ ، على ما يَلِيقُ بجَلالِه ، فالرحمنُ ذو الرحمةِ العامَّةِ لجميعِ المخلوقاتِ ، والرحيمُ ذو الرحمةِ الخاصةِ بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[(١)].

الشرحُ :

افْتَتَح هذه الرسالةَ الجليلةَ بهذه الخطبةِ المُشْتَمِلةِ على حمدِ اللهِ ، والشهادَتَيْنِ ، والصلاةِ والسلامِ على رسولِه؛ تأسِّيًا بالرسولِ ﷺ فى أحاديثِه وخُطَبِه[(٢)] ، وعملًا

---

(١) **قال ابن القيم رحمه الله فى بدائع الفوائد ١/ ٣٢:**
وفائدة الجمع بين الصفتين « الرحمن والرحيم » الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلةٍ ، وخاصة وعامة .. تم كلام السُّهَيْلى .
ثم قال ابن القيم رحمه الله : وأما الجمع بين الرحمن والرحيم ففيه معنًى ، هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما ؛ وهو أن « الرحمن » دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، فكان الأول للوصف ، والثانى للفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفته ، والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته .
إذا أردْتَ فهم هذا فتأمَّلْ قوله : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ، و﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، ولم يجئ قطُّ رحمن بهم ، فعُلِم أن « الرحمن » هو الموصوف بالرحمة ، و « الرحيم » هو الراحم برحمته .
وهذه نُكْتَةٌ لا تكاد تجدها فى كتاب ، وإن تَنَفَّسْتَ عندَها مِرْآةَ قلبك لم تَنْجَلِ لك صورتُها. اهـ

(٢) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى كتاب الاختيارات الفقهية ص ١٢٣** : ويستفتح =

....

بقولِه ﷺ : « كلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبْدَأُ فيه بحمدِ اللهِ فهو أقطعُ » [رواه أبو داودَ وغيرُه[(١)]] .

ويُرْوَى : (ببسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ)[(٢)] .

ومعنى « أَقْطَعُ » ؛ أى : معدومُ البركةِ ، ويُجْمَعُ بينَ الروايتين للحديثِ بأن الابتداءَ بـ « بسم اللهِ » حقيقيٌّ ، وبـ « الحمدُ للهِ » نسبيٌّ إضافيٌّ .

قولُه : (اَلْحَمدُ للهِ) . الألفُ واللامُ للاستغراقِ؛ أى : جميعُ المَحامدِ للهِ؛

= خطبتها بالحمد لله ؛ لأنه لم يُنْقَلْ عن النبى ﷺ أنه افتتح خطبة بغيرها . اهـ .

وقال ابن القيم رحمه اللَّه فى زاد المعاد ١/ ١٨٦ : وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد اللَّه ، وأما قول كثير من الفقهاء : إنه يفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار ، وخطبة العيدين بالتكبير ، فليس معهم فيه سنة عن النبى ﷺ البَتَّةَ ، وسنتُه تَقْتَضِى خلافه ، وهو افتتاح جميع الخطب بالحمد لله ، وهو أحد الوجوه الثلاثة لأصحاب أحمد ، وهو اختيار شيخنا قدَّس اللَّهُ سِرَّه . اهـ

(١) رواه الإمام أحمد ٢/٣٥٩ (٨٦٩٧) ، وأبو داود (٤٨٤٠) ، وابن ماجه (١٨٩٤) .
وقال أبو داود فى السنن : رواه يونُسُ وعقيل وشعيب وسعيد بن عبد العزيز ، عن الزهرى ، عن النبى مُرْسَلًا . اهـ
وقال الحافظ فى الفتح ٨/ ٢٢٠: فى إسناده مقال .
وقال الشيخ الألبانى رحمه اللَّه فى ضعيف الجامع (٤٢١٦) : ضعيف .

(٢) أخرج هذه الرواية الخطيب فى الجامع (١٢١٠) ، وضعفها السيوطى رحمه اللَّه فى الجامع الصغير .
وقال الشيخ الألبانى رحمه اللَّه فى الإرواء ١/ ٣٠، بعد أن تكلم عن طرق هذه الرواية : ومما سبق يتبين أن الحديث بهذا اللفظ ضعيف جدًّا ، فلا تغتر بمَن حسَّنه مع الذى بعده ؛ فإنه خطأ بَيِّنٌ ، ولئن كان اللفظ الآتى يحتمل التحسين* ، فهذا ليس كذلك ؛ لما فى سنده من الضعف الشديد ، كما رأيت . اهـ

* يشير رحمه الله إلى الرواية السابقة ، وهو رحمه الله قد ضعفها كما تقدم ، وانظر الإرواء ١/ ٣٠، الحديث رقم (٢) .

....

مُلْكًا ، واستحقاقًا .

والحمدُ لغةً : الثناءُ بالصفاتِ الجميلةِ والأفعالِ الحسنةِ .

وعرفًا : فعلٌ يُنْبِيءُ عن تعظِيم المُنْعِم ، بسببِ كونِه مُنْعِمًا ، وهو ضدُّ الذمِّ .

(**للهِ**) تقدَّمَ الكلامُ على لفظِ الجلالةِ .

(**الذى أرْسَلَ رسولَه**) اللهُ سبحانَه يُحْمَدُ على نِعَمِه ، التى لا تُحْصَى ، ومن أجَلِّ هذه النعمِ أن (أرْسَل) ؛ أى : بَعَث (رسولَه) محمدًا ﷺ .

والرسولُ لغةً : مَن بُعِث برسالةٍ .

وشرعًا : هو إنسانٌ ذَكَرٌ ، أُوحِى إليه بشرعٍ ، وأُمِر بتبليغِه .

(**بالهُدَى**) ؛ أى : العلمِ النافعِ ، وهو كلُّ ما جاء به النبىُّ ﷺ من الأخباراتِ الصادقةِ ، والأوامرِ والنواهى ، وسائرِ الشرائعِ النافعةِ .

والهُدَى نَوْعَانِ :

النوعُ الأولُ : هُدًى بمعنى الدَّلالةِ والبيانِ ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت : ١٧] . وهذا يقومُ به الرسولُ ﷺ ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

النوعُ الثانى : هُدًى بمعنى التوفيقِ والإلهامِ ، وهذا هو المَنْفِىُّ عن الرسولِ ﷺ ، ولا يَقْدِرُ عليه إلا اللهُ تعالى ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] .

(**ودينِ الحقِّ**) هو العملُ الصالحُ ، والدينُ يُطْلَقُ ويرادُ به الجزاءُ ، كقولِه تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . ويُطْلَقُ ويُرادُ به الخضوعُ والانقيادُ .

وإضافةُ الدينِ إلى الحقِّ من إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه؛ أى : الدينِ الحقِّ ، والحقُّ مصدرُ : حقَّ يَحِقُّ . بمعنى : ثبَت ووجَب ، وضدُّه الباطلُ .

....

(**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**) ؛ أى : ليُغْلِبَه على جميعِ الأديانِ بالحُجَّةِ والبيانِ والجهادِ حتى يَظْهَرَ على مخالفيه من أهلِ الأرضِ، من عربٍ وعَجَمٍ، مِلِّيِّين ومشركين، وقد وقَع ذلك، فإن المسلمين جاهَدُوا فى اللهِ حقَّ جهادِه، حتى اتَّسَعَتْ رُقْعةُ البلادِ الإسلاميةِ، وانْتَشَر هذا الدينُ فى المشارقِ والمغاربِ .

(**وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**) ؛ أى : شاهدًا أنه رسولُه ومُطَّلِعٌ على جميعِ أفعالِه، وناصرُه على أعدائِه، وفى ذلك دَلالةٌ قاطعةٌ على صدقِ هذا الرسولِ؛ إذ لو كان مُفْتَرِيًا لَعاجَلَه اللهُ بالعقوبةِ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ ، ٥٤] .

(**وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ**) ؛ أى : أُقِرُّ وأَعْتَرِفُ أن لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ .

(**وحدَه لا شريكَ له**) فى هاتَيْنِ الكلمتين تأكيدٌ لما تضَمَّنَتْه شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللهُ من النفيِ والإثباتِ ؛ نفيِ الإلَهيةِ عمَّا سِوَى اللهِ ، وإثباتِها للهِ ، فقولُه : (وحدَه) تأكيدٌ للإثباتِ ، وقولُه : (لا شريكَ له) تأكيدٌ للنفيِ .

وقولُه : (إقرارًا به وتوحيدًا) مَصْدَران مُؤَكِّدانِ لمعنى الجملةِ السابقةِ . (وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ) إلخ ؛ أى : إقرارًا باللسانِ ، (وتوحيدًا) ؛ أى : إخلاصًا فى كلِّ عبادةٍ قوليةٍ أو فعليةٍ أو اعتقاديةٍ .

وقولُه : (وأَشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه) ؛ أى : أُقِرُّ بلسانِى ، وأَعْتَقِدُ بقلبى أنَّ اللهَ أَرْسَل عبدَه محمدًا ﷺ إلى الناسِ كافةً ؛ لأنَّ الشهادةَ لهذا الرسولِ بالرسالةِ مَقْرونةٌ بالشهادةِ للهِ بالتوحيدِ ، لا تَكْفِى إحداهما عن الأخرى .

وفى قولِه : (عبدُه ورسولُه) . رَدٌّ على أهلِ الإفراطِ والتَّفْريطِ فى حقِّ الرسولِ ﷺ ، فأهلُ الإفراطِ غَلَوْا فى حقِّه ورَفَعوه فوقَ منزلةِ العبوديةِ .

....

وأهلُ التَّفْريطِ قد نَبَذُوا ما جاء به وراءَ ظهورِهم ، كأنه غيرُ رسولٍ .

فشهادةُ أنه عبدُ اللهِ تَنْفِي الغُلُوَّ فيه ورفعَه فوقَ منزلتِه ، وشهادةُ أنه رسولُ اللهِ تَقْتَضِي الإيمانَ به وطاعتَه فيما أَمَر ، وتصديقَه فيما أَخْبَر ، واجتنابَ ما نَهَى عنه ، واتباعَه فيما شَرَع(١) .

(١) اعلم – رحمك اللَّه – أنه قد ضَلَّ فى وصف النبى ﷺ بالرسالة والعبودية طائفتان ؛

الطائفة الأولى :

ظنت أنه ﷺ له حق فى الربوبية وتصريف الكون ، أو حق فى العبادة ، فغلَوْا فيه ، وأنْزَلوه بمنزلة أكبر من المنزلة التى أنزله اللَّه إياها ، وصاروا يَدْعُون الرسول ﷺ ، واعتقدوا أنه ﷺ يكشف الضر ، حتى إنهم عند قبره يسألون النبى ﷺ مباشرة أن يكشف الضر عنهم ، وأن يجلُب النفع لهم ، وهذا غُلُوٌّ فى الرسول وشرك باللَّه عز وجل ؛ إذ لا يقدر على جلب النفع ودفع الضر إلا اللَّه عز وجل .

فهؤلاء عظمةُ الرسول ﷺ فى قلوبهم أشدُّ من تعظيم اللَّه ، والعياذ باللَّه ، حتى إنه إذا ذُكِر الرسول اقشعرت جلودهم ، كأنما ذُكِر اللَّه ، وإذا ذكر اللَّه فإنما هو كالماء البارد على جلودهم لا يتحركون .

ومن ذلك قول البوصيرى فى البردة :

يا أكرمَ الخَلْقِ مالى مَن أَلُوذُ به ... سِواك عندَ حُلولِ الحادثِ العَمَمِ
إن لم تَكُنْ آخِذًا يومَ المعادِ يدى ... فضلًا وإلا فقُلْ يازَلَّةَ القَدَمِ
فإن مِن جُودِك الدنيا وضَرَّتَها ... ومن علومِك علمُ اللَّوْحِ والقَلَمِ

قال ابن رجب وغيره : إنه لم يترك لله شيئًا ، ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ . اهـ .

ونحن نشهد أن من يقول هذا ما شهِد أن محمدًا عبد اللَّه ، بل شهد أن محمدًا فوق اللَّه ، فتأمل أخى الكريم كيف يصل بهم الغلو إلى هذا الحد ؟! وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قالوا : إن المسيح ابن اللَّه ، وقالوا : إن اللَّه ثالث ثلاثة : =

....

....

= هم قالوا فوق ذلك ، قالوا : إن اللَّه يقول : من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وأنا مع عبدى إذا ذكرنى ، والرسول معنا إذا ذكرناه ، ولهذا كان أولئك الغلاة ليلة المولد إذا تلا التالى (المُخَرِّف) كلمة المصطفى قاموا جميعًا قيام رجل واحد ، يقولون : لأن الرسول ﷺ حضر مجلسنا بنفسه ، فقمنا إجلالًا له .

والصحابة رضى اللَّه عنهم أشد إجلالًا منهم ومنا ، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول ﷺ ، وهو حى ، يكلمهم ، لا يقومون ، وهؤلاء يقومون إذا تخيلوا ، أو جاءهم شَبَح – إن كانوا يشاهدون شيئًا – فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلى هذا الحد ، فهؤلاء ما شهدوا أن محمدًا عبد اللَّه ورسوله .

ومنهم من يقول : إن الرسول ﷺ ليس له ظلٌّ ، أو أن نوره يطفئ ظله إذا مشى فى الشمس ، فهذا كله كذب باطل ، ولهذا قالت عائشة رضى اللَّه عنها : كنت أَمُدُّ رِجْلَيَّ بين يديه . وتعتذر بأن البيوت ليس فيها مصابيح ، فلو كان النبى ﷺ له نور لم تعتذر رضى اللَّه عنها ، ولكنه الغلو الذى أفسد الدين والدنيا ، والعياذ باللَّه .

ومن تعظيم النبى ﷺ والغلو فيه الحلف به ؛ لأن الحلف نوع من التعظيم لا يصلح إلا لله ، ومن عظَّم غير الله بما لا يصلح إلا له فهو شرك .

المهم أنه من مقتضى شهادة أن محمدًا رسول اللَّه أن نعتقد أنه ليس لرسول اللَّه ﷺ حق فى الربوبية وتصريف الكون أو حق فى العبادة ، وأنه لا يملك لنفسه ، ولا لغيره ، حال حياته ، أو بعد موته شيئًا من النفع أو الضر إلا ما شاء اللَّه ، بل هو عبد محتاج إلى اللَّه ، مُفْتَقِر إليه ، يسأله ويدعوه ويرجوه ويخافه ، بل إن اللَّه أمره أن يعلن ، وأن يُبَلِّغَ بلاغًا خاصًا بأنه لا يملك شيئًا من هذه الأمور فقال : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ . فهو ﷺ عبد مأمور يَتَّبِع ما أُمِر به ، وأمره أن يقول : ﴿ قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ .

وأمره أن يقول : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . =

....

....

= والصحابة لما أصابهم القحط فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه واستسقوا فى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ما جاءوا إلى القبر يسألون الرسول أو يقولون : ادع الله لنا أو اشفع لنا عند الله حتى يُنْزِل الغيث .

قال عمر يدعو الله : اللهم إنا كنا نتوسل بك بنبينا فتسقينا ، وإننا نتوسل إليك بعم نبينا . ثم أمر العباس أن يقوم ويدعو الله بإنزال الغيث ؛ وذلك لأن النبى ﷺ ميت ، لا عمل له بعد موته ، وهو الذى قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

فالنبى ﷺ لا يملك شيئًا ، لا يملك أن يدعو لك وهو فى قبره أبدًا ، فمن أنزله فوق منزلته التى أنزله الله فإنه لم يحقق شهادة أن محمدًا عبده ورسوله ، بل شهد أن محمدًا رب مع الله ، نعوذ بالله ؛ لأن معنى كونه رسولًا أنه عبد لا يعبد ورسول لا يكذب ، نحن فى صلاتنا كل يوم نقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله .

فهو عبد كغيره من العباد مربوب ، والله هو المعبود ، وهو الرب .

إذًا نقول لهؤلاء الذين نجدهم يَغْلُون برسول الله ﷺ ، ويُنَزِّلونه فوق منزلته التى أنزله الله ، نقول لهم : إنكم لم تحققوا ، لا شهادة أن لا إله إلا الله ، ولا شهادة أن محمدًا رسول الله .

ولهذا المعنى تعلم أنه لا يستحق العبادة ، لا رسول الله ﷺ ، ولا من دونه من المخلوقين ، وأن العبادة ليست إلا لله وحده ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وإذا كان محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بهذه المثابة فما بالك بمن دونه من عباد الله فإنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا لغيرهم أبدًا ، وبهذا يتبين سَفَهُ أولئك القوم الذين يَدْعُون من يدَّعونهم أولياء من دون الله عز وجل .

الطائفة الثانية : عكس هذه الطائفة ، كذَّبَت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقالت : ليس برسول : إما أنه كاذب فى أصل الرسالة ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ . =

....

وقولُه : (صلَّى اللهُ عليه) الصلاةُ لغةً : الدعاءُ ، وأصحُّ ما قيل في معنى الصلاةِ من اللهِ على الرسولِ : ما ذكَرَه البخاريُّ في صحيحِه ، عن أبي العاليةِ ، قال : صلاةُ

= وإما أنه كاذب في تعميم الرسالة ، كما يقول النصارى الذين يُداهِنون المسلمين ، وانخدع بهم بعض العرب ، قالوا : محمد رسول الله ، لكن إلى العرب فقط ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ ، وهم يقولون : نحن لسنا بأميين ، نحن من بني إسرائيل ، من أهل الكتاب .

والنصارى يقولون : رسولنا عيسى ، ويَغْلُون به ، حتى جعلوه إلهًا مع الله .

واليهود يقولون : عيسى كاذب ابن زانية ، والعياذ بالله ، مقتول مصلوب ، ونبيهم موسى . وهذا لا شك أنه كذب وبهتان ، فالرسول ﷺ مبعوث ومرسل إلى جميع الخلق ، من الجن والإنس ؛ العرب واليهود والنصارى ، ومبشرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه ، وسراجًا منيرًا . أما كونه ﷺ مبعوثًا إلى الجن ، فقد حكى الله سبحانه في القرآن قول الجن : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ولا عبادة لله تعالى إلا عن طريق الوحي الذي جاء به محمد ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ للعالمين كلهم .

وأما كونه ﷺ مبعوثًا للناس جميعًا ، فقد قال سبحانه وتعالى في ذلك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ . فهو رسول إلى جميع الخلق ، وقال أيضًا سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ للعالمين كلهم .

وروى البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى – واللفظ لمسلم – أن رسول الله ﷺ قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون » .

قال شارح العقيدة الطحاوية : وكونه ﷺ مبعوثًا إلى الناس كافة معلوم من الدين بالضرورة . وروَى مسلم ، من حديث أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفس محمد بيده =

....

اللهِ على رسولِه ثناؤُه عليه فى الملأ الأعلى(١) .

(وعلى آلِه) آلُ الشخصِ مَن يَنْتَمُون إليه بصلةٍ وثيقةٍ من قَرابةٍ ونحوِها ، وأحسنُ ما قِيلَ فى المرادِ بآلِ الرسولِ ﷺ هنا أنهم أتباعُه على دينِه .

= لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » .

قال النووى رحمه اللَّه فى شرح صحيح مسلم ١/ ٤٦٦ : قوله ﷺ : « لا يسمع بى أحد من هذه الأمة » . أى : ممن هو موجود فى زمنى وبعدى إلى يوم القيامة فكلهم يجب عليه الدخول فى طاعته . اهـ

ولذلك نحن نؤمن ونعتقد بأن جميع النصارى واليهود وغيرهم من الكفرة ، كلهم من أصحاب النار ؛ لأن هذه شهادة النبى ﷺ ، والجنة حرام عليهم ؛ لأنهم كفرة أعداء للَّه ولرسوله ، أعداء لإبراهيم ونوح ومحمد وعيسى وجميع الرسل ، فهم ليسوا على شىء .

أما أن تُلَبِّس وتأتى بآيات متشابهة فإنك أحق من يدخل فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ ﴾ .

(١) رواه البخارى مُعَلَّقًا فى تفسير سورة الأحزاب (باب إن اللَّه وملائكته يصلون على النبى) ، فتح ٨/ ٥٣٢ ، ووصله القاضى إسماعيل بن إسحاق الجَهْضَمى فى (فضل الصلاة على النبى ﷺ) (٩٥) بإسناد حسن ، كما قال الشيخ الألبانى رحمه اللَّه .

وفى هذا الأثر أن صلاة اللَّه على عبده ثناؤه عليه فى الملأ الأعلى ، والمراد بذلك أن اللَّه سبحانه يُبَيِّن صفات رسوله الكاملة عند الملائكة . وانظر الشرح الممتع ٤/ ٥٢ .

وأما مَن فسَّر صلاة اللَّه على عبده بالرحمة ، فقوله ضعيف ، قال ابن القيم ، رحمه اللَّه فى بدائع الفوائد ١/ ٣٣ : قولهم : والصلاة من اللَّه بمعنى الرحمة باطل من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن اللَّه تعالى غايَرَ بينهما فى قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

الثانى : أن سؤال الرحمة شُرِع لكل مسلم ، والصلاة تختص بالنبى ﷺ ، وهى حق له ولآله ، ولهذا منع كثير من العلماء من الصلاة على معينٍ غيره ، ولم يمنع أحد من الترحُّم على معين . =

....

(**وأصحابِه**) جمعُ صاحبٍ ، من عطفِ الخاصِّ على العامِّ ، والصحابيُّ : هو مَن لقِي النبيَّ ﷺ مؤمنًا به ، ومات على ذلك[١] .

(**وسلَّم تسليمًا مَزيدًا**) السلامُ بمعنى التحيةِ ، أو السَّلامةُ من النقائصِ والرَّذائلِ .

وقولُه : (**مزيدًا**) . اسمُ مفعولٍ من الزيادةِ ، وهى النُّمُوُّ ، وجَمَع بينَ الصلاةِ والسلامِ ؛ امتثالًا لقولِه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

* * *

= **الثالث** : أن رحمة اللَّه عامة ، وسِعَت كل شيء ، وصلاته خاصة بخواصِّ عباده . اهـ

(١) **قال فضيلة الشيخ ابن عثيمين ، رحمه اللَّه فى شرح الأصول من علم الأصول ص ٤٧١ :**

فإن مات على الردة فليس بصحابى ؛ لأن الردة تُبْطِلُ جميع الأعمال ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ ، والردة تمحو حتى الإسلام ، فضلًا عن الصحبة .

فإن ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام فإن الأصح من أقوال أهل العلم أن صحبته تعود ؛ لأن اللَّه تعالى اشترط لبطلان العمل بالردة أن يموت الإنسان على ردته ، فقال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ . اهـ

أما بعدُ : فهذا اعتقادُ الفِرْقةِ الناجيةِ المنصورةِ إلى قيامِ الساعةِ .

الشرحُ :

(**أمَّا بعدُ**) هذه الكلمةُ يُؤْتَى بها للانتقالِ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخرَ(١) ، ومعناها : مَهْمَا يَكُنْ مِن شيءٍ(٢) ، ويُسْتَحَبُّ الإتيانُ بها في الخُطَبِ والمُكاتَباتِ؛ اقتداءً بالنبيِّ ﷺ ، حيث كان يَفْعَلُ ذلك(٣) .

(**فهذا**) إشارةٌ إلى ما تَضَمَّنَتْه هذه الرسالةُ ، واحْتَوَت عليه مِن العقائدِ الإيمانيةِ التي أجْمَلَها بقولِه : (وهو الإيمانُ باللهِ - إلخ) .

---

(١) **قال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، رحمه الله في الشرح الممتع ١/ ١٠ :** وأما قول بعضهم : كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر ، فهذا غير صحيح ؛ لأنه دائمًا ينتقل العلماء من أسلوب إلى آخر ، ولا يأتون بـ « أما بعد » . اهـ

(٢) فهى نائبة عن اسم شرط ، وفعله ، اسم الشرط هو « مهما » ، وفعل الشرط هو « يَكُنْ » .
قال ابن مالك رحمه الله في الألفية :

أَمَّا كمهما يَكُ من شيءٍ وفَا ... لِتِلْوِ تِلْوِها وجوبًا أُلِفَا

فقولهم : أما بعد . التقدير : مهما يَكُنْ من شيءٍ بعد ذلك فهذا اعتقاد ، وعليه فالفاء هنا رابطة للجواب ، والجملة بعدها في محل جزمٍ ، جوابُ الشرط .
وتعرب « بعد » هنا ظرفًا متعلِّقًا بـ « يكن » المحذوفة مع شرطها ، مبنيًّا على الضم في محل نصب ؛ لأنه حُذِف المضاف ، ونُوِى معناه ، وهذه الظروف « بعد وأخواتها » إذا حُذِف المضاف إليه ، ونُوِى معناه بُنِيَت على الضم ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ .

(٣) ومن ذلك ما رواه البخارى (٧) ، ومسلم ٣/١٣١٣ (١٧٧٣) ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، في قصة إرسال النبى ﷺ خطابه إلى هرقل ، يدعوه إلى الإسلام ، وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ... » الحديث .

....

(اعتقادُ) مصدرُ : اعْتَقَد كذا ، إذا اتَّخَذَه عقيدةً ، والعقيدةُ : هى ما يَعْقِدُ عليه المَرْءُ قلبَه ، تقولُ : اعْتَقَدْتُ كذا؛ أى : عقَدْتُ عليه القلبَ ، والضميرَ .

وأصْلُه مأخوذٌ من عقَدَ الحَبْلَ ، إذا ربَطَه . ثم اسْتُعْمِل فى عَقيدةِ القلبِ وتَصْميمِه الجازمِ .

(الفِرْقَةِ) ؛ أى : الطائفةِ والجماعةِ .

(الناجيةِ) ؛ أى : التى سلِمَت من الهلاكِ والشُّرورِ فى الدنيا والآخرةِ ، وحصَلَت على السَّعادةِ . وهذا الوصْفُ مأخوذٌ من قولِه ﷺ : « لا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتى على الحقِّ منصورةً ، لا يَضُرُّهم مَن خَذَلَهم حتى يَأْتِىَ أمرُ اللهِ » . [رواه البخارىُّ ومسلمٌ][1] .

(المنصورةِ) ؛ أى : المُؤَيَّدةِ على مَن خالَفَها .

(إلى قيامِ الساعةِ)؛ أى : مجيءِ ساعةِ موتِهم بمجيءِ الريحِ التى تَقْبِضُ رُوحَ كلِّ مؤمنٍ ، فهذه هى الساعةُ فى حقِّ المؤمنين .

وأما الساعةُ التى يَكونُ بها انتهاءُ الدنيا فهى لا تَقومُ إلا على شِرارِ الناسِ[2]؛ لما فى صحيحِ مسلمٍ : « لا تَقومُ الساعةُ حتى لا يقالَ فى الأرضِ اللهُ اللهُ »[3] .

---

(١) البخارى (٧٣١١) ، ومسلم ١٥٢٣/٣ (١٩٢٠) ، (١٩٢١) ، ١٥٢٤/٣ (١٩٢٢) ، (١٩٢٣) ، (١٠٣٧) .

(٢) روى أحمد فى مسنده ٣٩٤/١، ٤٣٥ (٣٧٣٥، ٤١٤٤) ، ومسلم ٢٢٦٨/٤ (٢٩٤٩) ، وابن ماجه (٤٠٣٩) ، أن النبى ﷺ قال : « لا تقوم الساعة إلا على شِرَار الناس » .
وروى أحمد ٤٠٥/١، ٤٥٤ (٣٨٤٤، ٤٣٤٢) ، والبخارى (٤٠٦٧) ، أن النبى ﷺ قال : « من شِرَار الناس مَن تُدْرِكُهم الساعة ، وهم أحياء » .

(٣) رواه مسلم ١٣١/١ (١٤٨) ، وأحمد فى المسند ١٠٧/٣، ٢٠١ (١١٩٨٢، ١٣٠١٦) ، =

....

وروى الإمامُ الحاكمُ من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، رضِي اللهُ عنهما، وفيه: «ويَبْعَثُ اللهُ ريحًا، ريحُها ريحُ المِسْكِ، ومَسُّها مَسُّ الحَرِيرِ، فلا تَتْرُكُ أحدًا في قلبِه مثقالُ ذَرَّةٍ من إيمانٍ إلا قَبَضَتْه، ثم يَبْقَى شِرارُ الناسِ، فعليهم تَقُومُ السَّاعةُ»[1].

* * *

= والترمذى (٢٢٠٧).

(١) رواه الحاكم الحاكم فى المستدرك ٤/ ٤٥٦، ٤٥٧، ورواه أيضًا مسلم رحمه الله ٣/ ١٥٢٤، ١٥٢٥ (١٩٢٤) موقوفًا على عبد الله بن عمرو.

وروى مسلم أيضًا ١/١٠٩ (١١٧)، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث ريحًا من اليمن، ألين من الحرير، فلا تدع أحدًا فى قلبه – قال أبو علقمة: مثقال حبة، وقال عبد الله: مثقال ذرة – من إيمان إلا قبَضَتْهُ».

وروى أحمد ٢/١٦٦ (٦٥٥٥)، ومسلم ٤/ ٢٢٥٨، ٢٢٥٩ (٢٩٤٠) عن عبد الله بن عمرو، وساق حديثًا طويلًا، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «ثم يُرْسِلُ الله ريحًا باردة من قِبَلِ الشَّأْم، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير، أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل فى كَبَد الجبل لدخلته عليه حتى تَقْبِضَه».

ويلاحظ أنه فى أحد ألفاظ مسلم أن الريح من اليمن، وفى لفظ آخر أنها من قبل الشام، وقد جمع النووى، رحمه الله فى شرح مسلم ١/ ٤١٠ بين هذين اللفظين بقوله: وجاء فى هذا الحديث: «يبعث الله تعالى ريحًا من اليمن»، وفى حديث آخر ذكره مسلم فى آخر الكتاب عَقِبَ أحاديث الدجال «ريحًا من قبل الشام» ويجاب عن هذا بوجهين:

أحدهما: يحتمل أنهما ريحان؛ شامية ويمانية.

ويحتمل أن مبدأها من أحد الإقليمين، ثم تصل الآخر، وتنتشر عنده. والله أعلم. اهـ

أهلِ السنةِ والجماعةِ .

الشرحُ :

(أهلِ السُّنةِ) « أهل » بالكسرِ على أنه بَدَلٌ من « الفِرْقةِ » ، ويَجوزُ الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتـدأ محذوفٍ ، تَقديرُه (هم) .

والسنةُ : هى الطريقةُ التى كان عليها رسولُ اللهِ ﷺ ؛ من أقوالِه وأفعالِه وتَقْريراتِه .

وسُمُّوا أهلَ السنةِ ؛ لانتسابِهم لسنةِ الرسولِ ﷺ دونَ غيرِها مِن المقالاتِ والمذاهبِ ، بخلافِ أهلِ البدعِ؛ فإنهم يُنْسَبُون إلى بدعِهم وضَلالاتِهم ؛ كَالقَدَريةِ والمُرْجِئةِ ، وتارةً يُنْسَبون إلى إمامِهم كالجَهميةِ ، وتارةً يُنْسَبون إلى أفعالِهم القبيحةِ كالرافضةِ والخوارجِ[1] .

---

(١) فالقدرية والمرجئة نُسِبوا إلى بدعتِهم :

فالقدرية سُمُّوا بذلك ؛ لقولهم فى القدر ، وهم يزعمون أن العبد هو الذى يخلق فعله استقلالًا ، فأثبتوا خالقًا مع اللَّه ، وهم يزعمون أن اللَّه لا يقدر على مقدورات غيره ، وهذا هو مذهب المعتزلة فى القدر .

الملل والنحل للشهرستانى ١/ ٥٤، والبرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان ص ٢٦، ٢٧، وعون المعبود ١٢/ ٤٥٢، ٤٥٣.

أما المرجئة فقد سُمُّوا بذلك لقولهم بالإرجاء ، وأصل الإرجاء التأخير ؛ وذلك لأنهم أخَّروا الأعمال عن مُسَمَّى الإيمان .

وقيل : من إعطاء الرجاء ، حيث قالوا : لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وقيل : الإرجاء تأخير حكم الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يقضى عليه بحكم ما فى الدنيا من كونه من أهل النار ، أو من أهل الجنة ، فعلى هذا المرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان .

وقيل : الإرجاء تأخير عَلِيٍّ من الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة ، فعلى هذا المرجئة =

....

(**والجماعــةِ**) لُغةً : الفرقةُ المُجْتَمِعةُ من الناسِ ، والمرادُ بهم هنا الذين

= والشِّيعة طائفتان متقابلتان .
والمرجئة أربعة أصناف : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة.
انظر تفاصيل مذهبهم فى : الملل والنحل ١/ ١٨٦، الفِصَل فى الملل والنِّحلِ ٢/ ١١٣، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٠٧، ١٠٨.
والجَهْمِيَّةُ نُسِبوا إلى إمامهم ، فقد سُمُّوا بذلك نسبةً إلى جَهْم بن صَفْوان ، وقد قتله سَلْم بن أَحْوَز سنة ١٢٧هـ ، وهم من القائلين بنفى الأسماء والصفات عن اللّه تعالى ، وأن الجنة والنار تَبِيدان وتَفْنَيان ، وأن الإيمان هو المعرفة فقط ، والكفر هو الجهل باللّه فقط ، وأن الفاعل هو اللّه وحده ، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم مجازًا .
ومن أصولهم : تقديم العقل على النقل ، كما قالوا بخَلْق القرآن .
وقيل : إن الجهمية لا تعتبر فرقة قائمة بذاتها كالمعتزلة ، ولذا لم تذكر كفِرْقة عند كثير ممن كتب فى الملل والنحل ، وإنما تذكر ضمن فرق المعتزلة والمرجئة .
انظر فى مذهبهم : مقالات الإسلاميين ١/ ٢٣٨، وتاريخ التراث العربى ١/٤/ ٢١، ٢٢، والبرهان فى عقائد أهل الأديان ص١٧، ١٨، الفصل فى الملل والنحل ٤/٢٠٤ .
والخوارج والرافضة نُسِبوا إلى أفعالهم القبيحة :
فالرافضة سُمُّوا بذلك لرفضهم زيدَ بنَ عَلِى حينما توجه لقتال هشام بن عبد الملك ، فقال أصحابه : تَبَرَّأْ من الشيخين حتى نكون معك . فقال : لا ، بل أَتَوَلاَّهما ، وأَتَبَرَّأُ ممن تبرأ منهما : فقالوا : إذًا نَرْفُضَك . فسُمِّيَت الرافضة .
وهم يثبتون الإمامة عقلًا ، وأن إمامة عَلِيّ وتقديمه ثابت نصًّا ، وأن الأئمة معصومون .
وقالوا بتفضيل « عَلِيّ » على سائر الصحابة ، وتَبَرَّءُوا من أبى بكر وعمر وكثير من الصحابة ، ويقولون برَجْعَة الأموات ، وأن الأُمَّة ارْتَدَّت بتركها إمامة عَلِيّ رضى اللّه عنه .
انظر تفاصيل مذهبهم فى : البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان ص ٣٦، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٧٧، ٧٨، ورسالة فى الرد على الرافضة ص ٦٥، ٦٧ .
وأما الخوارج فسُمُّوا بذلك ؛ لخروجهم على الإمام عَلِيّ رضى اللّه عنه ، ونزلوا بأرض يقال =

....

اجْتَمَعوا على الحقِّ الثابتِ بالكتابِ والسنةِ ، وهم الصحابةُ والتابعون لهم بإحسانٍ ، ولو كانوا قِلَّةً ، كما قال ابنُ مسعودٍ رضِى اللهُ عنه : الجماعةُ ما وافَقَ الحقَّ ، وإن كنتَ وحدَك ، فإنك أنت الجماعةُ حينَئذٍ[1] .

* * *

= لها : حَرُوراءُ ، فسُمُّوا بالحَرُورِيَّة . وهم الذين يُكَفِّرون أصحاب الكبائر ، ويقولون بأنهم مُخَلَّدون فى النار ، كما يقولون بالخروج على أئمة الجَوْرِ ، وأن الإمامة جائزة فى غير قريش . وهم يُكفِّرون عثمان وعليًا وطلحة والزبير وعائشة رضى اللّه عنهم ، ويُعَظِّمون أبا بكر وعمر رضى اللّه عنهما .

الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل ٢/ ١١٣، والملل والنحل للشهرستانى ١/ ١٥٤، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٥٠، والبرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان ص ٩ .

(١) أخرجه اللالكائى فى الاعتقاد (١٦٠) .

وهو الإيمانُ باللهِ ، وملائكتِه ، وكتبِه ، ورسلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقَدرِ؛ خيرِه وشرِّه .

الشرحُ :

(وهو) ؛ أي : اعتِقادُ الفِرْقةِ الناجيةِ ، **(الإيمانُ)** الإيمانُ معناه لغةً : التَّصْديقُ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ [يوسف : ٧١] أي : مُصَدِّقٍ[(١)] .

وتعريفُه شرعًا : أنه قولٌ باللسانِ ، واعتقادٌ بالقلبِ ، وعَمَلٌ بالجَوارحِ .

وقولُه : (باللهِ ، وملائكتِه ، وكتبِه ، ورسلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقدرِ؛ خيرِهِ وشرِّه) . هذه هى أركانُ الإيمانِ الستةُ التى لا يَصِحُّ إيمانُ أحدٍ إلا إذا آمَن بها جميعًا على الوجهِ الصحيحِ الذى دلَّ عليه الكتابُ[(٢)] والسنةُ[(٣)] ، وهذه

---

(١) **قال فضيلة الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله فى شرح العقيدة الواسطية ١/ ٥٤:** الإيمان فى اللغة : يقول كثير من الناس : إنه التصديق . فصدَّقْتُ وآمَنْتُ معناهما لغةً واحد ، وقد سبق لنا فى التفسير أن هذا القول لا يصح ، بل الإيمان فى اللغة : الإقرار بالشىء عن تصديق به ، بدليل أنك تقول : آمَنت بكذا ، وأَقْرَرْتُ بكذا ، ولا تقول : آمَنْتُ فلانًا .

إذًا فالإيمان يتضمن معنًى زائدًا على مجرد التصديق ، وهو الإقرار والاعتراف المُسْتَلْزِم للقَبول للأخبار ، والإذعان للأحكام ، هذا الإيمان ، أما مجرد أن تؤمن بأن اللَّه موجود ، فهذا ليس بإيمان ، حتى يكون هذا الإيمان مستلزمًا للقبول فى الأخبار والإذعان فى الأحكام ، وإلا فليس إيمانًا . اهـ

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ .

(٣) ومن ذلك ما رواه البخارى (٥٠) ، (٤٧٧٧) ، ومسلم ١/ ٣٩، ٤٠ (٩، ١٠) عن أبى هريرة ، وفيه : أن جبريل سأل النبى ﷺ عن الإيمان فقال : « أن تؤمن باللَّه ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ؛ خيره وشره » .

....

الأركانُ هى :

١- الإيمانُ باللهِ، وهو الاعتقادُ الجازمُ بأنَّه ربُّ كلِّ شيءٍ ومَليكُه، وأنه مُتَّصِفٌ بصفاتِ الكمالِ، مُنَزَّهٌ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، وأنه المُسْتَحِقُّ للعِبادةِ وحدَهُ لا شريكَ له، والقيامُ بذلك علمًا وعملًا.

٢- الإيمانُ بالملائكةِ؛ أى : التصديقُ بوجودِهم، وأنهم كما وصَفَهم اللهُ فى كتابِه، كما فى الآيةِ : ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦، ٢٧].

وقد دلَّ الكتابُ والسنةُ على أصنافِ الملائكةِ وأوصافِهم، وأنهم مُوَكَّلون بأعمالٍ يُؤَدُّونها كما أَمَرَهم اللهُ، فيَجِبُ الإيمانُ بذلك كلِّه[1].

---

(١) أما الأدلة من الكتاب على أصناف الملائكة وأوصافهم، وعلى أنهم مُوَكَّلون بأعمال يُؤَدُّونها، كما أمرهم الله، فكثيرة، ومن ذلك :

١- قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾.

٢- وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

٣- وقال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾.

٤- وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾.

٥- وقال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾.

٦- وقال تعالى : ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾.

٧- وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

٨- وقال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾.

٩- وقال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾.

وأما الأدلة من السنة على ذلك فكثيرة جدًّا، نذكر منها : =

....

٣- **الإيمانُ بالكتبِ** ؛ أى : التصديقُ بالكتبِ التى أنْزَلها اللهُ على رسلِهِ ، وأنها كلامُه ، وأنها حقٌّ ونورٌ ، وهُدًى ، فيَجِبُ الإيمانُ بما سَمَّى اللهُ منها ، كالتوراةِ والإنجيلِ والزَّبُورِ والقرآنِ ، والإيمانُ بما لم يُسَمِّ اللهُ منها(١) .

= ١- ما رواه مسلم ١/٥٣٤ (٧٧٠) أن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللهم ربَّ جَبْرَائِيلَ ومِيكائِيلَ وإسْرافِيل ، فاطرَ السماوات والأرض ... » الحديث .

٢- وما رواه البخارى (٦٤٠٨) ، ومسلم ٤/٢٠٦٩ (٢٦٨٩) ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذِّكر ، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تعالى ، تَنَادَوْا : هَلُمُّوا إلى حاجتكم ، قال : فيَحُفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا » . واللفظ للبخارى .

٣- وما رواه أحمد ٥/١٧٣ (٢١٤٠٨) ، والترمذى (٢٣١٢) ، وابن ماجه (٤١٩٠) ، والحاكم ٢/ ٥١٠ ، عن أبى ذر رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « أَطَّتِ السماءُ ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها موضعُ أربع أصابع إلا ومَلَكٌ واضعٌ جَبْهَتَه ساجدًا للهِ ... » الحديث .

(١) فالإيمان بالكتب يكون إجمالًا ، ويكون على سبيل التفصيل :

أما الإجمال فأن نؤمن أن لكل رسول كتابًا ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ .

وهذا يدل على أن كل رسول معه كتاب ، لكن لا نعرف كل الكتب ، ولا يجوز لنا أن نَنْسُب كتابًا إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه فى القرآن الكريم .

والإيمان بالكتب تفصيلًا هو أن نؤمن بما سَمَّى الله منها ، وهى :

١- **التوراة** التى نزلت على موسى عليه السلام ، حيث قال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ .

٢- **والإنجيل** الذى نزل على عيسى عليه السلام ، حيث قال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا =

....

....

= بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

٣- والزبور الذى نزل على داود عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ .

٤- والصحف التى أنزلها اللّٰه على إبراهيم وموسى ، التى أخبر عنها اللّٰه تعالى بقوله : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ . وبقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ .

وأما الكتب الأخرى التى نزلت على سائر الرسل ، فلم يخبرنا اللّٰه تعالى عن أسمائها ، وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبى أرسله اللّٰه رسالة بلغها قومه ، فقال : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ .

فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التى لم تُسَمَّ إجمالاً ، ولا يجوز لنا أن نَنْسُب كتابًا إلى اللّٰه تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه فى القرآن الكريم .

كما يجب أن نؤمن بأن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى ، وتوحيد اللّٰه سبحانه فى ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، وأن ما نسب إليها مما يخالف ذلك إنما هو من تحريف البشر وصنعهم ، قال تعالى عن التوراة : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ ، وقال تعالى عن الإنجيل : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

٥- والقرآن ، فيجب علينا أن نؤمن بأن القرآن العظيم هو آخر كتاب نزل من عند اللّٰه تعالى ، وأن اللّٰه عز وجل قد خصه بمزايا تميز بها عن جميع ما تقدمه من الكتب المنزلة ، من أهمها :

١- أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية ، وجاء مؤيِّدًا ومصدِّقًا لما جاء فى الكتب السابقة من توحيد اللّٰه وعبادته ووجوب طاعته ، وجمع كل ما كان متفرِّقًا فى تلك الكتب من الحسنات والفضائل ، وجاء مهيمنًا ورقيبًا ، يقر ما فيها من حق ، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ . =

....

....

= وأنه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل ما يلزمهم لسعادتهم فى الدارين ، نسخ بها جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة وأثبت فيها الأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان .

٢ـ أن القرآن هو الكتاب الربانى الوحيد الذى تعهد الله بحفظه فقال عزَّ مِن قائل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . وقال أيضًا : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وهذه مزية متفرعة عن مزية أخرى ، وهى أن القرآن أنزله الله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة ، وليس خاصًا بقوم معينين كما كانت تنزل الكتب السابقة ، فكان حفظه من التحريف وصيانته من عبث الناس ؛ ليبقى ما فيه حجةَ الله على الناس ، قائمةً حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وأما الكتب الأخرى ، فقد وجه الكلام فى كل واحد منها إلى أمة خاصة دون سائر الأمم وهى وإن اتفقت فى أصل الدين ، إلا أن ما نزل فيها من الشرائع والأحكام كان خاصًا بأزمنة معينة وأقوام معينين قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ . لذلك لم يتعهد الله سبحانه بحفظ أى منها على مدى الأزمان ، كما هو الحال بالنسبة للقرآن ، بل أخبر عز وجل فى آخر كتبه عن التحريف الذى وقع على تلك الكتب : فعن التحريف والتغيير الذى أدخله اليهود على التوراة قال سبحانه : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . وقال أيضًا : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ .

وأما عن التحريف الذى أدخله النصارى على الإنجيل قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ .

هذا ومن التحريفات التى أدخلها اليهود والنصارى فى دينهم ما زعمه اليهود من أن العُزَيْر ابنُ الله سبحانه ، وما زعمه النصارى من أن المسيح ابن الله قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ =

....

....

= قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .

فصحح لهم القرآن هذا الانحراف الذى صنعوه بأنفسهم ، فبين لهم أن اللّه سبحانه منزه عن أن يكون له ولد ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

وقرر أن الرسل جميعًا بشر ، خصهم اللّه بالوحى ، وبما يؤهلهم لتلقيه وتبليغه للناس ، فقال سبحانه مخاطبًا رسوله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ .

ومن التحريف الذى اقترفه النصارى ، وأخبرنا به اللّه عز وجل فى القرآن الكريم ما أدخلوه على حقيقة النبوة ، من تأليه جماعة منهم لعيسى ابن مريم ، وقول بعضهم بالتثليث ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ . وقال أيضًا : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ فجاء القرآن الكريم ، وبيَّن هذا التحريف وبين العقيدة السليمة فى عيسى وأمه ، فقال تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .

والحق الذى لا يمارى فيه منصف أنه لا يوجد اليوم على ظهر الأرض كتاب تصلح نسبته إلى الخالق تبارك وتعالى سوى القرآن الكريم ، يدل على هذه الحقيقة أدلة حسية فضلًا عما أخبر به القرآن عن التحريف الواقع فى الكتب الموجودة ، ومن هذه الأدلة :

أ- أن الكتب التى نزلت من قبل ، قد ضاعت نسختها الأصلية ، ولم يبق فى أيدى الناس إلا تراجمها ، أما القرآن فإنه لا يزال محفوظًا بسوره وآياته وكلماته وحركاته كما تلاه جبريل على رسول اللّه ﷺ ، وكما تلاه رسول اللّه ﷺ على صحابته رضوان اللّه عليهم .

ب- أن هذه الكتب قد اختلط فيها كلام اللّه بكلام الناس : من تفسير وتاريخ وسير الأنبياء وتلاميذهم ، واستنباطات الفقهاء ، فلا يعرف فيها كلام اللّه من كلام البشر ، وأما القرآن فهو جميعه كلام اللّه تعالى ، ولم يختلط به غيره من حديث رسول اللّه ﷺ أو أقوال الصحابة أو غيرهم .

قال أبو الوفاء على بن عَقيل : (إذا أردت أن تعلم أن القرآن ليس من قول رسول اللّه ﷺ إنما هو مُلْقَى عليه ، فانظر إلى كلامه كيف يمتاز عن القرآن ، تَلْمَحْ ما بين الكلامين والأسلوبين ، =

....

٤ - الإيمانُ بالرسلِ الذين أرسَلَهم اللهُ إلى خلقِه؛ أى : التصديقُ بهم جميعًا ، وأنهم صادقون فيما أخْبَروا به ، وأنهم بلَّغوا رسالاتِ ربِّهم ، لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ منهم ، بل نُؤْمِنُ بهم جميعًا ، مَن سَمَّى اللهُ منهم فى كتابِه ، ومَن لم يُسَمِّ منهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ

= ومعلوم أن كلام الإنسان يتشابه ، وما للنبى ﷺ كلمة تشاكل القرآن) ، وقال أيضًا : (ومن إعجاز القرآن أنه لا يمكن أحدًا أن يستخرج منه آية قد أخذ معناها من كلام قد سبق ، فإنه ما زال الناس يكشف بعضهم عن بعض ، فيقال مثلًا : المُتَنَبِّى أخذ من البُحْتُرِى)

جـ- أن تلك الكتب ليس منها كتاب تصح نسبته إلى الرسول الذى ينسب إليه ؛ فليس لأى منها سند تاريخى موثوق ، فالأسفار الموجودة ضمن ما يسمى بالعهد القديم ويطلق عليه التوراة إنما دونت بعد موسى عليه السلام بقرون عديدة ، يقول محمد فريد وجدى نقلًا عن دائرة معارف لاروس ما خلاصته : (العلم العصرى ولاسيما النقد الألمانى أثبت بعد أبحاث مستفيضة فى الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى عليه السلام وأنها عمل أحبار لم يذكروا اسمهم ، ألفوها على التعاقب ، معتمدين فى تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل أسر بابل ، بل ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الأسفار الخمسة ليس فيها كل الروايات الإسرائيلية ولكنها تحتوى على إشارات ورموز وحكايات) .

وأما القرآن العظيم فهو الكتاب الوحيد الذى ثبتت نسبته بصورة قطعية إلى الرسول الذى أُوحِى إليه وهو محمد ﷺ ، فقد نقل هذا الكتاب بسوره وآياته وطريقة ترتيبها وكيفية تلاوته إلى كل عصر جاء بعد عصر نزوله بالتواتر ، بحيث لا يشك فى أن القرآن الذى نتلوه هو الذى نزله اللّه على رسوله الكريم ﷺ .

ومن الأدلة على وقوع التحريف فى تلك الكتب تعدد نسخها واختلافها فيما نقلته من الأقوال والآراء .

ومن القرائن القاطعة على وقوع التحريف فى هذه الكتب ما تضمنته من العقائد الفاسدة والتصورات الباطلة عن الخالق سبحانه وعن رسله الكرام عليهم السلام فإنك تجد فيها تشبيه الخالق بالإنسان والقدح بالأنبياء بما يَمَسُّ شرفهم ويتنافى مع عصمتهم . =

....

عَلَيْكَ ﴾ [النساء : ١٦٤] .

وأفضلُهم أُولو العَزْمِ ، وهم : نوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمدٌ ، عليهم الصلاةُ والسلامُ ، ثم بقيةُ الرسلِ ، ثم الأنبياءُ .

وأفضلُ الجميعِ خاتَمُ الرسلِ نبيُّنا محمدٌ ﷺ(١) .

= وإزاء هذا التحريف والتغيير الذى طرأ على الكتب السابقة فإن الإيمان بها يكون بالتصديق أنها من عند الله فى أساسها ، نزَّلها على رسله لنفس الغرض الذى أنزل من أجله القرآن ، ولا نؤمن بشىء من محتوياتها أنه من عند الله إلا بما ذكره القرآن فيجب علينا أن نؤمن بأنه كلام الله الخالص ، وهو الحق ، وأن كل لفظ فيه محفوظ ، ويجب اتباع أمره ، واجتناب نهيه ، وتصديق خبره ، ورفض ما يخالفه .

(١) هنا فاضَل فضيلة الشيخ المؤلف حفظه الله بين الرسل ، فكيف يكون هذا ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ .

وهذا الإشكال قد أجاب عنه فضيلة الشيخ ابن عثيمين، رحمه الله، فقال فى فتاوى العقيدة ص٥٨٦ :

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

فالأنبياء والرسل لا شكَّ أن بعضهم أفضل من بعض ، فالرسل أفضل من الأنبياء ، وأولو العزم من الرسل أفضل ممَّن سواهم ، وأُولو العزم من الرسل هم الخمسة الذين ذكرهم الله تعالى فى آيتين من القرآن ؛ إحداهما فى سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ .

والآية الثانية فى سورة الشُّورى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ .

فهؤلاء خمسة وهم أفضل ممن سواهم ، وأما قوله تعالى عن المؤمنين : ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ .

فالمعنى لا نفرق بينهم فى الإيمان ، بل نؤمن أن كلهم رسل من عند الله حقًّا ، وأنهم ما =

....

وأصَحُّ ما قيل في الفرقِ بين النبيِّ والرسولِ : أن النبيَّ : مَن أُوحِي إليه بشرعٍ ، ولم يُؤْمَرْ بتبليغِه ، والرسولَ : مَن أُوحِي إليه بشرعٍ ، وأُمِر بتبليغِه .

٥- الإيمانُ بالبعثِ : وهو التصديقُ بإخراجِ الموْتَى مِن قبورِهم أحياءً يومَ القيامةِ ؛ لفصلِ القضاءِ بينَهم ومُجازاتِهم بأعمالِهم على الصفةِ التي بَيَّنَها اللهُ في كتابِه ، وبيَّنَها الرسولُ ﷺ في سنتِه .

٦- الإيمـانُ بالقدرِ خيـرِه وشرِّه : وهو التصديقُ بأنَّ اللَّهَ سبحانَه علِم مقاديرَ الأشياءِ وأزمانَها قبلَ وجودِها[1] ، ثم كَتَبَها في اللَّوْحِ

= كذبوا فهم صادقون مصَدَّقون وهذا معنى قوله : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ . أي : في الإيمانِ ، بل نؤمن أن كلهم عليهم الصلاة والسلام رسل من عند اللّه حقًّا .

لكن في الإيمان المتضمن للاتباع هذا يكون لمن بعد الرّسول ﷺ خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه ﷺ هو المُتّبع لأن شريعته نَسَخَت ما سِوَاها من الشّرائع ، وبهذا نعلم أن الإيمان يكون للجميع كلهم ، نؤمن بهم وأنهم رُسُل اللّه حقًّا ، وأن شريعَتَه التي جاء بها حق ، وأمَّا بعد أن بُعِث الرسول عليه الصلاة والسلام فإن جميع الأديان السابقة نُسِخَتْ بشريعته ﷺ وصار الواجب على جميع الناس أن ينصروا محمدًا ﷺ وحده ، ولقد نسخ اللّه تعالى بحكمته جميع الأديان سوى دين الرسول ﷺ ولهذا قال اللّه تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ . فكانت الأديان سوى دين الرسول عليه الصلاة والسلام كلها منسوخة ، لكن الإيمان بالرسل وأنهم حق هذا أمر لابدَّ منهُ . اهـ

(١) فعلمه سبحانه أزلي أبدي ، لم يُسْبَق بجهل ، ولا يلحقه نسيان ، قال تعالى : ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ .

لا يضل ؛ أي : لا يجهل شيئًا مستقبلًا ، ولا ينسى شيئًا ماضيًا سبحانه وتعالى .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ﴾ . =

....

المحفوظِ[1] ، ثم أوْجَدَها

بقدرتِه ومشيئتِه فى مواعيدِها المقدَّرةِ .

فكلُّ مُحْدَثٍ مِن خيرٍ أو شَرٍّ فهو صادرٌ عن علمِهِ وتقديرِه ومشيئتِه وإرادتِه ، ما شاء كان ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ .

هذا شرحٌ مُجْمَلٌ لأصولِ الإيمانِ ، وسيأتى ، إن شاء اللهُ ، شرحُها مُفَصَّلًا .

* * *

= ومن أنكر أن اللَّه عز وجل قد أحاط بكل شىء علمًا ، أحاط بكل شىء مما مضى ، ومما هو حاضر ، ومما هو مستقبل ، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله عز وجل ، أو بأفعال عباده ، فهو كافر ؛ لأنه مكذب لله ولرسوله ﷺ وإجماع المسلمين ، وطاعن فى كمال اللَّه عز وجل ؛ لأن ضد العلم ، إما الجهل ، وإما النسيان ، وكلاهما عيب .

(١) **ومما يدل على ذلك قوله تعالى :** ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . قال : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ ﴾ . أى : مكتوب فى كتاب ، وهو اللوح المحفوظ .

وروى مسلم رحمه اللَّه ٤/ ٢٠٤٤ (٢٦٥٣) عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « كتب اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعَرْشُه على الماء » .

قال النووى ، **رحمه اللَّه فى شرح مسلم ٨/ ٤٥٤ :** قال العلماء : المراد تحديد وقت الكتابة فى اللوح المحفوظ أو غيره ، لا أصل التقدير ؛ فإن ذلك أزلى ، لا أول له . اهـ

ومن الإيمانِ باللهِ الإيمانُ بما وصَف به نفسَه فى كتابِه ، ووصَفَه به رسولُه محمدٌ ﷺ ، من غيرِ تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومن غيرِ تكييفٍ ، ولا تمثيلٍ .

الشرحُ :

بعدَ ما ذكَر المصنِّفُ رحِمه اللهُ الأصولَ التى يَجِبُ الإيمانُ بها مُجْمَلةً، شرَع يَذْكُرُها على سبيلِ التفصيلِ ، وبدَأ بالأصلِ الأولِ ، وهو الإيمانُ باللهِ تعالى ، فذكَر أنه يَدْخُلُ فيه الإيمانُ بصفاتِه التى وصَفَ نفسَه بها فى كتابِه ، أو وصَفَه بها رسولُه فى سنتِه .

وذلك بأن نُثْبِتَها له كما جاءت فى الكتابِ والسنةِ بألفاظِها ومعانيها ، من غيرِ تحريفٍ لألفاظِها ، ولا تعطيلٍ لمعانيها ، ولا تشبيهٍ لها بصفاتِ المخلوقين ، وأن نَعْتَمِدَ فى إثباتِها على الكتابِ والسنةِ فقط ، لا نَتَجاوَزُ القرآنَ والحديثَ؛ لأنها توقيفيةٌ .

والتحريفُ : هو التغييرُ وإمالةُ الشىءِ عن وجهِه . يقالُ : انْحَرف عن كذا . إذا مال ، وهو نوعان :

النوعُ الأولُ :

تحريفُ اللفظِ ، وهو العُدولُ به عن جهتِه إلى غيرِها ، إما بزيادةِ كلمةٍ ، أو حرفٍ أو نُقْصانِه ، أو تغييرِ حركةٍ ، كقولِ أهلِ الضلالِ فى قولِه تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ؛ أى : استولى . فزادوا فى الآيةِ حرفًا .

وكقولِهم فى قولِه تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ ؛ أى : أمرُ ربِّك . فزادوا كلمةً .

وكقولِهم فى قولِه تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ بنصبِ لفظِ الجلالةِ ،

....

فغيَّروا الحركةَ الإعرابيةَ من الرفعِ إلى النصبِ .

النوعُ الثانى :

تحريفُ المعنى ، وهو العدولُ به عن وجهِه وحقيقتِه ، وإعطاءُ اللفظِ معنَى لفظٍ آخرَ ؛ كقولِ المُبتدِعةِ : إن معنى الرحمةِ إرادةُ الإنعامِ ، وإن معنى الغضبِ إرادةُ الانتقامِ .

والتعطيلُ لغةً : الإخلاءُ ، يقالُ : عطَّله؛ أى : أخْلاه ، والمرادُ به هنا نفىُ الصفاتِ عن اللهِ سبحانَه وتعالى .

والفرقُ بينَ التحريفِ والتعطيلِ : أن التحريفَ هو نَفْىُ المعنى الصحيحِ الذى دلَّت عليه النصوصُ ، واستبدالُه بمعنًى آخرَ غيرِ صحيحٍ .

والتعطيلُ هو نفىُ المعنى الصحيحِ من غيرِ استبدالٍ له بمعنًى آخرَ ، كفعلِ المُفَوِّضةِ(١) ، فكلُّ محرِّفٍ مُعَطِّلٌ ، وليس كلُّ معطِّلٍ مُحَرِّفًا .

---

(١) ويُسَمَّوْن أصحاب التجهيل ، قال ابن القيم ، رحمه اللَّه تعالى فى كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطِّلة ٢/ ٤٢٢ : أصحاب التجهيل الذين قالوا : نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها ، ولا ندرى ما أراد اللَّه ورسوله منها ، ولكن نقرأها ألفاظًا لا معانى لها ، ونعلم أن لها تأويلًا لا يعلمه إلا اللَّه ، وهى عندنا بمنزلة ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : ١] .
و ﴿ حم * عسق ﴾ [الشورى : ١، ٢] .
و ﴿ المص ﴾ [الأعراف : ١] .
فلو ورد علينا منها ما ورد لم نعتقد فيه تمثيلًا ولا تشبيهًا ، ولم نعرف معناه ، وننكر على من تأوله ، ونَكِل علمه إلى اللَّه ، وظن هؤلاء أن هذه طريقة السلف وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائق الأسماء والصفات ولا يفهمون معنى قوله :
﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] .
وقوله : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر : ٦٧] . =

....

....

= وقوله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] .
وأمثال ذلك من نصوص الصفات .
وبنوا هذا المذهب على أصلين :
أحدهما : أن هذه النصوص من المتشابه .
والثانى : أن للمتشابه تأويلًا لا يعلمه إلا اللّه ؛ فنتج من هذين الأصلين استجهال السابقين الأَوَّلِين من المهاجرين والأنصار ، وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأنهم كانوا يقرأون :
﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] .
و﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] .
ويَرْوُون : « ينزل رَبُّنا كل ليلة إلى سماء الدنيا » ، ولا يعرفون معنى ذلك وما أريد به ، ولازم قولهم: إن الرسول كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه . ثم تناقضوا أقبح تناقض فقالوا : تُجْرَى على ظواهرها ، وتأويلُها مما يخالف الظواهر باطل ، ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا اللّه .
فكيف يثبتون لها تأويلًا ويقولون : تجرى على ظواهرها ، ويقولون : الظاهر منها غير مراد ، والرّب منفرد بعلم تأويلها . وهل فى التناقض أقبح من هذا ؟!! .
وهؤلاء غلِطوا فى المتشابه ، وفى جعل هذه النصوص من المتشابه ، وفى كون المتشابه لا يَعْلَم معناه إلا اللّه ، فأخطئوا فى المقدّمات الثلاث ، واضطرهم إلى هذا التخلُّصُ من تأويلات المبطلين وتحريفات المعطلين ، وسدوا على نفوسهم الباب وقالوا : لا نرضى بالخطأ ، ولا وصول لنا إلى الصواب ، فهؤلاء تركوا التدبر المأمور به والتذكر والعقل لمعانى النصوص الذى هو أساس الإيمان وعمود اليقين ، وأعرضوا عنه بقلوبهم وتعبدوا بالألفاظ المجردة التى أنزلت فى ذلك ، وظنوا أنها أنزلت للتلاوة والتعبد بها دون تعقُّل معانيها وتدبرها والتفكر فيها .
=

....

والتكييف : هو تعيينُ كيفيةِ الصفةِ ، يقالُ : كيَّف الشيءَ . إذا جعَل له كيفيةً معلومةً ، فتكييفُ صفاتِ اللهِ هو تعيينُ كيفيتِها والهيئةِ التى تكونُ عليها .

وهذا لا يمكنُ للبشرِ؛ لأنه مما اسْتَأْثَر اللهُ تعالى بعلمِه ، فلا سبيلَ إلى الوصولِ إليه؛ لأن الصفةَ تابعةٌ للذاتِ .

فكما أنَّ ذاتَ اللهِ لا يُمْكِنُ للبشرِ معرفةُ كيفيتِها ، فكذلك صفتُه سبحانَه لا تُعْلَمُ كيفيتُها[1] ، ولهذا لما سُئِل الإمامُ مالكٌ رحِمه اللهُ ، فقيل له : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كيف اسْتَوى؟ فقال : الاستواءُ معلومٌ ، والكَيْفُ مجهولٌ ، والإيمانُ به واجبٌ ، والسؤالُ عنه بدعةٌ[2] . وهذا يقالُ فى سائرِ

= فأولئك جعلوها عرضة للتأويل والتحريف كما جعلها أصحاب التخييل أمثالًا لا حقيقة لها . اهـ

(١) **وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فى شرح العقيدة الواسطية ١ / ٩٨** : فكيفية الشيء لا تدرك إلا بواحد من أمور ثلاثة : مشاهدته ، أو مشاهدة نظيره ، أو خبر الصادق عنه ؛ أى : إما أن تكون شاهدْتَه أنت وعرفت كيفيته ، أو شاهدت نظيره ، كما لو قال واحد : إن فلانًا اشترى سيارة داتسن موديل ثمان وثمانين رقم ألفين ، فتعرف كيفيتها ؛ لأن عندك مثلها . أو خبر صادق عنه ؛ أتاك رجل صادق ، وقال : إن سيارة فلان صفتها كذا وكذا ... ووصفها تمامًا ، فتدرك الكيفية الآن . اهـ

(٢) رواه اللالكائى فى شرح السنة (٦٦٤) ، والبيهقى فى الأسماء والصفات (٨٦٧) . وقال الحافظ فى الفتح ١٣ / ٤٠٧ : إسناده جيد . ورواه الدارمى فى « الرد على الجهمية » (١٠٤) ، وابن عبد البر فى « التمهيد » ٧/١٥١ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله فى مجموع الفتاوى ٥/٣٦٥ بعد أن ذكر قول مالك : ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك ، وقد رُوِى هذا الجواب عن أم سلمة رضى الله عنها موقوفًا ومرفوعًا ، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه ، وهكذا سائر الأئمة قولهم يوافق قول مالك فى أنا لا نعلم كيفية استوائه ، كما لا نعلم كيفية ذاته ، ولكن نعلم المعنى الذى دل =

....

الصفاتِ[1] .

والتمثيلُ : هو التشبيهُ بأن يقالَ : إن صفاتِ اللهِ مثلُ صفاتِ المخلوقين ، كأن يقالَ : يدُ اللهِ كأيدينا ، وسمعُه كسمعِنا ، تعالى اللهُ عن ذلك ، قال تعالى فى الآيةِ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

فلا يقالُ فى صفاتِه : إنها مثلُ صفاتِنا ، أو شِبْهُ صفاتِنا ، أو كصفاتِنا ، كما لا يقالُ : إنَّ ذاتَ اللهِ مثلُ ، أو شبهُ ذواتِنا .

فالمؤمنُ الموحِّدُ يُثْبِتُ الصفاتِ كلَّها على الوجهِ اللائقِ بعظمةِ اللهِ وكِبْريائِه ، والمُعَطِّلُ يَنْفِيها ، أو يَنْفِى بعضَها ، والمُشَبِّهُ المُمَثِّلُ يُثْبِتُها على وجهٍ لا يَلِيقُ باللهِ ، وإنما يليقُ بالمخلوقِ .

* * *

= عليه الخطاب ، فنعلم معنى الاستواء ولا نعلم كيفيته ، وكذلك نعلم معنى النزول ولا نعلم كيفيته ، ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدوة ولا نعلم كيفية ذلك ، ونعلم معنى الرحمة والغضب والرضا والفرح والضحك ولا نعلم كيفية ذلك . اهـ

(١) **قال فضيلة الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله فى شرح العقيدة الواسطية ١/ ١٠٠** : وكلام مالك رحمه اللّٰه ميزان لجميع الصفات ؛ فإن قيل لك مثلًا : إن اللّٰه ينزل إلى السماء الدنيا ؛ كيف ينزل ؟ فالنزول غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . والذين يسألون : كيف يمكن النزول وثلث الليل يتنقل ؟! فنقول : السؤال هذا بدعة ، كيف تسأل عن شيء ما سأل عنه الصحابة ، وهم أحرص منك على الخير وعلى العلم بما يجب لله عز وجل ، ولسنا بأعلم من الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فهو لم يُعَلِّمْهم . فسؤالك هذا بدعة ، ولولا أننا نحسن الظن بك ؛ لقلنا ما يليق بك بأنك رجل مبتدع .
والإمام مالك ، رحمه اللّٰه قال : (ما أراك إلا مبتدعًا) ، ثم أمر به فأُخرج ؛ لأن السلف يكرهون أهل البدع وكلامهم واعتراضاتهم وتقديراتهم ومجادلاتهم . اهـ

بل يؤمنون بأنَّ اللهَ سبحانَه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، فلا يَنْفُون عنه ما وصَفَ به نفسَه ، ولا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضِعِه .

الشرحُ :

لما ذكَر المصنِّفُ رحِمه اللهُ أن الواجبَ هو الإيمانُ بصفاتِ اللهِ الثابتةِ فى الكتابِ والسنةِ ، مِن غيرِ تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومِن غيرِ تكييفٍ ، ولا تمثيلٍ ، بيَّن موقفَ أهلِ السنةِ والجماعةِ من ذلكَ ، وهو أنهم يؤمنون بتلك الصفاتِ على هذا المنهجِ المستقيمِ ، فيُثْبِتُونها على حقيقتِها ، نافِين عنها التمثيلَ .

فلا يُعَطِّلون ، ولا يُمَثِّلون على وَفْقِ ما جاء فى قولِه تعالى فى الآيةِ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

فقولُه تعالى : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ . ردٌّ على الممثِّلةِ .

وقولُه : ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ . ردٌّ على المعطِّلةِ؛ لأن فيه إثباتَ السمعِ والبصرِ ، فالآيةُ الكريمةُ دُسْتورٌ واضحٌ فى بابِ الأسماءِ والصفاتِ ؛ لأنها جَمَعَت بينَ إثباتِ الصفاتِ للهِ ، ونفيِ التمثيلِ عنها ، وسيأتى تفسيرُها إن شاء اللهُ .

وقولُه : (فلا يَنْفُون عنه ما وصَفَ به نفسَه) ؛ أى : لا يَحْمِلُ أهلَ السنةِ والجماعةِ إيمانُهم بأنَّ اللهَ ليس كمثلِه شىءٌ على أن يَنْفُوا عنه ما وصَفَ به نفسَه ، كما يَفْعَلُ ذلك الذين غَلَوْا فى التنزيهِ ، حتى عطَّلُوه من صفاتِه بحُجَّةِ الفِرارِ من التمثيلِ بصفاتِ المخلوقين .

فأهلُ السنةِ يقولون : للهِ سبحانَه صِفاتٌ تَخُصُّه وتَلِيقُ به ، وللمخلوقين صفاتٌ تَخُصُّهم وتَلِيقُ بهم ، ولا تَشابُهَ بينَ صفاتِ الخالقِ ، وصفاتِ المخلوقِ ، فلا

....

* * *

يَلْزَمُ هذا المحذورُ الذى ذكَرْتُم أيُّها المعطِّلةُ .

وقولُه : (ولا يُحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعِه) . تقَدَّم بيانُ معنى التحريفِ؛ أى : لا يُغَيِّرون كلامَ اللهِ ، فيُبَدِّلون ألفاظَه ، أو يُغَيِّرون معانيَه ، فيُفَسِّرونه بغيرِ تفسيرِه ، كما يفعلُ المعطِّلةُ الذين يقولون فى (استوى) : استولى ، وفى : (وجاء ربك) : جاء أمرُ ربِّك ، ويفسِّرون رحمةَ اللهِ بإرادةِ الإنعامِ ، ونحوَ ذلك .

ولا يُلْحِدُون فى أسماءِ اللهِ وآياتِه ،

الشرحُ :

(ولا يُلْحِدُون فى أسماءِ اللهِ وآياتِه) ؛ الإلحادُ لغةً : المَيْلُ والعُدولُ عن الشىءِ ، ومنه اللَّحْدُ فى القبرِ ، سُمِّى بذلك لميلِه وانحرافِه عن سَمْتِ الحفرِ إلى جهةِ القبلةِ .

والإلحادُ فى أسماءِ اللهِ وآياتِه هو العدولُ والميلُ بها عن حقائِقِها ومَعانيها الصحيحةِ إلى الباطلِ ، والإلحادُ فى أسماءِ اللهِ وصفاتِه أنواعٌ :

النوعُ الأولُ : أن تُسَمِّىَ الأصنامَ بها ، كتسميةِ اللاتِ مِن الإلهِ ، والعُزَّى مِن العَزيزِ ، ومَنَاةَ من المنَّانِ .

النوعُ الثانى : تَسْمِيتُه سبحانَه وتعالى بما لا يَلِيقُ به ، كتسميةِ النصارَى له أبًا ، وتسميةِ الفلاسفةِ له مُوجِبًا ، أو علةً فاعلةً .

النوعُ الثالثُ : وَصْفُه سبحانَه وتعالى بما يُنَزَّهُ عنه من النقائصِ ، كقولِ اليهودِ الذين قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ . وقولِهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ، وأنه استراح يومَ السبتِ ، تعالى اللهُ عما يقولون .

النوعُ الرابعُ : جَحْدُ مَعانِيها وحقائِقِها ؛ كقولِ الجهميةِ : إنها ألفاظٌ مجرَّدةٌ ، لا تَتَضَمَّنُ صفاتٍ ، ولا معانىَ ، فالسميعُ لا يَدُلُّ على سمعٍ ، والبصيرُ لا يَدُلُّ على بصرٍ ، والحىُّ لا يَدُلُّ على حياةٍ . ونحوَ ذلك .

النوعُ الخامسُ :

تَشْبِيهُ صفاتِه بصفاتِ خلقِه ، كقولِ الممثِّلِ : يدُه كيدى . إلى غيرِ ذلك ، تعالى اللهُ .

وقد توَعَّد اللهُ المُلْحِدِين فى أسمائِه وآياتِه بأشدِّ الوعيدِ ، فقال سبحانَه : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا

....

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت : ٤٠] (١) .

---

(١) **قال فضيلة الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله في شرح العقيدة الواسطية ١/ ١٢٤:**
وأما الإلحاد فى آيات الله تعالى ؛ فالآيات جمع آية ، وهى العلامة المميزة للشىء عن غيره ، والله عز وجل بعث الرسل بالآيات لا بالمعجزات ، ولهذا كان التعبير بالآيات أحسن من التعبير بالمعجزات :

أولًا : لأن الآيات هى التى يُعَبَّر بها فى الكتاب والسنة .

ثانيًا : أن المعجزات قد تقع من ساحر ومشعوذ وما أشبه ذلك تُعْجِزُ غيره .

ثالثًا : أن كلمة (آيات) أدل على المعنى المقصود من كلمة معجزات ؛ فآيات الله عز وجل هى العلامات الدالة على الله عز وجل ، وحينئذ تكون خاصةً به ، ولولا أنها خاصة ؛ ما صارت آية له .

وآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين : آيات كونية ، وآيات شرعية :

فالآيات الكونية : ما يتعلق بالخلق والتكوين ؛ مثال ذلك قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [فصلت : ٣٧] . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٢-٢٥] . فهذه الآيات كونية ، وإن شئت فقل : كونية قدرية ، وكانت آية لله ؛ لأنه لا يستطيع الخلق أن يفعلوها ؛ فمثلًا : لا يستطيع أحد أن يخلق مثل الشمس والقمر ، ولا يستطيع أن يأتى بالليل إذا جاء النهار ، ولا بالنهار إذا جاء الليل ؛ فهذه الآيات كونية .

والإلحاد فيها أن ينسُبها إلى غير الله استقلالًا أو مشاركة أو إعانة ، فيقول : هذا من الولى الفلانى ، أو : من النبى الفلانى ، أو : شارك فيه النبى الفلانى أو الولى الفلانى ، أو: أعان اللَّهَ =

ولا يُكَيِّفون ، ولا يُمَثِّلون صفاتِه بصفاتِ خلقِه ؛

قولُه : (ولا يُكَيِّفون ولا يُمَثِّلون) إلخ ، تقدَّم بيانُ معنى التكييفِ والتمثيلِ .

* * *

= فيه ؛ قال اللّه تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ : ٢٢] ؛ فنفى كل شيء يتعلق به المشركون بكون معبوداتهم لا تملك شيئًا في السماوات والأرض استقلالًا أو مشاركة ، ولا مُعِينة لله عز وجل ، ثم جاء بالرابع : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٣] ؛ لما كان المشركون قد يقولون : نعم ؛ هذه الأصنام لا تملك ولا تشارك ولم تعاون ، لكنها شفعاء ؛ قال : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ . فقطع كل سبب يتعلق به المشركون .

القسم الثاني من الآيات : الآيات الشرعية ، وهي ما جاءت به الرسل من الوحي ؛ كالقرآن العظيم ، وهو آية ؛ لقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٢] . ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٥٠ - ٥١] فجعله آيات .

ويكون الإلحاد فيها إما بتكذيبها أو تحريفها أو مخالفتها :

فتكذيبها أن يقول : ليست من عند اللّه . فيكذب بها أصلًا ، أو يكذب بما جاء فيها من الخبر مع تصديقه بالأصل ، فيقول مثلًا : قصة أصحاب الكهف ليست صحيحة ، وقصة أصحاب الفيل ليست صحيحة ، واللّه لم يرسل عليهم طيرًا أبابيل .

وأما التحريف ؛ فهو تغيير لفظها ، أو صرف معناها عما أراد اللّه بها ورسوله ؛ مثل أن يقول : استوى على العرش ؛ أي : استولى ، أو : ينزل ربنا إلى السماء الدنيا ؛ أي : ينزل أمره .

وأما مخالفتها ؛ فبترك الأوامر أو فعل النواهي .

قال اللّه تعالى في المسجد الحرام : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ =

لأنَّه سبحانَه لا سَمِيَّ له ،

الشرحُ :

(**لأنَّه سبحانَه لا سَمِيَّ له**) هذا تعليلٌ لما سبَقَ مِن قولِه عن أهلِ السنةِ : (ولا يُكَيِّفون ، ولا يُمَثِّلون صفاتِه بصفاتِ خلقِه) .

و(**سبحانَه**) سُبحانَ مصدرٌ مثلُ غُفْران ، من التسبيحِ ، وهو التنزيهُ[1] .

(**لا سَمِيَّ له**) ؛ أي : لا نظيرَ له يَسْتَحِقُّ مثلَ اسمِه ، كقولِه تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] . استفهامٌ معناه النفيُ ؛ أي : لا أحدَ يُسامِيهِ ، أو

= أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] . فكل المعاصى إلحاد فى الآيات الشرعية ؛ لأنه خروج بها عما يجب لها ؛ إذ الواجب علينا أن نمتثل الأوامر وأن نجتنب النواهى ، فإن لم نقم بذلك ، فهذا إلحاد . اهـ .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه اللَّه فى كتاب القول المفيد ٢/ ٣١٨ : « سبحان » اسم مصدر ، وهى معمول أو مفعول لفعل محذوف وجوبًا ، تقديره : يُسَبِّح سبحانًا ؛ أى : تسبيحًا ؛ لأن اسم المصدر بمعنى المصدر ، « فسبحان » مفعول مطلق ، عاملها محذوف وجوبًا ، وهى ملازمة للإضافة ، إما إلى مضمر ، كما فى الآية « سبحانه » ، أو إلى مُظْهَر ، كما فى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ . اهـ

واسم المصدر عرَّفه الشيخ محمد محيى الدين رحمه اللَّه فى أوضح المسالك ٢/ ١٨٣، حاشية (٢) بأنه : اسم يدل على المعنى الذى يدل عليه المصدر – وهو الحَدَث – ولكن حروفه تنقُص عن حروف مصدر الفعل المستعمل معه ، ومن أمثلته قولهم : كلَّمته كلامًا . و: سلَّمت عليه سلامًا . و: قبَّلته قبلة . و: توضأت وضوءًا . و: اغتسلت غسلًا . و: أعطيت عطاء . و: أجبته إجابة . و: أوقدت النار وقودًا . وصليت عليه صلاة ، وراقبته رِقْبَةً ، وراعيته رِعْيَةً .

وهو يعمل عمل المصدر ، ومن إعماله : قوله عليه الصلاة والسلام : « من قُبْلةِ الرجل امرأتَه الوضوءُ » . « فقبلة » فى هذا الحديث اسم مصدر ، وقد أضيف إلى فاعله ، وهو « الرجل » ، ثم نَصَب المفعولَ به ، وهو قوله « امرأته » ، كما تفعل لو وضعت المصدر فى موضعه ، فقلتَ : « مِن تَقْبيل الرجلِ امرأتَه الوضوءُ » . اهـ

ولا كُفْءَ له ، ولا نِدَّ له ، ولا يُقاسُ بخلقِه سبحانَه وتعالى؛ فإنَّه سبحانَه أَعلمُ بنفسِه وبغيرِه ، وأصدَقُ قِيلًا ، وأحسنُ حديثًا من خَلْقِه .

يُماثِلُه .

(ولا كُفْءَ له) الكفءُ هو المُكافِئُ المماثلُ؛ أى : لا مثلَ له ، كقولِه تعالى فى سورةِ الإخلاصِ : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

(ولا نِدَّ له) : النِدُّ هو الشبيهُ والنظيرُ ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة : ٢٢] .

(ولا يُقاسُ بخلقِه) : القياسُ في اللغةِ : التمثيلُ ؛ أى : لا يُشَبَّهُ ، ولا يُمَثَّلُ بهم ، قال سبحانَه : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل : ٧٤] .

فلا يُقاسُ سبحانَه بخلقِه ، لا فى ذاتِه ، ولا فى أسمائِه وصفَاتِه ، ولا فى أفعالِه ، وكيف يقاسُ الخالقُ الكاملُ بالمخلوقِ الناقصِ ؟! تعالى اللهُ عن ذلك .

(فإنَّه سبحانَه أعلمُ بنفسِه وبغيرِه) : وهذا تعليلٌ لِما سبَق من وجوبِ إثباتِ ما أثْبَتَه لنفسِه من الصفاتِ ، ومنعِ قياسِه بخلقِه؛ فإنه إذا كان أعلمَ بنفسِه وبغيرِه وجَب أن يُثْبَتَ له من الصفاتِ ما أَثْبَتَه لنفسِه ، وأثْبَتَه له رسولُه ﷺ .

والخلقُ لا يُحِيطُونَ به علمًا فهو الموصوفُ بصفاتِ الكمالِ التى لا تَبْلُغُها عقولُ المخلوقين ، فيَجِبُ علينا أن نَرْضَى بما رضِيَه لنفسِه ، فهو أعلمُ بما يَلِيقُ به ، ونحن لا نَعْلَمُ ذلك .

وهو سبحانَه : (أصدقُ قيلًا وأحسنُ حديثًا مِن خلقِه) فما أخْبَر به فهو صدقٌ وحقٌّ يجبُ علينا أن نُصَدِّقَه ، ولا نُعارِضَه ، وألفاظُه أحسنُ الألفاظِ ، وأفْصَحُها ، وأوْضَحُها ، وقد بيَّن ما يَلِيقُ به من الأسماءِ والصفاتِ أتمَّ بيانٍ ، فيجبُ قبولُ ذلك والتسليمُ له .

ثم رُسُله صادِقون مَصدُوقون بخلافِ الذين يقولون عليه ما لا يَعْلَمُون .

الشرحُ :

(**ثم رسلُه صادِقون مَصْدوقون**)[1] : هذا عَطْفٌ على قولِه : (فإنَّه أعلمُ بنفسِه ... إلخ) الصدقُ مُطابَقةُ الخبرِ للواقعِ؛ أي : صادقون فيما أخبَرُوا به عن اللهِ تعالى : (مَصْدُوقون) ؛ أي : فيما يَأْتِيهم من الوحيِ بواسطةِ الملائكةِ؛ لأنه من عندِ اللهِ ، فهم لا يَنْطِقون عن الهَوَى .

---

(١) ذكر الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرح العقيدة الواسطية ١٣٦/١ أن هناك نسخة أخرى ، فيها : « مُصَدَّقون » ثم قال رحمه الله في ١٣٧/١ :

وأما على نسخة : « **مُصَدَّقون** » ؛ فالمعنى أنه يجب على أُممهم تصديقهم ، وعلى هذا يكون معنى « مصدقون » ؛ أي : شرعًا ؛ يعني : يجب أن يصدَّقوا شرعًا ؛ فمن كذب بالرسل أو كذبهم ؛ فهو كافر ، ويجوز أن يكون « مصدقون » له وجه آخر ؛ أي : أن الله تعالى صدقهم ، ومعلوم أن الله تعالى صدَّق الرسل ؛ صدَّقهم بقوله وبفعله :

أما بقوله ؛ فإن الله قال لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ [النساء : ١٦٦] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ [المنافقون : ١] ؛ فهذا تصديق بالقول .

أما تصديقه بالفعل ؛ فبالتمكين له ، وإظهار الآيات ؛ فهو يأتي للناس يدعوهم إلى الإسلام ، فإن لم يقبلوا ، فالجزية ، فإن لم يقبلوا ؛ استباح دماءهم ونساءهم وأموالهم ، والله تعالى يمكِّن له ، ويفتح عليه الأرض أرضًا بعد أرض ، وحتى بلغت رسالته مشارق الأرض ومغاربها ؛ فهذا تصديق من الله بالفعل ، كذلك أيضًا ما يجريه الله على يديه من الآيات هو تصديق له ، سواء كانت الآيات شرعية أم كونية ؛ فالشرعية كان دائمًا يُسأل عن الشيء وهو لا يعلمه ، فيُنزل الله الجواب : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : ٨٥] ؛ إذًا هذا تصديق بأنه رسول ، ولو كان غير رسول ؛ ما أجاب الله ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ =

....

وهذا توثيقٌ لسندِ الرسلِ ، عليهم الصلاةُ والسلامُ ، فقد قيل لهم الحقُّ ، وبلَّغوه للخلقِ ، فيَجِبُ قبولُ ما وصَفُوا اللهَ بِهِ .

فهم **(بخلافِ الذيـنَ يَقُولون عليه ما لا يعلمون)** ؛ أى : بخلافِ الذين يقولون على اللهِ بلا علمٍ فى شرعِه ودينِه ، وفى أسمائِه وصفاتِه ، بل بِمُجَرَّدِ ظنونِهم وتَخَيُّلاتِهم ، أو بما يَتلقَّوْنَه عن الشياطينِ ، كالمُتَنَبِّئِين الكَذَبةِ ، والمُبْتَدِعةِ ، والزَّنادقةِ ، والسَّحرةِ ، والكُهَّانِ ، والمُنَجِّمِين ، وعُلماءِ السَّوْءِ ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ الآيةَ(1) [البقرة : ٧٩] .

فإذا كان اللهُ سبحانَه وتعالى أعْلَمَ بنفسِه وبغيرِه ، وكان أصدقَ قولًا ، وأحسنَ

الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] . فالجواب : ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ ﴾ ... إلخ ؛ فهذا تصديق من اللَّه عز وجل .

والآيات الكونية ظاهرة جدًّا ، وما أكثر الآيات الكونية التى أيَّد اللَّه بها رسوله ؛ سواء جاءت لسبب أو لغير سبب ، وهذا معروف فى السيرة .

ففهمنا من كلمة « مصدقون » : أنهم مصدَّقون من قِبَل اللَّه بالآيات الكونية والشرعية ، مصدَّقون من قِبَل الخلق ؛ أي : يجب أن يُصَدَّقوا ، وإنما حَمَلْنا ذلك على التصديق شرعًا ؛ لأن من الناس من صدق ومن الناس من لم يصدق ، لكن الواجب التصديق . اهـ

(١) أي : إلى آخر الآية ، وتقرأ بالنصب إما على أنها مفعول به لفعل محذوف ، تقديره : أَكْمِلِ الآيةَ ، أو أنها منصوبة بنزع الخافض ؛ أي : إلى آخر الآية .

....

* * *

حديثًا من خلقِه ، وكان رُسُلُه عليهم الصلاةُ والسلامُ صادِقِين فى كلِّ ما يُخْبِرُون به عنه ، والواسطةُ بينَهم وبينَ اللهِ التى تَأْتِيهم بالوحيِ مِن عندِه واسطةٌ صادقةٌ مِن ملائكتِه الكرامِ وجَبَ التعويلُ إذًا على ما قاله اللهُ ورسلُه لا سيَّما[1] فى بابِ الأسماءِ والصفاتِ نفيًا وإثباتًا ، ورَفْضُ ما قاله المُبْتَدِعةُ والضُّلَّالُ ممن يَدَّعِى المجازَ فى الأسماءِ والصفاتِ ، ويَنْفِيها بشَتَّى وسائلِ النفيِ ، مُعْرِضِين عما جاءت به الرسلُ ، مُعْتَمِدِين على أهوائِهم ، أو مُقَلِّدِين لمن لا يَصْلُحُ للقُدْوَةِ مِن الضُّلَّالِ .

(١) « لاسيمًا » مُرَكَّبة من ثلاث كلمات :

١- « لا » النافية للجنس .

٢- « سِيّ » بمنزلة « مثل » ، وهى اسمها .

٣- « ما » ، وهى إما أن تكون موصولة ، أو نكرة موصوفة ، أو نكرة تامة ، أو زائدة .

فتختلف باختلاف إعراب الاسم الواقع بعد « لاسيما » ؛ رفعًا ، ونصبًا ، وجرًّا .

وعلى كل حال فخبر « لا » محذوف ، تقديره « موجود » ، أو نحوه . وانظر القواعد الأساسية للهاشمى ص ٢٢٠ .

ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠- ١٨٢] . فسبَّح نفسَه عما وصَفَه به المخالِفون للرسلِ ، وسلَّم على المرسَلِين لسلامةِ ما قالوه من النقصِ والعيبِ .

الشرحُ :

المفرداتُ :

ولهذا : تعليلٌ لما سبَق من كونِ كلامِ اللهِ وكلامِ رسلِه أصدقَ وأحسنَ .

سبحانَ : اسمُ مصدرٍ من التسبيحِ ، وهو التنزيهُ .

ربِّك : الربُّ هو المالكُ السيدُ المُرَبِّي لخلقِه بنِعَمِه(١) .

العزةُ : القوةُ والغَلَبةُ والمَنَعةُ . وإضافةُ الربِّ إلى العزةِ من إضافةِ الموصوفِ

---

(١) كلمة « رب » لم ترد فى القرآن إلا مضافة ، وإنما وردت غير مضافة فى السنة ، ومن ذلك قول النبى ﷺ : « السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب » ، وقوله ﷺ : « ألا وإنى نُهيتُ أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا ، فأما الركوع فعظِّموا فيه الربَّ ...» الحديث .

وليعلم أنه إذا كان لفظ « رب » مُحَلًّى بـ « أل » فإنه لا يطلق إلا على اللَّه عز وجل ، قال ابن حجر رحمه اللَّه فى الفتح ٥/ ١٧٩: والذى يختص باللَّه تعالى إطلاق « الرب » بلا إضافة . اهـ

ونقل أيضًا فى الفتح ١٧٩/١ عن القرطبى رحمه اللَّه أنه قال : إنما فُرِّق بين الرب والسيد ، لأن الرب من أسماء اللَّه تعالى اتفاقًا . اهـ

وقال النووى رحمه اللَّه تعالى فى المجموع ١/ ٣٣٤: قال العلماء : الرب بالألف واللام لا يُطْلَق إلا على اللَّه تعالى ؛ بخلاف « رب » فإنه يضاف إلى المخلوق ، فيقال : رب المال ، ورب الدار ، ورب الماشية ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث فى ضالة الإبل : « دَعْها حتى يأتيها ربها » . اهـ

....

* * *

إلى الصفةِ .

يَصِفون؛ أى : يَصِفُه به المخالِفون للرسُلِ ، مما لا يَلِيقُ بجَلالِه .

وسلامٌ . قيل : هو من السلامِ بمعنى التحيةِ . وقيل : من السَّلامةِ من المكارهِ .

على المرسَلين : الذين أرْسَلَهم اللهُ إلى خلقِه ، وبلَّغوا رسالاتِ ربِّهم ، جمعُ مُرْسَلٍ ، وتَقدَّم تعريفُه .

العالَـمين : جمع عالَم ، وهم كلُّ مَن سِوَى اللهِ .

المعنى الإجماليُّ : قد بيَّنه الشيخُ رحِمه اللهُ بقولِه : فسبَّح نفسَه . . . إلخ .

ما يستفادُ من الآياتِ .

١- تنزيهُ اللهِ سبحانَه عما يَصِفُه به الضُّلَّالُ والجُهَّالُ مما لا يَلِيقُ بجَلالِه .

٢- صدقُ الرسلِ ووجوبُ قَبولِ ما جاءوا به ، وما أخْبَروا به عن اللهِ .

٣- مشروعيةُ السلامِ على الرسلِ ، عليهم الصلاةُ والسلامُ ، واحترامِهم .

٤- ردُّ كلِّ ما يُخالِفُ ما جاءَتْ به الرسلُ ، لا سيَّما ما يَتَعَلَّقُ بأسماءِ اللهِ وصفاتِه .

٥- مشروعيةُ الثناءِ على اللهِ ، وشكرِه على نعمِه ، التى مِن أجَلِّها نعمةُ التوحيدِ .

وهو سبحانَه قد جَمَع فيما وصَفَ وسمَّى به نفسَه بينَ النفيِ والإثباتِ ، فلا عُدولَ لأهلِ السنةِ والجماعةِ عما جاء به المرسَلون؛ فإنه الصراطُ المستقيمُ ؛

الشرحُ :

(وهو سبحانَه قد جمَع) إلخ هذا بيانٌ للمَنْهَجِ الذى رَسَمه اللهُ فى كتابِه لإثباتِ أسمائِه وصفاتِه ، وهو المَنْهَجُ الذى يَجِبُ أن يَسِيرَ عليه المؤمنون فى هذا البابِ المهمِّ .

فإنه سبحانَه : (قد جمَع فيما وصَفَ وسَمَّى به نفسَه) ؛ أى : فى جميعِ أسمائِه وصفاتِه .

(بيـنَ النفيِ والإثباتِ) ، وهو نفىُ ما يُضادُّ الكمالَ من أنواعِ العيوبِ والنقائصِ ، كنفيِ الندِّ والشريكِ ، والسِّنَةِ ، والنومِ ، والموتِ ، واللُّغوبِ .

وأما الإثباتُ فهو إثباتُ صفاتِ الكمالِ ونُعوتِ الجلالِ للهِ ، كقولِه تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٣ ، ٢٤] ، وغيرُ ذلك مما سيَذْكُرُ له المؤلفُ نماذجَ فيما يأتى .

وقولُه : (فلا عُدولَ لأهلِ السنةِ والجماعةِ عما جاء به الـمُرْسَلون) ؛ أى : لا مَيْلَ لهم ، ولا انحرافَ عن ذلك ، بل هم مُقْتَفُون آثارَهم ، مُسْتَضِيئون بأنوارِهم .

ومن ذلك إثباتُ صفاتِ الكمالِ للهِ ، وتنزيهُه عما لا يَلِيقُ به؛ فإن الرسلَ قد قرَّروا ذلك الأصلَ العظيمَ ، وأما أعداءُ الرسلِ فإنهم قد عدَلوا عن ذلك .

وقولُه : (فإنه الصراطُ المستقيمُ) . تعليلٌ لقولِه : (فلا عُدولَ لأهلِ السنةِ) ؛

....

* * *

أى : لأن ما جاء به المُرْسَلون هو الصراطُ المستقيمُ ، والصراطُ المستقيمُ هو الطريقُ المُعْتَدِلُ الذى لا تَعَدُّدَ فيه ، ولا انقسامَ ، وهو المذكورُ فى قولِه تعالى ، من سورةِ « الفاتحة » : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وقولِه : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وهو الذى ندعو اللهَ ، فى كلِّ ركعةٍ من صلواتِنا أن يَهْدِيَنا إليه .

صراطُ الذين أنْعَمَ اللهُ عليهم مِن النبيِّين ، والصِّدِّيقِين ، والشُّهَداءِ ، والصالحين .

الشرحُ :

أى : أن الصراطَ المستقيمَ الذى جاء به المرسَلون فى الاعتقادِ وغيرِه ، وسَلَكه أهلُ السنةِ والجماعةِ .

هو (صراط الذين أنعم الله عليهم) ؛ أى : أنْعَم اللهُ عليهم الإنعامَ المطلَقَ التامَّ المتَّصِلَ بسعادةِ الأبدِ ، وهم الذين أمَرَنا اللهُ أن نَدْعُوَه أن يَهْدِيَنا طريقَهم ، **فهؤلاء** الأصنافُ الأربعةُ هم أهلُ هذه النعمةِ المطلقةِ ، وهم :

١- النبيون : جمعُ نبيٍّ ، وهم الذين اخْتَصَّهُم اللهُ بنبوتِه ورسالتِه ، وتقَدَّم تعريفُهم .

٢- الصِّدِّيقون : جمعُ صِدِّيق ، وهو المُبالِغُ فى الصدقِ والتصديقِ؛ أى : المبالِغُ فى الانقيادِ للرسولِ ﷺ مع كمالِ الإخلاصِ للهِ .

٣- الشهداءُ : جمعُ شهيدٍ ، وهو المقتولُ فى سبيلِ اللهِ ، سُمِّى بذلك؛ لأنه مشهودٌ له بالجنةِ ، ولأن ملائكةَ الرحمةِ تَشْهَدُه .

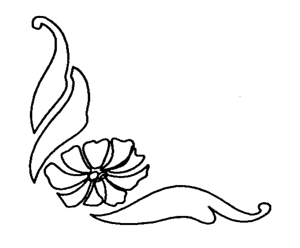
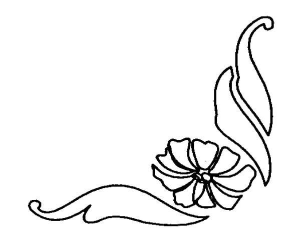
٤- الصالحون : جمعُ صالحٍ ، وهو القائمُ بحقوقِ اللهِ ، وحقوقِ عبادِه .

والصراطُ تارةً يُضافُ إلى اللهِ تعالى ، كقولِه تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] لأنه هو الذى شَرَعَه ونصَبَه ، وتارةً يُضَافُ إلى العبادِ ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ لكونِهم سَلَكُوه .

وفى قوله : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ . تنبيهٌ على الرفيقِ فى هذا الطريقِ ، وأنهم هم الذين أنْعَمَ اللهُ عليهم من النبيين ، والصِّدِّيقين والشهداءِ والصالحين؛ ليَزُولَ عن سالِكِ هذا الطريقِ وَحْشَةُ التفرُّدِ عن أهلِ زمانِه ، إذا اسْتَشْعَر أن رُفْقتَه على هذا الصراطِ الأنبياءُ والصِّدِّيقون والشهداءُ والصالحون . ثم أوْرَد الشيخُ رحِمه اللهُ فيما يلى : نَماذجَ من الكتابِ والسنةِ تَشْتَمِلُ على إثباتِ أسماءِ اللهِ وصفاتِه ، وفيما يلى إيرادُ ذلك .




الاستدلالُ على إثباتِ أسماءِ اللّهِ وصفاتِه مِن القرآنِ الكريمِ

الاستدلالُ على إثباتِ أسماءِ اللهِ وصفاتِه مِن القرآنِ الكريمِ

١- الجمعُ بينَ النفيِ والإثباتِ في وصفِه تعالى :

وقد دخَلَ في هذه الجملةِ ما وصَفَ اللهُ به نفسَه في سورةِ الإخلاصِ التي تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآنِ ، حيث يقولُ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

الشرحُ :

(وقد دخَل في هذه الجملةِ) ؛ أي : التي تَقَدَّمَت ، وهي قولُه : (وهو سبحانَه قد جمَع فيما وصَفَ ، وسَمَّى به نفسَه بينَ النفيِ والإثباتِ) .

فأراد هنا أن يُورِدَ ما يَدُلُّ على ذلك مِن الكتابِ والسنةِ ، وبَدَأ بسورةِ الإخلاصِ لفضلِها ، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنها أُخْلِصَت في صفاتِ اللهِ ، ولأنها تُخَلِّصُ قارئَها من الشركِ .

قولُه : (**التي تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآنِ**)؛ أي : تُساوِيه؛ وذلك لأن معانيَ القرآنِ ثلاثةُ أنواعٍ : توحيدٌ . وقَصَصٌ . وأحكامٌ ، وهذه السورةُ فيها صفةُ الرحمنِ ، فهي في التوحيدِ وحدَه ، فصارت تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآنِ .

والدليلُ على أن هذه السورةَ تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآنِ ما رواه البخاريُّ ، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضى اللهُ عنه ، أن رجلًا سمِع رجلًا يَقْرَأُ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يُرَدِّدُها .

فلما أصْبَح جاء إلى النبيِّ ﷺ ، فذكَر له ذلك ، وكأنَّ الرجلَ يَتَقالُّها ، فقال النبيُّ ﷺ : « والذى نفسى بيدِه إنها لَتَعْدِلُ ثلثَ القرآنِ »[1] .

(١) البخارى (٧٣٤٧) .

....

قال الإمامُ ابنُ القيمِ[١] : والأحاديثُ بكونِها تَعْدِلُ ثلثَ القرآنِ تكادُ تَبْلُغُ مَبْلَغَ التواتُرِ[٢] .

---

(١) زاد المعاد ١/٣١٧ .

(٢) ومن الأحاديث التى تدل على أن ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن ، ما رواه مسلم رحمه الله ١/٥٥٦ (٨١١) عن أبى الدرداء ، عن النبى ﷺ أنه قال : « أيَعْجِزُ أحدكم أن يقرأ فى ليلة ثلث القرآن ؟ » . قالوا : وكيف يقرأ ثُلُث القرآن ؟ قال : « ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِل ثلث القرآن » .

وما رواه أيضًا رحمه الله ١/٥٥٧ (٨١٢) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احْشُدُوا ، فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . ثمَّ دخل ، فقال : بعضنا لبعضٍ : إنى أُرَى هذا خبر جاءه مِن السَّماء ، فذاك الذى أدخله . ثم خرج نبى الله ﷺ فقال : « إنى قلت لكم : سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا إنها تَعْدِلُ ثلث القرآن » .

وقال فضيلة الشيخ ابن باز رحمه الله فى التنبيهات اللطيفة ص ٢١: وجه كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن ، أن القرآن خبر وإنشاء ، والخبر ينقسم فى كلام الله إلى قسمين ؛ خبر عن الله وعن أسمائه وصفاته ، وخبر عن خلقه من الجنة والنار وأشراط الساعة وجميع ما تضمنه الكتاب من وعد ووعيد ، ومما كان أو سيكون .

وهذه السورة تمحَّضت للخبر عن الله سبحانه ، فكانت ثلث القرآن بهذا الاعتبار .

ولقد دلت هذه السورة على أصول عظيمة يُستفاد منها إثبات جميع صفات الكمال لله ، ونفى جميع النقائص والعيوب .

كما دلت على أنواع التوحيد الثلاثة ؛ توحيد الذات والصفات ، وذلك على سبيل المطابقة ، وعلى توحيد الربوبية ، وذلك على طريق التضمُّن ، وتوحيد العبادة بالالتزام .

إذ إن دلالة الشىء على كل معناه يسمى مطابقة ، ودلالته على بعضه يسمى تضمنًا ، وعلى ما يلزم من جهة الخارج يسمى التزامًا . اهـ

....

(حيث يقولُ) اللهُ جَلَّ شأنُه : (قل)؛ أي : يا محمدُ ، في هذا دليلٌ على أن القرآنَ كلامُ اللهِ؛ إذ لو كان كلامَ محمدٍ أو غيرِه لم يَقُلْ (قل) .

﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ؛ أي : واحدٌ لا نظيرَ له ، ولا وزيرَ ، ولا مَثيلَ ، ولا شريكَ له .

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ؛ أي : السيدُ الذي كمُل في سُؤْدَدِه ، وشرفِه ، وعظمتِه ، وفيه جميعُ صفاتِ الكمالِ(١) ، والذي تَصْمُدُ إليه الخلائقُ ، وتَقْصِدُه في جميعِ حاجاتِها ومَهَمَّاتِها(٢) .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ؛ أي : ليس له ولدٌ ، ولا والدٌ ، وفيه الردُّ على النصارَى ومُشْرِكي العربِ الذين نسَبوا للهِ الولدَ .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ؛ أي : ليس له مكافئٌ ، ولا مُماثِلٌ ، ولا نظيرٌ .

والشاهدُ من هذه السورةِ : أنها تضَمَّنَت وجمَعَت بينَ النفيِ والإثباتِ ، فقولُه : ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ إثباتٌ . وقولُه : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ نفيٌ .

* * *

(١) قال الشاعر :

ألا بَكَّرَ الناعِي بخيرِ بَنِي أَسَدِ   بعَمْرِو بنِ مسعودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدِ

وقال آخَرُ :

عَلَوْتُه بحُسَامٍ ثم قلتُ لَهُ   خُذْهَا حُذَيْفُ فأنت السَّيِّدُ الصَّمَدُ

(٢) وقيل : إن معنى « الصَّمَد » الذي ليس له جَوْفٌ ؛ أي : لا يأكل . وقيل : إن تفسيره قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

وقيل : إنه الباقي الذي لا يَفْنَى .

وما وصَفَ به نفسَه في أعظمِ آيةٍ في كتابِه ، حيث يقولُ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ - أى : لا يَكْرِثُه ، ولا يُثْقِلُه - حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

ولهذا كان مَن قَرَأ هذه الآيةَ فى ليلةٍ لم يَزَلْ عليهِ مِن اللهِ حافظٌ ، ولا يَقْرَبُه شيطانٌ حتى يُصْبِحَ .

الشرحُ :

(**وما وصَفَ به نفسَه فى أعظمِ آيةٍ من كتابِه**) ؛ أى : ودخَل فى الجملةِ السابقةِ ما وصَفَ اللهُ به نفسَه الكريمةَ .

(**فى أعظمِ آيةٍ**) والآيةُ فى اللغةِ العلامةُ ، والمرادُ بها هنا طائفةٌ من كلماتِ القرآنِ ، مُتَميِّزةٌ عن غيرِها بفاصلةٍ ، وتُسَمَّى هذه الآيةُ التى أوْرَدَها هنا آيةَ الكرسيِّ؛ لذِكْرِ الكرسيِّ فيها .

والدليلُ على أنها أعظمُ آيةٍ فى القرآنِ ما ثبَتَ فى الحديثِ الصحيحِ الذى رواه مسلمٌ ، عن أُبَيِّ بنِ كعبٍ رضِى اللهُ عنه ، أن النبيَّ ﷺ سأَلَه : « أىُّ آيةٍ فى كتابِ اللهِ أعظمُ ؟ » قال : اللهُ ورسولُه أعلمُ . فردَّدَها مِرارًا ، ثم قال أُبيٌّ : آيةُ الكرسيِّ . فقال النبيُّ ﷺ : « لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المُنْذِرِ »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٥/ ١٤١، ١٤٢ (٢١١٧٥) ، ومسلم ١/٥٥٦ (٨١٠) ، وأبو داود (١٤٦٠) .

....

وسببُ كونِها أعظمَ آيةٍ لِما اشْتَمَلَت عليه من إثباتِ أسماءِ اللهِ وصفاتِه، وتنزيهِه عما لا يَلِيقُ به.

فقولُه تعالى: ﴿ **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** ﴾؛ أي: لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، وما سواه فعبادتُه من أبطلِ الباطلِ.

﴿ **الْحَيُّ** ﴾؛ أي: الدائمُ الباقي، الذي له كَمالُ الحياةِ، والذي لا سبيلَ للفناءِ عليه.

﴿ **الْقَيُّومُ** ﴾؛ أي: القائمُ بنفسِه، المقيمُ لغيرِه، فهو غنيٌّ عن خلقِه، وخَلْقُه محتاجون إليه، وقد ورَد أن (الحي القيوم) هو الاسمُ الأعظمُ الذي إذا دُعِي اللهُ به أجاب، وإذا سُئِل به أعْطَى[1]؛ لِدَلالةِ (الحي) على الصفاتِ الذاتيةِ، ودلالةِ (القيوم)

---

(١) روى أحمد في مسنده ٣/١٥٨، ٢٤٥ (١٢٠٤٨، ١٣٥٠٤)، وأبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (١٢٩٩) عن أنس رضي الله عنه، قال: كنتُ مع النبي ﷺ، ورجلٌ يُصَلِّي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المَنَّان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئِل به أَعْطَى».

وقد ذهب الشيخ ابن عثيمين رحمه الله إلى أن هذين الاسمين هما اسم الله الأعظم، فقال في شرح العقيدة الواسطية ١/ ١٦٦: وهذا الاسمان هما الاسم الأعظم الذي إذا دُعِي به اللهُ أجاب، ولهذا ينبغي للإنسان في دعائه أن يتوسل به، فيقول: يا حي يا قيوم. وقد ذُكِر في الكتاب العزيز في ثلاثة مواضع: هذا أحدها، والثاني في سورة آل عمران: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾، والثالث في سورة طه: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾.

وهذان الاسمان فيهما الكمال الذاتي والكمال السلطاني؛ فالذاتي في قوله: ﴿ الْحَيُّ ﴾، والسلطاني في قوله: ﴿ الْقَيُّومُ ﴾؛ لأنه يقوم على كل شيء، ويقوم به كل شيء. اهـ
وانظر مجموع الفتاوى ١٨/ ٣١١.

....

على الصفاتِ الفعليةِ ، فالصفاتُ كلُّها تَرْجِعُ إلى هذين الاسمين الكريمَيْنِ العظيمَيْنِ .

ولكمالِ قَيُّوميته :

﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ السِّنَةُ النُّعاسُ ، وهو نومٌ خفيفٌ ، ويكونُ فى العينِ فقط ، والنومُ أقوى من السِّنَةِ ، وهو أخو الموتِ ، ويكونُ فى القلبِ .

﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ مُلْكًا ، وخَلْقًا ، وعَبيدًا ، فهو يَمْلِكُ العالمَ العُلْوىَّ والسُّفْلىَّ .

﴿ مَنْ ذَا الَّذِى ﴾ ؛ أى : لا أحدَ .

﴿ يَشْفَعُ عِنْدَهُ ﴾ الشفاعةُ مُشْتَقَّةٌ من الشَّفْعِ ، وهو ضدُّ الوترِ ، فكأنَّ الشافعَ ضمَّ سؤالَه إلى سؤالِ غيرِه ، فصيَّره شَفْعًا بعدَ أن كان وترًا .

والشفاعةُ سؤالُ الخيرِ للغيرِ ، بمعنى أن يَسْأَلَ المؤمنُ ربَّه أن يَغْفِرَ ذنوبَ وجرائمَ بعضِ المؤمنين ، لكنها ملكٌ للهِ سبحانَه ، فلا تكونُ :

﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ؛ أى : بأمره ، وذلك لكِبْريائِه وعَظَمتِه سبحانَه وتعالى ، لا يَستطيعُ أحدٌ أن يَتَقَدَّمَ إليه بالشفاعةِ عندَه لأحدٍ إلا بعدَ أن يَأْذَنَ .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ؛ أى : عِلْمُه واطِّلاعُه مُحيطٌ بالأمورِ الماضيةِ والمستقبلةِ ، فلا يَخْفى عليه منها شىءٌ .

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾؛أى : العبادُ لا يَعْلَمون شيئًا من علمِ اللهِ إلا ما علَّمهم اللهُ إياه على ألسنةِ رسلِه ، وبطرقٍ وأسبابٍ متنوعةٍ .

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ كرسيُّه سبحانَه ، قيل : إنه العرشُ[1] ،

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله فى شرح العقيدة الواسطية ١ / ١٧ : وليس هو =

....

وقيل : إنَّه غيرُه . فقد ورَدَ أنه موضعُ القدَمَيْن[(١)] .

وهو كرسيٌّ بلَغ من عظمتِه وسَعَتِه أنه وسِعَ السماواتِ والأرضَ .

﴿ وَلَا يَـُٔودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ ، أى : لا يَكْرُثُه ، ولا يَشُقُّ عليه ، ولا يُثْقِلُه حفظُ العالمِ العُلْوىِّ والسُّفْلىِّ؛ لكمالِ قدرتِه وقوتِه .

﴿ وَهُوَ الْعَلِىُّ ﴾ ، أى : له العُلُوُّ المُطْلَقُ؛ عُلُوُّ الذاتِ بكونِه فوقَ جميعِ المخلوقاتِ على العرشِ استوى .

وعُلُوُّ القَدْرِ ، فله كلُّ صفاتِ الكمالِ ونُعوتِ الجلالِ .

وعُلُوُّ القَهْرِ فهو القادرُ على كلِّ شىءٍ ، المُتَصَرِّفُ فى كلِّ شىءٍ ، لا يَمْتَنِعُ عليه شىءٌ .

= العرش ، بل العرش أكبر من الكرسى ، وقد ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام : « أن السماوات السبع والأرَضين السبع بالنسبة للكرسى كحلقة ألقيت فى فَلاة من الأرض ، وأن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على هذه الحلقة » . اهـ

رواه ابن أبى شيبة فى كتاب « العرش » (٥٨) ، والبيهقى فى « الأسماء والصفات » (٨٦٢)، من حديث أبى ذر رضى اللَّه عنه . والحديث صححه الألبانى فى « السلسلة الصحيحة » (١٠٩) وقال : إنه لا يصح حديث مرفوع عن النبى ﷺ فى صفة العرش إلا هذا الحديث .

(١) رواه عبد اللَّه بن الإمام أحمد فى كتاب « السنة » (٥٨٦) ، وابن أبى شيبة فى كتاب « العرش » (٦١) ، وابن خزيمة فى « التوحيد » (٢٤٨) ، والحاكم فى « المستدرك » ٢/ ٢٨٢ وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى ، ورواه الدارقطنى فى كتاب « الصفات » (٣٦) عن ابن عباس موقوفًا عليه ، وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٣ للطبرانى وقال : رجاله رجال الصحيح . وقال الألبانى فى « مختصر العلو » (٤٥) : إسناده صحيح ؛ رجاله كلهم ثقات .

....

﴿ الْعَظِيمُ ﴾ الذى له جميعُ صفاتِ العَظَمةِ ، وله التعظيمُ الكاملُ فى قلوبِ أنبيائِه وملائكتِه وعبادِه المؤمنين .

فحَقِيقٌ بآيةٍ تَحْتَوِى على هذه المعانى أن تكونَ أعظمَ آيةٍ فى القرآنِ ، وأن تَحْفَظَ قارئَها من الشرورِ والشياطينِ .

والشاهدُ منها : أن اللهَ جَمَع فيها فيما وصَفَ وسَمَّى به نفسَه بينَ النفيِ والإثباتِ ، فقد تضَمَّنَت إثباتَ صفاتِ الكمالِ ، ونَفْىَ النقصِ عن اللهِ .

ففى قولِه : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نفىُ الإلهيةِ عما سواه ، وإثباتُها له .

وفى قولِه : ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ إثباتُ الحياةِ والقيوميةِ له .

وفى قولِه : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ نفىُ السِّنَةِ والنَّومِ عنه .

وفى قولِه : ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ إثباتُ مِلْكِيَّتِه الكاملةِ للعالَمَيْنِ العُلْوىِّ والسُّفْلىِّ .

وفى قولِه : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ نفىُ الشفاعةِ عندَه بغيرِ إذنِه لكَمالِ عظمتِه ، وغِناه عن خلقِه .

وفى قولِه : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ إثباتُ كمالِ علمِه بكلِّ شىءٍ ، ماضيًا أو مستقبلًا .

وفى قولِه : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ بيانُ حاجةِ الخلقِ إليه ، وإثباتُ غِناه عنهم .

وفى قولِه : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ إثباتُ كرسيِّه ، وإثباتُ كمالِ عظمتِه ، وجَلالتِه ، وصِغَرِ المخلوقاتِ بالنسبةِ إليه .

وفى قولِه : ﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ نفىُ العَجْزِ والتَّعَبِ عنه سبحانَه .

....

* * *

وفى قولِه : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ إثباتُ العُلُوِّ والعظمةِ له سبحانَه .

وقولُ المصنِّفِ رحِمه اللهُ : ولهذا كان مَن قَرَأَ هذه الآيَةَ فى ليلةٍ لم يَزَلْ عليه مِن اللهِ حافظٌ ، ولا يَقْرَبُه شيطانٌ حتى يُصْبِحَ . يُشِيرُ إلى ما رواه البخاريُّ فى صحيحِه ، عن أبى هريرةَ رضِى اللهُ عنه ، وفيه : « إذا أَوَيْتَ إلى فراشِك فاقْرَأْ آيةَ الكرسىِّ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ حتى تَخْتِمَ الآيَةَ؛ فإنك لن يَزالَ عليك من اللهِ حافظٌ ، ولا يَقْرَبُكَ شيطانٌ حتى تُصْبِحَ »[1] الحديثَ .

والشيطانُ يُطْلَقُ على كلِّ مُتَمَرِّدٍ عاتٍ[2] ، من الجنِّ والإنسِ ، من (شَطَنَ) إذا بَعُدَ ، سُمِّى بذلك لبعدِه مِن رحمةِ اللهِ ، أو من شاطَ يَشِيطُ ، إذا اشْتَدَّ .

* * *

(١) ذكره البخارى رحمه الله (٢٣١١، ٣٢٧٥، ٥٠١٠) معلَّقًا بصيغة الجزم . قال الحافظ رحمه الله فى الفتح ٤/٤٨٧، ٤٨٨: هكذا أورد البخارى هذا الحديث هنا ، ولم يصرِّح فيه بالتحديث ، وزعم ابن العربى أنه منقطع ، وأعاده كذلك فى صفة إبليس ، وفى فضائل القرآن لكن باختصار ، وقد وصله النسائى والإسماعيلى وأبو نعيم من طرق . اهـ . وانظر تغليق التعليق .

(٢) العُتُوُّ : التَّجبُّر والتَّكبُّر ، وقد عَتَا يَعْتُو عُتُوًّا ، فهو عاتٍ . النهاية لابن الأثير (ع ت و) .

٢- الجمعُ بيـنَ عُلُوّه ، وقُرْبِه ، وأَزَلِيَّتِه ، وأَبَدِيَّتِه

وقولِه سبحانَه : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] .

الشرحُ :

قولُه : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ الآيةَ ، هذه الآيةُ الكريمةُ قد فسَّرها النبيُّ ﷺ فى الحديثِ الذى رواه مسلمٌ ، أنه ﷺ قال : « اللهمَّ أنت الأولُ ، فليس قبلَك شىءٌ ، وأنت الآخِرُ ، فليس بعدَك شىءٌ ، وأنت الظاهرُ فليس فوقَك شىءٌ ، وأنت الباطنُ فليس دونَك شىءٌ »[1] .

فقد فسَّر النبيُّ ﷺ هذه الأسماءَ الأربعةَ بهذا التفسيرِ المُخْتَصَرِ الواضحِ ، وفى هذه الأسماءِ المُبارَكةِ إحاطتُه سبحانَه مِن كلِّ وجهٍ .

ففى اسمِه « الأول » ، و« الآخر » إحاطتُه الزمانيةُ .

وفى اسمِه « الظاهِر » ، و« الباطن » إحاطتُه المكانيةُ .

قال الإمامُ ابنُ القيِّم رحِمه اللهُ : فهذه الأسماءُ الأربعةُ مُتَقابِلةٌ ؛ اسمان لأزليتِه وأبديتِه سبحانَه ، واسمان لعُلُوِّه وقُرْبِه .

فأوليتُهُ سبحانَه سابقةٌ على أوليةِ كلِّ ما سواه ، وآخريتُه سبحانَه ثابتةٌ بعدَ آخِريةِ كلِّ ما سِواه ، فأوليتُه سَبْقُهُ لكلِّ شىءٍ ، وآخريتُه بقاؤُه بعدَ كلِّ شىءٍ .

وظاهريتُه فوقيتُه وعُلُوُّه على كلِّ شىءٍ ، ومعنى الظهورِ يَقْتَضِى العلوَّ ، وظاهرُ الشىءِ ما علا منه .

وبطونُه سبحانَه إحاطتُه بكلِّ شىءٍ ، بحيث يكونُ أقربَ إليه من نفسِه ، وهذا قربُ الإحاطةِ العامةِ . اهـ

(١) رواه مسلم ٤/٢٠٨٤ (٢٧١٣) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : ٥٨] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبأ : ١] .

وقولُه تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ؛ أى : قد أحاط علمُه بكلِّ شىءٍ من الأمورِ الماضيةِ والحاضرةِ والـمُستَقْبَلةِ ، ومن العالمِ العُلْوِىِّ والسُّفْلِىِّ ، ومن الظواهرِ والبواطنِ ، لا يَعْزُبُ عن علمِه مثقالُ ذرةٍ فى الأرضِ ، ولا فى السماءِ .

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : إثباتُ هذه الأسماءِ الكريمةِ للهِ المُقْتَضِيةِ لإحاطتِه بكلِّ شىءٍ زمانًا ، ومكانًا ، واطِّلاعًا ، وتقديرًا ، وتَدْبيرًا ، تعالى وتقَدَّس عُلُوًّا كبيرًا .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ أبدًا ؛ أى : فَوِّضْ أمورَك إليه ، فالتوكُّلُ لغةً : التفويضُ ، يقالُ : وكَلْتُ أمرى إلى فلانٍ . أى : فوَّضْتُه .

ومعناه شرعًا : اعتمادُ القلبِ على اللهِ فى جلبِ ما يَنْفَعُ ، ودفْعِ ما يَضُرُّ .

والتوكُّلُ على اللهِ نوعٌ من أنواعِ العبادةِ ، وهو واجبٌ ، ولا ينافى الأخذَ بالأسبابِ ، بل يَتَّفِقُ معه تمامًا[1] .

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه اللَّه فى القول المفيد ١ / ٢٠٥ : والناس فى الأسباب طرفان ووسط :

الأول : من ينكر الأسباب ، وهم كل من قال بنفى حكمة اللَّه ؛ كالجَبْرية ، والأشعرية .

الثانى : من يغلو فى إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسبب سببًا ، وهؤلاء هم عامة الخُرَافِيِّين من الصوفية ونحوهم .

الثالث : من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها ، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته اللَّه سبحانه ورسوله ، سواء كان سببًا شرعيًّا أو كونيًّا .

ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا باللَّه إيمانًا حقيقيًّا ، وآمنوا بحكمته ؛ حيث ربطوا الأسباب بمسبَّباتها ، والعلل بمعلولاتها ، وهذا من تمام الحكمة . اهـ

وقال السعدى ، رحمه اللَّه فى « القول السديد » ص ٣٤ : ولابد من معرفة ثلاثة أمور فى الأسباب : =

....

وخَصَّ صفةَ الحياةِ إشارةً إلى أن الحيَّ هو الذى يُوثَقُ به فى تحصيلِ المصالحِ ،

= الأول : ألا يجعل منها سببًا إلا ما ثبت أنه سبب شرعًا أو قدرًا .

الثانى : ألا يعتمد العبد عليها ، بل يعتمد على مسبِّبها ومقدِّرها مع قيامه بالمشروع منها ، وحرصه على النافع منها .

الثالث : أن يعلم أن الأسباب مهما عظُمت وقوِيت : فإنها مرتبطة بقضاء اللَّه وقدره ، ولا خروج لها عنه . اهـ

وقال ابن القيم فى « مدارج السالكين » ٣/٤٩٥ : وبالجملة ، فليس إسقاط الأسباب من التوحيد ، بل القيام بها واعتبارها وإنزالها منازلها التى أنزلها الله فيها هو محض التوحيد والعبودية .

والقول بإسقاط الأسباب هو توحيد القَدَرية الجَبْرية ، أتباع جَهم بن صفوان فى الجبر ؛ فإنه كان غاليًا فيه ، وعندهم أن اللَّه لم يخلق شيئًا بسبب ، ولا جعل فى الأسباب قُوًى وطبائع تؤثِّر ؛ فليس فى النار قوة الإحراق ، ولا فى السم قوة الإهلاك ، ولا فى الماء والخبز قوة الرِّيِّ والتغذى به ، ولا فى العين قوة الإبصار ، ولا فى الأذن والأنف قوة السمع والشم ، بل اللَّه - سبحانه - يحدث هذه الآثار عند ملاقاة الأجسام لا بها ؛ فليس الشِّبَع بالأكل ، ولا الرِّيُّ بالشرب ، ولا الطاعات والتوحيد سببًا لدخول الجنة ، ولا الشرك والكفر والمعاصى سببًا لدخول النار ، بل يدخل هؤلاء النار بمحض مشيئته من غير سبب ولا حكمة . وطرد هذا المذهب مفسد للدين والدنيا ، بل ولسائر أديان الرسل ، ولهذا لما طرَده قوم أسقطوا الأسباب الدنيوية وعطَّلوها ، ولم يمكنهم ذلك ؛ فإنهم لا بدَّ أن يأكلوا ويشربوا ويباشروا من الأسباب ما يدفع عنهم الحر والبرد .

وقال فى ص ٤٩٩ : « وقد قال بعض أهل العلم : الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب - أن تكون أسبابًا - تغيير فى وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، والتوكل معنى يلتئم من معنى التوحيد والعقل والشرع .

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد ؛ فالالتفات إلى الأسباب ضَرْبان : =

....

ولا حياةَ على الدوامِ إلا للهِ سبحانَه ، وأما الأحياءُ المُنْقَطِعةُ حياتُهم فإنهم إذا ماتوا

= **أحدهما** : شرك .

والآخر : عبودية وتوحيد .

فالشرك أن يعتمد عليها ويطمئن إليها ، ويعتقد أنها بذاتها محصِّلة للمقصود ؛ فهو مُعْرِض عن المسبِّب لها ، ويجعل نظره والتفاته مقصورًا عليها ، وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها وإنزالها منازلها ؛ فهذا الالتفات عبودية وتوحيد ؛ إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبِّب ، وأما محوها أن تكون أسبابًا ؛ فقدح فى العقل والحس والفطرة ، فإن أعرض عنها بالكلية ؛ كان ذلك قدحًا فى الشرع وإبطالًا له .

وحقيقة التوكل : القيام بالأسباب ، والاعتماد بالقلب على المسبِّب ، واعتقاد أنها بيده ، فإن شاء منعها اقتضاءها ، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها ، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه .

فالموحِّد المتوكِّل : لا يلتفت إلى الأسباب ، بمعنى أنه لا يطمئن إليها ولا يرجوها ولا يخافها ؛ فلا يركن إليها ، ولا يلتفت إليها – بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها – ، بل يكون قائمًا بها ، ملتفتًا إليها ، ناظرًا إلى مسبِّبها سبحانه ومُجْرِيها ؛ فلا يصح التوكل – شرعًا وعقلًا – إلا عليه سبحانه وحده ، فإنه ليس فى الوجود سبب تام موجِب إلا مشيئته وحده ؛ فهو الذى سبب الأسباب ، وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها ، ولم يجعل منها سببًا يقتضى وحده أثره ، بل لابد معه من سبب آخر يشاركه وجعل لها أسبابًا تضادها وتمانعها ، بخلاف مشيئته سبحانه ؛ فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر ، ولا فى الأسباب الحادثة ما يبطلها ويضادها ، وإن كان اللّه – سبحانه – قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته ، فيشاء الأمر ، ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصوله ، والجميع بمشيئته واختياره ؛ فلا يصح التوكل إلا عليه ، ولا الالتجاء إلا إليه ، ولا الخوف إلا منه ، ولا الرجاء إلا له ، ولا الطمع إلا فى رحمته ؛ كما قال أعرف الخلق به ؛ ﷺ : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » ، وقال : « لا منجى ، ولا ملجأ منك إلا إليك » .

فإذا جمعتَ بين هذا التوحيد وبين إثبات الأسباب ؛ استقام قلبك على السير إلى اللّه ، =

....

ضاع مَن يَتوكَّلُ عليهم .

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : أن فيها إثباتَ الحياةِ الكاملةِ للهِ سبحانَه ، ونفيَ

= ووضَح لك الطريق الأعظم الذى مضى عليه جميع رسل اللَّه وأنبيائه وأتباعهم ، وهو الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم اللَّه عليهم ، وباللَّه التوفيق ، وما سبق به علم اللَّه وحكمه حق ، وهو لا ينافى إثبات الأسباب ، ولا يقتضى إسقاطها ؛ فإنه سبحانه قد علم وحكم أن كذا وكذا يحدث بسبب كذا وكذا ؛ فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه ، فإسقاط الأسباب خلاف موجب علمه وحكمه ، فمن نظر إلى الحدوث بغير الأسباب ، لم يكن نظره وشهوده مطابقًا للحق ، بل كان شهوده غيبة ونظره عمًى ، فإذا كان علم اللَّه قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها ؛ فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هى عليه فى علمه وحكمه وخلقه وأمره ؟!

والعلل التى تُتَّقَى فى الأسباب نوعان :

أحدهما :الاعتماد عليها ، والتوكل عليها ، والثقة بها ، ورجاؤها وخوفها ؛ فهذا شرك يَرِقُّ ويغلظ وبين ذلك .

الثانى :ترك ما أمر اللَّه به من الأسباب ، وهذا أيضًا قد يكون كفرًا وظلمًا ، وبين ذلك ، بل على العبد أن يفعل ما أمره اللَّه به من الأمر ، ويتوكل على اللَّه توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة اللَّه ، سبق به علمه وحكمه ، وأن السبب لا يضر ولا ينفع ، ولا يعطى ولا يمنع ، ولا يقضى ولا يحكم ، ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية ، ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم ، فيأتى بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها ، ويتوكل على اللَّه توكل من يرى أنها لا تنجيه ، ولا تُحَصِّلُ له فلاحًا ، ولا توصله إلى المقصود عليها ؛ فيجرد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادًا ، ويُفَرِّغُ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها ؛ تجريدًا للتوكل ، واعتمادًا على اللَّه وحده ، وقد جمع النبى ﷺ بين هذين الأصلين فى الحديث الصحيح ، حيث يقول : « احرص على ما ينفعك ، واستعن باللَّه ، ولا تَعْجِزْ » ؛ فأمَره بالحرص على الأسباب ، والاستعانة بالمسبِّب ، ونهاه عن العجز ، وهو نوعان : تقصير فى الأسباب وعدم الحرص عليها ، وتقصير فى الاستعانة باللَّه وترك تجريدها ؛ فالدين كله - ظاهره وباطنه ، شرائعه وحقائقه - تحت هذه الكلمات النبوية ، واللَّه أعلم . اهـ

....

* * *

الموتِ عنه ، ففيها الجمعُ بينَ النفيِ والإثباتِ في صفاتِ اللهِ تعالى .

وقولُه : ﴿ **وَهُوَ الْحَكِيمُ** ﴾ له مَعْنيان ؛ أحدُهما : أنه الحاكمُ بينَ خلقِه بأمرِه الكونيِّ ، وأمرِه الشرعيِّ في الدنيا والآخرةِ .

والثاني : أنه المُحْكِمُ المُتْقِنُ للأشياءِ ، مأخوذٌ من الحكمةِ ، وهي وَضْعُ الأشياءِ في مواضعِها ، فهو سبحانَه الحاكمُ بينَ عبادِه ، الذي له الحِكْمةُ في خلقِه وأمرِه ، لم يَخْلُقْ شيئًا عَبَثًا ، ولم يَشْرَعْ إلا ما هو عينُ المصلحةِ .

﴿ **الْخَبِيرُ** ﴾ من الخبرةِ ، وهي الإحاطةُ ببواطنِ الأشياءِ وظواهرِها ، يقالُ : خَبَرْتُ الشيءَ . إذا عرَفْتَه على حقيقتِه ، فهو سبحانَه الخبيرُ؛ أي : الذي أحاط ببواطنِ الأشياءِ وخَفَايَاها ، كما أحاط بظواهرِها .

والشَاهدُ من الآيةِ : أن فيها إثباتَ اسمين من أسمائِه سبحانَه : الحكيمِ ، الخبيرِ ، وهما يَتَضَمَّنان صفتين من صفاتِه ، وهما الحكمةُ والخبرةُ .

* * *

٣- إحاطةُ علمِه بجميعِ مخلوقاتِه

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ: ٢]، ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

الشرحُ:

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾؛ أي: ما يَدْخُلُ فيها من القَطْرِ، والبُذُورِ، والكُنوزِ، والموتى وغيرِ ذلك.

﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾؛ أي: من الأرضِ من النباتِ والمعادنِ وغيرِ ذلك.

﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾؛ أي: من المطرِ والملائكةِ وغيرِ ذلك.

﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾؛ أي: يَصْعَدُ في السماءِ من ملائكةٍ، وأعمالٍ، وغيرِ ذلك.

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ: أن فيها إثباتَ علمِ اللهِ سبحانَه المحيطِ بكلِّ شيءٍ.

وقولُه: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾؛ أي: عندَ اللهِ وحدَه خزائنُ الغيبِ، أو ما يُتَوَصَّلُ به إلى علمِه.

﴿ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ فمَن ادَّعى علمَ شيءٍ منها فقد كفَرَ، وقد ورَدَ تفسيرُ مفاتحِ الغيبِ في الحديثِ الذي رواه ابنُ عمرَ، كما في الصحيحين عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «مفاتحُ الغيبِ خمسٌ، لا يَعْلَمُهُنَّ إلا اللهُ. ثم قرأ هذه الآيةَ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾»[1].

---

(١) البخاري (٤٧٧٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما، والحديث رواه أيضًا البخاري =

....

....

= (٤٧٧٧) ، ومسلم ١/٣٩ (١٩) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه .
وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه اللّه فى شرح العقيدة الواسطية ١/١٩٤ - ١٩٧:
هذه المفاتح ؛ سواء قلنا : إن المفاتح هى المبادئ أو هى الخزائن ، أو المفاتيح ؛ لا يعلمها إلا اللّه عز وجل ؛ فلا يعلمها ملك ، ولا يعلمها رسول ، حتى إن أشرف الرسل الملكى - وهو جبريل - سأل أشرف الرسل البشرى - وهو محمد عليه الصلاة والسلام - قال : أخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » . والمعنى : كما أنه لا علم لك بها ؛ فلا علم لى بها أيضًا . فمن ادعى علم الساعة ؛ فهو كاذب كافر ، ومن صدقه ؛ فهو أيضًا كافر ؛ لأنه مكذِّب للقرآن . وهذه المفاتح فسرها أعلم الخلق بكلام اللّه محمد ﷺ حين قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ٣٤] . فهى خمسة أمور :
الأول : علم الساعة ، فعلم الساعة مبدأ مِفْتاح لحياة الآخرة ، وسميت الساعة بهذا ؛ لأنها ساعة عظيمة ، يهدِّد بها جميع الناس ، وهى الحاقة والواقعة ، والساعة علمها عند اللّه ، لا يدرى أحد متى تقوم إلا اللّه عز وجل .
الثانى : تنزيل الغيث ، لقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ . الْغَيْث مصدر ، ومعناه : إزالة الشدة ، والمراد به المطر ؛ لأنه بالمطر تزول شدة القحط والجدب ، وإذا كان هو الذى ينزل الغيث ؛ كان هو الذى يعلم وقت نزوله .
والمطر نزوله مفتاح لحياة الأرض بالنبات ، وبحياة النبات يكون الخير فى المرعى وجميع ما يتعلق بمصالح العباد .
وهنا نقطة : قال : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ ولم يقل : وينزل المطر ؛ لأن المطر أحيانًا ينزل ولا يكون فيه نبات ، فلا يكون غيثًا ، ولا تحيى به الأرض ، ولهذا ثبت فى « صحيح مسلم » : « ليست السَّنَةُ ألا تُمْطَروا ، إنما السَّنَة أن تُمْطَروا ولا تُنْبِتُ الأرض شيئًا » ، والسَّنَة القحط .
الثالث : علم ما فى الأرحام ؛ لقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ ؛ أى : أرحام الإناث ، =

....

....

= فهو عز وجل يعلم ما فى الأرحام ؛ أى : ما فى بطون الأمهات من بنى آدم وغيرهم ، ومتعلَّق العلم عام ، بكل شيء ؛ فلا يعلم ما فى الأرحام إلا من خلقها عز وجل .

فإن قلت : يقال الآن : إنهم صاروا يعلمون الذكر من الأنثى فى الرحم ؛ فهل هذا صحيح ؟
نقول : إن هذا الأمر واقع ، ولا يمكن إنكاره ، لكنهم لا يعلمون ذلك إلا بعد تكوين الجنين وظهور ذكورته أو أنوثته ، وللجنين أحوال أخرى لا يعلمونها ؛ فلا يعلمون متى ينزل ، ولا يعلمون إذا نزل إلى متى يبقى حيًّا ، ولا يعلمون هل يكون شقيًّا أو سعيدًا ، ولا يعلمون هل يكون غنيًّا أم فقيرًا ... إلى غير ذلك من أحواله المجهولة .
إذًا ؛ أكثر متعلَّقات العلم فيما يتعلق بالأجنة مجهول للخلق ؛ فصدق العموم فى قوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ ﴾ .

الرابع : علم ما فى الغد . وهو ما بعد يومك ؛ لقوله : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ ، وهذا مفتاح الكسب فى المستقبل ، وإذا كان الإنسان لا يعلم ما يكسبه لنفسه ، فعدم علمه بما يكسبه غيره أولى .
لكن لو قال قائل : أنا أعلم ما فى الغد ، سأذهب إلى المكان الفلانى ، أو أقرأ ، أو أزور أقاربى .
فنقول : قد يجزم بأنه سيعمل ، ولكن يحول بينه وبين العمل مانع .

الخامس : علم مكان الموت ؛ لقوله : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ؛ ما يدرى أى أحد هل يموت فى أرضه أو فى أرض أخرى ؟ فى أرض إسلامية أو أرض كافر أهلها ؟ ولا يدرى هل يموت فى البر أو فى البحر أو فى الجو ؟ وهذا شيء مشاهد .
ولا يدرى بأى ساعة يموت ؛ لأنه إذا كان لا يمكنه أن يدرى بأى أرض يموت ، وهو قد يتحكم فى المكان ؛ فكذلك لا يدرى بأى زمن وساعة يموت .
فهذه الخمسة هى مفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا اللَّه ، وسميت مفاتح الغيب ؛ لأن علم ما فى الأرحام مفتاح للحياة الدنيا ، ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ مفتاح للعمل المستقبل ، ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ مفتاح لحياة الآخرة ؛ لأن الإنسان إذا مات ؛ دخل =

....

﴿ وَيَعْلَـمُ مَا فِي الْبَرِّ ﴾؛ أي : اليابسِ المعمورِ ، والقِفارِ[1] من السكانِ والنباتِ والدوابِّ ، وغيرِ ذلك .

﴿ وَالْبَحْرِ ﴾؛ أي : يَعْلَمُ ما فيه من الحيواناتِ والجواهرِ ونحوِ ذلك .

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ ﴾؛ أي : من أشجارِ البرِّ والبحرِ وغيرِ ذلك .

﴿ إِلَّا يَعْلَـمُهَا ﴾؛ أي : يَعْلَمُها ، ويَعْلَمُ زمانَ سقوطِها ، ومكانَه .

﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ﴾؛ أي : ولا تكونُ حبةٌ في الأمكنةِ المُظْلِمةِ ، أو في بطنِ الأرضِ .

﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ ﴾ من جميعِ الموجوداتِ ، عمومٌ بعدَ خصوصٍ .

﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾؛ أي : لا يَحْصُلُ شيءٌ من ذلك ، إلا وهو مكتوبٌ في اللوحِ المحفوظِ .

وجهُ الشاهدِ من الآيةِ : أن فيها إثباتَ أنه لا يَعْلَمُ الغيبَ إلا اللهُ ، وأنَّ علمَه محيطٌ بكلِّ شيءٍ ، وفيها إثباتُ القَدَرِ والكتابةِ في اللوحِ المحفوظِ .

* * *

= عالم الآخرة ، وسبق بيان علم الساعة وتنزيل الغيث ؛ فتبين أن هذه المفاتح كلها مبادئ لكل ما وراءها ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ . أهـ .

(١) القِفَار جمع « قَفْر » ، وهو الخَلاء من الأرض ، لا ماءَ فيه ، ولا ناسَ ، ولا كَلأَ ، يقال : أرضٌ قَفْرٌ ، ومَفَازة قَفْرٌ ، وقَفْرَةٌ ، ومِقْفارٌ . وانظر مُخْتار الصِّحاح ، والمعجم الوسيط (ق ف ر) .

﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر : ١١] ، ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] ، وقولِه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾؛ أى : لا يكونُ حملٌ ، ولا وَضْعٌ إلا واللهُ عالمٌ به ، فلا يَخْرُجُ شيءٌ عن علمِه وتدبيرِه ، فيَعْلَمُ سبحانَه فى أىِّ يوم تَحْمِلُ الأنثى ، وفى أىِّ يوم تَضَعُ ، ونوعَ حملِها هل هو ذكرٌ ، أو أنثى .

﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ اللامُ متعلِّقةٌ بقولِه تعالى : ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾؛ أى : فعَل ذلك لتَعْلَموا كمالَ قدرتِه .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾؛ أى : ولتَعْلَموا إحاطةَ علمِه بالأشياءِ فلا يَخْرُجُ عن علمِهِ شيءٌ منها كائنًا ما كان ، و﴿ عِلْمًا ﴾ منصوبٌ على التمييزِ أو على المصدريَّةِ؛ لأن « أحاط » بمعنى « علِم » .

الشاهدُ من الآيتين : أن فيهما إثباتَ علمِ اللهِ المحيطِ بكلِّ شيءٍ ، وإثباتَ قدرتِه على كلِّ شيءٍ .

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾؛ أى : لا رازقَ غيرُه ، الذى يَرْزُقُ مخلوقاتِه ، ويقومُ بما يُصْلِحُهم ، فهو كثيرُ الرزقِ ، واسعُه فلا تَعْبُدوا غيرَه .

﴿ ذُو الْقُوَّةِ ﴾؛ أى : صاحِبُ القوةِ التامةِ ، الذى لا يَعْتَريه ضعفٌ .

﴿ الْمَتِينُ ﴾؛ أى : البالغُ فى القوةِ والقدرةِ نهايتَهما ، فلا يَلْحَقُه فى أفعالِه مشقةٌ ، ولا كُلْفةٌ ، ولا تعبٌ .

والمتانةُ معناها : الشدةُ والقوةُ .

الشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : أن فيها إثباتَ اسمِه « الرزاقِ » ، ووصفَه بالقوةِ التامةِ التى لا يَعْتَرِيها ضعفٌ ولا تعبٌ سبحانَه وتعالى ، وفيها الاستدلالُ على وجوبِ عبادتِه وحدَه لَا شريكَ له .

٤- إثباتُ السمعِ والبصرِ للهِ سبحانَه

وقولـه تعالـى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، وقولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] .

الشرحُ :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أولُ الآيةِ قولُه تعالى : ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ .

قال الإمامُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِه : أي ليس كخالقِ الأزواجِ كلِّها شيءٌ؛ لأنه الفَرْدُ الصَّمَدُ الذى لا نَظيرَ له(١) . اهـ

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ الذى يَسْمَعُ جميعَ الأصواتِ(٢) .

﴿الْبَصِيرُ﴾ الذى يَرَى كلَّ شيءٍ ، ولا يَخْفَى عليه شيءٌ في الأرضِ ، ولا في السماءِ(٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٠٩ .

(٢) قالت عائشة رضى اللَّه عنها : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ تكلمه ، وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل اللَّه عز وجل : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية .

رواه البخارى معلَّقًا بصيغة الجزم (الفتح ١٣/٣٧٢) ، وقد وصله أحمد فى المسند ٦/٤٦ (٢٤٠٧٧) ، وابن ماجه (١٨٨) بهذا اللفظ ، ورواه ابن ماجه أيضًا (٢٠٦٣) بلفظ « تبارك » .

(٣) قال الشاعر :

يا مَنْ يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَنَاحَها فى ظُلْمةِ الليلِ البَهِيمِ الأَلْيَلِ
ويَرَى نِياطَ عروقِها فى نحرِها والمخَّ فى تلك العظامِ النُّحَّلِ =

....

قال الإمامُ الشوكانيُّ في تفسيره : ومَن فهِم هذه الآيةَ الكريمةَ حَقَّ فهمِها ، وتدبَّرَها حقَّ تدبُّرِها مشَى بها عندَ اختلافِ المختلِفِينَ في الصفاتِ على جادَّةٍ بيضاءَ واضحةٍ .

ويَزْدادُ بصيرةً إذا تأمَّلَ معنى قولِه : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ . فإن هذا الإثباتَ بعدَ ذلك النفيِ للمُتماثِلِ قد اشْتَمَل على بَرْدِ اليقينِ ، وشِفاءِ الصُّدورِ ، وانْثِلاجِ القلوبِ .

فاقْدُرْ يا طالبَ الحقِّ قَدْرَ هذه الحُجَّةِ النَّيِّرةِ ، والبرهانِ القويِّ ، فإنك تَحْطِمُ بها كثيرًا من البدعِ وتَهْشِمُ بها رءوسًا من الضلالةِ ، وتَرْغَمُ بها أنوفَ طوائفَ مِن المتكلِّمين ، ولا سيَّما إذا ضمَمْتَ إليه قولَ اللهِ تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[1] . اهـ

وقولُه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا ﴾ قبلَه قولُه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ .

(نِعْمَ) مِن ألفاظِ المدحِ ، و(ما) قيل : نكرةٌ موصوفةٌ ، كأنه قيل : نِعْمَ شيئًا يَعِظُكم به .

وقيل : إنَّ (ما) موصولةٌ ؛ أي : نِعْم الشيءُ الذي يَعِظُكم به .

وقولُه : ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ ؛ أي : يأمُرُكم به من أداءِ الأماناتِ ، والحُكْمِ بينَ الناسِ بالعدلِ .

= امْنُنْ عَلَيَّ بتوبةٍ تَمْحُو بِها ما كان مِنِّي في الأزمانِ الأولِ

الأَلْيَلُ : يقال : ليلٌ أَلْيَلُ ؛ أي : شديد الظلمة .

النِّياطُ : جمعُ « نَوْط » ، وهو عِرْقٌ غَليظ عُلِّق به القلبُ إلى الرئتين .

(١) فتح القدير ٤/٥٢٨ .

....

* * *

وقولُه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾؛أى : إنه[1] سبحانَه سميعٌ لما تقولون ، بصيرٌ بما تفعلون .

الشاهدُ مِن الآيتين الكريمتين : أن فيهما إثباتَ السمعِ والبصرِ للهِ ، وفى الآيةِ الأولى نفيُ مماثلةِ المخلوقاتِ ، ففى ذلك الجمعُ فيما وصَفَ ، وسمَّى به نفسَه بينَ النفيِ والإثباتِ .

---

(١) ذكر النحاة لهمزة « إنَّ » مواضع يجب فيها فتحها ، ومواضع يجب فيها كسرها ، ومواضع يجوز فيها الفتح والكسر ، وذكروا أن من المواضع التى يجوز فيها الفتح والكسر أن تقع بعد « أىْ » المفسِّرة ، نحو : سرَّنى ابتداعُك المفيد ؛ أى : أنك تَبْتَكِر شيئًا جديدًا . فالكسر على عدم التأويل ، على اعتبار « إنَّ » فى صدر جملتها التفسيرية - ولا محل لها - والفتح على التأويل بمصدر ، واعتبار هذا المصدر المؤول بدلًا من المصدر الذى قبله . والتقدير : سرَّنى ابتداعُك المفيد ؛ أى : ابتكارُك شيئًا جديدًا .
وانظر النحو الوافى ٦٥٨/١ .

٥- إثباتُ المشيئةِ والإرادةِ للهِ سبحانَه

وقولِه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

الشرحُ :

قولُه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾؛ أى : هَلَّا إذ دخلْتَ بُسْتانَك ﴿ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾؛ أى : إن شاء أبْقاها ، وإن شاء أفناها ؛ اعْتِرافًا بالعجزِ ، وأنَّ القدرةَ للهِ سبحانَه ، قال بعضُ السلفِ : مَن أعْجَبَه شىءٌ فلْيَقُلْ : ما شاء اللهُ لا قوةَ إلا باللهِ[1] .

وقولُه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾؛ أى : لو شاء سبحانَه عدمَ اقتتالِهم لم يَقْتَتِلوا؛ لأنه لا يَجْرِى فى مُلْكِه إلا ما يريدُ ، لا رادَّ لحُكْمِه ، ولا مُبَدِّلَ لقضائِه .

---

(١) قال ابن تيمية ، رحمه الله فى كتابه « الكَلِمُ الطَّيِّبُ » ص ١٧٧ : فصلٌ فى الشىء يُعْجِبه ، ويخاف عليه العين . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ .

ثم قال رحمه الله ص ١٧٨ (٢٤٥) : ويذكر عن النبى ﷺ قال : « مَن رأى شيئًا فأعْجَبَه فقال : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله . [لم يَضُرَّه العين » يعنى : لا يصبه العين] . اهـ
وعلّق الشيخ الألبانى ، رحمه الله على هذا الحديث بقوله : ضعيف الإسناد جدًّا ، فيه أبو بكر الهُذَلى ، قال الحافظ فى « التقريب » : متروك الحديث . أخرجه ابن السُّنِّى (٢٠٣) والزيادة له . اهـ

وقوله : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة : ١] .

وقوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وقولُه تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ ﴾ ؛ أى : أُبيحت ، والخطابُ للمؤمنين .

﴿ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ ؛ أى : الإبلُ والبقرُ والغنمُ .

﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ استثناءٌ مِن ﴿ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ ، والمرادُ به المذكورُ فى قولِه : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : ٣] الآيةَ التى بعدَها بقليلٍ .

وقولُه : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ . استثناءٌ آخرُ مِن بهيمةِ الأنعامِ .

والمعنى : أُحِلَّت لكم بهيمةُ الأنعامِ كلُّها ، إلا ما كان منها وَحْشِيًّا ، فإنه صَيْدٌ لا يَحِلُّ لكم فى حالِ الإحرامِ .

فقولُه : ﴿ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ . فى محَلِّ نصبٍ على الحالِ ، والمرادُ بالحُرُمِ مَن هو مُحرِمٌ بحجٍّ ، أو عُمْرةٍ ، أو بهما .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ من التحليلِ والتحريمِ ، لا اعتراضَ عليه .

والشاهدُ من الآياتِ : أن فيها إثباتَ المشيئةِ والقوةِ والحكمِ والإرادةِ صفاتٍ للّهِ تعالى على ما يَلِيقُ بجلالِه .

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ ﴾ ؛ أى : مَن شاء اللّهُ سبحانَه أن يُوفِّقَه ، ويَجْعَلَ قلبَه قابلًا للخيرِ . و ﴿ مَن ﴾ : اسمٌ جازمٌ .

و﴿ يُرِدْ ﴾ مجزومٌ على أنه فعلُ الشرطِ .

﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ مجزومٌ بجوابِ الشرطِ ، والشَّرْحُ الشَّقُّ ، وأصلُه التَّوْسِعةُ ، وشرَحْتُ الأمرَ : بيَّنْتُه ووضَّحْتُه .

....

والمعنى : يُوَسِّعُ اللَّهُ صدرَه للحقِّ ، الذى هو الإسلامُ ، حتى يَقْبَلَه بصدرٍ منشرحٍ .

﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ ﴾ ؛ أى : ومَن شاء سبحانَه أن يَصْرِفَه عن قبولِ الحقِّ .

﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا ﴾ ؛ أى : لا يَتَّسِعُ لقبولِ الحقِّ .

﴿ حَرَجًا ﴾ ؛ أى : شديدَ الضيقِ ، فلا يَبْقَى فيه مَنْفَذٌ للخيرِ ، وهو تأكيدٌ لمعنَى ﴿ ضَيِّقًا ﴾ .

﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ أصلُه يَتَصَعَّدُ ؛ أى : كأنما تكَلَّفَ ما لا يُطِيقُ مرةً بعدَ مرةٍ ، كما يَتَكَلَّفُ مَن يُرِيدُ الصعودَ إلى السماءِ ، شبَّه الكافرَ فى ثِقَلِ الإيمانِ عليه بِمَن يَتَكَلَّفُ ما لا يُطِيقُه ، كصعودِ السماءِ .

الشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : أن فيها إثباتَ الإرادةِ للهِ سبحانَه ، وأنها شاملةٌ للهدايةِ والإضلالِ ؛ أى : يُرِيدُ الهدايةَ ، ويُرِيدُ الإضلالَ كونًا وقَدَرًا لحكمةٍ بالغةٍ .

فالإرادةُ الرَّبانيةُ نوعان :

النوعُ الأولُ : إرادةٌ كونيةٌ قدريةٌ ، وهذه مرادِفةٌ للمشيئةِ ، ومن أمثلتِها : قولُه تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ [الإسراء : ١٦]. وقولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد : ١١] . وقولُه : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ .

النوعُ الثانى : إرادةٌ دينيةٌ شرعيةٌ ، ومن أمثلتِها : قولُه تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : ٢٧] ، وقولُه : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] ، وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ

....

أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

الفرقُ بيـنَ الإرادتيـن :

١- الإرادةُ الكونيةُ قد يُحِبُّها اللَّهُ ويَرْضاها ، وقد لا يُحِبُّها ولا يَرْضاها ، والإرادةُ الشرعيةُ لابدَّ أنه يُحِبُّها ويَرْضاها ، فاللَّهُ أراد المعصيةَ كونًا ، ولا يَرْضاها شرعًا(١) .

---

(١) فهو سبحانه ، وإن عُصِي ، ولكن هذه المعصية لا تقع فى ملكه إلا بمشيئته وإرادته سبحانه ، ولا يلزم من إرادته الشيء أن يكون محبوبًا له ، ولا يلزم من كراهته للشيء ألا يكون مرادًا له بالإرادة الكونية ، بل هو عز وجل يكره الشيء ويريده بالإرادة الكونية ، ويوقع الشيء ولا يرضى عنه ، ولا يريده بالإرادة الشرعية .

فإن قلت : كيف يوقع ما لا يرضاه وما لا يحبه ؟! وهل أحد يُكْرِهُه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه ؟!

فالجواب : لا أحد يُكرهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه ، وهذا الذى يقع من فعله عز وجل وهو مكروه له ، هو مكروه له من وجه محبوب له من وجه آخر ؛ لما يترتب عليه من المصالح العظيمة .

فمثلًا ، الإيمان محبوب لله ، والكفر مكروه له ، فأوقع الكفر وهو مكروه له ؛ لمصالح عظيمة ؛ لأنه لولا وجود الكفر ؛ ما عرف الإيمان ، ولولا وجود الكفر ؛ ما عرف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالإيمان ، ولولا وجود الكفر ؛ ما قام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ لأن الناس كلهم يكونون على المعروف ، ولولا وجود الكفر ؛ ما قام الجهاد ، ولولا وجود الكفر ؛ لكان خلق الناس عبثًا ؛ لأن النار مثوى الكافرين ، ولولا وجود الكفر ؛ لكان الناس أمة واحدة ، ولم يعرفوا معروفًا ولم ينكروا منكرًا ، وهذا لا شك أنه مخل بالمجتمع الإنسانى ، ولولا وجود الكفار ؛ ما عرفت ولاية الله ؛ لأن من ولاية الله أن تبغض أعداء الله وأن تحب أولياء الله .

وكذلك يقال في الصحة والمرض ؛ فالصحة محبوبة للإنسان وملائمة له ، ورحمة الله تعالى فيها ظاهرة ، لكن المرض مكروه للإنسان ، وقد يكون عقوبة من الله له ، ومع ذلك يوقعه ؛ =

....

....

= لما فى ذلك من المصالح العظيمة .
كم من إنسان إذا أسبغ الله عليه النعمة بالبدن والمال والولد والبيت والمركوب ؛ ترفع ورأى أنه مستغن بما أنعم الله به عليه من طاعة الله عز وجل ؛ كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق : ٦ - ٧] ، وهذه مفسدة عظيمة ، فإن أراد الله أن يرد هذا الإنسان إلى مكانه ؛ ابتلاه حتى يرجع إلى اللّٰه ، وشاهد هذا قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .
وأنت أيها الإنسان إذا فكرت هذا التفكير الصحيح فى تقديرات اللّٰه عز وجل ؛ عرفت ما له سبحانه وتعالى من الحكمة فيما يقدره من خير أو شر ، وأن اللّٰه سبحانه وتعالى يخلق ما يكرهه ويقدر ما يكرهه لمصالح عظيمة ؛ قد تحيط بها ، وقد لا تحيط بها ، ويحيط بها غيرك ، وقد لا يحيط بها لا أنت ولا غيرك .
فإن قيل : كيف يكون الشىء مكروهًا لله ومرادًا له ؟
فالجواب : أنه لا غرابة فى ذلك ؛ فها هو الدواء المر طعمًا الخبيث رائحة يتناوله المريض وهو مرتاح ؛ لما يترتب عليه من مصلحة الشفاء ، وها هو الأب يمسك بابنه المريض ليكويه الطبيب ، وربما كواه هو بنفسه ، مع أنه يكره أشد الكره أن يحرق ابنه بالنار . اهـ
وقد ذكر الشيخ ابن عثيمين رحمه اللّٰه فى كتاب القول المفيد ٣/٢٠٦ حكاية ؛ أن القاضى عبد الجبار الهَمَدانى المعتزلى دخل على الصاحب ابن عباد وكان معتزليًا أيضًا ، وكان عنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني ، فقال عبد الجبار على الفور : سبحان من تنزَّه عن الفحشاء ! فقال أبو إسحاق فورًا : سبحان من لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء ! فقال عبد الجبار وفهم أنه قد عرف مراده : أيريد ربنا أن يعصى ؟ فقال أبو إسحاق : أيعصى ربنا قهرًا ؟ فقال له عبد الجبار : أرأيت إن منعنى الهدى وقضى علىَّ بالردى ؛ أحسن إلىَّ أم أساء ؟ فقال له أبو إسحاق : إن كان منعك ما هو لك ؛ فقد أساء ، وإن كان منعك ما هو له ؛ فيختص برحمته من يشاء . فانصرف الحاضرون وهم يقولون : واللّٰه ؛ ليس عن هذا جواب . اهـ

....

* * *

٢-والإرادةُ الكونيةُ مقصودةٌ لغيرِها ، كخلقِ إبليسَ وسائرِ الشُّرورِ ؛ لتَحْصُلَ بسببِ ذلك المجاهدةُ والتوبةُ والاستغفارُ ، وغيرُ ذلك من المحابِّ ، والإرادةُ الشرعيةُ مقصودةٌ لذاتِها ، فاللَّهُ أراد الطاعةَ كونًا وشرعًا ، وأحبَّها ، ورضِيَها .

٣-الإرادةُ الكونيةُ لابدَّ مِن وقوعِها ، والإرادةُ الشرعيةُ لا يلزمُ وقوعُها ، فقد تَقَعُ ، وقد لا تَقَعُ .

تنبيهٌ : تَجْتَمِعُ الإرادتان ؛ الكونيةُ والشرعيةُ فى حقِّ المُخْلِصِ المطيعِ ، وتنفردُ الإرادةُ الكونيةُ فى حقِّ العاصى .

تنبيهٌ آخرُ : مَن لم يُثْبِتِ الإرادتين ، ويُفَرِّقْ بينَهما فقد ضَلَّ كالجَبْريةِ والقَدَريةِ ، فالجبريةُ أثْبَتوا الإرادةَ الكونيةَ فقط ، والقدريةُ أثْبَتوا الإرادةَ الشرعيةَ فقط ، وأهلُ السنةِ أثْبَتوا الإرادتين ، وفرَّقوا بينَهما.

* * *

٦- إثباتُ محبَّةِ اللهِ ومَوَدَّتِه لأوليائِه على ما يَليقُ بجَلالِه

وقولِه : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٩٥] ، ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩]، ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وقولِه : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

الشرحُ :

لما ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ الآياتِ التى تَدُلُّ على إثباتِ المشيئةِ والإرادةِ ، ذكَر الآياتِ التى تَدُلُّ على إثباتِ المحبَّةِ للهِ سبحانَه ، وفى ذلك الردُّ على مَن سَوَّى بينَ المشيئةِ والمحبةِ ، وقال : إنهما مُتلازِمان ، فكلُّ ما شاء اللهُ فقد أحَبَّه .

وقد قدَّمْنا أن فى ذلك تفصيلًا ، فقد يَشاءُ اللَّهُ ما لا يُحِبُّه ، ككفرِ الكافرِ وسائرِ المعاصى ، وقد يَشاءُ ما يُحِبُّ ، كالإيمانِ وسائرِ الطاعاتِ .

وقولُه تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا ﴾ . هذا أمرٌ من اللَّهِ تعالى بالإحسانِ ، وهو الإتيانُ بالعملِ على أحسنِ أحوالِه وأكملِها ، والإحسانُ هو أعلى مقاماتِ الطاعةِ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هذا تعليلٌ للأمرِ بالإحسانِ ، فهو أمَر به ؛ لأنه يُحبُّه ، ويُحِبُّ أهلَه ، فيكونُ ذلك حافزًا على امتثالِ الأمرِ به .

وقولُه تعالى : ﴿ وَأَقْسِطُوا ﴾ . أمرٌ بالإقساطِ ، وهو العدلُ فى المعاملاتِ

....

والأحكامِ مع القريبِ والبعيدِ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالإقساطِ ، فهو أَمَرَ به ؛ لأنه ﴿ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ؛ أى العادلين ، ومحبتُه سبحانَه لهم تَسْتَلْزِمُ أن يَجْزِيَهم أحسنَ الجزاءِ .

وقولُه تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ ؛ أى : ما استقام لكم المشركون على العهدِ ، فلم يَنْقُضُوه ، فاسْتَقِيموا على الوفاءِ لهم ؛ فلا تُقاتِلوهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ؛ تعليلٌ للأمرِ بالاستقامةِ على العهدِ ، فهو أَمَرَ بها ؛ لأنها من أعمالِ المتقين الذين يُحِبُّهم اللَّهُ . وفيه إشارةٌ إلى أن الوفاءَ بالعهدِ والاستقامةَ عليه من أعمالِ المتقين ، والتقوى هى التحرُّزُ بطاعةِ اللَّهِ عن معصيتِه ؛ رجاءَ ثوابِه ، وخوفًا من عقابِه .

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ . التَّوَّابِينَ: جمعُ توَّابٍ ، صيغةُ مبالغةٍ مِن التوبةِ ، وهى لغةً : الرجوعُ.

وشرعًا : الرجوعُ عن الذنبِ . هذا تفسيرُها فى حقِّ العبدِ .

وأما فى حقِّ اللَّهِ فالتَّوابُ من أسماءِ اللَّهِ تعالى ، قال ابنُ القيمِ : العبدُ توابٌ ، واللَّهُ توابٌ ، فتوبةُ العبدِ رجوعُه إلى سيِّده ، وتوبةُ اللَّهِ نوعان : إذنٌ وتوفيقٌ ، وقبولٌ واعْتِدادٌ . اهـ

﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ المُتَطَهِّرين : جمعُ مُتَطَهِّرٍ ، اسمُ فاعلٍ مِن الطهارةِ ، وهى النَّزاهةُ والنظافةُ عن الأقذارِ ؛ حسِّيةً كانت أو معنويةً .

وفى الآيةِ الكريمةِ إخبارٌ مِن اللَّهِ سبحانَه عن محبتِه لهذين الصِّنْفين من عبادِه ؛ التَّوَّابين والمُتَطَهِّرين .

وقولِه : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وقولِه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] .

وقولِه : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ [البروج : ١٤] .

وقولُه تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ . سببُ نزولِ هذه الآيةِ الكريمةِ - كما ذكَرَه ابنُ كثيرٍ وغيرُه -: أن قومًا زَعَموا أنهم يُحِبُّون اللَّهَ فابْتَلاهم اللَّهُ ؛ أى : اخْتَبَرهم بهذه الآيةِ ، فهى حاكمةٌ على كلِّ مَن ادَّعى محبةَ اللَّهِ ، وليس هو على الطريقةِ المحمديةِ ، بأنه كاذبٌ فى دَعْواه .

وقولُه : ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ أى : يَحْصُلُ لكم فوقَ ما طَلبتُم من محبتِكم إياه ، وهو محبتُه إياكم ، وهو أعظمُ من الأولِ .

وقولُه تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ . هذا جوابُ الشرطِ فى قولِه : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ﴾ يقولُ تعالى مُخْبِرًا عن قدرتِه العظيمةِ أنه مَن تَوَلَّى عن نُصْرةِ دينِه وإقامةِ شريعتِه أنه يَسْتَبْدِلُ به مَن خيرٌ منه ، وهم قومٌ مُتَّصِفون بصفاتٍ عظيمةٍ ، مِن أعظمِها أنَّ اللَّهَ يُحِبُّهم ، وهم يُحِبُّونه .

والمرادُ بهم أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ وجيشُه من الصحابةِ والتابعين رضى اللَّهُ عنهم الذى قاتَلُوا أهلَ الرِّدَّةِ ، ثم كلُّ مَن جاء بعدَهم من المقاتلين للمُرْتَدِّين إلى يومِ القيامةِ .

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ ﴾ . إخبارٌ منه مُؤَكَّدٌ أنه سبحانَه يُحِبُّ مَن اتَّصَف بهذه الصفةِ .

﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ ﴾ ؛ أى : يُجاهِدُون بأموالِهم وأنفسِهم لإعلاءِ كلمةِ اللَّهِ .

﴿ صَفًّا ﴾ ؛ أى : يَصُفُّون أنفسَهم عندَ القتالِ ، ولا يَزُولون عن أماكنِهم .

....

﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ قد رُصَّ بعضُه ببعضٍ ، وأُلْزِق بعضُه ببعضٍ ، فليس فيه فُرْجةٌ ، ولا خَلَلٌ .

وقولُه : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ ؛ أى : كثيرُ المغفرةِ ، والغَفْرُ : السَّتْرُ ، فهو سبحانَه يَغْفِرُ لمن تاب إليه ؛ أى : يَسْتُرُ ذنوبَه ، ويَتَجاوَزُ عن خَطاياه .

﴿ الْوَدُودُ ﴾ من الوُدِّ ، وهو خالصُ الحبِّ ، فهو سبحانَه وَدُودٌ بمعنى أنه يُحِبُّ أهلَ طاعتِه .

وفى ذكرِ هذين الاسمَيْنِ الكريمَيْنِ مُقْتَرِنَيْن سرٌّ لطيفٌ ، وهو أنه يُحِبُّ عبدَه بعدَ المغفرةِ ، فيَغْفِرُ له وَيُحِبُّه بعدَ ذلك .

الشاهدُ من هذه الآياتِ الكريمةِ : أن فيها إثباتَ المَحبَّةِ والمودَّةِ للهِ سبحانَه ، وأنه يُحِبُّ ، ويَوَدُّ بعضَ الأشخاصِ والأعمالِ والأخلاقِ ، فهو يُحِبُّ بعضَ الأشياءِ دونَ بعضٍ ، على ما تَقْتَضِيه حكمتُه البالغةُ ، فهو يُحِبُّ المحسنين ، ويُحِبُّ المُقْسِطِين ، ويُحِبُّ المتقين ، ويُحِبُّ المُتَّبِعِينَ لرسولِه ﷺ ، ويُحِبُّ المجاهِدِين فى سبيلِه ، ويُحِبُّ التوابين والمتطهِّرِين .

وفيها إثباتُ المحبةِ من الجانبين ؛ جانبِ العبدِ وجانبِ الربِّ ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ففى ذلك الردُّ على مَن نَفَى المحبةَ من الجانبَيْنِ ، كالجهميةِ والمعتزلةِ ، فقالوا : لا يُحَبُّ ، ولا يُحِبُّ ، وأَوَّلوا محبةَ العبادِ بمعنى محبتِهم عبادتَه وطاعتَه ، ومحبتَه للعبادِ بمعنى إحسانِه إليهم وإثابتِهم ونحوِ ذلك .

وهذا تأويلٌ باطلٌ ؛ لأن مودتَه ومحبتَه سبحانَه وتعالى لعبادِه على حقيقتِهما ، كما يليقُ بجَلالِه ، كسائرِ صفاتِه ، ليْسَتا كمودةِ ومحبةِ المخلوقِ .

٧- إثباتُ اتصافِه بالرحمةِ والمغفرةِ سبحانَه وتعالى

وقولِه : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] ، ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٣] ، ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس : ١٠٧] ، ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] .

الشرحُ :

وقولُه : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ تقدَّم تفسيرُها فى أولِ الكتابِ ، ومناسبةُ ذكرِها هنا أن فيها إثباتَ الرحمةِ للهِ تعالى ، صفةً من صفاتِه ، كما فى الآياتِ المذكورةِ بعدَها .

قال الإمامُ ابنُ القيمِ : الرحمنُ دالٌّ على الصفةِ القائمةِ به سبحانَه ، والرحيمُ دالٌّ على تعلُّقِها بالمرحومِ ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ولم يَجِئْ قطُّ : رحمنٌ بهم .

وكان الأولُ للوصفِ والثانى للفعلِ ، فالأولُ دالٌّ على أن الرحمةَ وصفُه ، والثانى دالٌّ على أنه يَرْحَمُ خلقَه برحمتِه[1] . اهـ

قولُه : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ – هذا حكايةٌ عن الملائكةِ الذين يَحمِلُون العرشَ ومَن حولَه أنهم يَسْتَغْفِرون للذين آمنوا ، فيقولون : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أى : وَسِعَت رحمتُك وعلمُك كلَّ شىءٍ .

فـ ﴿ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ منصوبانِ على التمييزِ المُحَوَّلِ عن الفاعلِ ، وفى ذلك دليلٌ على سَعَةِ رحمةِ اللَّهِ وشُمولِها ، فما من مسلمٍ ولا كافرٍ إلا وقد نالَتْه رحمةُ اللَّهِ

(١) بدائع الفوائد ١/٣٢ .

....

فى الدنيا ، وأمَّا فى الآخرةِ فتَخْتَصُّ بالمؤمنين .

وقولُه : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ . هذا إخبارٌ من اللَّهِ سبحانَه أنه رحيمٌ بالمؤمنين ، يَرْحَمُهم فى الدنيا والآخرةِ ، أما فى الدنيا فإنه هَدَاهم إلى الحقِّ الذى جَهِله غيرُهم ، وبصَّرَهم الطريقَ الذى ضَلَّ عنه غيرُهم .

أما رحمتُه بهم فى الآخرةِ فأمَّنَهم من الفَزَعِ الأكبرِ ، ويُدْخِلُهم الجنةَ .

وقولُه : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ، أى : أَوْجَبَها على نفسِه الكريمةِ ؛ تفضُّلًا منه وإحسانًا . وهذه الكتابةُ كونيةٌ قَدَريةٌ ، لم يُوجِبْها عليه أحدٌ .

وقولُه : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . يُخْبِرُ سبحانَه عن نفسِه أنه مُتَّصِفٌ بالمغفرةِ والرحمةِ لمن تاب إليه ، وتَوَكَّل عليه ، ولو مِن أىِّ ذنبٍ كان كالشركِ ، فإنه يتوبُ عليه ، ويَغْفِرُ له ، ويَرْحَمُه .

وقولُه تعالى : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ . هذا مما حَكَاه اللَّهُ تعالى عن نبيِّه يعقوبَ عليه السلامُ ، حينَما طلَب منه بنوه أن يُرْسِلَ معَهم أخاهم ، وتعَهَّدوا بحفظِه ، فقال لهم : إن حفظَ اللَّهِ سبحانَه له خيرٌ من حفظِكم .

وهذا تفويضٌ مِن يعقوبَ إلى اللَّهِ ، فى حفظِ ابنِه ، ومن أسمائِه تعالى الحفيظُ الذى يَحْفَظُ عبادَه المؤمنين بحفظِه الخاصِّ عما يُفْسِدُ إيمانَهم ، وعما يَضُرُّهم فى دينِهم ، ودُنْياهم .

الشاهدُ مِن الآياتِ الكريمةِ : أنَّ فيها وَصْفَ اللَّهِ سبحانَه وتعالى بالرحمةِ والمغفرةِ على ما يليقُ بجلالِه كسائرِ صفاتِه .

وفيها الردُّ على الجَهْميةِ والمعتزلةِ ونحوِهم مِمَّن يَنْفُون عن اللَّهِ اتصافَه بالرحمةِ والمغفرةِ ؛ فرارًا من التشبيهِ بزعمِهم ، قالوا : لأنَّ المخلوقَ يُوصَفُ بالرحمةِ[1] .

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى مجموع الفتاوى ٣/٤٨: **وهذا يتبين بالقاعدة =**

....

وتأوَّلوا هذه الآياتِ على المجازِ ، وهذا باطلٌ ؛ لأنَّ اللَّهَ سبحانَه أثْبَتَ لنفسِه هذهِ

= الرابعة ، وهو أن كثيرًا من الناس يتوهم فى بعض الصفات أو كثير منها ؛ أو أكثرها أو كلها ، أنها تماثل صفات المخلوقين ، ثم يريد أن ينفى ذلك الذى فهمه ، فيقع فى أربعة أنواع من المحاذير :
أحدها : كونه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين ، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل .
الثانى : أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطله بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة باللَّه. فيبقى مع جنايته على النصوص ؛ وظنه السيئ الذى ظنه باللَّه ورسوله - حيث ظن أن الذى يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل - قد عطل ما أودع اللَّه ورسوله فى كلامهما من إثبات الصفات لله والمعانى الإلهية اللائقة بجلال اللَّه تعالى .
الثالث : أنه ينفى تلك الصفات عن اللَّه عز وجل بغير علم : فيكون معطلا لما يستحقه الرب .
الرابع : أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات ، من صفات الأموات والجمادات ، أو صفات المعدومات ، فيكون قد عطل به صفات الكمال التى يستحقها الرب ، ومثله بالمنقوصات والمعدومات ، وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات ، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات ، فيجمع فى كلام اللَّه وفى اللَّه بين التعطيل والتمثيل ، فيكون ملحدًا فى أسماء اللَّه وآياته .
مثال : ذلك أن النصوص كلها دلت على وصف الإله ، بالعلو والفوقية على المخلوقات ، واستوائه على العرش - فأما علوه ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل الموافق للسمع : وأما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع ، وليس فى الكتاب والسنة وصف له بأنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا مباينه ولا مداخله .
فيظن المتوهم أنه إذا وصف بالاستواء على العرش : كان استواؤه كاستواء الإنسان على ظهور الفلك والأنعام : كقوله : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ .
فيتخيل له إذا كان مستويًا على العرش ، كان محتاجًا إليه كحاجة المستوى على الفلك والأنعام ، فلو غرقت السفينة لسقط المستوى عليها ، ولو عثرت الدابة لخر المستوى عليها ، فقياس هذا أنه لو عدم العرش لسقط الرب سبحانه وتعالى .
ثم يريد بزعمه أن ينفى هذا فيقول : ليس استواؤه بقعود ولا استقرار ، ولا يعلم أن مسمى =

....

الصفةَ ، ورحمتُه سبحانَه ليسَتْ كرحمةِ المخلوقِ حتى يَلْزَمَ التشبيهُ ، كما يَزْعُمون ؛

= القعود والاستقرار يقال فيه ما يقال فى مسمى الاستواء ؛ فإن كانت الحاجة داخلة فى ذلك : فلا فرق بين الاستواء والقعود والاستقرار ، وليس هو بهذا المعنى مستويًا ولا مستقرًا ولا قاعدًا ، وإن لم يدخل فى مسمى ذلك إلا ما يدخل فى مسمى الاستواء ، فإثبات أحدهما ونفى الآخر تحكم .

وقد علم أن بين مسمى الاستواء والقعود فروقًا معروفة .

ولكن المقصود هنا أن يعلم خطأ من ينفى الشىء مع إثبات نظيره ، وكأن هذا الخطأ من خطئه فى مفهوم استوائه على العرش ، حيث ظن أنه مثل استواء الإنسان على ظهور الأنعام والفلك ، وليس فى هذا اللفظ ما يدل على ذلك ؛ لأنه أضاف الاستواء إلى نفسه الكريمة كما أضاف إليه سائر أفعاله وصفاته .

فذكر أنه خلق ثم استوى ، كما ذكر أنه قدر فهدى ، وأنه بنى السماء بأيد ، وكما ذكر أنه مع موسى وهارون يسمع ويرى وأمثال ذلك . فلم يذكر استواء مطلقًا يصلح للمخلوق ، ولا عاما يتناول المخلوق ، كما لم يذكر مثل ذلك فى سائر صفاته ، وإنما ذكر استواءً أضافه إلى نفسه الكريمة .

فلو قدر - على وجه الفرض الممتنع - أنه هو مثل خلقه - تعالى عن ذلك - لكان استواؤه مثل استواء خلقه ، أما إذا كان هو ليس مماثلًا لخلقه بل قد علم أنه الغنى عن الخلق ، وأنه الخالق للعرش ولغيره ، وأن كل ما سواه مفتقر إليه وهو الغنى عن كل ما سواه ، وهو لم يذكر إلا استواء يخصه ، لم يذكر استواء يتناول غيره ولا يصلح له - كما لم يذكر فى علمه وقدرته ورؤيته وسمعه وخلقه إلا ما يختص به - فكيف يجوز أن يتوهم أنه إذا كان مستويًا على العرش كان محتاجًا إليه ، وأنه لو سقط العرش لخر من عليه ؟ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا .

مثل هذا إلا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه ، أو ظنه اللفظ ومدلوله ، أو جوَّز ذلك على رب العالمين الغنى عن الخلق ؟

بل لو قدر أن جاهلًا فهم مثل هذا وتوهمه لبين له أن هذا لا يجوز وأنه لم يدل اللفظ عليه أصلا ، كما لم يدل على نظائره فى سائر ما وصف به الرب نفسه . =

....

فإنَّ اللَّهَ تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ، والاتفاقُ فى الاسمِ لا يَقْتَضِى الاتفاقَ فى المُسَمَّى ، فللخالقِ صفاتٌ تَلِيقُ به ، وتَخْتَصُّ به ، وللمخلوقِ صفاتٌ تَلِيقُ به ، وتَخْتَصُّ به ، واللَّهُ أعلمُ .

= فلما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ فهل يتوهم متوهم أن بناءه مثل بناء الآدمي المحتاج ، الذى يحتاج إلى زنبيل ومجارف وضرب لبن وجَبْل طين وأعوان ؟ ثم قد علم أن اللَّه تعالى خالق العالم بعضه فوق بعض ، ولم يجعل عاليه مفتقرًا إلى سافله ، فالهواء فوق الأرض وليس مفتقرًا إلى أن تحمله الأرض ، والسحاب أيضًا فوق الأرض وليس مفتقرًا إلى أن تحمله ، والسماوات فوق الأرض وليست مفتقرة إلى حمل الأرض لها ؛ فالعلى الأعلى رب كل شيء ومليكه ، إذا كان فوق جميع خلقه : كيف يجب أن يكون محتاجًا إلى خلقه أو عرشه ؟ أو كيف يستلزم علوه على خلقه هذا الافتقار وهو ليس بمستلزم فى المخلوقات ؟ وقد علم أن ما ثبت لمخلوق من الغنى عن غيره ، فالخالق سبحانه وتعالى أحق به وأولى . اهـ

وقال أيضًا رحمه اللَّه فى مجموع الفتاوى ٥/ ٢١٢ :فمن ظن أن أسماء اللَّه تعالى وصفاته إذا كانت حقيقة ، لزم أن يكون مماثلًا للمخلوقين ، وأن صفاته مماثلة لصفاتهم كان من أجهل الناس ، وكان أول كلامه سَفْسَطة ، وآخره زندقة ؛ لأنه يقتضى نفى جميع أسماء اللَّه وصفاته ، وهذا هو غاية الزندقة والإلحاد . اهـ

وقال أيضًا رحمه اللَّه فى مجموع الفتاوى ٥/ ٢٠٩ : وهؤلاء الجهال يمثلون فى ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق ، ثم ينفون ذلك ويعطلونه ، فلا يفهمون من ذلك إلا ما يختص بالمخلوق ، وينفون مضمون ذلك ، ويكونون قد جحدوا ما يستحقه الرب من خصائصه وصفاته ، وألحدوا فى أسماء اللَّه وآياته ، وخرجوا عن القياس العقلى والنص الشرعى ، فلا يبقى بأيديهم لا معقول صريح ولا منقول صحيح ، ثم لا بد لهم من إثبات بعض ما يثبته أهل الإثبات من الأسماء والصفات ، فإذا أثبتوا البعض ونفوا البعض قيل لهم : ما الفرق بين ما أثبتموه ونفيتموه ؟ ولم كان هذا حقيقة ولم يكن وهذا حقيقة ؟ لم يكن لهم جواب أصلا ، وظهر بذلك جهلهم وضلالهم شرعًا وقدرًا . اهـ

٨- ذكر رِضا اللهِ وغضبه، وسَخَطه، وكراهيته فى القرآنِ الكريمِ، وأنه مُتَّصِفٌ بذلك

وقولِه : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقولِه : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾ [النساء: ٣٦]، وقولِه : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ [محمد: ٣٧]، وقولِه : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقولِه : ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٦]، وقولِه : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣].

الشرحُ :

قولُه : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ؛ أى : رضِى عنهم بما عمِلُوه من الطاعاتِ الخالصةِ له ، ورَضُوا عنه بما جازاهم به مِن النعيم .

والرضا منه سبحانَه هو أرفعُ درجاتِ النعيم ، قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢]، ورِضاهم عنه هو رِضَا كلٍّ منهم بمنزلتِه حتى يَظُنَّ أنه لم يُؤْتَ أحدٌ خيرًا مما أُوتِى .

وقولُه : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ احْتُرِز بقولِه ﴿ مُؤْمِنًا ﴾ عن قتلِ الكافرِ ، وبقولِه : ﴿ مُتَعَمِّدًا ﴾ عن قتلِ الخطأ .

والمتعمِّدُ هو الذى يَقْصِدُ مَن يَعْلَمُه آدميًا معصومًا ، فيقتُلُه بما يَغْلِبُ على الظنِّ موتُه به .

وقولُه : ﴿ فَجَزَاؤُهُ ﴾ ؛ أى عقابُه فى الآخرةِ .

....

﴿ جَهَنَّمُ ﴾ : طَبقةٌ من طبقاتِ النارِ[١] .

﴿ خَالِدًا فِيهَا ﴾ ؛ أى مُقِيمًا فى جهنمَ ، والخلودُ هو المُكْثُ الطويلُ .

﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ معطوفٌ على مُقدَّرٍ ، دلَّ عليه السياقُ ؛ أى جعَل جزاءَه جهنمَ ، وغضِب عليه .

﴿ وَلَعَنَهُ ﴾ ؛ أى : طرَدَه عن رحمتِه ، واللعنُ هو الطردُ والإبعادُ عن رحمةِ اللَّهِ .

وقولُه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ ؛ أى : ما ذُكِر فى الآيةِ قبلَها من شدةِ توَفِّى الملائكةِ للكفارِ مِن أجْلِ أنهم[٢] ﴿ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ مِن الانهماكِ فى المعاصى والشَّهَواتِ المحرَّمةِ .

﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ ؛ أى : كرِهوا ما يُرْضِيه من الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ .

وقولُه : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ ؛ أى : (أغْضَبونا) .

﴿ انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ ؛ أى : عاقَبْناهم ، والانتقامُ هو أشدُّ العقوبةِ .

وقولُه : ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ﴾ ؛ أى : أبْغَضَ اللَّهُ خروجَهم معَكم للغزوِ .

﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ ؛ أى : حبَسَهم عن الخروجِ معك ، وخذَلَهم قَضاءً وقدَرًا ، وإن

---

(١) قال النووى رحمه اللَّه فى شرح مسلم ٧/ ٢٧٧:

أما جَهَنَّم – عافانا اللَّه منها ، ومن كل بلاء – فقال الواحدى : قال يونُسُ : أكثر النحويين ، هى عجمية لا تنصرف ؛ للتعريف والعُجْمة ، وسميت بلك لبعد قَعْرها ، يقال : بئر جِهَنَّامٌ . إذا كانت عميقة القَعْر .

وقال بعض اللغويين : مَشتقة من الجُهومة ، وهى الغِلَظ ، وسُمِّيت بذلك ؛ لغلَظ أمرها فى العذاب . أهـ .

(٢) وهى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ .

....

* * *

كان قد أمَرهم بالغزوِ شرعًا ، وأقْدَرَهم عليه حسًّا ، لكنه لم يُعِنْهم عليه لحكمةٍ يَعْلَمُها ، وقد بيَّنها فى الآيةِ التى بعدَها فى قولِه : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ الآيةَ .

وقولُه : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ ؛ أى : عَظُم ذلك فى المقتِ ، وهو البغضُ ، و ﴿ مَقْتًا ﴾ منصوبٌ على التمييزِ .

﴿ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ؛ أى : أن تَعِدُوا أنفسَكم خيرًا ، ثم لا تَفُوا بما وعَدْتُم .

وقد ورَد فى سببِ نزولِها أن ناسًا من المؤمنين قبلَ أن يُفرَضَ الجهادُ يقولون : ودِدْنا لو أنَّ اللَّهَ أخبرَنا بأحبِّ الأعمالِ ، فنَعْمَلَ به ، فأخبَر اللَّهُ نبيَّه ﷺ أن أحبَّ الأعمالِ إيمانٌ باللَّهِ لا شكَّ فيه ، وجهادُ أهلِ معصيتِهِ الذين خالَفُوا الإيمانَ ، ولم يُقِرُّوا به .

فلمَّا نزَل الجهادُ كرِه ذلك أناسٌ من المؤمنين ، وشَقَّ عليهم أمرُه ، فقال اللَّهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

الشاهدُ من الآياتِ : أن فيها وصْفَ اللَّهِ بالغضبِ والرضا واللعنِ والانتقامِ والكراهيةِ والأسفِ والمَقْتِ ، وهذه كلُّها من صفاتِ الأفعالِ التى يَفْعَلُها جلَّ وعلا متى شاء ، إذا شاء ، كيف شاء ، وأهلُ السنةِ يُثْبِتون ذلك للهِ ، كما أثْبَته لنفسِه ، على ما يَليقُ بجلالِه .

٩- ذكر مجيء الله سبحانه لفَصْلِ القضاءِ بين عبادِه على ما يليقُ بجلالِه

وقولِه : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

وقوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢١] .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٥] .

الشرحُ :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ هذا تهديدٌ للكفارِ التاركين للدخولِ في السِّلْمِ ؛ أي : الإسلامِ ، المُتَّبِعين لخُطُواتِ الشيطانِ . ومعنى ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ : يَنْتَظِرون : يقالُ : نظَرْتُه وانْتَظَرْتُه ، بمعنًى واحدٍ .

﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ ذاتُه سبحانَه لفَصْلِ القضاءِ بينَهم يومَ القيامةِ ، فيُجازِي كلَّ عاملٍ بعملِه .

﴿ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ الظُّلَلُ جمعُ ظُلَّةٍ ، وهي ما يُظِلُّك ، والغَمامُ : السَّحابُ الرَّقيقُ الأبيضُ ، سُمِّي بذلك ؛ لأنه يَغُمُّ ؛ أي : يَسْتُرُ .

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ ؛ أي : والملائكةُ يَجيئون في ظُلَلٍ من الغمامِ .

﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ ؛ أي : فُرِغ من الأمرِ الذي هو إهلاكُهم .

وقولُه : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ ﴾ ؛ أي : لِقَبْضِ أرواحِهم .

....

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ ؛ أي : بذاتِه سبحانَه لفَصْلِ القضاءِ بينَ العبادِ .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ وهو طلوعُ الشمسِ من مَغْربها ، وذلك أَحدُ أشراطِ الساعةِ الكبارِ ، إذا وقَع أُغْلِق بابُ التوبةِ ، فلا تُقْبَلُ[١] .

وقولُه : ﴿ كَلَّا ﴾ حرفُ رَدْعٍ وزَجْرٍ عما ذُكِر قبلَها[٢] ؛ أي : ما هكذا يَنْبَغِي أن يكونَ عَمَلُكم من عدمِ إكرامِ اليتيمِ ، وعدمِ الحضِّ على طعامِ المسكينِ ، وأَكْلِ التُّراثِ[٣] ، وحُبِّ المالِ بكثرةٍ شديدةٍ[٤] .

﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أي : زُلْزِلَت ، وحُرِّكَت تحْريكًا بعدَ تحريكٍ ، حتى انْهَدم كلُّ ما عليها من بناءٍ ، وعاد هباءً مُنْبَثًّا .

---

(١) روى البخاري (٤٦٣٦، ٦٥٠٦) ، ومسلم ١/١٣٨ (١٥٧) من حديث أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا » .

(٢) قال ابن هشام رحمه الله في شرح شذور الذهب ص ١٥ : و « كَلَّا » في العربية على ثلاثة أوجه : حرفِ رَدْعٍ وزَجْرٍ ، وبمعنى حَقًّا ، وبمعنى إِيْ : فالأول كما في هذه الآية ، أي : انْتَهِ عن هذه المقالة ، فلا سبيل إلى الرجوع ، والثاني نحو : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ أي حقًّا إذ لم يتقدم على ذلك ما يُزْجَرُ عنه ، كذا قال قوم ، وقد اعتُرِض على ذلك بأن حقًّا تُفْتَحُ « أن » بعدها ، وكذلك ألا تأتي بمعناها ، فكذا ينبغي في « كَلا » والأولى أن تُفَسَّرَ « كلا » في الآية بمعنى « ألاَ » التي يُستفتحُ بها الكلام ، وتلك تكسر بعدها « إنَّ » ، نحو : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ، والثالث قبل القَسَمِ ، نحو ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴾ معناه إي والقمر ، كذا قال النَّضْر بن شُمَيْل وتبعه جماعة منهم ابن مالك ، ولها معنى رابع تكون بمعنى ألا . اهـ

(٣) قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في « تيسير الكريم الرحمن » ، في تفسير سورة الفجر ص ١٠٢٢ : التُّراث المالُ المُخَلَّف . اهـ

(٤) يشير الشارح رحمه الله إلى قول الله عز وجل : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

....

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ بذاتِه سبحانَه لفصْلِ القضاءِ بينَ عبادِه .

﴿ وَالْـمَلَكُ ﴾؛ أي : جنسُ الملائكةِ .

﴿ صَفًّا صَفًّا ﴾ منصوبٌ على الحالِ ؛ أي : مُصْطَفِّينَ صفًّا بعدَ صفٍّ ، قد أحْدَقوا بالجنِّ والإنسِ ، كلُّ أهلِ سماءٍ يكونون صفًّا واحدًا ، مُحِيطينَ بالأرضِ ومَن فيها ، فيكونون سبعةَ صفوفٍ .

وقولُه : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ ﴾؛ أي : يومَ القيامةِ .

﴿ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ ﴾؛ أي : تَنْفَطِرُ وتَنْفَرِجُ ﴿ بِالْغَمَامِ ﴾ الذى هو ظُلَلُ النورِ العظيمِ الذى يَبْهَرُ الأبصارَ .

﴿ وَنُزِّلَ الْـمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ إلى الأرضِ فيُحِيطون بالخلائقِ فى مقامِ المَحْشَرِ ، ثم يَجِيءُ الربُّ لفصلِ القضاءِ بينَ عبادِه .

الشاهدُ من الآياتِ :أنها أفادت إثباتَ المجيءِ والإتيانِ للهِ يومَ القيامةِ بذاتِه على ما يَلِيقُ بجَلالِه ؛ لفَصْلِ القضاءِ بينَ عبادِه .

ومجيئُه وإتيانُه سبحانَه من صفاتِه الفعليةِ ، يَجِبُ إثباتُهما على حقيقتِهما ، ولا يَجوزُ تأويلُهما بمجيءِ ، أو إتيانِ أمرِه ، كما يَفْعَلُه نُفاةُ الصفاتِ ، فيقولون : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ ؛ أى : جاء أمرُه ، وهذا من تحريفِ آياتِ اللَّهِ .

قال الإمامُ ابنُ القيمِ رحِمه اللَّهُ :والإتيانُ والمجيءُ المضافُ إليه سبحانَه نوعان : مُطْلَقٌ ومُقَيَّدٌ ، فإذا كان المرادُ مجيءَ رحمتِه أو عذابِه ونحوِ ذلك قُيِّد بذلك ، كما فى الحديث : « حتى جاء اللَّهُ بالرحمةِ والخيرِ » . وقولِه : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ .

النوعُ الثانى : الإتيانُ والمجيءُ المطلقُ ، فهذا لا يكونُ إلا مجيئَه سبحانَه ، كقولِه : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ ، وقولِه : ﴿ جَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ . ا هـ

١٠- إثبات الوجه لله سبحانه

وقوله : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] .

الشرح :

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ هذه الآيةُ جاءت بعدَ قولِه تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ . يُخبِرُ تعالى أن جميعَ أهلِ الأرضِ سيَذْهَبُون ويَمُوتون ، ولا يَبْقَى أحدٌ سوى وجهِه الكريمِ ؛ فإن الربَّ سبحانَه لا يَمُوتُ ، بل هو الحيُّ الذى لا يموتُ أبدًا .

﴿ ذُو الْجَلَالِ ﴾ ؛ أى : العظمةِ والكِبْرياءِ .

﴿ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ؛ أى : المُكْرِمُ لأنبيائِه وعبادِه الصالحين ، وقيل : المُسْتَحِقُّ أن يُكْرَمَ عن كلِّ شيءٍ لا يَليقُ به .

وقولُه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ ؛ أى : كلُّ مَن فى السماءِ ، ومَن فى الأرضِ سيَذْهَبون ويَمُوتون .

﴿ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ منصوبٌ على الاستثناءِ ، وهذا إخبارٌ بأنه الدائمُ الباقى الذى تموتُ الخلائقُ ، ولا يموتُ .

الشاهدُ من الآيتيـن : أن فيهما إثباتَ الوجهِ للهِ سبحانَه ، وهو من صفاتِه الذاتيةِ ، فهو وجهٌ على حقيقتِه ، يليقُ بجَلالِه[1] .

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله فى شرح العقيدة الواسطية ١/ ٢٨٣:
والوجه معناه معلوم ، لكن كيفيته مجهولة ، لا نعلم كيف وجه الله عز وجل ؛ كسائر صفاته ، لكننا نؤمن بأن له وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام ، وموصوفًا بالبهاء والعظمة والنور العظيم ، حتى قال النبى عليه الصلاة والسلام : « حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه =

....

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ لا كما يَزْعُمُ مُعَطِّلةُ الصفاتِ أن الوجهَ ليس على حقيقتهِ ، وإنما المرادُ به الذاتُ ، أو الثوابُ ، أو الجهةُ ، أو غيرُ ذلك .

وهذه تأويلاتٌ باطلةٌ من وجوهٍ .

منها أنه جاءَ عَطْفُ الوجهِ على الذاتِ ، كما في الحديثِ : « أعوذُ باللَّهِ العظيمِ

= ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

(سبحات وجهه) ؛ يعني : بهاءه وعظمته وجلاله ونوره .

(ما انتهى إليه بصره من خلقه) : وبصره ينتهي إلى كل شيء وعليه ؛ فلو كشف هذا الحجاب – حجاب النور عن وجهه – ؛ لاحترق كل شيء ، لهذا نقول : هذا الوجه وجه عظيم ، لا يمكن أبدًا أن يماثل أوجه المخلوقات .

وبناء على هذا نقول : من عقيدتنا أننا نثبت أن لله وجهًا حقيقة ، ونأخذه من قوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ، ونقول بأن هذا الوجه لا يماثل أوجه المخلوقين ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ، ونجهل كيفية هذا الوجه ، لقوله تعالى : ﴿ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] .

فإن حاول أحد أن يتصور هذه الكيفية بقلبه أو أن يتحدث عنها بلسانه ، قلنا : إنك مبتدع ضال ، قائل على اللَّه ما لا تعلم ، وقد حرَّم اللَّه علينا أن نقول عليه ما لا نعلم ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

إلى أن قال رحمه اللَّه ص ٢٨٧ :

وهو من الصفات الذاتية الخبرية التي مسماها بالنسبة إلينا أبعاض وأجزاء ، ولا نقول : من الصفات الذاتية المعنوية ، ولو قلنا بذلك ؛ لكنا نوافق من تأوَّله تحريفًا ، ولا نقول : إنها بعض من اللَّه ، أو جزء من اللَّه ؛ لأن ذلك يوهم نقصًا لله سبحانه وتعالى . اهـ

....

وبوجهه الكريم »[١] . والعطفُ يَقْتَضِى المُغايَرةَ .

ومنها أنه أضافَ الوجهَ إلى الذاتِ ، فقال : ﴿ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ ، ووصَف الوجهَ بقولِه : ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ فلو كان الوجهُ هو الذاتَ لكان لفظُ الوجهِ صلةً ، ولقال : (ذى الجلال والإكرام) ، فلما قال : ﴿ ذُو الْجَلَالِ ﴾ تبيَّن أنه وصفٌ للوجهِ لا للذاتِ ، وأنَّ الوجهَ صفةٌ للذاتِ .

ومنها : أنه لا يُعْرَفُ فى لغةِ أُمَّةٍ من الأممِ أن وجهَ الشىءِ بمعنى ذاتِه أو الثوابِ ، والوجهُ فى اللغةِ مُسْتَقْبَلُ كلِّ شىءٍ ؛ لأنه أولُ ما يُواجَهُ منه ، وهو فى كلِّ شىءٍ بحسَبِ ما يُضافُ إليه[٢] .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٦) . وقال الشيخ الألبانى ، رحمه اللَّه فى صحيح الجامع (٤٧١٥) : صحيح .

(٢) هذا وقد ذكر الشيخ ابن عثيمين رحمه اللَّه فى شرح العقيدة الواسطية ١/٢٨٧ وجوهًا أخرى تدل على بطلان تفسير الوجه بالثواب ، فقال رحمه اللَّه : هذا وقد فسر أهل التحريف وجه اللَّه بثوابه ؛ فقالوا : المراد بالوجه فى الآية الثواب ، كل شىء يفنى إلا ثواب اللَّه ! ففسروا الوجه الذى هو صفة كمال ؛ فسروه بشىء مخلوق ، بائن عن اللَّه ، قابل للعدم والوجود ؛ فالثواب حادث بعد أن لم يكن ، وجائز أن يرتفع ، لولا وعد اللَّه ببقائه ؛ لكان من حيث العقل جائزًا أن يرتفع ؛ أعنى : الثواب ! فهل تقولون الآن : إن وجه اللَّه الذى وصف اللَّه به نفسه من باب الممكن أو من باب الواجب ؟

إذا فسروه بالثواب ؛ صار من باب الممكن الذى يجوز وجوده وعدمه .

وقولهم مردود بما يلى :

أولًا : أنه مخالف لظاهر اللفظ ؛ فإن ظاهر اللفظ أن هذا وجه خاص ، وليس هو الثواب .

ثانيًا : أنه مخالف لإجماع السلف ؛ فما من السلف أحد قال : إن المراد بالوجه الثواب ! وهذه كتبهم بين أيدينا مزبورة محفوظة ، أخرجوا لنا نصًا عن الصحابة أو عن أئمة التابعين ومن تبعهم بإحسان أنهم فسروا هذا التفسير ! لن تجدوا إلى ذلك سبيلا أبدًا . =

....

....

= ثالثًا : هل يمكن أن يوصف الثواب بهذه الصفات العظيمة : ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] ؟! لا يمكن . لو قلنا مثلًا : جزاء المتقين ذو جلال وإكرام ! فهذا لا يجوز أبدًا ، والله تعالى وصف هذا الوجه بأنه ذو الجلال والإكرام .

رابعًا : نقول : ما تقولون فى قول رسول الله ﷺ : « حجابه النور ، لو كشفه ، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » . فهل الثواب له هذا النور الذى يحرق ما انتهى إليه بصر الله من الخلق ؟! أبدًا ولا يمكن .

وبهذا عرفنا بطلان قولهم : وأن الواجب علينا أن نفسر هذا الوجه بما أراده الله به ، وهو وجه قائم به تبارك وتعالى ، موصوف بالجلال والإكرام .

وأما تفسير الوجه بالجهة فقال رحمه الله :

فإن قلت : هل كل ما جاء من كلمة (الوجه) مضافًا إلى الله يراد به وجه الله الذى هو صفته ؟

فالجواب : هذا هو الأصل ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ [الليل : ١٩- ٢١] . وما أشبهها من الآيات .

فالأصل أن المراد بالوجه المضاف إلى الله وجه الله عز وجل الذى هو صفة من صفاته ، لكن هناك كلمة اختلف المفسرون فيها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾ ؛ يعنى : إلى أى مكان تولوا وجوهكم عند الصلاة ، ﴿ فَثَمَّ ﴾ ؛ أى : فهناك وجه الله .

فمنهم من قال : إن الوجه بمعنى الجهة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة : ١٤٨] ؛ فالمراد بالوجه الجهة ؛ أى : فثم جهة الله ؛ أى : فثم الجهة التى يقبل الله صلاتكم إليها .

قالوا : لأنها نزلت فى حال السفر ، إذا صلى الإنسان النافلة ؛ فإنه يصلى حيث كان وجهه ، أو إذا اشتبهت القبلة ؛ فإنه يتحرى ويصلى حيث كان وجهه . =

....

....

= ولكن الصحيح أن المراد بالوجه هنا وجه اللّه الحقيقى ؛ أى : إلى أى جهة تتوجهون ؛ فثم وجه اللّه سبحانه وتعالى ، لأن اللّه محيط بكل شىء ، ولأنه ثبت عن النبى ﷺ أن المصلى إذا قام يصلى ؛ فإن اللّه قبل وجهه ، ولهذا نهى أن يبصق أمام وجهه ؛ لأن اللّه قبل وجهه .
فإذا صليت فى مكان لا تدرى أين القبلة ، واجتهدت وتحريت ، وصليت ، وصارت القبلة فى الواقع خلفك ؛ فاللّه يكون قبل وجهك ، حتى فى هذه الحال .
وهذا معنى صحيح موافق لظاهر الآية .
والمعنى الأول لا يخالفه فى الواقع .
إذا قلنا : فثم جهة الله ، وكان هناك دليل ، سواء كان هذا الدليل تفسير الآية الثانية فى الوجه الثانى ، أو كان الدليل ما جاءت به السنة ؛ فإنك إذا توجهت إلى الله فى صلاتك ؛ فهى جهة الله التى يقبل الله صلاتك إليها ؛ فثم أيضًا وجه الله حقًّا . وحينئذ يكون المعنيان لا يتنافيان .
وممن فسَّر الوجه فى هذه الآية بأن المراد به القبلة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه ، حيث قال فى مجموع الفتاوى ٦/١٥-١٧:
وأنا أذكر لهذا مثالين نافعين ؛ أحدهما صفة الوجه ، فإنه لما كان إثبات هذه الصفة مذهب أهل الحديث ، والمتكلمة الصفاتية : من الكُلَّابية ، والأشعرية ، والكَرَامية ، وكان نفيها مذهب الجهمية : من المعتزلة وغيرهم ، ومذهب بعض الصفاتية من الأشعرية وغيرهم ، صار بعض الناس من الطائفتين كلما قرأ آية فيها ذكر الوجه جعلها من موارد النزاع ، فالمثبت يجعلها من الصفات التى لا تتأول بالصرف ، والنافى يرى أنه إذا قام الدليل على أنها ليست صفة فكذلك غيرها .
مثال ذلك : قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ أدخلها فى آيات الصفات طوائف من المثبتة والنفاة ، حتى عدها « أولئك » كابن خزيمة مما يقرر إثبات الصفة ، وجعل « النافية » تفسيرها بغير الصفة حجة لهم فى موارد النزاع .
ولهذا لما اجتمعنا فى المجلس المعقود وكنت قد قلت : أمهلت كل من خالفنى ثلاث سنين ، إن جاء بحرف واحد عن السلف يخالف شيئًا مما ذكرته كانت له الحجة ، وفعلت ، وفعلت ، =

....

....

= وجعل المعارضون يفتشون الكتب ، فظفروا بما ذكره البيهقى فى كتاب « الأسماء والصفات » فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ، فإنه ذكر عن مجاهد والشافعى أن المراد قبلة اللّه ، فقال أحد كبرائهم ، فى المجلس الثانى : قد أحضرت نقلًا عن السلف بالتأويل ، فوقع فى قلبى ما أعد ، فقلت : لعلك قد ذكرت ما روى فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ، قال : نعم . قلت : المراد بها قبلة اللّه ، فقال : قد تأولها مجاهد والشافعى وهما من السلف . ولم يكن هذا السؤال يرد على ؛ فإنه لم يكن شىء مما ناظرونى فيه صفة الوجه ولا أثبتها ، لكن طلبوها من حيث الجملة وكلامى كان مقيدًا كما فى الأجوبة ، فلم أر إحقاقهم فى هذا المقام ، بل قلت : هذه الآية ليست من آيات الصفات أصلا ، ولا تندرج فى عموم قول من يقول : لا تؤول آيات الصفات .

قال : أليس فيها ذكر الوجه ؟! فلما قلت : المراد بها قبلة اللّه . قال : أليست هذه من آيات الصفات ؟ قلت : لا ، ليست من موارد النزاع ، فإنى إنما أسلم أن المراد بالوجه - هنا - القبلة ، فإن « الوجه » هو الجهة فى لغة العرب ، يقال : قصدت هذا الوجه ، وسافرت إلى هذا « الوجه » ، أى : إلى هذه الجهة ، وهذا كثير مشهور ، فالوجه هو الجهة : كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ ، أى متوليها ، فقوله تعالى : ﴿ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ كقوله : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ، كلا الآيتين فى اللفظ والمعنى متقاربتان ، وكلاهما فى شأن القبلة ، والوجه والجهة هو الذى ذكر فى الآيتين : أنا نوليه : نستقبله .

قلت : والسياق يدل عليه ، لأنه قال : ﴿أَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾ و« أين » من الظروف ، وتولوا أى تستقبلوا . فالمعنى : أى موضع استقبلتموه فهناك وجه اللّه ، فقد جعل وجه اللّه فى المكان الذى يستقبله ، هذا بعد قوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ وهى الجهات كلها ، كما فى الآية الأخرى : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

فأخبر أن الجهات له ، فدل على أن الإضافة إضافة تخصيص وتشريف ؛ كأنه قال =

....

....

= جهة الله وقبلة الله . ولكن من الناس من يسلم أن المراد بذلك جهة الله أى قبلة الله ، ولكن يقول : هذه الآية تدل على الصفة وعلى أن العبد يستقبل ربه ، كما جاء فى الحديث : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه » ، وكما فى قوله : « لا يزال الله مقبلًا على عبده بوجهه ما دام مقبلا عليه ، فإذا انصرف صرف وجهه عنه » ؛ ويقول : إن الآية دلت على المعنيين ، فهذا شىء آخر ليس هذا موضعه .

والغرض إنه إذا قيل : « فثم قبلة الله » لم يكن هذا من التأويل المتنازع فيه ، الذى ينكره منكروا تأويل آيات الصفات ، ولا هو مما يستدل به عليهم المثبتة ، فإن هذا المعنى صحيح فى نفسه ، والآية دالة عليه ، وإن كانت دالة على ثبوت صفة فذاك شىء آخر ، ويبقى دلالة قولهم : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ على فثم قبلة الله ، هل هو من باب تسمية القبلة وجهًا باعتبار أن الوجه والجهة واحد ؟ أو باعتبار أن من استقبل وجه الله فقد استقبل قبلة الله ؟ فهذا فيه بحوث ليس هذا موضعها .

وأما تفسير الوجه بالذات فقال الشيخ ابن عثيمين، رحمه الله فى شرح العقيدة الواسطية ١/ ٢٩٠ :

فإن قيل : ما المراد بالوجه فى قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] ؟ إن قلت : المراد بالوجه الذات ؛ فيخشى أن تكون حرفت . وإن أردت بالوجه نفس الصفة أيضًا ؛ وقعت فى محظور – وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدرون الله حق قدره : حيث قالوا : إن الله يفنى إلا وجهه – فماذا تصنع ؟!

فالجواب : إن أردت بقولك : إلا ذاته ؛ يعنى : أن الله تعالى يبقى هو نفسه مع إثبات الوجه لله ؛ فهذا صحيح ، ويكون هنا عبَّر بالوجه عن الذات لمن له وجه .

وإن أردت بقولك : الذات : أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه ؛ فهذا تحريف وغير مقبول .

وعليه فنقول : ﴿ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ؛ أى : إلا ذاته المتصفة بالوجه ، وهذا ليس فيه شىء ؛ لأن الفرق بين هذا وبين قول أهل التحريف أن هؤلاء يقولون : إن المراد بالوجه الذات ، ولا وجه له ، ونحن نقول : المراد بالوجه الذات ؛ لأن له وجهًا ، فعبر به عن الذات . اهـ

١١- إثباتُ اليديـن للهِ تعالى فى القرآنِ الكريمِ

وقولِه : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] .

وقولِه : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤] .

الشرحُ :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ الخطابُ لإبليسَ لعَنَه اللَّهُ ، لمَّا امْتَنَع من السجودِ لآدمَ عليه السلامُ ؛ أى : أيُّ شيءٍ صرَفَكَ وصدَّك عن السجودِ ؟

﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ؛ أى : باشَرْتُ خلقَه بيديَّ من غيرِ واسطةٍ ، وفى هذا تشريفٌ وتكريمٌ لآدمَ .

قولُه : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ اليهودُ فى الأصلِ من قولِهم : ﴿ هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ ، وكان اسمَ مدحٍ ، ثم صار بعدَ نَسْخِ شريعتِهم لازمًا لهم ، وإن لم يَكُنْ فيه معنى المدحِ .

وقيل : سُمُّوا بذلك نسبةً إلى يَهُودَا بنِ يعقوبَ عليه السلامُ(١) .

﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ يُخْبِرُ تعالى عنهم بأنَّهم وصَفُوه بأنه بَخيلٌ ، كما وصَفُوه بأنه فقيرٌ ، وهم أغنياءُ ، لا أنهم يَعْنُون أن يَدَه مُوثَقةٌ .

﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ هذا ردٌّ عليهم مِن اللَّهِ تعالى بما قالوه ، ومُقابَلةٌ لهم بما افْتَرَوْه واخْتَلَقوه .

وهكذا وقَع لهم فإن فيهم من البخلِ والحسدِ الشيءَ الكثيرَ ، فلا تَرَى يهوديًّا إلا وهو من أبخلِ خلقِ اللَّهِ .

(١) كذا بالدال ، وانظر القاموس المحيط (هـ و د) .

....

﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ معطوفٌ على ما قبلَه ، والباءُ سببيةٌ ؛ أى : أُبْعِدوا من رحمةِ اللَّهِ بسببِ هذه المقالةِ .

ثم ردَّ عليهم سبحانَه بقولِه : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ؛ أى : بل هو فى غايةِ ما يكونُ من الجُودِ والعَطاءِ ، فيداه مبسوطتان بذلك .

﴿ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ جملةٌ مُسْتَأْنَفةٌ مُؤَكِّدةٌ لكمالِ جُودِه ، فإنفاقُه على ما تَقْتَضِيه مشيئتُه ، فإن شاء وسَّع ، وإن شاء ضيَّق ، فهو الباسطُ القابضُ ، على ما تَقْتَضِيه حكمتُه .

الشاهدُ من الآيتين الكريمتين : أن فيهما إثباتَ اليدين للهِ سبحانه وتعالى ، وأنهما يدان حقيقيتان لائقتان بجلالِه وعظمتِه ؛ ليستا كيَدَيِ المخلوقِ .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وفى ذلك الردُّ على مَن نَفَى اليدينِ الحقيقيتين عن اللَّه ، وزعَم أن المرادَ باليدِ القدرةُ أو النعمةُ ، وهذا تأويلٌ باطلٌ وتحريفٌ للقرآنِ الكريمِ .

فالمرادُ يدُ الذاتِ ، لا يدُ القدرةِ والنعمةِ ؛ إذ لو كان المرادُ باليدِ القدرةَ ، كما يقولون ، لَبَطَلَ تخصيصُ آدمَ بخلقِه بهما ؛ فإن جميعَ المخلوقاتِ حتى إبليسَ خُلِقَت بقدرتِه ، فأيُّ مَزِيَّةٍ لآدمَ على إبليسَ فى قولِه : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ .

فكان يمكنُ لإبليسَ أن يَقولَ : وأنا خلَقْتَنى بيديك . إذا كان المرادُ بها القدرةَ .

وأيضًا لو كان المرادُ باليدِ القدرةَ لَوَجَب أن يكونَ للهِ قُدْرتان ، وقد أجْمَعَ المسلمون على بُطلانِ ذلك .

وأيضًا لو كان المرادُ باليدِ النعمةَ لكان المعنى أنه خلَق آدمَ بنعمتين ، وهذا باطلٌ ؛ لأن نعمَ اللَّهِ كثيرةٌ لا تُحْصَى ، وليست نعمتين فقط .

١٢- إثباتُ العينَيْنِ للهِ تعالى

وقولِه : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨]، ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١٣، ١٤] ، ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه : ٣٩] .

الشرحُ :

﴿ وَاصْبِرْ ﴾ الصبرُ لغةً الحبسُ والمنعُ ، فهو حبسُ النفسِ عن الجزَعِ ، وحبسُ اللسانِ عن التَّشَكِّي والتَّسَخُّطِ ، وحبسُ الجوارحِ عن لَطْمِ الخدودِ وشقِّ الجيوبِ .

﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي : لقَضائِهِ الكونيِّ والشرعيِّ .

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ؛ أي : بمَرْأًى منا ، تحتَ حفظِنا ، فلا تُبالِ بأذَى الكفارِ ؛ فإنهم لا يَصِلُون إليك .

قولُه : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ ؛ أي : نوحًا عليه السلامُ .

﴿ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ ؛ أي : على سفينةٍ ذاتِ أخشابٍ عَريضةٍ ، ومَسامِيرَ شُدَّت بها تلك الألواحُ ، مُفْرَدُها : دِسارٌ .

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ ؛ أي : بمَنْظَرٍ ، ومَرْأًى منا ، وحِفْظٍ لها .

﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ ؛ أي : فعَلْنا بنوحٍ عليه السلامُ ، وبقومِه ما فعَلْنا من إنجائِه وإغراقِهم ؛ ثوابًا لمن كُفِر به ، وجُحِد أمرُه ، وهو نوحٌ عليه السلامُ .

وقولُه : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ الخطابُ لموسى عليه السلامُ ؛ أي : وضَعْتُها عليك فأحْبَبْتُك وحَبَّبْتُك إلى خَلْقي .

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ ؛ أي : ولتُرَبَّى وتُغَذَّى بمَرْأًى مني ، أَرَاك وأَحْفَظُك .

الشاهدُ مِن الآياتِ : أن فيها إثباتَ العينَيْنِ للهِ تعالى حقيقةً ، على ما يَلِيقُ به سبحانَه ، فقد نطَق القرآنُ بلفظِ العينِ مضافةً إليه ؛ مُفْرَدةً ومَجْموعةً ، ونطَقَت

....

السنةُ بإضافتِها إليه مُثَنَّاةً[١] .

وقال النبيُّ ﷺ : « إن ربَّكم ليس بأعْوَرَ »[٢]، وذلك صريحٌ بأنه ليس المرادُ إثباتَ عينٍ واحدةٍ ؛ فإن ذلك عَوَرٌ ظاهرٌ ، تعالى اللَّهُ عنه[٣] .

ولغةُ العربِ جاءَت بإفرادِ المضافِ وتثنيتِه وجمعِه ، بحَسَبِ أحوالِ المضافِ إليه ، فإن أضَافُوا الواحدَ المتَّصِلَ إلى مفردٍ أفْرَدُوه .

وإن أضافوا إلى جمعٍ ، ظاهرًا أو مُضْمَرًا فالأحسنُ جمعُه ؛ مُشاكَلةً للفظِ ، كقولِه سبحانه : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، وكقولِه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ .

وإن أضافوه إلى اسمٍ مُثَنًّى فالأفصحُ فى لغتِهم جمعُه كقولِه : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ، وإنما هما قَلْبان ، فلا يَلْتَبِسُ على السامعِ قولُ المتكلِّمِ : نراك بأعيننا ، ونَأْخُذُك بأيدينا ، ولا يَفْهَمُ منه بشرٌ على وجهِ الأرضِ عيونًا كثيرةً على وجهٍ واحدٍ ، واللَّهُ أعلمُ .

---

(١) يشير الشارح رحمه اللَّه إلى ما رواه العُقَيْلى فى الضعفاء الكبير ١/ ٧٠، ٧١، عن عطاء ، قال سمعت أبا هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن العبد إذا قام فى الصلاة فإنه بين عَيْنَى الرحمن ، فإذا التفت قال له الرب : يابن آدم ، إلى مَن تلتفت ، إلى من خيرٌ لك منى ، ابنَ آدم ، أَقْبِلْ على صلاتك ؛ فأنا خير لك ممن تلتفت إليه » .

قال الشيخ الألبانى فى الضعيفة (١٠٢٤) : ضعيف جدًّا .

(٢) البخارى (٣٠٥٧، ٣٣٣٧، ٣٤٣٩، ٤٤٠٢، ٦١٧٥، ٧١٢٧، ٧٤٠٧) ، ومسلم ١/١٥٤ (١٦٩) من كتاب الإيمان ، ٤ /٢٢٤٧ (١٦٩) ، (٢٩٣٣) من كتاب الفتن .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه اللَّه فى شرح العقيدة الواسطية ١/ ٣١٣**: وهذا الحديث يدل على أن لله تعالى عينين اثنتين فقط .

ووجه الدلالة أنه لو كان لله أكثر من اثنتين ؛ لكان البيان به أوضح من البيان بالعور ؛ لأنه =

١٣- إثباتُ السمعِ والبصرِ للهِ تعالى

وقولِه : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] . وقولِه : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

الشرح

﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى** ﴾ وهى خَوْلَةُ بنتُ ثَعْلَبَةَ .

﴿ **تُجَادِلُكَ** ﴾ أيُّها النبيُّ ؛ أى : تُراجِعُك الكلامَ فى شأنِ ﴿ زَوْجِهَا ﴾ وهو أَوْسُ بنُ الصامتِ ، وذلك حينَ ظاهَرَ منها .

﴿ **وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ** ﴾ معطوفٌ على ﴿ تُجَادِلُكَ ﴾ ، وذلك أنه كلما قال لها رسولُ اللَّهِ ﷺ : « قد حَرُمْتِ عليه » . قالت : واللَّهِ ما ذكَرَ طلاقًا . ثم تقولُ : أشكو إلى اللَّهِ فاقتى ووَحْدَتى ، وأنَّ لى صِبيةً صِغارًا ، إن ضمَمْتُهم إليه ضاعوا ، وإن ضمَمْتُهم إلىَّ جاعوا . وجعَلَت تَرْفَعُ رأسَها إلى السماءِ ، وتقولُ : اللهمَّ إنى أشْكُو إليك[(١)] .

﴿ **وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا** ﴾ ؛ أى : تَراجُعَكما فى الكلامِ .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ يَسْمَعُ كلَّ الأصواتِ ، ويُبْصِرُ ، ويَرَى كلَّ

= لو كان لله أكثر من عينين ؛ لقال : إن ربكم له أعين ، لأنه إذا كان له أعين أكثر من ثنتين ؛ صار وضوح أن الدجال ليس برب أبين .

وأيضًا : لو كان لله عز وجل أكثر من عينين ؛ لكان ذلك من كماله ، وكان تركُ ذكره تفويتًا للثناء على اللَّه ، لأن الكثرة تدل على القوة والكمال والتمام ، فلو كان لله أكثر من عينين ؛ لبينها الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لئلا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال ، وهو الزائد على العينين الثنتين . اهـ

(١) تقدم تخريجه ص١١٠ .

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٠] ، وقولِه : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] ، وقولِه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ [العلق : ١٤] ، ﴿ الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء : ٢١٨- ٢٢٠] ، ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

المخلوقاتِ ، ومن جملةِ ذلك ما جادَلَتْك به هذه المرأةُ .

وقولُه : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ هم قومٌ من اليهودِ قالوا هذه المَقالةَ لما أنْزَل اللَّهُ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، قالوا ذلك تَمْويهًا على ضُعَفائِهم ، لا أنهم يَعْتَقِدون ذلك ؛ لأنهم أهلُ كتابٍ ، وإنما قالوا ذلك ليُشَكِّكوا فى دينِ الإسلامِ .

وقولُه : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ ما يُسِرُّون به فى أنفسِهم ، أو ما يَتَحادَثون به سرًّا فى مكانٍ خالٍ .

﴿ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ ؛ أى : ما يتَناجَوْن به فيما بينهم ، والنجوى ما يَتَحَدَّثُ به الإنسانُ مع رَفيقِه ، ويُخْفِيه عن غيرِه .

﴿ بَلَى ﴾ نَسْمَعُ ذلك ، ونَعْلَمُ به .

﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ؛ أى : الحَفَظَةُ عندَهم يَكْتُبون جميعَ ما يَصْدُرُ عنهم ، من قولٍ ، أو فعلٍ .

وقولُه : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ يقولُ تعالى لموسى وأخيه هارونَ عليهما السلامُ ، لمَّا أرْسَلَهما إلى فرعونَ : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ ؛ أى : بحفْظى وكِلاءَتى ونَصْرى لكما .

﴿ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ ؛ أى : أَسْمَعُ كلامَكما وكلامَ عدُوِّكما ، وأرى مكانَكما ومكانَه ، ومَا يَجْرى منكما ومنه ، وهذا تعليلٌ لقولِه : ﴿ لَا تَخَافَا ﴾ .

قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ ﴾ أبو جهلٍ حينَما نهَى رسولَ اللَّهِ ﷺ عن الصلاةِ .

﴿ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ ؛ أي : أمَا علِم أنَّ اللَّهَ يَرَاه ويَسْمَعُ كلامَه ، وسيُجازِيه على فعلِه أتمَّ الجزاءِ ، والاستفهامُ للتَّقْريعِ والتَّوبيخِ .

قوله : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ ﴾ ؛ أي : يُبْصِرُك ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ للصلاةِ وحدَك .

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ ؛ أي : ويراك إن صَلَّيْتَ في الجماعةِ ، راكعًا وساجدًا وقائمًا .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما تقولُه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ به .

قوله : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ ؛ أي : قلْ يا محمدُ لهؤلاء المنافقِين : ﴿ اعْمَلُوا ما شِئْتُم ﴾ ، واسْتَمِرُّوا على باطلِكم ، ولا تَحْسَبوا أن ذلك سيَخْفَى .

﴿ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ أي : ستَظْهَرُ أعمالُكم للناسِ ، وتُرَى في الدنيا .

﴿ وَسَتُرَدُّونَ ﴾ بعدَ الموتِ ﴿ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيُجازِيكم على ذلك .

الشاهدُ من الآياتِ الكريمةِ : في هذه الآياتِ وصْفُ اللَّهِ سبحانَه بالسمعِ والبصرِ ، وأنه تعالى يَسْمَعُ ويُبْصِرُ حقيقةً ، على ما يَليقُ به ، مُنَزَّهٌ عن صفاتِ المخلوقين ومُماثَلتِهم .

فالآياتُ صريحةٌ في إثباتِ السمعِ والبصرِ ، حيث جاء فيها إثباتُ السمعِ للهِ بلفظِ الماضي والمضارعِ واسمِ الفاعلِ ؛ سمِعَ ، ويَسْمَعُ ، وسَميعٌ .

ولا يَصِحُّ في كلامِ العربِ أن يقالَ لشيءٍ : هو سميعٌ بصيرٌ . إلا وذلك الشيءُ يَسْمَعُ ويُبْصِرُ ، هذا هو الأصلُ ، فلا يقالُ : جبلٌ سميعٌ بصيرٌ . لأن ذلك مستحيلٌ ، إلا لمنَ يَسْمَعُ ويُبْصِرُ .

١٤ - إثباتُ المكرِ والكيدِ للهِ تعالى على ما يَلِيقُ به

وقولِه : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد : ١٣] . وقولِه : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] . وقولِه : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] . وقولِه : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٥- ١٦] .

الشرحُ :

قولُه : ﴿ وَهُوَ ﴾ ؛ أي : اللَّهُ سبحانَه ﴿ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ المَحْلُ في اللغةِ : الشدةُ ؛ أي : شديدُ الكيدِ ، قال الزَّجَّاجُ : يقالُ : ماحَلْتُه مِحالًا إذا قاوَيْتَه حتى يَتَبَيَّنَ أيُّكما أشدُّ .

وقال ابنُ الأعرابيِّ : المِحالُ المكرُ ، فهو سبحانَه شديدُ المكرِ ، شديدُ الكيدِ ، والمكرُ من اللَّهِ إيصالُ المكروهِ إلى مَن يَسْتَحِقُّه ، مِن حيثُ لا يَشْعُرُ .

وقولُه : ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ ؛ أي : الذين أَحَسَّ عيسى منهم الكفرَ ، وهم كفارُ بني إسرائيلَ ، الذين أرادوا قتلَ عيسى وصَلْبَه ، والمكرُ : فعلُ شيءٍ يُرادُ به ضدُّه .

﴿ **وَمَكَرَ اللَّهُ** ﴾ ؛ أي : اسْتَدْرَجَهم ، وجازَاهم على مَكْرِهم ، فأَلْقَى شَبَهَ عيسى على غيرِه ، ورفَع عيسى إليه .

﴿ **وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ أي : أقواهم وأَقْدَرُهم على إيصالِ الضَّرَرِ بمَن يَسْتَحِقُّه ، من حيثُ لا يَشْعُرُ ، ولا يَحْتَسِبُ .

وقولُه : ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ ؛ أي : الكفارُ الذين تَحالَفوا على قتلِ نبيِّ اللَّهِ صالحٍ عليه السلامُ وأهلِه خُفْيةً ؛ خوفًا من أوليائِه .

﴿ **وَمَكَرْنَا مَكْرًا** ﴾ جازَيْناهم بفعلِهم هذا ، فأَهْلَكْناهم ، ونجَّيْنا نبيَّنا .

....

﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بمكرِنا .

وقولُه : ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ ؛ أى : كفارَ قريشٍ ﴿ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ ؛ أى : يَمْكُرون لإبطالِ ما جاء به محمدٌ ﷺ من الدينِ الحقِّ .

﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ ؛ أى : أَسْتَدْرِجُهم ، وأُجازِيهم على كيدِهم ، فآخُذُهم على غِرَّةٍ ، وهم لا يَشْعُرُون .

الشاهدُ من الآياتِ : فى هذه الآياتِ وَصْفُ اللَّهِ بالمكرِ والكيدِ ، ونسبةُ ذلك إليه سبحانَه حقيقةٌ على بابِه ؛ فإن المكرَ إيصالُ الشىءِ إلى الغيرِ بطريقٍ خَفِىٍّ ، وكذلك الكيدُ والمُخادَعةُ والمَكْرُ .

والكيدُ نوعان : **قبيحٌ** ، وهو إيصالُ ذلك لمن لا يَسْتَحِقُّه .

وحسنٌ : وهو إيصالُه إلى مَن يَسْتَحِقُّه ، عقوبةً له .

فالأولُ مذمومٌ ، والثانى ممدوحٌ ، والربُّ تعالى إنما يَفْعَلُ من ذلك ما يُحْمَدُ عليه ؛ عدلًا منه وحِكْمةً ، وهو تعالى يَأْخُذُ الظالمَ والفاجرَ من حيث لا يَحْتَسِبُ ، لا كما يَفْعَلُ الظَّلَمةُ بعبادِ اللَّهِ ، واللَّهُ أعلمُ .

واللَّهُ سبحانَه لم يَصِفْ نفسَه بالكيدِ والمكرِ والخداعِ إلا على وجهِ الجزاءِ لمن فعَلَ ذلك بغيرِ حقٍّ ، وقد علِم أن المُجازَاةَ حَسَنةٌ من المخلوقِ ، فكيف بالخالقِ سبحانَه وتعالى ؟!

تنبيهٌ : نسبةُ الكيدِ والمكرِ ونحوِهما إليه سبحانَه من إطلاقِ الفعلِ عليه تعالى ، والفعلُ أوسعُ من الاسمِ ، ولهذا أطْلَق اللَّهُ على نفسِه أفعالًا لم يَتَسَمَّ منها بأسماءِ الفاعلِ ؛ كأراد وشاء ، ولم يُسَمَّ بالمُريدِ والشَّائى .

وكذا مكَرَ ويَمْكُرُ ، وأَكِيدُ كَيْدًا ، ولا يقالُ : الماكرُ والكائدُ ؛ لأن مُسَمَّياتِها

....

تَنْقَسِمُ إلى ممدوحٍ ومذمومٍ[1] .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه اللَّه في شرح القواعد المثلى ١/ ١٠: ولهذا نقولُ : إن الألفاظَ إما أن تدل على معنًى ناقصٍ نقصًا مطلقًا ، وإما أن تكون دالة على كمالٍ في حالٍ ، ونقصٍ في حالٍ ، وإما أن تكون دالة على الكمال ، لكن لا غاية الكمالِ ، وإما أن تكونَ دالةً على غايةِ الكمال .
فهذه أربعة أقسام :
القسمُ الأولُ : الدالة على غاية الكمال : وهذه تكونُ من أسماءِ اللَّهِ ، بمعنى أنها كمالٌ ليس فيه نقص أبدًا ، لا احتمالًا ولا تقديرًا ، مثلَ : السميع ، البصير ، العظيم ، العليم ... الخ .
القسم الثاني :
ما هو كمال ، لكن يحتمل النقص بالتقدير :
فهذا لا يُسمى به اللَّه ، ولكن يخبر به عنه ؛ لأن باب الإخبار أوسع ، مثل :
المتكلِّم ، والشائي – يعني : الذي يشاءُ – والمريد ، والصانع ، والفاعل ، وما أشبه ذلك .
هذه كلمات لا يُسَمَّى اللَّه بها ، ولكن يخبر بها عنه إخبارا مطلقا .
فنقولُ : إنَّ اللَّه متكلم ، وإن اللَّه شاءٍ ، وإن اللَّه مُريدٌ ، وإن اللَّه فعالٌ .
ولماذا لم تَكُنْ من الأسماء ؟
الجواب : لأن المتكلم قد يتكلم بما يُحمد ، وقد يَتَكلمُ بما يُذَمُّ ، لكنَّ الكلام نفسَه كمالٌ ، لكنَّ موضوع الكلامِ قد يكونُ نقصًا ، وقد يكون كمالًا ، فالمتكلِّمُ بالمعروف متكلمٌ بكمالٍ ، والمتكلمُ بالمنكرِ متكلمٌ بنقصٍ . ولهذا لم يكن من أسمائِه ، وصَحَّ أن يُخْبَرَ به عنه على سبيل الإطلاقِ .
والمريدُ أصلٌ في إثباتِ الإرادةِ ، وأن الفاعلَ يَفْعَلُ بإرادتِه ، وهذا كمالٌ ، ولهذا المريدُ أكملُ ممَّن لا يُرِيدُ ، فالإنسانُ أكملُ من الحيوانِ ؛ لأن إرادتَه أتمُّ ، والحيوانُ أكملُ من الشجرِ ، لأن إرادتَه أكملُ ، والمختارُ للشيءِ أكملُ مِن المكرهِ عليه ؛ لأن إرادتَه أكملُ .
لكنَّ المرادَ ، هل كل مرادٍ خيرٌ ؟ قد يُرِيدُ الإنسانُ الخيرَ ، وقد يُرِيدُ الشرَّ ، فلهذا لم يَكُنِ =

....

....

= المريدُ مِن أسماءِ اللَّهِ ، لكن صارت مما يُخْبَرُ به عنه .
القسم الثالث :
الذى يحتمل نقصًا وكمالًا فى نفس المعنى ، لا فى المتعلَّق بنفس المعنى .
فهذا لا يُطلقُ على اللَّهِ تعالى ، وإنما يُذْكَرُ مُقيَّدًا ، مثلَ المكرِ والخداعِ ، والاستهزاءِ والكيْدِ .
هذه ما نقولُ : إن اللَّه ماكر ، على سبيل الإطلاق ، ولا إن اللَّه كائدٌ ؛ لأن نفسَ الكيدِ ينقسمُ إلى محمودٍ ومذمومٍ ، فلا يُمْكِنُ أن نُطْلِقَه على اللَّهِ ، بل نقولُ : إنه عزَّ وجلَّ ماكرٌ بمن يَمْكُرُ ، ومستهزئٌ بمن يستهزئ به وهكذا .
القسم الرابع : ما هو نقصٌ مَحْضٌ . فهذا لا يُسَمَّى اللَّه به ، ولا يُوصَفُ به ، مثلَ : العمى ، الصمم ، العجز ، فلا يمكن أن نقول : إن الله أعمى . والعياذ بالله ، أو إنه أصمَ ، أو إنه عاجز مطلقًا ، لا خبرًا ، ولا تسمية .
فصارت الأقسام أربعة :
١- كمالٌ مَحْضٌ فى ذاتِه وموضوعِه : فهذا يكونُ مِن أسماءِ اللَّهِ .
٢- كمالٌ فى ذاتِه ، لا فى موضوعه ، بل يَنْقَسِمُ ، فهذا يُطْلَقُ عليه خبرًا ، ولا يُسَمَّى به .
٣- ما يكون كمالًا ونقصًا فى ذاتِه ، فهذا لا يُخبرُ به عنه خبرًا مطلقًا ، وإنما يُخبرُ به عنه خبرًا مقيدًا .
٤- نقصٌ مَحْضٌ : فهذا لا يُوصَفُ به ، لا خبرًا ولا تسميةً .
ولهذا جاء فى الآية الكريمة : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ التى ليس فيها نقصٌ بوجهٍ مِن الوجوهِ .
وهذه الأقسام الأربعة ذكرَها شيخُ الإسلام رحمه اللَّه فى مواضع متفرقة من كلامِه ، وهى واضحةٌ وصحيحةٌ .
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه فى مجموع الفتاوى ٦/ ١٤٢: ويفرق بين دعائه والإخبار عنه ، فلا يُدعى إلا بالأسماء الحسنى ، وأما الإخبار عنه فلا يكون باسم سيئ ، =

....

....

* * *

= لكن قد يكون باسم حسن ، أو باسم ليس بسيئ ، وإن لم يُحْكَمْ بحسنه ، مثل اسم : « شيء ، وذات ، وموجود ، إذا أريد به الثابت ، وأما إذا أريد به الموجود عند الشدائد فهو من الأسماء الحسنى ، وكذلك المريد والمتكلم ؛ فإن الإرادة والكلام تنقسم إلى محمود ومذموم ، فليس ذلك من الأسماء الحسنى بخلاف الحكيم والرحيم والصادق ، ونحو ذلك ، فإن ذلك لا يكون إلا محمودًا » . اهـ

وقال ابن القيم ، رحمه الله في بدائع الفوائد ١/ ١٦١: ما يدخل فى باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل فى باب أسمائه وصفاته كـ « الشيء » ، و « الموجود » ، و « القائم بنفسه » ؛ فإنه يُخْبَر به عنه ، ولا يدخل فى أسمائه الحسنى وصفاته العليا . اهـ

١٥- وَصْفُ اللهِ بالعفوِ والمغفرةِ والرحمةِ والعِزَّةِ والقُدْرةِ

وقولِه تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩] . ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢] . وقولِه : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ [المنافقون: ٨] . وقولِه عن إبليسَ : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢] .

الشرحُ

﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا ﴾ ؛ أي : تُظْهِروه .

﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ فتَعْمَلُوه سِرًّا .

﴿ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ ﴾ ؛ أي : تَتَجاوَزُوا عمَّن أساء إليكم .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا ﴾ عن عبادِه يَتَجاوَزُ عنهم ﴿ قَدِيرًا ﴾ على الانتقامِ منهم بما كسَبَتْ أيديهم ، فاقْتَدُوا به سبحانَه ؛ فإنه يَعْفُو مع القدرةِ .

قولُه : ﴿ وَلْيَعْفُوا ﴾ ؛ أي : لِيَسْتُرْ ويَتَجاوُزْ أولو الفضلِ والسَّعةِ المذكورون فى أولِ الآيةِ .

﴿ وَلْيَصْفَحُوا ﴾ بالإعراضِ عن الجانى والإغماضِ عن جنايتِه .

﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ بسببِ عفوِكم وصَفْحِكم عن المسيئين إليكم .

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ كثيرُ المغفرةِ .

﴿ رَّحِيمٌ ﴾ كثيرُ الرحمةِ .

قولُـه : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ . هذا ردٌّ على المنافقين الذين زعَمُوا أن العزة

....

❊ ❊ ❊

لهم على المؤمنين ، والعزةُ هى القوةُ والغَلَبةُ ، وهى للهِ وحدَه ، ولمن أفَاضَها عليه من رُسُلِه ، وصالحى عبيدِه ، لا لغيرِهم .

وقولُه : عن إبليسَ : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ** ﴾ . أقْسَمَ بعزةِ اللَّهِ تعالى .

﴿ **لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ لَأُضِلَّنَّ بنى آدمَ بتزيينِ الشهواتِ لهم ، وإدخالِ الشُّبُهاتِ عليهم ، حتى يَصِيروا غاوِين جميعًا .

ثم لما علِم أن كيدَه لا يَنْجَحُ إلا فى أتباعِه مِن أهلِ الكفرِ والمعاصى اسْتَثْنَى ، فقال : ﴿ **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ .

الشاهدُ من الآياتِ : أن فيها وصفَ اللَّهِ بالعفوِ والقدرةِ والمغفرةِ والرحمةِ والعزةِ ، وهى صفاتُ كمالٍ تَلِيقُ به .

١٦- إثبات الاسم ، ونفي المثل عنه

وقوله : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨] .

وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] . ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] . ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

الشرح :

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ البركةُ لغةً : النَّماءُ والزيادةُ ، والتَّبريكُ : الدعاءُ بالبركةِ ، ومعنى ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ تعاظَمَ ، أو علا وارْتَفع شأنُه ، وهذا اللفظُ لا يُطْلَقُ إلا على اللَّهِ .

﴿ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ تقدَّم تفسيرهُ في آياتِ إثباتِ الوجهِ .

قولُه : ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ ؛ أي : أَفْرِدْه بالعبادةِ ، ولا تَعْبُدْ معَه غيرَه .

والعبادةُ لغةً : الذُّلُّ والخضوعُ .

وشرعًا : اسمٌ جامعٌ لما يُحِبُّه اللَّهُ ويَرْضَاه من الأعمالِ والأقوالِ الظاهرةِ والباطنةِ .

﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ ؛ أي : اثْبُتْ على عبادتِه ، ولازِمْها واصْبِرْ على مَشاقِّها .

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ الاستفهامُ للإنكارِ ، والمعنى : أنه ليس له مِثْلٌ ولا نَظيرٌ حتى يُشارِكَه في العبادةِ .

وقولُه : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ الكُفْءُ في لغةِ العربِ : النَّظيرُ ؛ أي : ليس له نظيرٌ ، ولا مثيلٌ ، ولا شَريكٌ مِن خَلْقِه .

....

* * *

قولُه : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ النِّدُّ في اللغةِ : المِثْلُ والنظيرُ والشَّبيهُ ؛ أى : لا تَتَّخِذُوا للهِ أمثالًا ، ونُظَراءَ ، تَعْبُدونهم معَه ، وتُساوُونَهم به فى الحبِّ والتعظيم .

﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه ربُّكم ، وخالقُكم ، وخالقُ كلِّ شيءٍ ، لا نِدَّ له يُشارِكُه فى الخلقِ .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا ﴾ لمَّا فرَغ سبحانَه من ذكرِ الدليلِ على وَحْدانيتِه فى الآيةِ التى قبلَها أخْبَرَ أنَّه مع هذا الدليلِ الظاهرِ المفيدِ لعظيمِ سلطانِه ، وجَليلِ قدرتِه ، وتفرُّدِه بالخلقِ ، أخْبَرَ أنه مع ذلك قد وُجِد فى الناسِ مَن يَتَّخِذُ معه سبحانَه نِدًّا يَعْبُدُه من الأصنامِ العاجزةِ .

﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾؛ أى : أن هؤلاء الكفارَ لم يَقْتَصِروا على مجردِ عبادةِ تلك الأندادِ ، بل أحَبُّوها حُبًّا عظيمًا ، وأفْرَطُوا فى حبِّها ، كما يُحِبُّون اللَّهَ ، فقد سوَّوْهم باللَّهِ فى المحبَّةِ ، لا فى الخلقِ والرزقِ والتدبيرِ .

الشاهدُ من الآياتِ : أن فيها إثباتَ اسمِ اللَّهِ ، وتعظيمَه وإجلالَه ، وفيها نفىَ السَّمِيِّ ، والكُفْءِ ، والندِّ عن اللَّهِ سبحانه ، وهو نَفْىٌ مُجْمَلٌ ، وهذه الطريقةُ الواردةُ فى الكتابِ والسنةِ ، فيما يُنْفَى عن اللَّهِ تعالى ، وهى أن يُنْفَى عن اللَّهِ عزَّ وجلَّ كلُّ ما يُضادُّ كمالَه الواجبَ من أنواعِ العيوبِ والنَّقائصِ .

١٧- نفىُ الشريكِ عن اللهِ تعالى

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١] . ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١] .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ١- ٢] .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١- ٩٢] . ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٤] .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

الشرحُ

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الحمدُ هو الثناءُ و « أل » فيه للاستغراقِ ؛ أى :الحمدُ كلُّه للهِ .

﴿ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾؛ أى : له ولدٌ ، كما تقولُه اليهودُ ، والنصارى ،

وبعضُ مشركي العرب .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ ؛ أي : ليس له مُشارِكٌ في مُلْكِه ، وربوبيتِه ، كما تقولُ الثَّنَوِيَّةُ(١) ونحوُهم ممَّن يقولُ بتعدُّدِ الآلهةِ .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ ؛ أي : ليس بذليل ، فيحتاجَ إلى أن يكونَ له وليٌّ ، أو وزيرٌ ، أو مُشِيرٌ ، فلا يُحالِفُ أحدًا ، ولا يَسْتَنْصِرُ بأحدٍ .

﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ ؛ أي : عظِّمْه ، وأَجِلَّه عما يقولُه الظالمون .

قوله : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ أي : تُنَزِّهُه جميعُ مخلوقاتِه التي في سماواتِه وأرضِه ، عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ .

﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ يَخْتَصَّان به ، ليس لغيرِه منهما شيءٌ ، وما كان لعبادِه من الملكيةِ فهو من عطائِه .

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يُعْجِزُه شيءٌ .

﴿ تَبَارَكَ ﴾ فعلٌ ماضٍ ، مأخوذٌ من البركةِ ، وهي النَّماءُ والزيادةُ المستقرَّةُ الثابتةُ الدائمةُ ، وهذه اللفظةُ لا تُسْتَعْمَلُ إلا للهِ سبحانَه ، ولا تُسْتَعْمَلُ إلا بلفظِ الماضي .

﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ ؛ أي : القرآنَ ، سُمِّي فرقانًا ؛ لأنه يَفْرُقُ بينَ الحقِّ والباطلِ .

---

(١) سُمُّوا بذلك ؛ لأنهم قالوا بإثبات اثنين أَزَليين ، هما النور إله الخير ، والظلمة إله الشر ، والفرق بينهم وبين المجوس أن المجوس يقولون : إن النور قديم أزلي ، والظلمة مخلوق حادث ، أما الثنوية فيقولون : بأزلية النور والظلمة ، وهم أربع فرق ، المانوية أتباع ماني ، والديصانية أتباع ديصان ، والمرقونية أتباع مرقيون ، والمزدكية أتباع مزدك . الملل والنحل ٢/٨٠، ٨١، واعتقادات فرق المسلمين ص ١٣٨، ١٤٢ .

....

﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ ؛ يعنى : محمدًا ﷺ ، وهذه صفةُ مدحٍ وثناءٍ ؛ لأنه أضافه إليه إضافةَ تشريفٍ وتكريمٍ فى مقامِ إنزالِ القرآنِ عليه .

﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجنّ ، وهذا من خصوصياتِه ﷺ[1] .

﴿ نَذِيرًا ﴾ ؛ أى : مُنذِرًا ، مأخوذٌ من الإنذارِ ، وهو الإعلامُ بأسبابِ المخافةِ .

وقولُه : ﴿ لِيَكُونَ ﴾ تعليلٌ لإنزالِ الفرقانِ عليه ؛ أى : ليَخُصَّه بالرسالةِ العامةِ .

ثم وصَفَ نفسَه سبحانَه بأربعِ صفاتٍ :

الأولى : قولُه : ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ دونَ غيرِه ، فهو المُتَصَرِّفُ فيهما وحدَه .

الصفةُ الثانيةُ : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ كما تَزْعُمُ النصارَى واليهودُ ، وذلك لكمالِ غِناه ، وحاجةِ كلِّ مخلوقٍ إليه .

الصفةُ الثالثةُ : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ﴾ فيه ردٌّ على طوائفِ المشركين من الوَثَنِيَّةِ[2] والثَّنَوِيةِ وغيرِهم .

الصفةُ الرابعةُ : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ من المخلوقاتِ ، ويَدْخُلُ فى ذلك أفعالُ العبادِ ، فهى خَلْقُ اللَّهِ وفعلُ العبدِ .

﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ؛ أى : قدَّرَ كلَّ شىءٍ مما خَلَق من الآجالِ والأرزاقِ

---

(١) ومما يدل على ذلك أيضًا ما رواه البخارى (٣٣٥، ٤٣٨) ، ومسلم ١/ ٣٧٠ (٥٢١) ، عن جابر بن عبد اللَّه الأنصارى رضى اللَّه عنه ، عن النبى ﷺ ، وفيه : « ... وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبُعِثْتُ إلى الناس عامة » . وهذا لفظ البخارى .

(٢) الوَثَنِيَّة : مذهب عَبَدةِ الأوثان ، والأوثان جمع وَثَن ، وهو التِّمثال يُعْبَدُ سواءٌ كان من خشب ، أم حجر ، أم نُحاس ، أم فضة ، أم غير ذلك . المعجم الوسيط (و ث ن) .

....

والسعادةِ والشَّقَاوةِ ، وهيَّأَ كلَّ شيءٍ لما يَصْلُحُ له .

قال ابنُ كثيرٍ : نزَّه نفسَه عن الولدِ ، وعن الشريكِ ، ثم أخْبَر أنه خَلَق كلَّ شيءٍ ، فقدَّرَه تقديرًا ؛ أي : كلُّ شيءٍ مما سِواه مخلوقٌ مربوبٌ ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ ، وربُّه ومَلِيكُه ، وإلهُه ، وكلُّ شيءٍ تحتَ قهرِه ، وتَدبيرِه ، وتَسْخيرِه ، وتقديرِه . اهـ[1]

قولُه : ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ** ﴾ . فى هذه الآيةِ يُنَزِّهُ تعالى نفسَه عن أن يكونَ له ولدٌ ، أو شريكٌ فى الملكِ والتصرُّفِ والعبادةِ .

﴿ **مَنْ** ﴾ فى الموضعَيْنِ لتأكيدِ النفيِ .

﴿ **إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ** ﴾ هذا استدلالٌ لما سبَق فى أولِ الآيةِ من نفيِ الولدِ ، والشريكِ فى الألوهيةِ ؛ أى : لو قُدِّر تَعَدُّدُ الآلهةِ لانْفَرَدَ كلٌّ منهم عن الآخرِ بما خَلَق ، وحينئذ لا يَنْتَظِمُ الكونُ لوجودِ الانقسامِ .

والواقعُ المشاهَدُ أن الكونَ مُنْتَظِمٌ أتمَّ انتظامٍ ، لم يَحْصُلْ فيه تعدُّدٌ ، ولا انقسامٌ .

﴿ **وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ ؛ أى : ولو كان معه إلهٌ آخرُ ، لكان كلٌّ منهم يَطْلُبُ قَهْرَ الآخرِ ، ومخالفتَه ، فيَعْلُو بعضُهم على بعضٍ ، كحالِ ملوكِ الدنيا ، وحينَئذٍ فذلك المغلوبُ الضعيفُ لا يَسْتَحِقُّ أن يكونَ إلهًا .

وإذا تَقَرَّرَ بطلانُ المشاركِ تعَيَّن أن يكونَ الإلهُ واحدًا ، هو اللَّهُ وحدَه ، ولهذا قال : ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ من الشريكِ والولدِ .

﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** ﴾ ؛ أى : هو المختصُّ بعلمِ ما غاب عن العبادِ ، وعِلْمِ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٠٩ .

....

ما يُشاهِدُونه ، وأما غيرُه فهو وإن علِم شيئًا من المُشاهَدِ ، فإنه لا يَعْلَمُ الغيبَ .

﴿ فَتَعَالَى ﴾ ؛ أى : تَنزَّهَ اللَّهُ وتقدَّس .

﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به فهو سبحانَه مُتَعالٍ عن أن يكونَ له شريكٌ فى الملكِ .

قولُه : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ يَنْهَى سبحانَه عن ضربِ الأمثالِ له، وضربُ المثلِ هو تشبيهُ حالٍ بحالٍ ، وكان المشركون يقولون : إنَّ اللَّهَ أجَلُّ مِن أن يَعْبُدَه الواحدُ منا ، فلا بدَّ من اتخاذِ واسطةٍ بينَنا وبينَه ، فكانوا يَتَوَسَّلون إليه بالأصنامِ وغيرِها ؛ تشبيهًا له بملوكِ الدنيا .

فنَهَى سبحانَه عن ذلك ؛ لأنه سبحانَه لا مِثْلَ له ، فلا يُمَثَّلُ بخلقِه ، ولا يُشَبَّهُ بهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ أنه لا مِثْلَ له .

﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ففعلُكم هذا صدَرَ عن توهُّمٍ فاسدٍ وخاطرٍ باطلٍ ، ولا تَعْلَمُون أيضًا ما فى عبادةِ الأصنامِ من سوءِ العاقبةِ .

وقولُه : ﴿ قُلْ ﴾ الخطابُ للنبىِّ ﷺ ، وفى ذلك دليلٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ ، وأنَّ النبىَّ ﷺ مُبَلِّغٌ عن اللَّهِ .

﴿ إِنَّمَا ﴾ أداةُ حصرٍ .

﴿ حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ﴾ ؛ أى : جعَلَها حرامًا ، والفواحشُ جمعُ فاحشةٍ ، وهى ما تَناهَى قبحُه من المعاصى .

﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ؛ أى : أُعْلِنَ منها ، وما أُسِرَّ .

﴿ وَالْإِثْمَ ﴾ كلُّ معصيةٍ يَتَسَبَّبُ عنها الإثمُ ، وقيل : هو الخمرُ خاصةً .

﴿ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ؛ أى : الظلمَ المُجاوِزَ للحدِّ ، والتَّعَدِّىَ على الناسِ .

....

* * *

﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ﴾ ؛ أى : تجعَلُوا له شريكًا فى العبادةِ .

﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ ؛ أى : حُجَّةً وبُرهانًا ، وهذا موضعُ الشاهدِ من الآيةِ .

﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الافتراءِ والكذبِ مِن دَعْوَى أنَّ له ولدًا ، ونحوِ ذلك مما لا عِلْمَ لكم به ، ومثلِ ما كانوا يَنْسُبون إليه من التحليلاتِ والتحريماتِ التى لم يَأْذَنْ بها[1] .

الشاهدُ من هذه الآياتِ الكريمةِ : أن فيها نفيَ الشريكِ عن اللَّهِ تعالى ، وإثباتَ تفرُّدِه بالكمالِ ، ونفيَ الولدِ والمثلِ عنه سبحانَه ، وأنَّ جميعَ مخلوقاتِه تَنزِّهُه عن ذلك وتُقَدِّسُه .

كما أن فيها إقامةَ الحجةِ على بُطلانِ الشركِ ، وأنه مبنيٌّ على جهلٍ وخيالٍ ، وأنه سبحانَه لا مِثْلَ له ، ولا شَبيهَ له . واللَّهُ أعلمُ .

---

(١) قال الشيخ ابن باز ، رحمه اللَّه فى تعليقه على التنبيهات اللطيفة للسعدى رحمه اللَّه ص ٣٤: وجه سياق هذه الآية ضمن إثبات آيات الصفات للدلالة على أن القول على اللَّه بلا علم من أعظم المحرمات ، بل إنه يأتى فى مرتبة أعلى من مرتبة الشرك ، حيث رتَّب المحرَّمات فى هذه الآية من الأدنى إلى الأعلى ، والقول على اللَّه بلا علم يشمل القول عليه فى أحكامه وشرعه ودينه ، كما يشمل القول عليه فى أسمائه وصفاته ، وهو أعظم من القول عليه فى شرعه ودينه ، فسياق الآية الكريمة هنا للتنبيه على هذا ، واللَّه أعلم . اهـ

١٨- إثباتُ استواءِ اللَّهِ على عرشِه

وقولِه : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ في سبعةِ مواضعَ :

في سورةِ الأعرافِ قولُه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الآية : ٥٤] .

وقال في سورةِ يونُسَ عليه السلامُ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الآية : ٣] .

وقال في سورةِ الرَّعْدِ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الآية : ٢] .

وقال في سورةِ « طه » : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [الآية : ٥] .

وقال في سورةِ الفُرْقانِ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾ [الآية : ٥٩] .

وقال في سورةِ السجدةِ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الآية : ٤] .

وقال في سورةِ الحديدِ : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الآية : ٤] .

الشرحُ

أي : قد ورَد إثباتُ استواءِ اللَّهِ على عرشِه في سبعِ آياتٍ من كتابِ اللَّهِ ، كلُّها قد ورَد فيها إثباتُ الاستواءِ بلفظٍ واحدٍ هو : ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فهو نصٌّ في

....

معناه الحقيقيّ ، لا يَحْتَمِلُ التأويلَ بمعنىً آخرَ .

والاستواءُ صفةٌ فعليةٌ[1] ثابتةٌ للهِ سبحانَه على ما يَليقُ بجَلالِه ، كسائرِ صفاتِه ،

---

(١) **قال الشيخ السعدى ، رحمه الله فى كتاب التنبيهات اللطيفة ص ٤٠ ، ٤١ :**
ومن الأصول المتفق بين السلف التى دلت عليها هذه النصوص أن صفات البارى قسمان :
صفات ذاتية : لا تنفك عنها الذات كصفة الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والقوة ، والعزة ، والملك ، والعظمة ، والكبرياء ، ونحوها كالعلو المطلق .
وصفات فعلية : تتعلق بها أفعاله فى كل وقت وآن وزمان ، ولها آثارها فى الخلق والأمر ، فيؤمنون بأنه تعالى فعال لما يريد وأنه لم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور وأن أفعاله تقع شيئًا فشيئًا تبعًا لحكمه وإرادته ، فإن شرائعه وأوامره ونواهيه الشرعية لا تزال تقع شيئًا فشيئًا .
وقد دل على هذا الأصل الكبير ما فى هذه النصوص من ذكر (قال) و (يقول) و (سمع) و (يسمع) و (كلم) و (يكلم) و (نادى) و (ناجى) و (عَلِم) و (كتب) و (يكتب) و (جاء) و (يجىء) و (أتى) و (يأتى) و (أوحى) و (يُوحى) ونحوها من الأفعال المتنوعة التى تقع مقيدة بأوقاتها كما سمعت فى هذه النصوص المذكورة آنفًا ، وهذا من أكبر الأصول وأعظمها . ولقد صنف فيه المؤلف مصنفًا مستقلًّا وهو المسمى بالأفعال الاختيارية .
فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه ، من الأفعال المتعلقة بذاته ، كالاستواء على العرش ، والمجىء ، والإتيان ، والنزول إلى السماء الدنيا ، والقول . ونحوها ، والمتعلقة بخلقه كالخَلْق والرِّزق وأنواع التدبير .
وقال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله فى شرح العقيدة الواسطية ١/٧٨- ٨٠:
فالصفات الذاتية هى التى لم يزل ولا يزال متصفًا بها ، وهى نوعان : معنوية وخبرية : فالمعنوية ؛ مثل الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والحكمة ... وما أشبه ذلك ، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر . =

....

....

= والخبرية ؛ مثل : اليدين ، والوجه ، والعينين ... وما أشبه ذلك مما سماه ، نظيره أبعاض وأجزاء لنا .

فاللَّه تعالى لم يزل له يدان ووجه وعينان ، لم يحدث له شيء من ذلك بعد أن لم يكن ، ولن ينفكَّ عن شيء منه ؛ كما أن اللَّه لم يزل حيًّا ولا يزال قادرًا ... وهكذا ؛ يعني : ليس حياته تتجدد ، ولا قدرته تتجدد ، ولا سمعه يتجدد ، بل هو موصوف بهذا أزلًا وأبدًا ، وتجدد المسموع لا يستلزم تجدد السمع ؛ فأنا مثلًا عندما أسمع الأذان الآن ، فهذا ليس معناه أنه حدث لي سمع جديد عند سماع الأذان ، بل هو منذ خلقه اللَّه فيَّ ، لكن المسموع يتجدد ، وهذا لا أثر له في الصفة .

واصطلح العلماء رحمهم اللَّه على أن يسموها الصفات الذاتية ؛ قالوا : لأنها ملازمة للذات ، لا تنفك عنها .

والصفات الفعلية هي الصفات المتعلقة بمشيئته ، وهي نوعان :

صفات له سبب معلوم ؛ مثل : الرضى ؛ فاللَّه عز وجل إذا وجد سبب الرضى ؛ رضي ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] .

وصفات ليس لها سبب معلوم ؛ مثل : النزول إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر .

ومن الصفات ما هو صفة ذاتية وفعلية باعتبارين ؛ فالكلام صفة فعلية باعتبار آحاده ، لكن باعتبار أصله صفة ذاتية ؛ لأن اللَّه لم يزل ولا يزال متكلمًا ، لكنه يتكلم بما شاء متى يشاء ؛ كما سيأتي في بحث الكلام إن شاء اللَّه تعالى .

اصطلح العلماء رحمهم اللَّه أن يسموا هذه الصفات الصفات الفعلية ؛ لأنها من فعله سبحانه وتعالى .

ولها أدلة كثيرة من القرآن ؛ مثل : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] ، ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ =

....

وله في لغةِ العربِ أربعةُ معانٍ ، هي : علا ، وارْتَفَعَ ، وصَعِد ، واسْتَقَرَّ ، وهذه المعاني الأربعةُ تَدورُ عليها تفاسيرُ السلفِ للاستواءِ الواردِ في هذه الآياتِ الكريمةِ[1] .

فقولُه في الآيةِ الأولى والثانية : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ أي : هو خالقُكم

= وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [المائدة : ١١٩] ، ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٦] ، ﴿ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [المائدة : ٨٠] .

وليس في إثباتها لله تعالى نقص بوجه من الوجوه ، بل هذا من كماله أن يكون فاعلًا لما يريد . وأولئك القوم المحرفون يقولون : إثباتها من النقص ! ولهذا ينكرون جميع الصفات الفعلية ؛ يقولون : لا يجيء ، ولا يرضى ، ولا يسخط ، ولا يكره ، ولا يحب ... ينكرون كل هذه ؛ بدعوى أن هذه حادثة والحادث لا يقوم إلا بحادث ، وهذا باطل ؛ لأنه في مقابلة النص ، وهو باطل بنفسه ؛ فإنه لا يلزم من حدوث الفعل حدوث الفاعل . اهـ

(١) ومما ورد عن السلف في ذلك ما علَّقه البخاري رحمه الله في الفتح ١٣/ ٤٠٣، ووصله الفِرْيابي عن مجاهد ، قال رحمه الله : ﴿ اسْتَوَى ﴾ عَلاَ على العرش .

قال الألباني ، رحمه الله في مختصر العلو ص ١٠١: وصله الفريابي بسند صحيح عن مجاهد ، وفيه رد على بعض الكتاب المعاصرين الذين يُوهِمون الناس أن السلف لم يتكلموا في آيات الصفات ، ولم يُفَسِّروها إطلاقًا ، وأنهم اكتفوا بقراءتها دون تدبُّرها وتفهُّمها ، وهذا مما أبطله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتبه ، نعم لم يُفَسِّروها تفسيرًا مقرونًا بالتشبيه والتكييف ، بل نُهُوا عن ذلك أشد النهي ، كما ستراه في الكتاب عن مالك وغيره .

ثم أورد رحمه الله أثرًا آخر يتضمن تفسير السلف للاستواء وهو ما رواه اللالكائي في السنة ١/٩١/ ٢، عن بشر بن عمر الثقة المتوفَّى (٢٠٧) ، قال : سمعت غير واحد من المفسّرين يقولون : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ قال : على العرش ارتفع . اهـ

ومما ورد في ذلك أيضًا ما رواه البخاري تعليقًا في الفتح ٤٠٣/١٣، قال : قال أبو العالية : استوى إلى السماء : ارتفع .

....

ومُرَبِّيكم بنِعَمِه ، والذى يَجِبُ عليكم أن تَعْبُدوه وحدَه .

﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أى : هو خالقُ العالمِ ؛ سماواتِه وأرضِه ، وما بينَ ذلك .

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هى الأَحَدُ والاثنين والثلاثاءُ والأَرْبِعاءُ[١] والخميسُ والجُمُعةُ ، ففى يومِ الجمعةِ اجْتَمَع الخلقُ كلُّه ، وفيه خُلِق آدمُ عليه السلامُ[٢] .

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ أى : علا وارْتَفَع على العرشِ ، كما يَليقُ بجلالِه ، وهذا مَحَلُّ الشاهدِ من الآيةِ ، والعرشُ فى اللغةِ هو سَريرُ المَلِكِ ، والمرادُ به هنا - كما يَدُلُّ عليه مجموعُ النصوصِ - سَريرٌ ذو قَوائمَ تَحْمِلُه الملائكةُ ، وهو كالقُبَّةِ على العالَمِ ، وهو سَقْفُ المخلوقاتِ[٣] .

---

(١) الأَرْبِعَاء من الأيام مُثَلَّثة الباء ، ممدودة . القاموس المحيط (ر ب ع) .

(٢) يدل على ذلك ما رواه أحمد ٣٢٧/٢ (٨٣٢٣) ، ومسلم ٢١٤٩/٤ (٢٧٨٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيَدِى ، فقال : « خلَقَ اللهُ عزَّ وجَلَّ التُّربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبَثَّ فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة ، فى آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل » .

(٣) النصوص التى يشير إليها الشيخ رحمه الله :

أولًا : ما يدل على أن للعرش قوائم ، وهو ما رواه البخارى (٧٤٢٧) عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ قال : « يُصْعَقون يومَ القيامة ، فإذا أنا بموسى آخِذٌ بقائمة من قوائم العرش » .

ثانيًا : ما يدل على حمل الملائكة له ، هو قوله تعالى : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ .

وما رواه أحمد ٢١٨/١ (١٨٨٢) ، ومسلم ١٧٥٠/٤ (٢٢٢٩) ، أن عبد الله بن =

....

....

= عباس قال : أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رُمِي بنَجْم فاستنار ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ماذا كنتم تقولون في الجاهلية ، إذا رُمِي بمثل هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . كنا نقول وُلد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم . فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يُرمى بها لموت أحدٍ ولا لحياته . ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا ، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال : قال فيستخبر بعض أهل السماوات بعضًا . حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا ، فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون به فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقرفون وفيه ويزيدون » .

ثالثًا : ما يدل على أنه سَقْفُ المخلوقات وأنه كالقُبّة على العالم وأنه سَرِيرٌ : هو ما رواه أبو داود رحمه الله في سننه (٤٦٢٧) ، عن جُبَيْر بن مُطْعِم ، أن النبي ﷺ قال : « ويحك ، إنه لا يُسْتَشْفع بالله على أحد من خلقه ، إن شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك ! أتدري ما الله ؟ إن الله فوق عرشه ، وعرشه على سماواته وأرضه مثلُ القُبّة ، وإنه لَيَئِطُّ به أَطِيطَ الرَّحْلِ بالراكب » .

وقد انتصر لهذا الحديث ابن القيم رحمه الله في تهذيب السنن مع عون المعبود ١٣/ ٩، وردَّ على من طعن في سنده .

ومما يدل على ذلك أيضًا الآيات التي فيها استواء الله عليه .

وليس معنى أنه سبحانه استوى على العرش أنه بحاجة إلى العرش أو إلى حَمَلته ، قال الطحاوي في الطحاوية ص ٢٨٠: وهو مُسْتَغْنٍ عن العرش ، وما دونه . اهـ .

وقال ابن أبي العِزّ شارحها ص ٢٨٠: أما قوله : وهو مستغن عن العرش وما دونه . فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦] . وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] ، وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا ، لأنه لما ذكر العرش =

....

وقولُه : في الآيةِ الثالثةِ : ﴿ **اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ** ﴾؛ أى : رَفَعَها عن الأرضِ رفعًا بعيدًا ، لا يُنالُ ولا يُدْرَكُ مَدَاه .

﴿ **بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾ العَمَدُ هى الأساطينُ ، جمعُ عِمادٍ ؛ أى : قائمةٌ بغيرِ عَمَدٍ تَعْتَمِدُ عليها ، بل بقدرتِه سبحانَه .

وقولُه : ﴿ **تَرَوْنَهَا** ﴾. تأكيدُ لنفيِ العَمَدِ ، وقيل : لها عَمَدٌ ، ولكن لا نَراها ، والأولُ أصحُّ .

﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ هذا مَحَلُّ الشاهدِ من الآيةِ الكريمةِ لإثباتِ الاستواءِ ، والكلامُ على بقيةِ الآياتِ كالكلامِ على هذه الآيةِ .

ويُسْتَفادُ منها جميعًا : إثباتُ استواءِ اللَّهِ على عرشِه على ما يَليقُ بجلالِه ، وفيها الردُّ على مَن أَوَّل الاستواءَ بأنه الاستيلاءُ ، والقَهْرُ ، وفسَّر العرشَ بأنه المُلْكُ ، فقال : اسْتَوَى على العرشِ ؛ معناه : اسْتَولى على المُلْكِ ، وقهَر غيرَه .

وهذا باطلٌ من وجوهٍ كثيرةٍ ، منها :

= والكرسى ، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ، ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه ، ليس لحاجته إليه ، بل له فى ذلك حكمة اقتضته ، وكون العالى فوق السافل ، لا يلزم أن يكون السافل حاويًا للعالى ، محيطًا به ، حاملًا له ، ولا يكون الأعلى مفتقرًا إليه ، فانظر إلى السماء كيف هى فوق الأرض وليست مفتقرة إليها ؟ فالرب تعالى أعظم شأنًا وأجل من أن يلزم من علّوه ذلك ، بل لوازم علوه من خصائصه ، وهى حمله بقدرته للسافل ، وفقْر السافل ، وغناه هو سبحانه عن السافل ، وإحاطتُه عز وجل به ، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته ، وغناه عن العرش ، وفقر العرش إليه ، وإحاطته بالعرش ، وعدم إحاطة العرش به ، وحصره للعرش ، وعدم حصر العرش له . اهـ

....

أولًا : أن هذا تفسيرٌ مُحْدَثٌ مُخالِفٌ لتفسيرِ السلفِ من الصحابةِ والتابعين وأتباعِهم ، وأولُ مَن قال به الجهميةُ والمعتزلةُ ، فهو مردودٌ[(١)] .

ثانيًا : لو كان المرادُ بالاستواءِ على العرشِ الاستيلاءَ على الملكِ لم يَكُنْ هناك فرقٌ بينَ العرشِ والأرضِ السابعةِ السُّفْلَى والدوابِّ وجميعِ المخلوقاتِ ؛ لأنه مُسْتَوْلٍ على الجميعِ ، فلا يكونُ لذكرِ العرشِ فائدةٌ .

ثالثًا : أن هذا اللفظَ ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قد اطَّرَدَ في الكتابِ والسنةِ ، ولم يَأْتِ في لفظٍ واحدٍ : (اسْتَوْلَى على العرشِ) حتى تُفَسَّرَ به بقيةُ النصوصِ[(٢)] .

---

(١) **قال ابن القيم رحمه الله في كتاب الصواعق المرسلة ٢٩٢/١**: وكذلك تأويلهم الاستواء بالاستيلاء فإن هذا لا تعرفه العرب من لغاتها ولم يقله أحد من أئمة اللغة . وقد صرح أئمة اللغة كابن الأعرابي . وغيره بأنه لا يعرف في اللغة ولو احتمل ذلك لم يحتمله هذا التركيب فإن استيلاءه سبحانه وغلبته للعرش لم يتأخر عن خلق السماوات والأرض والعرش مخلوق قبل خلقها بأكثر من خمسين ألف سنة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق فيما صح عنه . اهـ

(٢) **قال ابن القيم رحمه اللَّه في الصواعق المرسلة ٣٨٤/١- ٣٨٦:**

فصل : القسم الثاني :

ما هو ظاهر في مراد المتكلم ، ولكنه يقبل التأويل فهذا ينظر في وروده ، فإن اطرد استعماله على وجه واحد ، استحال تأويله بما يخالف ظاهره ، لأن التأويل إنما يكون لموضع جاء نادرًا خارجًا عن نظائره منفردًا عنها ، فيؤول حتى يرد إلى نظائره ، وتأويل هذا غير ممتنع ؛ لأنه إذا عرف من عادة المتكلم باطراد كلامه في توارد استعماله معنى ألفه المخاطب ، فإذا جاء موضع يخالفه رده السامع بما عهد من عرف المخاطب إلى عادته المطردة ، هذا هو المعقول في الأذهان والفطر وعند كافة العقلاء ، وقد صرح أئمة العربية بأن الشيء إنما يجوز حذفه إذا كان الموضع الذي ادعى فيه حذفه قد استعمل فيه ثبوته أكثر من حذفه فلا بد أن يكون موضع ادعاء الحذف [عندهم صالحًا للثبوت ويكون الثبوت مع ذلك أكثر من الحذف] (حتى) إذا جاء ذلك =

....

رابعًا : أنه أَتَى بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ التى تُفِيدُ الترتيبَ والمُهْلةَ ، فلو كان معنى الاستواءِ الاستيلاءَ على العرشِ والقدرةَ عليه لم يَتَأَخَّرْ ذلك إلى ما بعدَ خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ؛ فإنَّ العرشَ كان موجودًا قبلَ خلقِ السماواتِ والأرضِ بخمسين ألفَ سنةٍ ، كما ثبتَ فى الصحيحين(١) ، فكيف يَجوزُ أن يكونَ غيرَ قادرٍ ولا مُستَوْلٍ عليه إلى أن خَلَقَ السماواتِ والأرضَ ، هذا مِن أَبْطَلِ الباطلِ ، واللَّهُ أعلمُ(٢) .

= محذوفًا فى موضع ، علم بكثرة ذكره فى نظائره أنه قد أزيل من هذا الموضع فحمل عليه ، فهذا شأن من يقصد البيان والدلالة ، وأما من يقصد التلبيس والتعمية فله شأن آخر .

والقصد أن الظاهر فى معناه إذا اطرد استعماله فى موارده مستويًا امتنع تأويله وإن جاز تأويل ظاهر ما لم يطرد فى موارد استعماله ، ومثال ذلك اطراد قوله : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] . ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] . فى جميع موارده من أولها إلى آخرها على هذا اللفظ فتأويله باستولى باطل ، وإنما كان يصح أن لو كان مجيئه بلفظ « استولى » ثم يخرج موضع عن نظائره ويرد بلفظ « استوى » فهذا كان يصح تأويله باستولى فتفطن لهذا الموضع ، واجعله قاعدة فيما يمتنع تأويله من كلام المتكلم وما يجوز تأويله . اهـ

(١) روى أحمد ٢/١٦٩ (٦٥٧٩) ، ومسلم ٤/٢٠٤٤ (٢٦٥٣) ، والترمذى (٢١٥٦) ، عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « كتَبَ اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء » .

قال الإمام النووى رحمه اللَّه فى شرح مسلم ٨/ ٤٥٤ : قال العلماء : المراد تحديد وقت الكتابة فى اللوح المحفوظ أو غيره ، لا أصل التقدير فإن ذلك أزلى ، لا أول له . اهـ

(٢) وقد ذكر ابن القيم رحمه اللَّه فى كتاب الصواعق المرسلة ١/ ١٩١، ١٩٢، ٢٩١ أن من الناس من حرَّف معنى الاستواء إلى معنى الإقبال على خلق العرش ، وردَّ ذلك رحمه اللَّه قائلًا : وكتأويل قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ . بأن المعنى أقبل على خلق العرش ، فإن هذا لا يعرف فى لغة العرب ، بل ولا غيرها من الأمم ، أن من قبل على الشىء يقال : قد استوى عليه ، ولا يقال لمن أقبل على الرحل : قد استوى عليه ، ولا لمن أقبل على عمل من الأعمال =

....

* * *

....

= من قراءة ، أو كتابة ، أو صناعة ، قد استوى عليها ، ولا لمن أقبل على الأكل قد استوى على الطعام . فهذه لغة القوم ، وأشعارهم وألفاظهم ، موجودة ليس فى شىء منها ذلك البتة . وهذا التأويل يبطل من وجوه كثيرة سنذكرها فى موضعها لو لم يكن منها إلا تكذيب رسول الله ﷺ لصاحب هذا التأويل لكفاه ، فإنه قد ثبت فى الصحيح ، « أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » . فكان العرش موجودًا قبل خلق السماوات والأرض بأكثر من خمسين ألف سنة . فكيف يقال : إنه خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم أقبل على خلق العرش .

والتأويل إذا تضمن تكذيب الرسول فحسبه ذلك بطلانًا ، وأكثر تأويلات القوم من هذا الطراز ، وسيمر بك منها ما هو قرة عين لكل موحد وسُخْنة عين لكل ملحد . اهـ

وقال أيضًا رحمه الله ص ٢٩١: المثال الأول : تأويل قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

بأنه أقبل على خلقه فهذا إنشاء منهم لوضع لفظ « استوى » على « أقبل على خلقه » وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة فإنهم ذكروا معانى استوى ولم يذكر أحد منهم أصلًا فى معانيه الإقبال على الخلق فهذه كتب اللغة طبق الأرض هل تجدون أحدًا منهم يحكى لك على اللغة وأيضًا فإن استواء الشىء والاستواء إليه وعليه يستلزم وجوده ووجود ما نسبت إليه الاستواء بإلى أو بعلى فلا يقال استوى إلى أمر معدوم ولا استوى عليه فهذا التأويل إنشاء محض لا إخبار صادق عن استعمال أهل اللغة . اهـ

١٩- إثباتُ عُلُوّ الله على مخلوقاته

وقوله : ﴿ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : ١٥٨] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [غافر : ٣٦] ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك : ١٦- ١٧] .

الشرحُ :

﴿ **يَا عِيسَى** ﴾ خطابٌ مِن اللَّهِ تبارَك وتعالى لعيسى ابنِ مريمَ عليه الصلاةُ والسلامُ ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ الذى عليه الأكثرُ أن المرادَ بالوفاةِ هنا النومُ ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾(١) [الزمر : ٤٢] .

---

(١) **قال الشيخ ابن باز ، رحمه اللَّه فى كتاب « فتاوى وتنبيهات ونصائح » ص ١٦٦ - ١٦٨ :**
وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة على أن عيسى ابن مريم عبد اللَّه عليه الصلاة والسلام رفع إلى السماء بجسده الشريف وروحه ، وأنه لم يمت ولم يقتل ولم يصلب ، وأنه ينزل آخر الزمان ، فيقتل الدجال ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام ، وثبت أن ذلك النزل من أشراط الساعة ، وقد أجمع علماء الإسلام الذين يعتمد على أقوالهم على ما ذكرناه ، وإنما اختلفوا فى التوفى المذكور فى قوله عز وجل : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ . على أقوال :
أحدها : أن المراد بذلك وفاة الموت لأنه الظاهر من الآية بالنسبة إلى من يتأمل بقية الأدلة ذلك قد تكرر فى القرآن الكريم بهذا المعنى مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي =

....

﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ ؛ أى : رَفَعَه اللَّهُ إليه فى السماءِ ، وهو حيٌّ ، وهذا محَلُّ الشاهدِ من الآيةِ ، وهو إثباتُ العُلُوِّ للَّهِ ؛ لأن الرفعَ يكونُ إلى أعْلَى .

وقولُه : ﴿ **بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ** ﴾ . هذا ردٌّ على اليهودِ الذين يَدَّعُون أنَّهم قَتَلوا المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ

= وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ . وفى آيات أخرى قد ذكر فيها التوفى بمعنى الموت وعلى هذا المعنى يكون فى الآية تقديم وتأخير .

القول الثانى : معناه القبض ، نقل ذلك ابن جرير فى تفسيره عن جماعة من السلف واختاره ورجحه على ما سواه وعليه فيكون معنى الآية : إنى قابضك من عالم الأرض إلى عالم السماء وأنت حى ورافعك إلى . ومن هذا المعنى قول العرب – توفيت ما لى من فلان أى قبضته كله وافيا .

والقول الثالث : إن المراد بذلك وفاة النوم لأن النوم يسمى وفاة وقد دلت الأدلة على عدم موته عليه السلام فوجب حمل الآية على وفاة النوم جمعًا بين الأدلة كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ .

والقولان الأخيران أرجح من القول الأول ، وبكل حال فالحق الذى دلت عليه الأدلة البينة وتظاهرت عليه البراهين أنه عليه الصلاة والسلام رفع إلى السماء حيا وأنه لم يمت بل لم يزل عليه السلام حيا فى السماء إلى أن ينزل فى آخر الزمان ويقوم بأداء المهمة التى أسندت إليه المبينة فى أحاديث صحيحة عن محمد رسول اللَّه ﷺ ، ثم يموت بعد ذلك الموتة التى كتبها اللَّه عليه . ومن هنا يعلم أن تفسير التوفى بالموت قول ضعيف مرجوح ، وعلى فرض صحته فالمراد بذلك التوفى الذى يكون بعد نزوله فى آخر الزمان فيكون ذكره فى الآية قبل الرفع من باب المقدم ومعناه لتأخير لأن الواو لا تقتضى الترتيب كما نبه عليه أهل العلم ، واللَّه الموفق . اهـ

....

الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء : ١٥٧] .

﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي : رفعَ اللَّهُ سبحانَه وتعالى المسيحَ عليه السلامُ إليه ، وهو حيٌّ ، لم يُقْتَلْ ، وهذا مَحَلُّ الشاهدِ ؛ لأن فيه إثباتَ عُلُوِّ اللَّهِ على خلقِه ؛ لأن الرفعَ يكونُ إلى أعلى(١) .

(١) **قال الشيخ ابن باز ، رحمه الله في فتاوى وتنبيهات ص ١٦٩ - ١٧١ :**
وأما من زعم أنه قد قتل أو صلب فصريح القرآن يرد قوله ويبطله ، وهكذا قول من قال إنه لم يرفع إلى السماء وإنما هاجر إلى كشمير وعاش بها طويلًا ومات فيها بموت طبيعي وإنه لا ينزل قبل الساعة وإنما يأتي مثيله فقوله ظاهر البطلان بل هو من أعظم الفرية على الله تعالى والكذب عليه وعلى رسوله ﷺ . فإن المسيح عليه السلام لم ينزل إلى وقتنا هذا ، وسوف ينزل في مستقبل الزمان ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ ومما تقدم يعلم السائل وغيره أن من قال إن المسيح قتل أو صلب أو قال إنه هاجر إلى كشمير ومات بها موتًا طبيعيًا ولم يرفع إلى السماء أو قال إنه قد أتى أو سيأتي مثيله وإنه ليس هناك مسيح ينزل من السماء فقد أعظم على الله الفرية بل هو مكذب لله ولرسوله ﷺ ومن كذب الله ورسوله فقد كفر ، والواجب أن يستتاب من قال مثل هذه الأقوال ، وأن توضح له الأدلة من الكتاب والسنة ، فإن تاب ورجع إلى الحق وإلا قتل كافرًا .
والأدلة على ذلك كثيرة معلومة منها قوله سبحانه في شأن عيسى عليه السلام في سورة النساء : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٧ - ١٥٨] .
ومنها ما تواترت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام ينزل في آخر الزمان حكمًا مقسطًا فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام . وهي أحاديث متواترة مقطوع بصحتها عن رسول الله ﷺ ، وقد أجمع علماء =

....

....

= الإسلام على تلقيها بالقبول والإيمان بما دلت عليه وذكروا ذلك فى كتب العقائد . فمن أنكرها متعلقًا بأنها أخبار آحاد لا تفيد القطع أو أولها على أن المراد بذلك تمسك الناس فى آخر الزمان بأخلاق المسيح عليه السلام من الرحمة والعطف وأخذ الناس بروح الشريعة ومقاصدها ولبابها لا بظواهرها فقوله ظاهر البطلان مخالف لما عليه أئمة الإسلام ، بل هو صريح فى رد النصوص الثابتة المتواترة ، وجناية على الشريعة الغراء ، وجرأة شنيعة على الإسلام وأخبار المعصوم عليه الصلاة والسلام ، وتحكيم الظن والهوى ، وخروج عن جادة الحق والهدى ، لا يقدم عليه من له قدم راسخ فى علم الشريعة وإيمان صادق بمن جاء بها وتعظيم لأحكامها ونصوصها ، والقول بأن أحاديث المسيح أخبار آحاد لا تفيد القطع قول ظاهر الفساد ؛ لأنها أحاديث كثيرة مخرجة فى الصحاح والسنن والمسانيد متنوعة الأسانيد والطرق ، متعددة المخارج قد توافرت فيها شروط التواتر . فكيف يجوز لمن له أدنى بصيرة فى الشريعة أن يقول باطراحها وعدم الاعتماد عليها ، ولو سلمنا أنها أخبار آحاد فليس كل أخبار الآحاد لا تفيد القطع بل الصحيح الذى عليه أهل التحقيق من أهل العلم أن أخبار الآحاد إذا تعددت طرقها واستقامت أسانيدها وسلمت من المعارض المقاوم تفيد القطع .

والأحاديث فى هذا الباب بهذا المعنى فإنها أحاديث مقطوع بصحتها متعددة الطرق والمخارج ليس فى الباب ما يعارضها فهى مفيدة للقطع سواء قلنا : إنها أخبار آحاد ، أو متواترة . وبذلك يعلم السائل وغيره بطلان هذه الشبهة وانحراف قائلها عن جادة الحق والصواب . وأشنع من ذلك وأعظم فى البطلان والجرأة على اللَّه سبحانه وعلى رسوله ﷺ قول من تأولها على غير ما دلت عليه فإنه قد جمع بين تكذيب النصوص وإبطالها وعدم الإيمان بما دلت عليه من نزول عيسى عليه السلام وحكمه بين الناس بالقسط وقتله الدجال وغير ذلك مما جاء فى الأحاديث ، وبين نسبة الرسول ﷺ الذى هو أنصح الناس وأعلمهم بشريعة اللَّه إلى التمويه والتلبيس وإرادة غير ما يظهر من كلامه وتدل عليه ألفاظه وهذا غاية فى الكذب والافتراء والغش للأمة الذى يجب أن يتنزه عنه مقام الرسول ﷺ وهذا القول يشبه قول الملاحدة =

....

وقولُه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ﴾؛ أي : إلى اللَّهِ سبحانَه ، لا إلى غيرِه يَرْتَفِعُ .

﴿ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾؛ أي : الذِّكْرُ والتلَّاوةُ والدعاءُ .

﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾؛ أي : العملُ الصالحُ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطيبَ ؛ فإنَّ الكَلِمَ الطيِّبَ لا يُقْبَلُ إلا مع العملِ الصالحِ ، فمَن ذكَرَ اللَّهَ تعالى ، ولم يُؤَدِّ فرائضَه رُدَّ كلامُه .

قال إياسُ بنُ معايةَ : لولا العملُ الصالحُ لم يُرْفَعِ الكلامُ[1] .

وقال الحسنُ وقتادةُ : لا يُقْبَلُ قولٌ إلا بعملٍ[1] .

والشاهدُ من الآيةِ :أن فيها إثباتَ عُلُوِّ اللَّهِ على خلقِه ؛ لأنَّ الصُّعودَ والرفعَ يكونانِ إلى أعلى .

وقولُه تعالى : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾. هذا من مَقولةِ فرعونَ لوزيرِه هامانَ ، يَأْمُرُه أن يَبْنِيَ له قصرًا مُنيفًا عاليًا .

﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ ﴾؛ أي : طرقَ السماواتِ ، أو أبوابَها .

= الذين نسبوا الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى التخييل والتلبيس لمصلحة الجمهور وأنهم ما أرادوا مما قالوه الحقيقة . وقد رد عليهم أهل العلم والإيمان وأبطلوا مقالاتهم بغاية البيان وساطع البرهان ، فنعوذ باللَّه من زيغ القلوب والتباس الأمور ومضلات الفتن ونزغات الشيطان ، ونسأله عز وجل أن يعصمنا والمسلمين من طاعة الهوى والشيطان ، إنه على كل شيء قدير ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم ، ونرجو أن يكون فيما ذكرناه مقنع للسائل وإيضاح للحق ، والحمد لله رب العالمين وصلى اللَّه وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين . اهـ

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٠ .

....

﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ بنصبِ ﴿ فَاطَّلَعَ ﴾ بـ « أنْ » مضمرةٍ بعدَ فاءِ السببيةِ ، ومعنى مَقالتِه هذه تكذيبُ موسى عليه السلامُ فى أنَّ اللَّهَ أرْسَلَه ، أو أنَّ له إلهًا فى السماءِ ، ولذلك قال : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ ؛ أى : فيما يَدَّعِيه من الرسالةِ ، أو فيما يَدَّعِيه بأنَّ له إلهًا فى السماءِ .

والشاهدُ من الآيةِ : أن فيها إثباتَ عُلُوِّ اللَّهِ على خلقِه ؛ حيث إن موسى عليه السلامُ أخْبَر بذلك ، وحاوَل فرعونُ فى تكذيبِه .

وقولُه تعالى : ﴿ **أَأَمِنتُمْ** ﴾ . الأمنُ ضدُّ الخوفِ .

﴿ **مَنْ فِى السَّمَاءِ** ﴾ ؛ أى : عقوبةَ مَن فى السماءِ ، وهو اللَّهُ سبحانَه .

ومعنى ﴿ فِى السَّمَاءِ ﴾ ؛ أى : على السماءِ ، كقولِه تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ ، وهذا إن أُريدَ بالسماءِ السماءُ المبنيةُ .

وإن أُريدُ بالسماءِ مُطْلَقُ العلُوِّ « ففى » للظرفيةِ ؛ أى : فى العلوِّ[1] .

---

(١) ذكر ابن هشام رحمه اللَّه فى مغنى اللبيب أكثر من معنى لحرف الجر « فى » ، فقال رحمه اللَّه ١/ ١٩١، ١٩٢:

(فى) : حرف جر ، له عشرة معان :

أحدها : الظرفية ، وهى إما مكانية أو زمانية ، وقد اجتمعتا فى قوله تعالى ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ﴾ أو مجازية نحو ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ومن المكانية « أدخلت الخاتم فى أصبعى والقلنسوة فى رأسى » إلا أن فيهما قلبًا .

الثانى : المصاحبة نحو ﴿ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ ﴾ أى : معهم ، وقيل : التقدير ادخلوا فى جملة أمم ، فحذف المضاف ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ﴾ .

والثالث : التعليل نحو ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ ، ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ ﴾ وفى =

....

....

= الحديث « أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها » .

الرابع : الاستعلاء نحو : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ وقال :

هُمُ صَلَبُوا العَبْدِيَّ في جِذْعِ نَخْلَةٍ فَلا عَطَسَتْ شَيْبانُ إلا بأَجْدَعا

وقال آخر :

بَطَلٌ كأنَّ ثِيَابَهُ في سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ ليس بتوأَمِ

والخامس : مرادفة « الباء » كقوله :

ويَرْكَبُ يَوْمَ الرَّوْعِ منا فَوارِسٌ بَصِيرون في طَعْنِ الأَباهِرِ والكُلَى

وليس منه قوله تعالى ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ خلافًا لزاعمه ، بل هي للسببية ، أي يكثركم بسبب هذا الجعل ، والأظهر قول الزمخشري : إنها للظرفية المجازية ، قال : جعل هذا التدبير كالمنبع أو المعدن للبث والتكثير مثل ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ .

السادس : مرادفة « إلى » نحو : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ .

السابع : مرادفة « من » كقوله :

ألا عِمْ صباحًا أيها الطَّلَلُ البالي وهَلْ يَعِمَنْ مَن كان في العُصُرِ الخالي ؟

وهل يَعِمَنْ مَن كان أحْدَثُ عَهْدِه ثلاثين شهرًا في ثلاثةِ أحْوالِ ؟

وقال ابن جني : التقدير في عقب ثلاثة أحوال ، ولا دليل على هذا المضاف ، وهذا نظير إجازته « جلست زيدًا » بتقدير « جلوس زيدٍ » مع احتماله لأن يكون أصله إلى زيد ، وقيل : الأحوال جمع حالٍ لا حول ، أي في ثلاثة حالات : نزول المطر ، وتعاقب الرياح ، ومرور الدهر ، وقيل : يريد أن أحدث عهده خمس سنين ونصف ؛ فـ « في » بمعنى « مع » .

الثامن : المُقايسة - وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق . نحو ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

التاسع : التعويض ، وهي الزائدة عوضًا من [في] أخرى محذوفة كقولك « ضربت فيمن رغبت » أصله : ضربت من رغبت فيه ، أجازه ابن مالك وحده بالقياس على نحو =

....

﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ ؛ أى : يَقْلَعَها بكم ، كما فعَل بقَارونَ .

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ؛ أى : تَضْطَرِبُ وتَتَحَرَّكُ .

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ؛ أى : حجارةً من السماءِ ، كما أرْسَلَها على قومِ لوطٍ ، وأصحابِ الفيلِ .

وقيل : سَحابٌ فيها حجارةٌ . وقيل : ريحٌ فيها حجارةٌ[1] .

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ؛ أى : إنذارى إذا عايَنْتُمُ العذابَ ، ولا يَنْفَعُكم حينذَاك هذا العِلْمُ .

والشاهدُ من الآيتيـن : أن فيهما إثباتَ عُلُوِّ اللَّهِ على خلقِه حيث صرَّحَتا أنه سبحانَه فى السماءِ ، فقد دلَّت هذه الآياتُ التى ذكَرَها المؤلفُ رحمةُ اللَّهِ عليه على إثباتِ العلوِّ ، كما دلَّت هذه الآياتُ التى قبلَها على إثباتِ استواءِ اللَّهِ على العرشِ .

والفرقُ بيـن الاستواءِ والعلوِّ :

١- أن العلوَّ من صفاتِ الذاتِ ، والاستواءَ من صفاتِ الأفعالِ ، فعلوُّ اللَّهِ على خلقِه وصفٌ لازمٌ لذاتِه ، والاستواءُ فعلٌ من أفعالِه سبحانَه يَفْعَلُه سبحانَه وتعالى بمشيئتِه وقدرتِه إذا شاء ، ولذا قال فيه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ . وكان ذلك بعدَ خلقِ السماواتِ والأرضِ .

٢- أن العلوَّ من الصفاتِ الثابتةِ بالعقلِ والنقلِ ، والاستواءَ ثابتٌ بالنقلِ ، لا بالعقلِ .

= قولـه : « فانْظُـرْ بمَـن تَثِـقُ » على حمله على ظاهره ، وفيه نظر .

العاشر : التوكيد ، وهى الزائدة لغير التعويض ، أجازه الفارسى فى الضرورة ، وأنشد :

أنا أبـو سَـعْـدٍ إذا الـلـيـلُ دَجَـا   يُـخَـالُ فـى سَـوَادِه يَـرَنْـدَجَـا

وأجازه بعضهم فى قوله ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ . اهـ

(١) تفسير القرطبى ١٨/٢١٧، وفتح القدير ٥/٢٦٣ .

٢٠- إثباتُ مَعِيَّةِ اللهِ لخلقِه

وقولِه : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٧] .

وقولِه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] . ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] . ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] . ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

الشرحُ :

قولُه تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ ﴾ - إلى قوله -: ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ تقدَّم تفسيرُه(١) .

وقولُه : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ ؛ أى : هو معَكم بعلمِه ، رقيبٌ عليكم ، شهيدٌ على أعمالِكم حيث كنتم ، وأين كنتم ، فى برٍّ أو بحرٍ ، فى ليلٍ أو نهارٍ ، فى البيوتِ أو القِفَارِ ، الجميعُ فى علمِه على السَّواءِ .

---

(١) تقدم ص ٦٧ .

....

وتحتَ سمعِه وبصرِه ، يَسْمَعُ كلامَكم ، ويَرَى مكانَكم .

وهذا مَحَلُّ الشاهدِ من الآيةِ الكريمةِ ، ففيه إثباتُ المعيةِ العامةِ .

﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمالِكم .

وقولُه تعالى : ﴿ **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ** ﴾ النَّجْوَى : السرُّ ، والمعنى : ما يُوجَدُ مِن تناجى ثلاثةٍ ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ ؛ أى : جاعلُهم أربعةً ، وجاعلُهم ستةً من حيث إنَّه سبحانَه يُشارِكُهم فى الاطلاعِ على تلك النجوى .

وتخصيصُ هذين العددَيْن بالذِّكْرِ ؛ لأن أغلبَ عاداتِ المتناجِينَ أن يكونوا ثلاثةً أو خمسةً ، أو أنَّ سببَ النزولِ تناجى ثلاثةٍ فى واقعةٍ ، وخمسةٍ فى واقعةٍ أخرى ، وإلا فهو سبحانَه مع كلِّ عددٍ ، قلَّ أو كثُر .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ ؛ أى : ولا أقلَّ مِن العددِ المذكورِ كالواحدِ والاثنين ، ولا أكثرَ منه كالستةِ والسبعةِ .

﴿ **إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ** ﴾ بعلمِه يَعْلَمُ ما يَتَنَاجَوْنَ به ، ولا يَخْفَى عليه شيءٌ منه .

قال المفسِّرون : إن المنافقين واليهودَ كانوا يَتَناجَوْن فيما بينَهم ، ويُوهِمُون المؤمنين أنهم يتناجَوْن فيما يَسُوؤُهُم ، فيَحْزَنون لذلك ، فلمَّا طال ذلك وكثُر شَكَوْا إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فأمَرَهم أن لا يَتَناجَوْا دونَ المسلمين ، فلم يَنْتَهُوا عن ذلك ، وعادوا إلى مناجاتِهم ، فأنْزَل اللَّهُ هذه الآياتِ[1] .

وقولُه تعالى : ﴿ **أَيْنَمَا كَانُوا** ﴾ . معناه إحاطةُ علمِه سبحانَه بكلِّ تناجٍ يَقَعُ منهم فى أىِّ مكانٍ .

---

(١) فتح القدير ١٨٦/٥ .

....

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ ﴾ ؛ أي : يُخْبِرُهم سبحانَه ﴿ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ويُجازِيهم على ذلك ، وفى هذا تهديدٌ لهم وتوبيخٌ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يَخْفَى عليه شيءٌ .

والشاهدُ من الآيةِ : أن فيها إثباتَ معيةِ اللَّهِ لخلقِه ، وهى معيةٌ عامةٌ ، مُقْتَضاها الإحاطةُ والعلمُ بجميعِ أعمالِهم ، ولهذا يقولُ الإمامُ أحمدُ رحِمه اللَّهُ : افْتَتَح الآيةَ بالعلمِ ، واخْتَتَمَها بالعلمِ(١) .

وقولُه تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ . هذا خطابٌ من النبيِّ ﷺ لصاحِبه أبى بكرٍ رضِى اللَّهُ عنه ، حينَما كانا فى الغارِ ، وقتَ الهجرةِ ، وقد لحِق بهما المشركون ، فحزِنَ أبو بكرٍ رضِى اللَّهُ عنه ؛ خوفًا على النبيِّ ﷺ من أذى الكفارِ ، فقال له النبيُّ ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ ؛ أى : دَعِ الحزنَ(٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ بنصرِه وعونِه وتأييدِه ، ومَن كان اللَّهُ معَه فلن يُغْلَبَ ، ومَن لا يُغْلَبْ ، لا يَحِقُّ له أن يَحْزَنَ .

والشاهدُ من الآيةِ : أن فيها إثباتَ المعيةِ الخاصةِ بالمؤمنين التى مُقْتَضاها النصرُ والتأييدُ .

وقولُه تعالى لموسى وهارونَ ، عليهما السلامُ : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ ؛ أى : لا تخافا من فرعونَ .

﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ تعليلٌ للنهيِ ؛ أى : معكما بالنصرِ لكما ، والمعونةِ على فرعونَ ﴿ أَسْمَعُ ﴾ كلامَكما وكلامَه ﴿ وَأَرَى ﴾ مكانَكما ومكانَه ، لا يَخْفَى علىَّ مِن أمرِكم شيءٌ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٣/٤ .

(٢) البخارى (٣٦٥٢) ، ومسلم ٢٣٠٩/٤ (٢٠٠٩) .

....

والشاهدُ من الآيةِ : أن فيها إثباتَ المعيةِ الخاصةِ في حقِّ اللَّهِ تعالى لأوليائِه بالنصرِ والتأييدِ ، كما أن فيها إثباتَ السمعِ والبصرِ له سبحانَه وتعالى .

وقولُه تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا** ﴾؛ أي : تركُوا المحرماتِ والمعاصيَ على اختلافِ أنواعِها .

﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** ﴾ بتأديةِ الطاعاتِ ، والقيامِ بما أُمِرُوا به ، فهو سبحانَه مع هؤلاء بتأييدِه ، ونصرِه ، ومعونتِه ، وهذه معيةٌ خاصةٌ ، وهي محلُّ الشاهدِ من الآيةِ الكريمةِ .

وقولُه : ﴿ **وَاصْبِرُوا** ﴾. هذا أمرٌ بالصبرِ ، وهو حبسُ النفسِ ، والمرادُ به هنا الصبرُ على شدائدِ الحربِ التي بينَ المسلمين ، وبينَ الكفارِ ، ثم علَّل هذا الأمرَ بقولِه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾. فهو سبحانَه مع الصابرين في كلِّ أمرٍ ، يَنْبَغِي الصبرُ فيه .

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : أن فيها إثباتَ معيةِ اللَّهِ للصابرين على طاعتِه ، والمجاهدين في سبيلِه .

قال الإمامُ الشوكانيُّ : ويا حَبَّذَا هذه المعيةُ التي لا يَغلِبُ مَن رُزِقَها غالبٌ ، ولا يُؤْتَى صاحبُها من جهةٍ من الجهاتِ ، وإن كانت كثيرةً[1] . اهـ

وقولُه تعالى : ﴿ **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً** ﴾. الفئةُ : الجماعةُ والقطعةُ منهم ﴿ **بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾؛ أي : بإرادتِه وقضائِه ومشيئتِه .

﴿ **وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ هذا محلُّ الشاهدِ من الآيةِ الكريمةِ ، وهو إثباتُ معيةِ اللَّهِ سبحانَه للصابرينَ على الجهادِ في سبيلِه ، وهي معيةٌ خاصةٌ ، مُقْتَضاها النصرُ والتأييدُ .

(١) فتح القدير ٢/٣١٥ .

....

ما يُستفادُ من مجموعِ الآياتِ السابقةِ : أفادت إثباتَ المعيةِ ، وأنها نوعان :

النوعُ الأولُ : معيةٌ عامةٌ ، كما في الآيتين الأُولَيَيْنِ ، ومقتضى هذه المعيةِ إحاطتُه سبحانَه بخلقِه ، وعلمُه بأعمالِهم ؛ خيرِها وشرِّها ، ومجازاتُهم عليها .

النوعُ الثاني : معيةٌ خاصةٌ بعبادِه المؤمنين ، ومُقْتَضاها النصرُ والتأييدُ والحفظُ ، وهذا النوعُ تَدُلُّ عليه الآياتُ الخمسُ الباقيةُ التي أوْرَدَها المؤلفُ رحمه اللَّهُ[(١)] .

ومعيتهُ سبحانَه لا تُنافِي علوَّه على خلقِه ، واستواءَه على عرشِه ؛ فإنَّ قربَه سبحانَه ومعيتَه ليست كقربِ المخلوقِ ومعيةِ المخلوقِ للمخلوقِ ؛ فإنه سبحانَه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

ولأن المعيةَ مُطْلَقُ المقارنةِ ؛ لا تَقْتَضِي مُمَاسَّةً ، ولا مُحاذاةً ، تقولُ العربُ : ما زِلْنا نمشي ، والقمرُ معنا . مع أنه فوقَهم ، والمسافةُ بينَهم وبينَه بعيدةٌ ، فعلوُّ اللَّهِ جلَّ جلالُه ، ومعيتُه لخلقِه لا تَنافيَ بينَهما ، وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ ، إن شاء اللَّهُ .

---

(١) ويؤخذ من هذه الآيات الخمس أن هذه المعية الخاصة تنقسم إلى قسمين : مقيدة بشخص ، ومقيدة بوصف . قال الشيخ ابن عثيمين رحمه اللَّه في شرح الواسطية ١/ ٤٠١، ٤٠٢: والخاصة تنقسم إلى قسمين : مقيدة بشخص ، ومقيدة بوصف .

أ- أما الخاصة المقيدة بوصف ؛ فمثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

ب- وأما الخاصة المقيدة بشخص معين ؛ فمثل قوله تعالى عن نبيه : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] . وقال لموسى وهارون : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ [طه : ٤٦] . وهذه أخص من المقيدة بوصف .

فالمعية درجات : عامة مطلقة ، وخاصة مقيدة بوصف ، وخاصة مقيدة بشخص ، فأخص أنواع المعية ما قيد بشخص ، ثم ما قيد بوصف ، ثم ما كان عامًّا .

فالمعية العامة تستلزم الإحاطة بالخلق علمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا وسلطانًا وغير ذلك من معاني ربوبيته ، والمعية الخاصة بنوعيها تستلزم مع ذلك النصر والتأييد . اهـ

٢١- إثباتُ الكلامِ للهِ تعالى

وقولِه : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] . ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٢] . ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١١٦] . ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] . ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] . ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

الشرحُ :

قولُه تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ ﴾ ؛ أى : لا أحدَ أصدقُ منه سبحانَه ، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ .

﴿ حَدِيثًا ﴾ ؛ أى : فى حديثِه وخبرِه وأمرِه ووعدِه ووَعيدِه .

وقولُه : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ . القِيلُ مصدرُ « قال » ، كالقولِ ؛ أى : لا أحدَ أصدقُ قولًا مِن اللهِ عزَّ وجلَّ .

والشاهدُ من الآيتين الكريمتين : أن فيهما إثباتَ الحديثِ والقيلِ للهِ سبحانَه ، ففيهما إثباتُ الكلامِ له سبحانَه .

وقولُه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ ؛ أى : اذْكُرْ ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾ جمهورُ المفسِّرين ذهَب إلى أنَّ هذا القولُ منه سبحانَه يكونُ يومَ القيامةِ ، وهو توبيخٌ للذين عبَدُوا المسيحَ وأمَّه مِن النصارى ، وهى كالآيتين السابقتين فيها إثباتُ القولِ للهِ تعالى ، وأنه يقولُ إذا شاء .

وقولُه : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ . المرادُ بالكلمةِ كلامُه سبحانَه .

وقولُه : ﴿ صِدْقًا ﴾ ؛ أى : فى أخبارِه سبحانَه .

﴿ وَعَدْلًا ﴾ ؛ أى : فى أحكامِه و﴿ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ منصوبان على التمييزِ .

وفى الآيةِ إثباتُ الكلامِ للهِ تعالى .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] .

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠] .

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] .

وقولُه : ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا** ﴾ . هذا تشريفٌ لموسى عليه السلامُ بأنَّ اللَّهَ كلَّمه ؛ أى : أسْمَعَه كلامَه ، ولهذا يقالُ له : الكَلِيمُ .

و ﴿ **تَكْلِيمًا** ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لدفعِ كونِ التكليمِ مجازًا ، ففى الآيةِ إثباتُ الكلامِ ، وأنه كلَّم موسى عليه السلامُ .

وقولُه تعالى : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ** ﴾ ؛ أى : من الرسلِ عليهم الصلاةُ والسلامُ .

﴿ **مَّن كَلَّمَ اللَّهُ** ﴾ ؛ أى : أسْمَعَه كلامَه بلا واسطةٍ ؛ يعنى : موسى ومحمدًا عليهما الصلاةُ والسلامُ ، وكذا آدمُ ، كما ورَد به الحديثُ فى صحيحِ ابنِ حبانَ(١) ، ففى الآيةِ إثباتُ الكلامِ للهِ تعالى ، وأنه كلَّم بعضَ الرسلِ .

وقولُه تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا** ﴾ ؛ أى : حصَل مجيئُه فى الوقتِ الذى واعَدَه اللَّهُ فيه .

﴿ **وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ** ﴾ ؛ أى : أسْمَعَه كلامَه ، مِن غيرِ واسطةٍ ، فالآياتُ فيها إثباتُ الكلامِ للهِ ، وأنه يَتَكلَّمُ متى شاء سبحانَه ، وأنه كلَّم موسى عليه السلامُ بلا واسطةٍ .

---

(١) روى ابن حبان رحمه اللَّه (٩٢ - موارد) ، عن أبى ذر رضى اللَّه عنه : قلتُ : يا رسول اللَّه ، مَن أول الأنبياء ؟ قال : « آدم » قلتُ : إنه لَنبى ؟ قال : « نعم ، مُكَلَّمٌ » .
ورواه أيضًا أحمد ١٧٨/٥، ١٧٩ (٢١٤٣٨، ٢١٤٤٤) ، والحاكم فى المستدرك ٢/ ٢٦٢، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]. ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]. ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٦].

وقولُه تعالى: ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ** ﴾؛ أى: نادَى اللَّهُ تعالى موسى عليه السلامُ، والنداءُ هو الصوتُ المرتفعُ ﴿ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ﴾ الطورُ: جبلٌ بينَ مصرَ ومَدْيَنَ.

﴿ **الْأَيْمَنِ** ﴾؛ أى: الجانبِ الأيمنِ من موسى حينَ ذهَب يَبْتَغِى مِن النارِ التى رآها جَذْوَةً، وليس المرادُ أيمنَ الجبلِ نفسِه؛ فإن الجبالَ لا يمينَ لها، ولا شمالَ.

﴿ **وَقَرَّبْنَاهُ** ﴾؛ أى: أدْنَيْناه حتى كلَّمْناه.

﴿ **نَجِيًّا** ﴾؛ أى: مُناجِيًا، والمناجاةُ ضدُّ المناداةِ.

وفى الآيةِ الكريمةِ إثباتُ الكلامِ للهِ تعالى، وأنه يُنادِى ويُناجِى، وهما نوعان مِن الكلامِ، فالمناداةُ بصوتٍ مرتفعٍ، والمناجاةُ بصوتٍ غيرِ مرتفعٍ.

وقولُه: ﴿ **وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى** ﴾؛ أى: واتْلُ، أو: اذْكُرْ ذلك.

﴿ **إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى** ﴾ النداءُ هو الدعاءُ.

﴿ **أَنِ ائْتِ** ﴾: ﴿ أَن ﴾ يَجوزُ أن تكونَ مفسِّرةً، وأن تكونَ مصدريةً؛ أى: اذْهَبْ إلى ﴿ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وصَفَهم بالظلمِ؛ لأنهم جمَعُوا بينَ الكفرِ الذى ظلَمُوا به أنفسَهم، وبينَ المعاصى التى ظلَمُوا بها غيرَهم، كاستبعادِهم بنى إسرائيلَ، وذَبْحِ أبنائِهم.

وفى الآيةِ الكريمةِ: إثباتُ الكلامِ للهِ تعالى، وأنه يُنادِى مَن شاء مِن عبادِه، ويُسْمِعُه كلامَه.

وقولُه: ﴿ **وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ** ﴾؛ أى: نادَى اللَّهُ

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح : ١٥] . ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف : ٢٧] .

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل : ٧٦] .

تعالى آدمَ وحواءَ عليهما السلامُ قائلًا لهما : ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ ؛ أى : عن الأكلِ منها ، وهذا عِتابٌ من اللَّهِ لهما ، وتوبيخٌ ، حيثُ لم يَحْذَرا ما حذَّرهما منه .

وفى الآيةِ الكريمةِ : إثباتُ الكلامِ للهِ تعالى ، والنداءِ منه لآدمَ وزَوْجِه .

وقولُه تعالى : ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ**﴾ ؛ أى : ينادى اللَّهُ سبحانَه هؤلاء المشركين يومَ القيامةِ .

﴿**فَيَقُولُ**﴾ لهم : ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ؛ أى : ما كان جوابُكم لمن أُرْسِل إليكم من النبيين لَمَّا بلَّغوكم رِسالاتى .

والشاهدُ من الآيةِ : إثباتُ الكلامِ للهِ ، وأنه يُنادِى يومَ القيامةِ .

وقولُه تعالى : ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ . الذين أُمِرْتَ بقتالِهم .

﴿**اسْتَجَارَكَ**﴾ يا محمدُ ؛ أى : طلَب جِوارَك وحمايتَك وأمانَك .

﴿**فَأَجِرْهُ**﴾ ؛ أى : كُنْ له جارًا ومُؤَمِّنًا .

﴿**حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾ منك ، ويَتَدَبَّره ، ويقفَ على حقيقةِ ما تَدْعُو إليه .

والشاهدُ من الآيةِ : أن فيها إثباتَ الكلامِ للهِ تعالى ، وأن الذى يُتْلَى هو كلامُ اللَّهِ .

وقولُه : ﴿**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ**﴾ ؛ أى : اليهودِ ، والفريقُ اسمُ جمعٍ ، لا واحدَ

....

له من لفظِه[١] .

﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ؛ أي : التوراةُ .

﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ ؛ أي : يَتَأَوَّلُونه على غيرِ تأويله .

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ ؛ أي : فهِموه ، ومع هذا يُخالِفونه على بصيرةٍ .

﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مُخْطِئون فيما ذهَبوا إليه من تحريفِه وتأويلِه .

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : أن فيها إثباتَ الكلامِ للهِ تعالى ، وأن التوراةَ من كلامِه تعالى ، وأنَّ اليهودَ حرَّفوها ، وغيَّروا فيها ، وبدَّلوا .

---

(١) اسم الجمع هو ما لا مفرد له من لفظه ، وإن كان له مفرد من المعنى ، وأحيانًا يكون اسم الجمع لا مفرد له من اللفظ والمعنى معًا ، وأحيانًا يكون لا مفرد له من معناه ، وإن كان له مفرد من لفظه ، فالأقسام ثلاثة :

١- ما ليس له مفرد من لفظه ، وله مفرد من معناه ، ومثاله : « أولو » فهو اسم جمع ، لا واحد له من لفظه ، وإن كان له مفرد من معناه هو « ذو » بمعنى صاحب .

٢- ما ليس له مفرد من معناه ، وله مفرد من لفظه ، ومثاله « عالمون » فهو اسم جمع ، لا واحد له من معناه ؛ إذ إن « عالَم » اسم كل ما سوى من أصناف الخلق ؛ عقلاء وغيرهم ، و « العالمون » خاص بالعقلاء ، فلم يتوافقا في المعنى ، وإن توافقا في اللفظ .

٣- ما ليس له مفرد من لفظه ولا من معناه ، ومثاله : ألفاظ العقود ، وهي المشار إليها ، من عشرين - تسعين ، وهي لا مفرد لها من لفظها ؛ إذ لا يقال : عِشْر . وكذلك لا مفرد لها من معناها ؛ لأن « عِشْر » ليست مفرد « عشرون » في المعنى . وعلى ذلك فقِسْ .

واعلم - رحمك الله - أن بين الجمع واسم الجمع اتفاقًا واختلافًا ، فيتفقان في كون كل منهما يدل على ثلاثة فصاعدًا ، ويختلفان في أن الجمع لا بد أن يكون له مفرد من لفظه ، كـ« رجل ، رجال » ، و « محمد ، مُحَمَّدِينَ » ولا بد أن يكون معنى المفرد هو بعينه معنى الواحد من أفراد الجمع .

....

وقولُه تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

﴿ يُرِيدُونَ ﴾ ؛ أى : المُخَلَّفون من الأعرابِ الذين اختاروا المُقَامَ فى أَهْلِيهم وشُغْلِهم ، وترَكُوا المسيرَ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ حينَ خرَج عامَ الحُدَيْبِيَةِ[1] .

﴿ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ؛ أى : يُغَيِّروا كلامَ اللَّهِ الذى وعَدَ اللَّهُ به أهلَ الحديبيةِ خاصةً بغنيمةِ خيبرَ .

﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ هذا نفىٌ فى معنى النهيِ ؛ أى : لا تَتَّبِعُونا .

﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ؛ أى : وعَد اللَّهُ أهلَ الحديبيةِ أن غنيمةَ خيبرَ لهم خاصةً .

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : أن فيها إثباتَ الكلامِ للهِ ، وإثباتَ القولِ له ، وأنَّ اللَّهَ سبحانَه يتكَلَّمُ ويقولُ متى شاء ، إذا شاء ، وأنه لا يجوزُ تبديلُ كلامِه سبحانَه ، بل يجبُ العملُ به ، واتِّباعُه .

وقولُه : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ . أمَرَ اللَّهُ نبيَّه أنْ يُواظِبَ على تلاوةِ الكتابِ المُوحَى إليه ، والوحىُ هو الإعلامُ بسرعةٍ وخَفاءٍ ، وله كيفياتٌ مذكورةٌ فى كتبِ أصولِ التفسيرِ .

﴿ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ بيانٌ للذى أُوحِى إليه .

﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى : لا مُغَيِّرَ لها ، ولا مُحَرِّفَ ، ولا مُزِيلَ .

والشاهدُ من الآيةِ : إثباتُ الكلماتِ للهِ تعالى .

---

(١) سيرة ابن هشام ١٩٩/٢ .

....

قولُه : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . وهم حَمَلةُ التوراةِ والإنجيلِ .

﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ كاختلافِهم فى عيسى ، فاليهودُ افْتَرَوا فى حقِّه ، والنصارى غلَوْا فيه ، فجاء القرآنُ بالقولِ الوسطِ الحقِّ أنه عبدُ اللّهِ ورسولُه ، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ، ورُوحٌ منه(١) .

---

(١) اعلم رحمك الله أنه قد تطرَّف فى عيسى طائفتان :

الأولى : اليهود كذَّبوه ، فقالوا : بأنَّه ولد زنى ، وأنَّ أمه من البغايا ، وأنَّه ليس بنبى ، وقتلوه شرعًا ؛ أى : محكوم عليه عند اللّه أنهم قتلوه فى حكم اللّه الشرعى ؛ لقوله تعالى عنهم : ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ ، وأمَّا بالنسبة لحكم اللّه القدرى ؛ فقد كذبوا ، وما قتلوه يقينًا ، بل رفعه اللّه إليه ، ولكن شُبِّه لهم ، فقتلوا المُشَبَّه لهم وصلبوه .

الثانية : النصارى قالوا : إنَّه ابن اللّه ، وإنه ثالث ثلاثة ، وجعلوه إلهًا مع اللّه وكذبوا فيما قالوا .

أما عقيدتنا نحن المسلمين فيه : فنشهد أنه عبد اللّه ورسوله ، وأن أمه صديقة ، كما أخبر اللّه تعالى بذلك ، وأنها أحصنت فرجها ، وأنَّها عذراء ، ولكن مثله عند اللّه كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له : كن ؛ فيكون . ومعنى كونه ﷺ كلمة اللّه ، أنه خُلِق بكلمة اللّه ؛ إذ إن عيسى عليه السلام ليس كلمة ؛ لأنه يأكل ، ويشرب ، ويبول ، ويَتَغَوَّط ، وتجرى عليه جميع الأحوال البشرية ، قال اللّه تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

وعيسى عليه الصلاة والسلام ليس كلام اللّه ؛ إذ إن كلام اللّه وصف قائم به ، لا بائن منه ، أما عيسى فهو ذات بائنة عن اللّه سبحانه ، يذهب ويجيء ، ويأكل الطعام ويشرب .

وقول الشيخ الشارح رحمه اللّه : ألقاها إلى مريم ؛ أى : وجَّهَها إليها بقوله : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

وقوله رحمه اللّه : وروح منه :

أى : صار جسده عليه السلام بالكلمة ، فنفخت فيه هذه الروح التى هى من اللّه ؛ أى : =

....

....

= خلق من مخلوقاته أضيفت إليه تعالى للتشريف والتكريم .

وعيسى عليه السلام ليس روحًا ، بل جسد ذو روح ، قال اللَّه تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ . فبالنفخ صار جسدًا ، وبالروح صار جسدًا وروحًا .

وقوله : « **منه** » . هذه هي التي أضلَّت النصارى ، فظنوا أنه جزء من اللَّه ، فضلُّوا وأضلوا كثيرًا ، ولكننا نقول : إنَّ اللَّه قد أعمى بصائركم ؛ فإنَّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ؛ فمن المعلوم أنَّ عيسى عليه السلام كان يأكل الطعام ، وهذا شيء معروف ، ومن المعلوم أيضًا أنَّ اليهود يقولون : إنهم صلبوه ، وهل يمكن لمن كان جزءً من الرب أن ينفصل عن الرب ويأكل ويشرب ويُدَّعى أنه قُتِل وصلِب ؟

وعلى هذا تكون « مِن » للابتداء ، وليست للتبعيض ؛ فهي كقوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ ؛ فلا يمكن أن نقول : إنَّ الشمس والقمر والأنهار جزء من اللَّه ، وهذا لم يقل به أحد .

فقوله : « **منه** » ؛ أي : روح صادرة من اللَّه - عز وجل - ، وليست جزءً من اللَّه كما تزعم النصارى .

واعلم أنَّ ما أضافه اللَّه إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام ؛

الأول : العين القائمة بنفسها ، وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه ، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ .

وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ ، وهذا القسم مخلوق .

الثاني : أن يكون شيئًا مضافًا إلى عين مخلوقة يقوم بها ، مثاله قوله تعالى : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ ؛ فإضافة هذه الروح إلى اللَّه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفًا ؛ فهي روح من الأرواح التي خلقها اللَّه ، وليست جزءً أو روحًا من اللَّه ؛ إذ إنَّ هذه الروح حلّت في عيسى =

....

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : أن فيها إثباتَ أن القرآنَ كلامُ اللَّهِ تعالى لما تضَمَّنه من الإحاطةِ بالكتبِ السابقةِ ، والحُكْمِ فى الخلافِ بينَ طوائفِ أهلِ الكتابِ بالقِسْطِ ، وهذا لا يكونُ إلا من عندِ اللَّهِ .

ويستفادُ من مجموعِ الآياتِ التى ساقَها المؤلفُ : إثباتُ الكلامِ للهِ ، ومذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ إثباتُ ما دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ مِن أنَّ اللَّهَ موصوفٌ بالكلامِ ، وكلامُه سبحانَه من صفاتِه الذاتيةِ ؛ لقيامِه به واتصافِه به .

ومن صفاتِه الفعليةِ الواقعةِ بمشيئتِه وقدرتِه ، فيتكَلَّمُ إذا شاء ، كيف شاء ، بما يشاءُ ، ولم يَزَلْ متكلِّمًا ، ولا يَزالُ متكلِّمًا ؛ لأنه لم يَزَلْ ولا يَزَالُ كاملًا ، والكلامُ من صفاتِ الكمالِ .

ولأن اللَّهَ وَصَف به نفسَه ، ووصَفَه به رسولُه ، وسيأتى ذكرُ مذهبِ المخالفينِ فى هذه المسألةِ مع الردِّ عليهم ، إن شاء اللَّهُ[1] .

= عليه السلام ، وهو عين منفصلة عن اللَّه ، وهذا القسم مخلوق أيضًا .

الثالث : أن يكون وصفًا غير مضاف إلى عين مخلوقة ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى﴾ . فالرسالة والكلام أضيفا إلى اللَّه من باب إضافة الصفة إلى الموصوف فإذا أضاف اللَّه لنفسه صفة ؛ فهذه الصفة غير مخلوقة ، وبهذا يتبين أن هذه الأقسام الثلاثة : قسمان منها مخلوقان ، وقسم غير مخلوق .

فالأعيان القائمة بنفسها والمتصل بهذه الأعيان مخلوقة ، والوصف الذى لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق ؛ لأنَّه يكون من صفات اللَّه ، وصفات اللَّه غير مخلوقة .

وقد اجتمع القسمان فى قوله : « كلمته ، وروح منه » ؛ فكلمته هذه وصف مضاف إلى اللَّه ، وعلى هذا ؛ فتكون كلمته صفة من صفات اللَّه ، وروح منه : هذه أضيفت إلى عين ؛ لأنَّ الروح حلّت فى عيسى ؛ فهى مخلوقة . وانظر القول المفيد لابن عثيمين رحمه اللَّه ١/٨٥-٩٠.

(١) انظر ص ٢٥٤ - ٢٥٨ .

٢٢- إثباتُ تنزيلِ القرآنِ مِن اللَّهِ تعالى

وقولِه : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] . ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠١- ١٠٣] .

الشرحُ :

لمَّا أوْرَد المؤلفُ رحِمه اللَّهُ الآياتِ الدالةَ على إثباتِ الكلامِ للهِ تعالى ، وأنَّ القرآنَ العظيمَ من كلامِه سبحانَه شرَعَ فى سياقِ الآياتِ الدالةِ على أن القرآنَ مُنَزَّلٌ من عندِ اللَّهِ .

فقولُه تعالى : ﴿ وَهَذَا ﴾ . الإشارةُ إلى القرآنِ الكريمِ ، واسمُ الإشارةِ مبتدأٌ ، خبرُه ﴿ كِتَابٌ ﴾ ، و ﴿ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ صفتان لـ « كتاب » ، وقدَّم صفةَ الإنزالِ ؛ لأن الكفارَ يُنْكِرونها .

والمباركُ كثيرُ البركةِ ؛ لِمَا هو مُشْتَمِلٌ عليه من المنافعِ الدينيةِ والدنيويةِ .

وقولُه تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ . هذا إخبارٌ عن عظمةِ القرآنِ ، وأنه حَقِيقٌ بأن تَخْشَعَ له القلوبُ ؛ فإنه لو أُنْزِل على جبلٍ – مع كونِه فى غايةِ القسوةِ وشدةِ الصَّلابةِ – لو فهِم هذا القرآنَ لَخشَعَ وتصَدَّع من خوفِ اللَّهِ ، حَذَرًا من عقابِه ، فكيف يليقُ بكم أيُّها البشرُ أنْ لا تَلِينُ قلوبُكم ، وتَخْشَعَ ، وقد فهِمْتُم عن اللَّهِ ، وتَدَبَّرْتُم كتابَه .

....

وقولُه تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ . هذا شروعٌ منه سبحانَه فى ذكرِ شُبْهةٍ كُفْريةٍ حولَ القرآنِ الكريمِ مع الردِّ عليها .

وقولُه : ﴿ بَدَّلْنَا ﴾ . معنى التبديلِ : رفعُ الشىءِ ، مع وضعِ غيرِه مكانَه ، وتبديلُ الآيةِ رفعُها بأخرى غيرِها ، وهو نسخُها بآيةٍ سواها .

﴿ قَالُوا ﴾ ؛ أى : كفارُ قريشٍ ، الجاهلون للحكمةِ فى النسخِ .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ ﴾ يا محمدُ .

﴿ مُفْتَرٍ ﴾ ؛ أى : كاذبٌ مُخْتَلِقٌ مُتَقَوِّلٌ على اللَّهِ ، حيث تَزْعُمُ أنَّه أمَرك بشىءٍ ؛ ثم تَزْعُمُ أنه أمَرَك بخلافِهِ .

فردَّ اللَّهُ عليهم بما يُفِيدُ جهلَهم ، فقال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ شيئًا من العلمِ أصلًا ، أو لا يَعْلَمون الحكمةَ فى النسخِ ؛ فإنه مبنىٌّ على المصالحِ التى يَعْلَمُها اللَّهُ سبحانَه .

فقد يكونُ فى شرعِ هذا الشىءِ مصلحةٌ مُؤَقَّتةٌ بوقتٍ ، ثم تكونُ المصلحةُ بعدَ ذلك الوقتِ فى شرعِ غيرِه ، ولو انْكَشَف الغِطاءُ لهؤلاء الكفرةِ لَعلِموا أن ذلك وجهُ الصوابِ ، ومنهجُ العدلِ ، والرفقِ ، واللُّطفِ .

ثم ردَّ عليهم فى زعمِهم أن هذا التبديلَ مِن عندِ محمدٍ ، وأنه بذلك مُفْتَرٍ على اللَّهِ ، فقال سبحانَه : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ ﴾ ؛ أى : القرآنَ ﴿ رُوحِ الْقُدُسِ ﴾ ؛ أى : جبريلُ ، والقُدُسُ الطُّهْرُ .

والمعنى : نزَّلَه الرُّوحُ المُطَهَّرُ ، فهو من إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه .

﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ؛ أى : ابتداءُ تنزيلِه مِن عندِ اللَّهِ سبحانه .

﴿ بِالْحَقِّ ﴾ فى محلِّ نصبٍ على الحالِ ؛ أى : مُتَّصِفًا بكونِه حقًّا .

....

﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ على الإيمانِ ، فيقولون : كلٌّ من الناسخِ والمنسوخِ من عندِ ربِّنا ، ولأنهم إذا عرَفُوا ما فى النسخ من المصالحِ ثَبَتُوا على الإيمانِ .

﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ معطوفان على محلِّ « ليثبت » ؛ أى : تثبيتًا لهم ، وهدايةً وبُشْرَى .

ثم ذَكَر سبحانَه شبهةً أخرى من شُبَهِهِم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ ؛ أى : ولقد نَعْلَمُ أن هؤلاء الكفارَ يقولون : إنما يُعَلِّمُ محمدًا القرآنَ بَشَرٌ من بنى آدمَ ، وليس مَلَكًا من الملائكةِ .

وهذا البشرُ الذى يُعَلِّمُه كان قد دَرَسَ التوراةَ والإنجيلَ والكتبَ الأعجمية ؛ لأن محمدًا رجلٌ أُمِّيٌّ ، لا يُمْكِنُ أن يأتِيَ بما ذَكَر فى القرآنِ من أخبارِ القرونِ الأولى .

فردَّ اللَّهُ عليهم بقولِه : ﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ ؛ أى : لسانُ الذى يَمِيلون إليه ، ويَزْعُمون أنهُ يُعَلِّمُك يا محمدُ أعجميٌّ ؛ أى : غيرُ عربيٍّ ، فهو لا يَتَكَلَّمُ العربيةَ .

﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾؛ أى : وهذا القرآنُ ذو بلاغةٍ عربيةٍ ، وبيانٍ واضحٍ ، فكيف تَزْعُمون أن بشرًا يُعَلِّمُه النبيَّ ﷺ من العَجَمِ ، وقد عجَزْتُم أنتم عن معارضتِه ، أو معارضةِ سورةٍ ، أو سورٍ منه ، وأنتم أهلُ اللسانِ العربيِّ ، ورجالُ الفصَاحةِ ، وقادةُ البلاغةِ .

ما يُستفادُ من الآياتِ : يستفادُ من هذه الآياتِ الكريمةِ إثباتُ أن القرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللَّهِ تعالى ، وأنه كلامُه جلَّ وعلا ، لا كلامُ غيرِه من الملائكةِ ، أو البشرِ ، والردُّ على مَن زَعَم أنه كلامٌ مخلوقٌ .

وفى الآياتِ أيضًا إثباتُ العلوِّ للهِ سبحانَه ؛ لأن الإنزالَ لا يكونُ إلا من أعلى . واللَّهُ أعلمُ .

٢٣- إثباتُ رؤيةِ المؤمنين لربهم يومَ القيامةِ

وقولِه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢١- ٢٢] . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ [المطففين : ٣٥] . ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] . ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٢٦] .

وهذا البابُ في كتابِ اللَّهِ كثيرٌ ، ومَن تدبَّر القرآنَ طالبًا للهُدَى تبيَّنَ له طريقُ الحقِّ .

الشرحُ :

قولُه تعالى : ﴿ وُجُوهٌ ﴾ ؛ أي : وجوهُ المؤمنين .

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ؛ أي : يومَ القيامةِ .

﴿ نَاضِرَةٌ ﴾ بالضادِ من النَّضَارةِ ، وهي البَهاءُ والحسنُ ؛ أي : ناعمةٌ ، غَضَّةٌ ، حَسَنةٌ ، مُضِيئةٌ ، مُشْرِقةٌ .

﴿ إِلَى رَبِّهَا ﴾ ؛ أي : خالقِها .

﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ ؛ أي : تَنْظُرُ إليه بأبصارِها ، كما تَواتَرت به الأحاديثُ الصحيحةُ[١] ، وأجْمَع عليه الصحابةُ والتابعون وسلفُ الأمةِ ، واتَّفَق عليه أئمةُ الإسلامِ[٢] .

---

(١) سيأتي إن شاء اللَّه تعالى ذكر طرف منها .
وأنشدوا في هذا المعنى :

مِمَّا تَوَاتَرَ حديثُ مَن كَذَبْ ... ومَن بَنَى للهِ بيتًا واحْتَسَبْ
ورؤيةٌ شفاعةٌ والحوضُ ... ومسحُ خُفَّيْنِ هَذِي بعضُ

(٢) انظر : شرح السنة للالكائي ص ٤٧٠، والشريعة للآجرّي ص ٢٥١، والسنة لعبد اللَّه بن الإمام أحمد ١/ ٢٢٩، وحادي الأرواح لابن القيم ص ٣٣٧، والصواعق المرسلة ٤/١٤٥٤ . =

....

فالشاهدُ مِن الآيةِ الكريمةِ : إثباتُ رؤيةِ المؤمنين لربِّهم يومَ القيامةِ .

وقولُه : ﴿ **عَلَى الْأَرَائِكِ** ﴾ . جمعُ أَريكةٍ ، وهى السُّرُرُ .

﴿ **يَنْظُرُونَ** ﴾ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

وأما الكفارُ فقد تقدَّم فى الآياتِ التى قبلَ هذه الآيةِ أنهم ﴿ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ .

والشاهدُ من الآيةِ : إثباتُ رؤيةِ المؤمنين لربِّهم عزَّ وجلَّ .

وقولُه تعالى : ﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا** ﴾ . بالقيامِ بما أَوْجَبَه اللَّهُ عليهم من الأعمالِ ، والكفِّ عما نهاهم عنه من المعاصى .

﴿ **الْحُسْنَى** ﴾ ؛ أى : المَثُوبَةُ الحسنى . وقيل : الجنةُ .

﴿ **وَزِيَادَةٌ** ﴾ هى النظرُ إلى وجهِ اللَّهِ الكريمِ ، كما ثبَت تفسيرُها بذلك عن رسولِ اللَّهِ ﷺ فى صحيحِ مسلمٍ وغيرِه[1] ، وكما فسَّرها بذلك سلفُ الأمة .

= **وقال ابن القيم رحمه اللَّه فى الصواعق المرسلة ٤/ ١٤٥٣، ١٤٥٤**: وإلا فأهل المعرفة باللَّه وخاصة أولياء اللَّه ليس عندهم شيء ألذ من النظر إلى وجهه الكريم ، وليس بين هذه اللذة ولذة الأكل والشرب والنعيم المنفصل نسبة أصلًا ، كما لا نسبة بين اللذتين لا تدرك أصلًا . قال شيخنا : وعلى ذلك جميع أهل السنة وسلف الأمة وأئمة الإسلام ، قال الحسن البصرى ، شيخ الإسلام فى زمن التابعين : لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم فى الآخرة لذابت نفوسهم فى الدنيا شوقًا إليه . وقال الشافعى رحمه اللَّه : لو علم محمد بن إدريس أنه لا يرى ربه فى الآخرة لما عبده فى الدنيا . وقال : أنا أخالف ابن علية فى كل شيء حتى فى قول لا إله إلا اللَّه ، فإنى أقول : لا إله إلا اللَّه الذى يُرى فى الآخرة ، وهو يقول : لا إله إلا اللَّه الذى لا يرى فى الآخرة . اهـ

(١) روى أحمد ٤/ ٣٣٢، ٣٣٣(١٨٨٣٨، ١٨٨٤٣) ، ومسلم ١/ ١٦٣(١٨١) ، والترمذى =

....

وعلى ذلك يكونُ الشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : إثباتُ رؤيةِ المؤمنين لربِّهم يومَ القيامةِ .

وقولُه تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ ؛ أى : للمؤمنين فى الجنةِ ما تَشْتَهِى أنفسُهم ، وتَلَذُّ أعينُهم من فنونِ النعيمِ وأنواعِ الخيرِ .

﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ ؛ أى : زيادةٌ على ذلك ، وهو النظرُ إلى وجهِ اللَّهِ الكريمِ ، وهذا هو الشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ ، وهو إثباتُ النظرِ إلى وجهِ اللَّهِ الكريمِ فى الجنةِ .

ما يُستفادُ من الآياتِ الكريمةِ : يُسْتفادُ منها إثباتُ رؤيةِ المؤمنين لربِّهم يومَ القيامةِ ، وأنها أعظمُ النعيمِ الذى يَنالُونَه .

وهذا هو قولُ الصحابةِ والتابعين وأئمةِ المسلمين ، خلافًا للرافضةِ والجهميةِ والمعتزلةِ[١] ، الذين يَنْفُون الرؤيةَ ، ويُخالِفون بذلك الكتابَ والسنةَ وإجماعَ سلفِ الأمةِ وأئمتِها ، ويَعْتَمِدون على شُبَهٍ واهيةٍ وتعليلاتٍ باطلةٍ ، منها .

= (٢٥٥٢) ، وابن ماجه (١٨٧) ، عن صهيب رضى اللَّه عنه ، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ : إن لكم عند اللَّه مَوْعِدًا . قالوا : ألم يُبَيِّضْ وجوهنا ، ويُنَجِّنا من النار ، ويُدْخِلْنا الجنة ؟ قالوا : بلى . قال : فينكشف الحجاب ، قالوا : فواللَّه ما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه » واللفظ للترمذى .

(١) سُمُّوا بذلك لاعتزالهم أقوال المسلمين فى مرتكب الكبيرة حيث قالوا : إنه فى منزلة بين المنزلتين ، فلا هو مؤمن ولا هو كافر . وقيل : لاعتزال زعيمهم واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى . ومذهبهم يقوم على نفى الصفات عن اللَّه تعالى ، ونفى القدر فى معاصى العباد ، وإضافة خلقها إلى فاعليها . وأن القرآن مخلوق ، ونفوا شفاعة النبى ﷺ لأهل الكبائر ، وهم فرق كثيرة منها الجبائية والضرارية والنظامية والجاحظية ... وغيرها . انظر فى مذهبهم : البرهان فى عقائد أهل الأديان ، ص ٢٦ ، ٢٧؛ مقالات الإسلاميين ١/٣٣٥ وما بعدها ، =

....

١ – قولُهم : إن إثباتَ الرؤيةِ يَلْزَمُ منه إثباتُ أنَّ اللَّهَ فى جهةٍ ، ولو كان فى جهةٍ لَكان جسمًا ، واللَّهُ مُنَزَّهٌ عن ذلك .

والجوابُ عن هذه الشُّبهةِ أن نقولَ : لفظُ الجهةِ فيه إجمالٌ ، فإن أُرِيد بالجهةِ أنه حالٌّ فى شيءٍ من مخلوقاتِه فهذا باطلٌ ، والأدلةُ تَرُدُّه ، وهذا لا يَلْزَمُ مِن إثباتِ الرؤيةِ .

وإن أريدِ بالجهةِ أنه سبحانَه فوقَ مخلوقاتِه فهذا ثابتٌ للهِ سبحانَه ، ونفيُه باطلٌ ، وهو لا يَتَنافَى مع رؤيتِه سبحانَه .

٢– اسْتَدَلُّوا بقولِهِ تعالى لموسى : ﴿لَنْ تَرَانِى﴾ والجوابُ عن هذا الاستدلالِ أن الآيةَ الكريمةَ واردةٌ فى نفيِ الرؤيةِ فى الدنيا ، ولا تَنْفِى ثبوتَها فى الآخرةِ ، كما ثبَت فى الأدلةِ الأخرى ، وحالةُ الناسِ فى الآخرةِ تَخْتَلِفُ عن حالتِهم فى الدنيا .

٣– استدَلُّوا بقولِه تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ . والجوابُ عن هذا الاستدلالِ أنَّ الآيةَ إنما فيها نفيُ الإدراكِ ، وليس فيها نفيُ الرؤيةِ ، والإدراكُ معناه الإحاطةُ ، فاللَّهُ سبحانَه تعالى يراه المؤمنون ، ولا يُحيطون به ، بل نَفْيُ الإدراكِ يَلْزَمُ منه وجودُ الرؤيةِ ، فالآيةُ من أدلةِ إثباتِ الرؤيةِ . واللَّهُ تعالى أعلمُ[1] .

= الملل والنحل للشهرستانى ١/ ٥٤، دار المعرفة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥؛ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص٢٧ وما بعدها .

(١) **قال ابن أبى العز ، رحمه الله فى شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩١– ١٩٣:**

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى : ﴿لَنْ تَرَانِى﴾ [الأعراف : ١٤٣]، وبقوله تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ ... فالآيتان دليل عليهم . =

....

....

= **أما الآية الأولى :** فاستدلال منها على ثبوت رؤيته من وجوه : أحدها : أنه لا يظن بكليم اللّه ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته – أن يسأل ما لا يجوز عليه ، بل هو عندهم من أعظم المحال . الثانى : أن اللّه لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله ، وقال : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود : ٤٦] . الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ ، ولم يقل : إنى لا أرى ، أو لا تجوز رؤيتى ، أو لستُ بمرئى . والفرق بين الجوابين ظاهر . ألا ترى أن من كان فى كمه حجر فظنه رجل طعاما فقال : أطعمنيه . فالجواب الصحيح : إنه لا يؤكل . أما إذا كان طعامًا صح أن يقال : إنك لن تأكله . هذا يدل على أنه سبحانه مرئى ، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته فى هذه الدار ، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى . يوضحه الوجه الرابع : وهو قوله : ﴿ وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣]. فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلى فى هذه الدار ، فكيف بالبشر الذى خُلق من ضعف ؟ الخامس : أن اللّه سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقرًا ، وذلك ممكن ، وقد علق به الرؤية ، ولو كانت محالًا لكان نظير أن يقول : إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام . والكل عندهم سواء . السادس : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، فإذا جاز أن يتجلى للجبل ، الذى هو جماد لا ثواب له ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه فى دار كرامته ؟ ولكن الله أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته فى هذه الدار ، فالبشر أضعف . السابع : أن الله كلم موسى وناداه وناجاه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة – فرؤيته أولى بالجواز . ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه ، وقد جمعوا بينهما . وأما دعواهم تأييد النفى بـ « لن » وأن ذلك يدل على نفى الرؤية فى الآخرة ، ففاسد ، فإنها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفى فى الآخرة ، فكيف إذا أطلقت ؟ قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [البقرة : ٩٥] ، مع قوله : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] . ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها ، وقد جاء ذلك ، قال =

....

....

= تعالى : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ [يوسف : ٨٠] . فثبت أن « لن » لا تقتضى النفى المؤبد .

قال الشيخ جمال الدين ابن مالك رحمه الله :

ومَن رَأى النَّفْىَ بلَنْ مُؤَبَّدَا فقولَه اردُدْ وسِواه فاعْضُدَا

وأما الآية الثانية : فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف ، وهو أن الله تعالى إنما ذكرها فى سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية ، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به ، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفى إذا تضمن أمرًا وجوديًا ، كمدحه بنفى السِّنة والنوم ، المتضمن كمال القيومية ، ونفى الموت المتضمن كمال الحياة ، ونفى اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة ، ونفى الشريك والصاحبة والولد والظهير ، المتضمن كمال الربوبية والألوهية وقهره ، ونفى الأكل والشرب المتضمن كمال صمديته وغناه ، ونفى الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن كمال توحده وغناه عن خلقه ، ونفى الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ، ونفى النسيان وعزوب شىء عن علمه ، المتضمن كمال علمه وإحاطته ، ونفى المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته ، ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن أمرًا ثبوتيًا ، فإن العدم يشارك الموصوف فى ذلك العدم ، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه ، فإن المعنى أنه يُرى ولا يُدرك ولا يحاط به ، فقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، يدل على كمال عظمته ، وأنه أكبر من كل شىء ، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به ، فإن « الإدراك » هو الإحاطة بالشىء ، وهو قدر زائد على الرؤية ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ﴾ [الشعراء : ٦١ ، ٦٢] ، فلم ينف موسى الرؤية ، وإنما نفى الإدراك ، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه ، فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك ، كما يعلم ولا يحاط به علمًا ، وهذا هو الذى فهمه الصحابة والأئمة من الآية ، كما ذكرت أقوالهم فى تفسير الآية ، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها عن إدراكها على ما هى عليه . اهـ

....

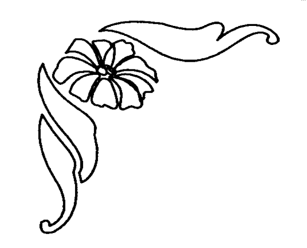
* * *

وقولُ المؤلفِ رحِمه اللَّهُ : (وهذا البابُ فى كتابِ اللَّهِ كثيرٌ) ؛ أى : بابُ إثباتِ أسماءِ اللَّهِ وصفاتِه فى القرآنِ كثيرٌ ، وإنما ذكَر المؤلفُ بعضَه ، فقد ورَد فى آياتٍ كثيرةٍ من كتابِ اللَّهِ إثباتُ أسماءِ اللَّهِ وصفاتِه ، على ما يَلِيقُ به .

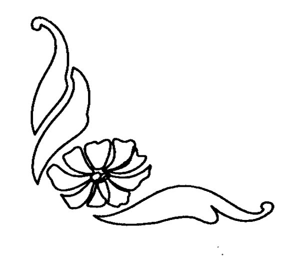
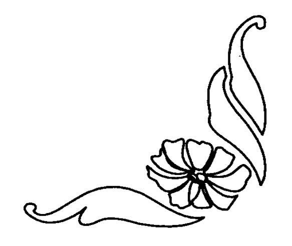
(ومَن تَدَبَّرَ القرآنَ) ؛ أى : تفكَّرَ فيه ، وتأمَّلَ ما يَدُلُّ عليه من الهُدَى .

(تَبَيَّن له طريقُ الحقِّ) ؛ أى : اتَّضَح له سبيلُ الصوابِ ، وتَدَبُّرُ القرآنِ هو المطلوبُ من تلاوتِه . قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨] .




الاستدلالُ على إثباتِ أسماءِ اللَهِ وصفاتِه مِن السُّنَّةِ

الاستدلالُ على إثباتِ أسماءِ اللهِ وصفاتِه مِن السُّنَّةِ

فَصْلٌ :

ثُمَّ فى سنةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فالسنةُ تُفَسِّرُ القرآنَ ، وتُبَيِّنُه ، وتَدُلُّ عليه ، وتُعَبِّرُ عنه .

الشرحُ :

قولُه : (ثم فى سنةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ) . هذا عطفٌ على قولِه فيما سبَق : (وقد دخَل فى هذه الجملةِ ما وصَفَ اللَّهُ به نفسَه فى سورةِ الإخلاصِ ... إلخ) ؛ أى : ودخَلَ فيها ما وصَفَ به الرسولُ ﷺ ربَّه ، فيما ورَدَت به السنةُ الصحيحةُ ؛ لأن السنةَ هى الأصلُ الثانى الذى يَجِبُ الرجوعُ إليه بعدَ كتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] ، والردُّ إلى اللَّهِ هو الرجوعُ إلى كتابِه ، والردُّ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ بعدَ وفاتِه هو الرجوعُ إلى سنتِه .

والسنةُ لغةً : الطريقةُ .

واصطلاحًا : هى ما ورَدَ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ مِن قولٍ ، أو فعلٍ ، أو تقريرٍ .

مكانةُ السنةِ

قال : (فالسنةُ تُفَسِّرُ القرآنَ) ؛ أى : تُبَيِّنُ معانيَه(١) وَمقاصِدَه ؛ فإن النبىَّ ﷺ

---

(١) وذلك كما فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ . حيث فسرها النبى ﷺ بأنها النظر إلى وجه اللَّه عز وجل . تقدم تخريجه ص١٩٩ .

وكما فسَّر النبى ﷺ قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ . فقال : « ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » مسلم ١٥٢٢/٣ (١٩١٧) .

....

يُبيِّنُ للناسِ ما أُنْزِلَ إليه ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] .

السنةُ أيضًا (تُبيِّنُ القرآنَ) ؛ أي : تُوَضِّحُ مُجْمَلَه ، كالصلاةِ والصومِ والحجِّ والزكاةِ وغالبِ الأحكامِ التى تأتى مُجْمَلةً فى القرآنِ ، وتُبَيِّنُها السنةُ النبويةُ[1] .

والسنةُ أيضًا : (تَدُلُّ على القرآنِ ، وتُعَبِّرُ عنه) ؛ أى : تَدُلُّ على ما دلَّ عليه القرآنُ ، وتُعَبِّرُ عما عبَّر عنه القرآنُ ، فتكونُ موافقةً للقرآنِ ، فيكونُ الحكمُ مما دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ ، كأسماءِ اللَّهِ وصفاتِه .

---

(١) **ومن ذلك** : قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أمر اللَّه بإقامتها ، وبيَّنت السنة كيفيتها .

وقوله سبحانه : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] .

﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ ؛ يعنى : من دلوك الشمس إلى غسق الليل ؛ أى : غاية ظلمته ، وهو نصفه ؛ لأن أشد ما يكون فى ظلمة الليل نصفه . فظاهر الآية أن هذا وقت واحد ، ولكن السنة فصلت هذا المجمل :

فللظهر : من دلوك الشمس إلى أن يصير ظل كل شىء مثله . وللعصر : من ذلك إلى اصفرار الشمس فى الاختيار ، ثم إلى غروبها فى الضرورة . وللمغرب : من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر . وللعشاء : من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل ، وليس هناك وقت ضرورة للعشاء ، ولهذا لو طهرت الحائض فى منتصف الليل الأخير ؛ لم يجب عليها صلاة العشاء ولا صلاة المغرب ؛ لأن صلاة العشاء تنتهى بانتصاف الليل ، ولم يأت فى السنة دليل على أن وقت صلاة العشاء يمتد إلى طلوع الفجر . وللفجر : من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ولهذا قال فى نفس الآية : ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ ، ثم فَصَلَ وقت الفجر ، فقال : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] ؛ لأن وقت الفجر بينه وبين الأوقات الأخرى فاصل من قبله ومن بعده ؛ فنصف الليل الثانى قبله ، ونصف النهار الأول بعده . هذا من بيان السنة حيث بينت الأوقات .

كذلك : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] ؛ بينت السنة الأنصبة والأموال الزكوية .

وما وصَفَ الرسولُ به ربَّه عزَّ وجلَّ من الأحاديثِ الصِّحاحِ التي تَلقَّاها أهلُ المعرفةِ بالقَبولِ ، وجَبَ الإيمانُ بها كذلك .

الشرحُ :

قولُه : (وما وصَفَ إلخ) مبتدأٌ خبرُه قولُه : (وجَبَ الإيمانُ بها كذلك) ؛ أي : كما يَجِبُ الإيمانُ بما وصَفَ اللَّهُ به نفسَه في القرآنِ الكريمِ ؛ لأن النبيَّ ﷺ كما وصَفَه ربُّه عزَّ وجلَّ بقولِه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ٣، ٤] .

فالسنةُ التي نطَقَ بها الرسولُ ﷺ وَحْيٌ مِن اللَّهِ ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [النساء : ١١٣] .

فالكتابُ هو القرآنُ ، والحكمةُ هي السنةُ .

فيَجِبُ الإيمانُ بما ورَد في السنةِ ، لا سيَّما في بابِ الاعتقادِ ، قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] .

لكن لا بدَّ في قَبولِ الحديثِ والإيمانِ به من ثبوتِه عن النبيِّ ﷺ ، ولهذا قال الشيخُ رحِمه اللَّهُ : **(من الأحاديثِ الصِّحاحِ)** ، والصِّحاحُ جمعُ صحيحٍ ، والحديثُ الصحيحُ هو ما نقَلَه راوٍ عَدْلٌ تامُّ الضبطِ عن مثلِه ، من غيرِ شذوذٍ ، ولا علةٍ ، فهو ما اجْتَمَع فيه خمسةُ شروطٍ :

١- عَدالةُ الرواةِ . **٢**- ضبطُهم . **٣**- اتصالُ السندِ .

٤- سلامتُه من العلةِ . **٥**- سلامتُه مِن الشذوذِ .

وقولُه : (تلقَّاها أهلُ المعرفةِ) ؛ أي : قبِلَها وأخَذَ بها أهلُ العلمِ بالحديثِ ، فلا عِبْرةَ بغيرِهم ، ثم ذكَرَ الشيخُ أمثلةً مما ورَدَ في السنةِ من صفاتِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، فقال :

١- ثبوتُ النزولِ الإلهى إلى سماءِ الدنيا على ما يَلِيقُ بجَلالِ اللهِ

فمِن ذلك مثلُ قولِه ﷺ : « يَنْزِلُ ربُّنا إلى سماءِ الدنيا كلَّ ليلةٍ حينَ يَبْقَى ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ ، فيقولُ : مَن يَدْعُونى فأَسْتَجِيبَ له ، مَن يَسْأَلُنى فأُعْطِيَه ، مَن يَسْتَغْفِرُنى فأَغْفِرَ له » . متفقٌ عليه[1] .

الشرحُ :

قولُه : (**يَنْزِلُ ربُّنا**) ؛ أى : نُزولًا يَلِيقُ بجَلالِه ، نُؤْمِنُ به ، ولا نُشَبِّهُه بنُزولِ المخلوقِ ؛ لأنه سبحانَه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ .

(**إلى سماء الدنيا**) ؛ أى : السماءِ الدنيا من إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه .

(**حينَ يَبْقَى ثُلثُ الليلِ الآخِرُ**) برفعِ الآخرِ صفةً لـ « ثُلُث » ، وفى هذا تَعْيينٌ لوقتِ النزولِ الإلهىِّ .

قولُه : (**فأستجِيبَ له**) . بالنصبِ على جوابِ الاستفهامِ ، وكذا قولُه : (**فأُعْطِيَه**) ، و(أَغْفِرَ له)[2] .

وقولُه : (**فأَسْتَجِيبَ له**) ؛ أى : أُجِيبَ دعوتَه .

والشاهدُ من الحديثِ : أن فيه ثبوتَ النزولِ الإلهىِّ ، وهو من صفاتِ الأفعالِ ، وفى الحديثِ أيضًا إثباتُ العلوِّ للهِ تعالى ؛ فإنَّ النزولَ يكونُ من العلوِّ .

---

(١) البخارى (٤٧٩٤) ، ومسلم ١/٥٢١ (٧٥٨) .

(٢) وعامل النصب هنا « أَنْ » مضمرة وجوبًا بعد فاء السببية .

....

* * *

وفيه الردُّ على مَن أوَّل الحديثَ بأن معناه نزولُ رحمتِه أو أمرِه ؛ لأنَّ الأصلَ الحقيقةُ وعدمُ الحذفِ ، ولأنه قال : (مَن يَدْعُونى فأستجيبَ له) فهل يُعْقَلُ أن تقولَ رحمتُه أو أمرُه هذا المقالَ ؟!

وفى الحديثِ إثباتُ الكلامِ للهِ تعالى حيث جاء فيه : (فيقولُ - إلخ) ، وفيه إثباتُ الإعطاءِ والإجابةِ والمغفرةِ للهِ سبحانَه ، وهى صفاتُ أفعالٍ .

وقولُه : (متفقٌ عليه) ؛ أى : بينَ البخارىِّ ومسلمٍ .

* * *

٢- إثباتُ أن اللهَ يَفْرَحُ ويَضْحَكُ

وقولِه ﷺ : « لَلهُ أَشَدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه مِن أحدِكم براحلتِه » الحديثَ . متفقٌ عليه(١) .

وقولِه ﷺ : « يَضْحَكُ اللَّهُ إلى رجلَيْنِ يَقْتُلُ أحدُهما الآخَرَ ، كلاهما يَدْخُلُ الجنةَ » . متفقٌ عليه(٢) .

الشرحُ :

(**لَلَّهُ**) اللامَ لامُ الابتداءِ(٣) .

(**أشَدُّ فرحًا**) منصوبٌ على التمييزِ ، والفرحُ فى اللغةِ : السرورُ ولذةُ القلبِ .

(**بتوبةِ عبدِه**) التوبةُ هى الإقلاعُ عن الذنبِ ، والرجوعُ إلى الطاعةِ .

(**براحلتِه**) الراحلةُ الناقةُ التى تَصْلُحُ أن تُرْحَلَ .

(**الحديثَ**) منصوبٌ بفعلٍ مُقَدَّرٍ ؛ أى : أكْمِلِ الحديثَ ؛ لأن المصنفَ اقْتَصَر على الشاهدِ منه ، وهو إثباتُ الفرحِ للهِ سبحانَه على ما يليقُ بجَلالِه ، وهو صفةُ كمالٍ ، لا يُشْبِهُه فرحُ أحدٍ مِن خلقِه ، بل هو كسائرِ صفاتِه .

وهو فرحُ إحسانٍ وبرٍّ ولطفٍ ، لا فرحُ مُحتاجٍ إلى توبةِ عبدِهِ ، يَنْتَفِعُ بها ؛ فإنه سبحانَه لا تَنْفَعُه طاعةُ المطيعِ ، ولا تَضُرُّه معصيةُ العاصى .

وقولُه ﷺ : (يَضْحَكُ اللَّهُ إلى رجلين – إلخ) . قد بيَّن النبىُّ ﷺ فى آخر

---

(١) البخارى (٦٣٠٨، ٦٣٠٩) ، ومسلم ٤/٢١٠٢- ٢١٠٥، (٢٦٧٥، ٢٧٤٤- ٢٧٤٧) .

(٢) البخارى (٢٨٢٦) ، ومسلم ١٥٠٤/٣ (١٨٩٠) .

(٣) ولذلك أتى الاسم بعدها مرفوعًا ؛ لأنه يعرب مبتدأً ، وهى مفتوحة ، بخلاف لام الجر التى تَخْفِض الاسم الذى يأتى بعدها ، فإنها تكون مكسورة .

....

* * *

الحديثِ سببَ ذلك فى قولِه : « يُقاتِلُ هذا فى سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، فيُسْتَشْهَدُ ، ثم يَتوبُ اللَّهُ على القاتلِ ، فيُسْلِمُ ، فيُقاتِلُ فى سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فيُسْتَشْهَدُ » .

وهذا من كمالِ إحسانِ اللَّهِ سبحانَه ، وسَعةِ رحمتِه ؛ فإن المسلمَ يُقاتِلُ فى سبيلِ اللَّهِ ، فيَقْتُلُه الكافرُ ، فيُكْرِمُ اللَّهُ المُسْلِمَ بالشَّهادةِ ، ثم يَمُنُّ اللَّهُ على ذلك الكافرِ القاتلِ فيَهْدِيه للإسلامِ ، فيَدْخُلان الجنةَ جميعًا ، فهذا أمرٌ عجيبٌ ، والضحكُ يكونُ من الأمورِ المُعْجِبةِ التى تَخْرُجُ عن نظائرِها .

والشاهدُ من الحديثِ : إثباتُ الضحكِ لهِ سبحانَه ، وهو صفةٌ من صفاتِه الفعليةِ ، التى نُثْبِتُها له على ما يَلِيقُ بجلالِه وعظمتِه ، ليس كضحكِ المخلوقِ .

* * *

٣- إثباتُ أنَّ اللهَ يَعْجَبُ ويَضْحَكُ

وقولِه : « عَجِبُ ربُّنا من قُنوطِ عبادِه وقُرْبِ غِيَرِه ، يَنْظُرُ إليكم أَزِلين قَنِطِينَ ، فيَظَلُّ يَضْحَكُ ، يَعْلَمُ أن فرجَكم قريبٌ » . حديثٌ حسنٌ[١] .

الشرحُ :

(عجِبَ ربُّنا) قال في المِصْباحِ[٢] : التَّعَجُّبُ يُسْتَعْمَلُ على وَجْهَيْن :

أحدُهما : ما يَحْمَدُه الفاعلُ ، ومعناه الاستحسانُ والإخبارُ عن رضاه به .

والثاني : ما يَكْرَهُه ، ومعناه الإنكارُ والذمُّ له[٣] .

(من قنوطِ عبادِه) القنوطُ شدةُ اليَأْسِ مِن الشيءِ ، والمرادُ هنا اليأسُ مِن نزولِ المطرِ وزوالِ القَحْطِ .

(وقربِ غِيَرِه) ؛ « غِيَرِه » - بكسرِ الغَيْنِ ، وفَتْحِ الياءِ - ؛ أى : تَغْييرِه الحالَ مِن شدةٍ إلى رَخاءٍ .

(يَنْظُرُ إليكم أَزِلِينَ) الأَزْلُ - بسكونِ الزاىِ - : الضيقُ : وقد أَزَلَ الرجلُ يَأْزِلُ أَزْلًا ، صار فى ضِيقٍ وجَدْبٍ .

(فيَظَلُّ يَضْحَكُ) هذا من صفاتِه الفعليةِ ، التى لا يُشْبِهُه فيها شىءٌ من مخلوقاتِه ، ففى الحديثِ إثباتُ صفتين من صفاتِ اللَّهِ الفعليةِ ، هما العجبُ والضحكُ .

وهما صفتان تَلِيقان بجلالِه ، ليستا كعَجَبِ المخلوقِ وضَحِكِ المخلوقِ .

وفى الحديثِ أيضًا : إثباتُ النظرِ للهِ سبحانَه ، وهو من صفاتِه الفعليةِ أيضًا ؛ فإنه يَنْظُرُ إلى عبادِه ، ولا يَخْفَى عليه شىءٌ فى الأرضِ ، ولا فى السماءِ .

(١) من حديث أبى رَزِين عند ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾. ولفظه : « عجب ربك ...» الحديث ، وبدل : « غِيَرِه » : « غَيْثِه » .

(٢) أى : المصباح المنير للفيومى . (٣) المصباح المنير ، (ع ج ب) .

٤- إثباتُ الرّجْلِ والقَدَمِ للهِ سبحانَه

وقولِه ﷺ : « لا تَزالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فيها ، وهى تَقُولُ : هل مِن مزيدٍ . حتى يَضَعَ ربُّ العزةِ فيها رِجْلَه – وفى روايةٍ : عليها قَدَمَه – فيَنْزَوِى بعضُها إلى بعضٍ ، فتقولُ : قَطْ قَطْ » . متفق عليه(١) .

الشرحُ :

قولُه : (**لا تَزالُ جَهَنَّمُ**) . جَهَنَّمُ اسمٌ من أسماءِ النارِ ، قيل : سُمِّيَت بذلك لبعدِ قَعْرِها . وقيل : لظُلْمتِها من الجُهمةِ ، وهى الظلمةُ .

(**يلقى فيها**) ؛ أى : يُطْرَحُ فيها أهلُها .

(**وهى تقولُ : هل مِن مَزيدٍ**) ؛ أى : تَطْلُبُ الزيادةَ لسَعَتِها ، وقد وَعَدَها اللَّهُ أن يَمْلَأَهَا(٢) .

(**حتى يَضَعَ ربُّ العزةِ فيها رِجْلَه**) لمَّا كانتِ النارُ فى غايةِ الكِبَرِ والسَّعَةِ ، وقد وَعَدها اللَّهُ مِلْئَها ، وكان مُقْتَضَى رحمتِه سبحانَه أن لا يُعَذِّبَ أحدًا بغيرِ جُرْمٍ ، حقَّق وَعْدَه ، ووضَعَ عليها رِجْلَه .

---

(١) البخارى (٤٨٤٨، ٦٦٦١، ٧٣٨٤) ، ومسلم ٤/٢١٨٧ (٢٨٤٨) .

(٢) دل على ذلك ما رواه البخارى (٤٨٥٠) ، ومسلم ٤/٢١٨٦ (٢٨٤٦) الحديث رقم (٣٦) من كتاب الجنة ، من حديث أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال : قال النبى ﷺ : « تَحَاجَّتِ الجنة والنار ، فقالت النار ، أُوثِرْتُ بالمتكبِّرين والمُتَجَبِّرين ، وقالت الجنة : ما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسَقَطُهم وغِرَّتُهم قال اللَّه تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار ، إنما أنت عذابى أُعَذِّبُ بك من أشاء من عبادى ، ولكل واحدةٍ منكما مِلْؤُها ...» الحديث .

والشاهد من هذا الحديث هو قول رب العزة تبارك وتعالى : « ولكل واحدةٍ منكما ملؤها » .

....

(**فيَنزَوِى بعضُها إلى بعضٍ**) ؛ أى : يَنْضَمُّ بعضُها إلى بعضٍ ، ويَتَلاقَى طَرَفاها ، ولا يَبْقَى فيها فَضْلٌ عن أهلِها .

(**فتقولُ : قطْ قَطْ**) ؛ أى : حَسْبى ، ويَكْفِينى[١] .

والشاهدُ من الحديثِ : أن فيه إثباتَ الرِّجْلِ والقدمِ للهِ تعالى على الوجهِ اللائقِ به سبحانَه ، وهو من صفاتِ الذاتِ ، كالوجهِ واليدِ ، واللَّهُ تعالى أعلمُ .

وقد غلِط فى تفسيرِ هذا الحديثِ المُعَطِّلةُ حيث قالوا : (قَدَمُه) نوعٌ من الخلقِ ، وقالوا : (رِجْلُه) جماعةٌ من الناسِ ، كما يقالُ : رِجْلُ جَرادٍ .

والردُّ على هذا أن يقالَ : إنَّ النبىَّ ﷺ قال : حتى (يَضَعَ) ، ولم يَقُلْ حتى يُلْقِىَ ، كما قال فى أولِ الحديثِ : (يُلْقَى فيها) .

وأيضًا القدمُ لا يَصِحُّ تفسيرُه بالقومِ ، لا حقيقةً ولا مجازًا[٢] .

---

(١) **قال ابن حجر رحمه اللَّه فى الفتح ٨/ ٥٩٥** : قوله « قَطْ قَطْ » أى : حَسْبِى حَسْبِى . وثبت بهذا التفسيرُ عند عبد الرزاق ، من حديث أبى هريرة ، وقَطْ بالتخفيف ساكنًا ، ويجوز الكسر بغير إشباعٍ ، ووقع فى بعض النسخ عن أبى ذر « قطِى قطِى » بالإشباع ، « وقَطْنى » بزيادة نون مُشْبَعة . اهـ

(٢) **قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه اللَّه فى شرح العقيدة الواسطية ٢/ ٣٢- ٣٤** :

رابعًا : إن لله تعالى رجلًا وقدمًا حقيقية ، لا تماثل أرجل المخلوقين ، ويسمى أهل السنة مثل هذه الصفة : الصفة الذاتية الخبرية ؛ لأنها لم تعلم إلا بالخبر ، ولأن مسماها أبعاض لنا وأجزاء ، لكن لا نقول بالنسبة لله : إنها أبعاض وأجزاء ؛ لأن هذا ممتنع على اللَّه عز وجل .

وخالف الأشاعرة وأهل التحريف فى ذلك ، فقالوا : « يضع عليها رجله » ؛ يعنى : طائفة من عباده مستحقين للدخول ، والرجل تأتى بمعنى الطائفة ؛ كما فى حديث أيوب ، عليه الصلاة والسلام ؛ أرسل اللَّه إليه رجل جراد من ذهب ؛ يعنى : طائفة من جراد . وهذا تحريف باطل ؛ لأن قوله : « عليها » : يمنع ذلك .

=

....

* * *

....

* * *

= وأيضًا ؛ لا يمكن أن يضيف اللّه عز وجل أهل النار إلى نفسه ؛ لأن إضافة الشيء إلى اللّه تكريم وتشريف . وقالوا في القدم : قدم ؛ بمعنى : مقدم ؛ أي : يضع اللّه تعالى عليها مقدمه ؛ أي : من يقدمهم إلى النار . وهذا باطل أيضًا ؛ فإن أهل النار لا يقدمهم البارى عز وجل ، ولكنهم ﴿ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : ١٣] ، ويلقون فيها إلقاء ؛ فهؤلاء المحرفون فروا من شيء ووقعوا في شرٍّ منه ؛ فروا من تنزيه اللّه عن القدم والرجل ، لكنهم وقعوا في السفه ومجانبة الحكمة في أفعال اللّه عز وجل .

والحاصل أنه يجب علينا أن نؤمن لله تعالى قدمًا ، وإن شئنا ؛ قلنا : رجلًا ؛ على سبيل الحقيقة ؛ مع عدم المماثلة ، ولا نكيّف الرجل ؛ لأن النبي ﷺ أخبرنا بأن اللّه تعالى رجلًا أو قدمًا ، ولم يخبرنا كيف هذه الرجل أو القدم ، وقد قال اللّه تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] . اهـ

٥- إثباتُ النداءِ والصوتِ والكلامِ للهِ تعالى

وقولِه : « يقولُ اللَّهُ تعالى : يا آدمُ ، فيقولُ : لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ . فيُنادِى بصوتٍ : إنَّ اللَّهَ يأْمُرُك أن تُخْرِجَ مِن ذُرِّيتِك بَعْثًا إلى النارِ » . متفقٌ عليه[١] .

وقولِه : « ما مِنْكم مِن أحدٍ إلا سيُكَلِّمُه ربُّه ، وليس بينَه وبينَه تُرْجُمانٌ »[٢] .

الشرحُ :

قولُه : (**لَبَّيْك وسَعْدَيْك**) لبَّيْك ؛ أى : أنا مقيمٌ على طاعتِك ، مِن أَلَبَ بالمكانِ ، إذا أقام ، وهو منصوبٌ على المصدرِ ، وثُنِّى للتأكيدِ .

وسَعْدَيْك : من المساعدةِ ، وهى المُطاوَعةُ ؛ أى : مساعدةٌ فى طاعتِك بعدَ مساعدةٍ .

قولُه : (**فيُنادِى**) . بكسرِ الدالِ ، والمُنادِى هو اللَّهُ تعالى .

(**بصوتٍ**) تأكيدٌ لقولِه : (ينادى) ؛ لأن النداءَ لا يكونُ إلا بصوتٍ ، وهذا كقولِه تعالى : (وكلَّم اللَّهُ موسى تكليمًا) .

قولُه : (**بَعْثًا إلى النارِ**) . البَعْثُ هنا بمعنى المبعوثِ الموجَّهِ إليها ، ومعنى ذلك : ميِّزْ أهلَ النارِ مِن غيرِهم .

والشاهدُ من الحديثِ : أن فيه إثباتَ القولِ مِن اللَّهِ والنداءِ بصوتٍ يُسْمَعُ ، وأن ذلك سيَحْصُلُ يومَ القيامةِ ، ففيه أن اللَّهَ يقولُ ويُنادِى متى شاء ، وكما يشاءُ .

وقولُه : (**ما منكم من أحدٍ**) . الخطابُ للصَّحابةِ ، وهو عامٌّ لجميعِ المؤمنين .

(**إلا سيُكَلِّمُه ربُّه**) ؛ أى : بلا واسطةٍ .

---

(١) البخارى (٧٤٨٣) ، ومسلم ٢٠١/١ (٢٢٢) .

(٢) البخارى (٦٥٣٩) ، ومسلم ٧٠٣/٢ (١٠١٦) .

....

* * *

(**ليس بينَه وبينَه تُرْجُمانٌ**)[1] الترجمانُ مَن يُعَبِّرُ بلغةٍ عن لغةٍ ؛ أي : يَنْقُلُ الكلامَ من لغةٍ إلى لغةٍ أخرى .

والشاهدُ من الحديثِ : أن فيه إثباتَ تكليمِ اللَّهِ سبحانَه لعبادِه ، وأنه سبحانَه يَتَكَلَّمُ إذا شاء ، فكلامُه من صفاتِه الفعليةِ ، وأنه يُكَلِّمُ كلَّ مؤمنٍ يومَ القيامةِ .

(١) **قال ابن حجر ، رحمه اللَّه في الفتح ١/ ٣٤**: الترجمان بفتح التاء المُثَنَّاة وضم الجيم ، ورجَّحه النووى فى شرح مسلم ، ويجوز ضم التاء إتباعًا ، ويجوز فتح الجيم ، مع فتح أوله ، حكاه الجَوْهرى ، ولم يُصَرِّحوا بالرابعة ، وهى ضم أوله وفتح الجيم ، والترجمان المعبِّر عن لغة بلغة ، وهو مُعَرَّب ، وقيل : عربى . اهـ

٦- إثباتُ علُوِّ اللَّهِ على خلقِه واستوائِه على عرشِه

وقولِه فى رُقْيةِ المريضِ : « ربَّنا اللَّهَ الذى فى السماءِ ، تَقَدَّسَ اسمُك ، أمْرُك فى السماءِ والأرضِ ، كما رَحْمتُك فى السماءِ ، اجْعَلْ رحمتَك فى الأرضِ ، اغْفِرْ لنا حُوبَنا وخَطايانا ، أنت ربُّ الطَّيِّبِينَ ، أَنْزِلْ رحمةً من رحمتِك ، وشِفاءً من شفائِك على هذا الوَجَعِ ، فيَبْرَأَ » . حديثٌ حسنٌ ، رواه أبو داودَ ، وغيرُه[١] .

وقولِه : « ألا تَأْمَنونى ، وأنا أمينُ مَن فى السماءِ » . حديثٌ صحيحٌ[٢] .

وقولِه : « والعرشُ فوقَ ذلك ، واللَّهُ فوقَ العرشِ ، وهو يَعْلَمُ ما أنتم عليه » . حديثٌ حسنٌ ، رواه أبو داودَ وغيرُه[٣] .

وقولِه للجاريةِ : « أين اللَّهُ ؟ » قالت : فى السماءِ . قال : « من أنا ؟ »

الشرحُ :

(فى رُقْيةِ المريضِ) ؛ أى : القراءةِ على المريضِ ؛ طَلَبًا لشِفائِه ، وهى مشروعةٌ إذا كانت بالقرآنِ والأدعيةِ المباحةِ ، وممنوعةٌ إذا كانت بألفاظٍ شركيةٍ ، أو أعمالٍ شركيةٍ[٤] .

---

(١) رواه أحمد ٦/٢١ (٢٣٨٣٩) ، وأبو داود (٣٨٩٢) .

(٢) البخارى (٤٣٥١) ، ومسلم ٢/٧٤٢ (١٠٦٤) .

(٣) رواه ابن خزيمة فى كتاب التوحيد ١/٢٤٢، والبيهقى فى الأسماء والصفات (٨٥١) ، وأبو الشيخ فى كتاب العظمة (٢٧٩) ، واللالكائى فى « شرح السنة » (٦٥٩) ، والدارمى فى الرد على الجهمية (٨١) . وقال الذهبى فى « مختصر العلو » ص ١٠٣: إسناده صحيح . وعزاه الهيثمى فى « المجمع » ١/٨٦ للطبرانى فى « الكبير » وقال : رجاله رجال الصحيح .

(٤) وقد ذكر الشيخ ابن عثيمين رحمه اللَّه شروط جواز الرقية بنحو من هذا ، فى كتاب القول المفيد ، وأضاف إليها شرطين آخرين ، فقال رحمه اللَّه ١/ ٢٣٥، ٢٣٦: =

قالت : أنت رسولُ اللَّهِ . قال : « أَعْتِقْها فإنها مؤمنةٌ » . رواه مسلمٌ[(١)] .

(ربَّنا اللَّهَ الذى فى السماء) ؛ أى : على السماءِ ، « ففى » هنا بمعنى « على » ، كقولِه تعالى : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [التوبة : ٢] ؛ أى : على الأرضِ ، ويَجوزُ أن تكونَ « فى » للظرفيةِ على بابِها ، ويكونُ المرادُ بالسماءِ مطلقَ العلوِّ[(٢)] .

(تَقدَّسَ اسمُك) ؛ أى : تقَدَّسَت أسماؤك عن كلِّ نقصٍ ، فهو مُفْرَدٌ مضافٌ ، فيَعُمُّ جميعَ أسماءِ اللَّهِ[(٣)] .

(أمرُك فى السماءِ والأرضِ) ؛ أى : أمرُك الكونىُّ القَدَرىُّ الذى يَنْشَأُ عنه جميعُ المخلوقاتِ والحوادثِ ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ

= شروط جواز الرقية :

الأول : أن لا يعتقد أنها تنفع بذاتها دون اللَّه ، فإن اعتقد أنَّها تنفع بذاتها من دون اللَّه ؛ فهو محرَّم ، بل شرك ، بل يعتقد أنَّها سبب لا تنفع إلاّ بإذن اللَّه .

الثانى : أن لا تكون مما يخالف الشرع ؛ كما إذا كانت متضمنة دعاء غير اللَّه ، أو استغاثة بالجن ، وما أشبه ذلك ؛ فإنَّها مُحرَّمة ، بل شرك .

الثالث : أن تكون مفهومة معلومة ، فإن كانت من جنس الطلاسم والشعوذة فإنَّها لا تجوز . اهـ

(١) رواه أحمد فى المسند ٥/٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، (٢٣٦٥٢، ٢٣٦٥٥، ٢٣٦٥٧) ، ومسلم ١/٣٨٢ (٥٣٧) ، وأبو داود (٩٣٠) ، والنسائى (١٢١٧) .

(٢) تقدم ذكر معانى حرف الجر « فى » ص ١٧٨ - ١٨٠ .

(٣) فقد ذكر الأصوليون أن من ألفاظ العموم المفرد المضاف ، قال الشنقيطى رحمه اللَّه فى المذكرة ص ٢٤٥:

القسم الثالث : من ألفاظ العموم ما أُضِيف من هذه الأنواع الثلاثة - يعنى رحمه اللَّه : ألفاظ الجموع ، كالمسلمين والمشركين ، والذين ، وأسماء الأجناس كالناس والحيوان والماء ، ولفظ الواحد كالسارق والسارقة ، وقد تقدم هذا من قوله - رحمه اللَّه - إلى معرفة كعبيد زيد ، ومال عمرو . =

....

كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] .

وأمرُك الشرعيُّ الـمُتَضَمِّنُ للشرائعِ التى شرَعَهَا لعبادِه .

(**كما رحمتُك فى السماءِ اجْعَلْ رحمتَك فى الأرضِ**) هذا توَسُّلٌ إليه برحمتِه ، التى شَمِلَت أهلَ السماواتِ كلَّهم أن يَجْعَلَ لأهلِ الأرضِ منها نصيبًا .

(**اغْفِرْ لنا حُوبَنا وخطايانا**) هذا طلبٌ للمغفرةِ ، وهى السَّتْرُ ووقايةُ الإثمِ ، ومنه الـمِغْفَرُ الذى يُلْبَسُ على الرأسِ لسَتْرِه ووقايتِه من الضربِ ، والحُوبُ الإثمُ ، والخطايا هى الذنوبُ .

(**أنت ربُّ الطَّيِّبين**) هذا توسُّلٌ آخرُ ، والطَّيبين جمعُ طَيِّب ، وهم النَّبِيُّون وأتباعُهم ، وإضافةُ ربوبيتِه لهؤلاء إضافةُ تشريفٍ وتكريمٍ ، وإلا فهو سبحانَه ربُّ كلِّ شىءٍ ومَلِيكُه .

(**أَنْزِلْ رحمةً من رحمتِك**) ؛ أى : الرحمةَ المخلوقةَ ؛ فإنَّ رحمةَ اللَّهِ نوعانِ

النوعُ الأولُ : رحمتُه التى هى صفةٌ من صفاتِه ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

النوعُ الثانى : رحمةٌ تُضافُ إليه سبحانَه من إضافةِ المخلوقِ إلى خالقِه ، كالمذكورةِ فى هذا الحديثِ ، وكما فى حديثِ : « خلق اللَّهُ مائةَ رحمةٍ » الحديثَ[1] .

= **قلت** : ومن أمثلته فى القرآن : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . اهـ

(١) البخارى (٦٤٦٩) ، ومسلم ٤/٢١٠٨ (٢٧٥٢) .

ولفظ الحديث عند البخارى رحمه اللَّه : « إن اللَّه خلَق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم =

....

فطلَب ﷺ من ربِّه إنزالَ هذه الرحمةِ على المريضِ لحاجتِه إليها ليَشْفِيَه بها .

والشاهدُ من الحديثِ : أن فيه إثباتَ العلوِّ للهِ تعالى ، وأنه في السماءِ ، والعلوُّ صفةٌ ذاتيةٌ ، كما سبَق[1] .

كما أن في الحديثِ التوسُّلَ إلى اللَّهِ تعالى بالثناءِ عليه بربوبيتِه وإلهيتِه وقُدُسيَّتِه ، وعُلُوِّه ، وعمومِ أمرِه ، وبرحمتِه .

ثم في الحديثِ طلبُ المغفرةِ مِن اللَّهِ ، وشفاءِ المرضِ .

وقولُه ﷺ : (**ألا تأْمَنُونى**) هذا خطابٌ منه ﷺ لمن اعْتَرض عليه في بعضِ قِسْمَتِه المالَ .

ألَا : أداةُ استفتاحٍ وتَنْبيهٍ .

و« تأمنونى » من الأمانةِ ، وهى عدمُ المُحاباةِ والخيانةِ ؛ أى : ألا تأْمُنونى في قِسْمةِ المالِ .

(**وأنا أمينُ مَن في السماءِ**) وهو اللَّهُ سبحانَه قد ائْتَمَنَنى على وَحْيِه ورسالتِه وتبليغِ شرعِه ، وكفَى بذلك شهادةً على أمانتِه وصدقِه ﷺ .

والشاهدُ من الحديثِ : أن فيه إثباتَ العلوِّ للهِ سبحانَه ، حيث قال : (مَن في السماءِ) وسبَقَ شرحُ الجملةِ قريبًا .

وقولُه : (**والعرشُ فوقَ ذلك**) . تقَدَّم تفسيرُ العرشِ[2] .

وقولُه : (**فوقَ ذلك**) ؛ أى : فوقَ المخلوقاتِ التى بينها الرسولُ ﷺ لأصحابِه

= الكافر بكل الذى عند اللَّه من الرحمة لم ييْأَسْ من الجنة ، ولو يعلم المسلم بكل الذى عند اللَّه من العذاب لم يأمن من النار » .

(١) تقدم ص١٧٣ - ١٨٠ .

(٢) تقدم ص١٦٧ .

....

في الحديثِ الذي ذَكَرَ فيه بُعْدَ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، وما بينَ كلِّ سماءٍ وسماءٍ ، وكَثَافَةَ كلِّ سماءٍ ، والبحرَ الذي فوقَ السماءِ السابعةِ ، وما بينَ أسفلِه وأعلاه ، وما فوقَ ذلك البحرِ من الأَوْعالِ الثمانيةِ العظيمةِ ، ثم فوقَ ذلك العرشُ (١).

(**واللَّهُ فوقَ العرشِ**) ؛ أي : مُسْتَوٍ عليه استواءً يَليقُ بجلالِه .

(**وهو يعلم ما أنتم عليه**) بعلمِه المحيطِ ، الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ .

والشاهدُ من الحديثِ : إثباتُ علوِّ اللَّهِ على عرشِه ، وأنَّ عرشَه فوقَ المخلوقاتِ كلِّها ، وأنَّ علمَ اللَّهِ سبحانَه مُحيطٌ بأعمالِ العبادِ ، لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ .

(**وقولُه : للجاريةِ**) ؛ أي : أمةِ معاويةَ بنِ الحَكَمِ ، حينَما غضِب عليها سيدُها معاويةُ ، فلطَمَها ، ثم ندِم ، وأخْبَر رسولَ اللَّهِ ﷺ ، وقال : أفلا أُعْتِقُها : فقال النبيُّ

---

(١) يشير رحمه اللَّه ، إلى ما رواه أحمد فى مسنده ١/ ٢٠٦، ٢٠٧ (١٧٧٠) ، وأبو داود (٤٧٢٣) ، والترمذى (٣٣٢٠) ، وابن ماجه (١٩٣) ، عن عباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوسًا مع رسول اللَّه ﷺ بالبطحاء ، فمرت سحابة ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أتدرون ما هذا ؟ » ، قال : قلنا : السحاب . قال « والمُزْن » ، قلنا : والمزن . قال : « والعنان » ، قال : فسكتنا ، فقال : « هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ » ، قال : قلنا : اللَّه ورسوله أعلم ، قال : « بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء [مسيرة] خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحرٌ بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعالٍ ، بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ، ثم فوق ذلك العرش ، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، واللَّه تبارك وتعالى فوق ذلك ، وليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شىء » . قال الشيخ أحمد شاكر : إسناده ضعيف جدًّا .

هذا وقد انتصر ابن القيم رحمه اللَّه فى تهذيب السنن مع عون المعبود ١٣/٥ لهذا الحديث ، وردَّ حُجَج القائلين بضعفه .

....

* * *

ﷺ : « بلى ، جِئْنى بها » . فأتى بها رسولَ اللَّهِ ﷺ ، فقال لها : « أين اللَّهُ ؟ » . فيه دليلٌ على جوازِ السؤالِ عن اللَّهِ بـ « أين » .

(**قالت : فى السماءِ**) ؛ أى : اللَّهُ سبحانَه فى السماءِ ، وتقدَّم تفسيرُ هذه الكلمةِ[1] .

(**قال**) لها النبىُّ ﷺ أيضًا : « مَن أنا ؟ » سأَلها عن اعتقادِها فيه (قالت : أنت رسولُ اللَّهِ) . فأقَرَّتْ له بالرسالةِ .

(قال) ﷺ لسيدِها : « أَعْتِقْها ؛ فإنها مؤمنةٌ » . فيه دليلٌ على أنَّ مَن شهِد هذه الشهادةَ أنه مؤمنٌ ، وأنَّ العتقَ يُشْتَرَطُ له الإيمانُ .

والشاهدُ من الحديثِ : أن فيه دليلًا على علوِّ اللَّهِ على خلقِه فوقَ سماواتِه ، وأنه يُشارُ إليه فى جهةِ العلوِّ إشارةً حسِّيةً .

---

(١) انظر ص١٧٨ .

٧- إثباتُ معيةِ اللهِ تعالى لخلقِه ، وأنها لا تُنافِي علوَّه فوقَ عرشِه

وقولِه : « أفضلُ الإيمانِ أن تَعْلَمَ أنَّ اللَّهَ معَك أينَما كنتَ » . حديثٌ حسنٌ ، أخْرَجَه الطبرانيُّ ، من حديثِ عُبادةَ بنِ الصامتِ[١] .

وقولِه : « إذا قام أحدُكم إلى الصلاةِ فلا يَبْصُقْ قِبَلَ وجهِه ؛ فإنَّ اللَّهَ قِبَلَ وجهِه ، ولا عن يَمينِه ، ولكن عن يسارِه ، أو تحتَ قدمِه » . متفقٌ عليه[٢] .

وقولِه : « اللهمَّ ربَّ السماواتِ السبعِ ، وربَّ العرشِ العظيمِ ، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ ، فالقَ الحبِّ والنَّوَى ، مُنْزِلَ التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ، أَعوذُ بك من شرِّ نفسى ، ومن شرِّ كلِّ دابةٍ ، أنت آخِذٌ بناصيتِها ، أنت الأولُ فليس قبلَك شيءٌ ، وأنت الآخِرُ فليس بعدَك شيءٌ ، وأنت الظاهِرُ فليس فوقَك شيءٌ ، وأنت الباطنُ فليس دونَك شيءٌ ، اقْضِ عنِّيَ الدَّيْنَ ،

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، كما فى مجمع الزوائد ١/ ٦٠، والبيهقى فى « الأسماء والصفات » (٩٠٧) ، وأبو نُعَيْم فى « الحِلْية » ٦/ ١٢٤، وقال الشيخ الألبانى ، رحمه اللَّه فى ضعيف الجامع (١٠٠٢) : ضعيف .

وقد ورد الحديث بلفظ : « تزكيةُ النفسِ أن يعلم أن اللَّه عز وجل معه حيث كان » .

رواه البيهقى فى « السنن » ٤/ ٩٥، وابن أبى عاصم فى « الآحاد والمثانى » (١٠٦٢) والفَسَوى فى « المعرفة والتاريخ » ١/٢٦٩ بسند صحيح ، كما فى السلسلة الصحيحة (١٠٤٦) .

(٢) البخارى (٤٠٥) ، ومسلم ، ١/٣٨٨ (٥٤٧) .

وأَغْنِنِي مِن الفقرِ » . رواه مسلمٌ(١) .

وقولِه : لمَّا رفَع الصحابةُ أصواتَهم بالذكرِ : « أيُّها الناس ارْبَعوا على أنفسِكم ؛ فإنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ ، ولا غائبًا ، إنَّما تَدْعُون سميعًا بصيرًا قريبًا ؛ إنَّ الذى تَدْعُونه أقربُ إلى أحدِكم مِن عُنُقِ راحلتِه » . متفقٌ عليه(٢) .

الشرحُ :

قولُه : (أفضلُ الإيمانِ) ؛ أى : من أفضلِ خصالِه ، وفى هذا دليلٌ على أن الإيمانَ يَتَفَاضلُ .

(أن تعلم أن اللَّه معك) ؛ أى : بعلمِه واطِّلاعِه .

(حيثُما كنتَ) ؛ أى : فى أىِّ مكانٍ وُجِدْتَ ، فمَن علِم ذلك اسْتَوَت عَلانِيَتُه وسَرِيرتُه ، فهابَه فى كلِّ مكانٍ .

(أخرَجَه الطَّبَرانىُّ) أبو القاسمِ سُلَيمانُ اللَّخْمىُّ ، أحدُ الحُفَّاظِ المُكْثِرين(٣) ، وقد روَى هذا الحديثَ فى المُعْجَمِ الكبيرِ .

وفى الحديثِ دليلٌ على إثباتِ مَعيةِ اللَّهِ لخلقِه بعلمِه ، وإحاطتِه بأعمالِهم ، وأنه يَجِبُ على العبدِ أن يَتَذَكَّرَ ذلك دائمًا ، فيُحْسِنَ عملَه .

---

(١) مسلم ٤/٢٠٨٤ (٢٧١٣) .

(٢) البخارى (٦٦١٠) ، ومسلم ٤/٢٠٧٦ (٢٧٠٤) .

(٣) الطبرانى هو الإمام الحافظ ، الثقة ، الرَّحال ، الجوَّال ، محدِّث الإسلام عَلَمَ المُعَمَّرين ، أبو القاسم ، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مُطَيْر اللَّخْمى الشامى الطبرانى ، صاحب المعاجم الثلاثة .

مولده بمدينة عَكَّاء فى شهر صفر سنة ستِّين ومائتين ، وكانت وفاته لليلتين بَقِيَتا من ذى القَعْدة ، سنة ستين وثلاثة مائة بأصبهان .

....

وقولُه : (إذا قام أحدُكم إلى الصلاةِ) ؛ أى : إذا شرَع فيها .

(فلا يَبْصُقْ) ؛ أى : لا يَتْفُلْ .

(قِبَلَ وجهِه) ؛ أى : أمامَه (قِبَل) بكسرِ القافِ وفتحِ الباءِ .

(فإنَّ اللَّهَ قِبَلَ وجهِه) هذا تعليلٌ للنهيِ عن البُصاقِ فى قِبْلةِ المُصَلِّى بأنَّ اللَّهَ سبحانَه (قِبَلَ وجهِه) ؛ أى : مُواجِهَه ، وهذه المواجهةُ كما يَليقُ باللَّهِ سبحانَه ، لا يَلْزَمُ منها أنه سبحانَه مُخْتَلِطٌ بخلقِه ، بل هو فوقَ سماواتِه ، مُسْتَوٍ على عرشِه ، وهو قريبٌ من خلقِه ، مُحيطٌ بهم .

(ولا عن يمينه) ؛ أى : ولا يَبْصُقِ المُصَلِّى عن يمينِه ، تشريفًا لليمينِ ، ولأن المَلَكَيْنِ عن يمينِه ، كما فى روايةٍ للبخاريِّ[(١)] .

---

(١) يشير الشيخ حفظه اللّه إلى ما رواه البخارى رحمه اللّه (٤١٦) ، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يَبْصُقْ أمامَه ؛ فإنما يناجى اللّه ، ما دام فى مُصَلاَّه ، ولا عن يمينه ؛ فإن عن يمينه مَلَكًا ، وليَبْصُق عن يساره ، أو تحت قدمه فيدفنها » .

وهنا فائدتان ذكرهما ابن حجر رحمه اللّه فى شرح هذا الحديث فى الفتح ٥١٢/١ ، ٥١٣ ، وهما وإن كانا لا علاقة لهما بموضوع البحث ، ولكن لا مانع من ذكرهما :

قوله : « ما دام فى مُصَلاَّه » . يقتضى تخصيص المنع بما إذا كان فى الصلاة ، لكن التعليل المتقدم بأذى المسلم يقتضى المنع فى جدار المسجد مطلقًا ولو لم يكن فى صلاة ، فيجمع بأن يقال : كونه فى الصلاة أشد إثما مطلقا ، وكونه فى جدار القبلة أشد إثما من كونه فى غيرها من جدر المسجد ، فهى مراتب متفاوتة مع الاشتراك فى المنع .

قوله : « فإن عن يمينه مَلَكًا » ، تقدم أن ظاهره اختصاصه بحالة الصلاة ، فإن قلنا : المراد بالملك الكاتب فقد استشكل اختصاصه بالمنع مع أن عن يساره ملكًا آخر ، وأجيب باحتمال اختصاص ذلك بملك اليمين تشريفا له وتكريما ، هكذا قاله جماعة من القدماء ولا يخفى =

....

(**ولكن عن يسارِه أو تحتَ قدمِه**) ؛ أى : ولكن لِيَبْصُقِ المُصَلِّى فى جهةِ يسارِه ، أو يَبْصُقْ تحتَ قدمِه .

والشاهدُ من الحديثِ : أن فيه إثباتَ قربِ اللَّهِ سبحانَه مِن عبدِه المصَلِّى ، وإقبالِه عليه ، وهو سبحانَه فوقَه .

وقولُه ﷺ : (**اللهمَّ ربَّ السماواتِ السبعِ**) اللهمَّ أصلُه : يا اللَّهُ ، فالميمُ عِوَضٌ عن ياءِ النداءِ .

« **ربَّ السماواتِ السبعِ** » ؛ أى : خالقَها ومالكَها .

(**وربَّ العرشِ العظيمِ**) ؛ أى : الكبيرِ الذى لا يَقْدِرُ قَدْرَه إلا اللَّهُ ، فهو أعظمُ المخلوقاتِ ، وتقَدَّم تفسيرُ العرشِ .

(**ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ**) ؛ أى : خالقَنا ، ورازقَنا ، وخالقَ كلِّ شيءٍ ، ومالكَه ، ففيه إثباتُ ربوبيتِه لكلِّ شيءٍ .

(**فالقَ الحبِّ والنَّوَى**) ؛ أى : شَاقَّ حبِّ الطعامِ ونَوَى التمرِ للإنباتِ .

(**مُنزِلَ التوراةِ**) على موسى ، (والإنجيلِ) على عيسى ، (والقرآنِ) على محمدٍ ، عليهم أفضلُ الصلاةِ والسلامِ ، وفى ذلك دليلٌ على فضلِ هذه الكتبِ ، وأنها مُنَزَّلةٌ من اللَّهِ تعالى .

= ما فيه . وأجاب بعض المتأخرين بأن الصلاة أم الحسنات البدنية فلا دخل لكاتب السيئات فيها ، ويشهد له ما رواه ابن أبى شيبة من حديث حذيفة موقوفا فى هذا الحديث قال : « ولا عن يمينه ، فإن عن يمينه كاتب الحسنات » . وفى الطبرانى من حديث أبى أمامة فى هذا الحديث : « فإنه يقوم بين يدى اللَّه وملكه عن يمينه وقرينه عن يساره » . اهـ فالتفل حينئذ إنما يقع على القرين وهو الشيطان ، ولعل ملك اليسار حينئذ يكون بحيث لا يصيبه شىء من ذلك ، أو أنه يتحول فى الصلاة إلى اليمين . واللَّه أعلم . اهـ

....

(**أعوذُ**) ؛ أى : أَلْتَجِئُ وأَعْتَصِمُ (**بك**) يا اللَّهُ (**مِن شرِّ كلِّ دابةٍ**) ؛ أى : كلِّ ما دبَّ على وجهِ الأرضِ .

(**أنت آخِذٌ بناصيتِها**) الناصيةُ مُقَدَّمُ الرأسِ ؛ أى : هى تحتَ قهرِك وسلطانِك ، تُصَرِّفُها كيف تشاءُ ، لتَصْرِفَ شرَّها عنى .

(**أنت الأولُ فليس قبلَك شيءٌ ، وأنت الآخِرُ فليس بعدَك شيءٌ ، وأنت الظاهرُ فليس فوقَك شيءٌ ، وأنت الباطنُ فليس دونَك شيءٌ**) هذه الأسماءُ الأربعةُ ؛ اسمان لأزليتِه وأبديتِه ، وهما (**الأولُ والآخِرُ**) ، واسمانِ لعُلُوِّه وقربِه ، وهما (**الظاهرُ والباطنُ**) .

وهما مَحَلُّ الشاهدِ من الحديثِ ؛ لأن فيهما إثباتَ علوِّ اللَّهِ وقربِه ، وأنهما لا يَتَنَافَيان ، ولا يَتَناقَضان ، فهو قريبٌ فى علوِّه ، علىٌّ فى دُنُوِّه .

(**اقْضِ عَنِّى الدَّيْنَ**) ؛ أى : أَدِّ عنِّى حقوقَ اللَّهِ وحقوقَ الخلقِ ، وفى هذا التَّبَرِّى مِن الحولِ والقوةِ .

(**وأَغْنِنى من الفقرِ**) الفقرُ الحاجةُ ، والفقيرُ هو مَن لا يَجِدُ شيئًا ، أو يَجِدُ بعضَ الكفايةِ ، وفى الحديثِ أيضًا مشروعيةُ التوسلِ إلى اللَّهِ سبحانَه وتعالى بأسمائِه وصفاتِه فى قضاءِ الحاجةِ وإجابةِ الدعاءِ .

(**وقولُه ﷺ لـمَّا رفَع الصحابةُ أصواتَهم بالذِّكْرِ**) ، وذلك فى غزوةِ خيبرَ ، كما جاء فى بعضِ طرقِ الحديثِ[1] ، وأن الذكرَ الذى رفَعوا به أصواتَهم هو التكبيرُ : اللَّهُ أكبرُ ، لا إلهَ إلا اللَّهُ .

---

(١) البخارى (٤٢٠٥) .

....

* * *

وقولُه : (ارْبَعوا) ؛ أى : ارْفُقوا .

(فإنكم) تعليلٌ للأمرِ بالرفقِ .

(لا تَدْعُون أصَمَّ ولا غائبًا) لا يَسْمَعُ دعاءَكم ، ولا يراكم ، فنفَى الآفةَ المانعةَ من السمعِ ، والآفةَ المانعةَ من النظرِ ، وأثْبَت ضدَّهما ، فقال : (إنما تَدْعُون سميعًا بصيرًا قريبًا) ، فلا داعيَ لرفعِ الصوتِ .

(إن الذى تَدْعُونه أقربُ إلى أحدِكم مِن عُنُقِ راحلتِه) فهو قريبٌ ممن دعاه وذكَرَه ، فلا حاجةَ لرفعِ الأصواتِ ، وهو قريبٌ يَسْمَعُها إذا خُفِضَت ، كما يَسْمَعُها إذا رُفِعَت .

والشاهدُ من الحديثِ : أن فيه إثباتَ قربِ اللَّهِ سبحانَه مِن داعِيه ، يَسْمَعُ الأصواتَ الخَفِيَّةَ ، كما يَسْمَعُ الأصواتَ الجَهْرِيةَ ، فأفادت هذه الأحاديثُ جميعًا إثباتَ معيةِ اللَّهِ لخلقِه ، وقربِه منهم ، وسَماعِه لأصواتِهم ، ورُؤْيتِه لحركاتِهم .

وذلك لا يُنافى علوَّه واستواءَه على عرشِه ، وقد تقدَّم الكلامُ على المعيةِ وأنواعِها ، وشواهدِها من القرآنِ الكريمِ ، مع تفسيرِ تلك الشواهدِ ، واللَّهُ أعلمُ[1] .

* * *

---

(١) تقدم ص ١٨١ - ١٨٥ .

٨- إثباتُ رؤيةِ المؤمنين لربّهم يومَ القيامةِ

وقولِه : « إنَّكم ستَرَوْنَ ربَّكم ، كما تَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ ، لا تَضامُّونَ في رؤيتِه ، فإن استَطَعْتُم أن لا تُغْلَبوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ ، وصلاةٍ قبلَ غروبِها فافْعَلُوا » . متفقٌ عليه[1] .

الشرحُ :

قولُه : (إنَّكم ستَرَوْنَ ربَّكم) . الخطابُ للمؤمنين ، والسِّينُ للتَّنفيسِ[2] ، ويرادُ بها التأكيدُ .

وقولُه : (تَرَوْنَ ربَّكم) ؛ أي : تُعايِنُونه بأبصارِكم ، والأحاديثُ الواردةُ بإثباتِ رؤيةِ المؤمنين لربِّهم مُتَواتِرةٌ[3] .

---

(١) البخاري (٥٥٤) ، ومسلم ١/٤٣٩ (٦٣٣) .

(٢) أي : للاستقبال ، فكل من « السين ، وسوف » من حروف التنفيس ؛ أي : حروف الاستقبال ، إلا أن « السين » للاستقبال القريب ، و « سوف » للاستقبال البعيد .

(٣) نصّ على ذلك غير واحد من أهل العلم ، منهم ابن القيم رحمه الله في حادي الأرواح ص٣٧٣، وابن أبي العز في شرح الطحاوية ص ١٩٣، والحافظ ابن حجر في فتح الباري ١/٢٠٣ .

قال ابن القيم رحمه الله في كتاب حادي الأرواح ص ٣٧٣ :

وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدّالة على الرؤية فمتواترة ، رواها عنه أبو بكر الصديق [وأبو هريرة] ، وأبو سعيد الخدري ، وجَرِيرُ بن عبد اللهِ البَجلي ، وصهيب بن سنان الرومي ، وعبد الله بن مسعود الهذلي ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو موسى الأشعري ، وعدي بن حاتم الطائي ، وأنس بن مالك الأنصاري ، وبريدة بن الحصيب الأسلمي ، وأبو رزين العقيلي ، وجابر بن عبد الله الأنصاري ، وأبو أمامة الباهلي ، وزيد بن ثابت ، وعمّار بن ياسر ، وعائشة أم المؤمنين ، وعبد الله بن عمر ، وعمارة بن رويبة ، وسلمان الفارسي ، وحذيفة ابن اليمان ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص – وحديثه موقوف – وأبي بن كعب ، =

....

قوله : (**كما ترَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ**) ؛ أى : ليلةَ كمالِه ، وهى الليلةُ الرابعةَ عشْرةَ مِن الشهرِ ؛ فإنه فى تلك الليلةِ يكونُ قد امتلأ نورًا .

والمرادُ من هذا التشبيهِ تحقيقُ الرؤيةِ وتأكيدُها ونفىُ المجازِ عنها ، وهو تشبيهٌ للرؤيةِ بالرؤيةِ ، لا تشبيهٌ للمَرْئِيِّ بالمَرْئِيِّ ؛ لأنه سبحانَه : (ليس كمثله شىء) .

وقولُه : (**لا تُضَامُونَ فى رؤيتِه**) بضَمِّ التاءِ وتخفيفِ الميمِ ؛ أى : لا يَلْحَقُكم ضَيْمٌ ؛ أى : ظلمٌ ، بحيثُ يَراه بعضُكم دونَ بعضٍ .

ورُوِى بفتحِ التاءِ وتشديدِ الميمِ ، من التَّضامِّ ؛ أى : لا يَنْضَمُّ بعضُكم إلى بعضٍ لأجلِ رؤيتِه .

والمعنى على هذه الروايةِ : لا تجْتَمِعون فى مكانٍ واحدٍ لرؤيتِه ، فيَحْصُلَ بينَكم الزِّحامُ .

والمعنى على الروايتين : أنكم تَرَوْنَه رؤيةً مُحقَّقةً ، كلٌّ منكم يَراه ، وهو فى مكانِه[1] .

وقولُه : (**فإن استَطَعْتُم أن لا تُغْلَبوا**) ؛ أى : لا تَصِيروا مَغْلُوبين .

(**على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ**) ، وهى صلاةُ الفجرِ .

= وكعب بن عجرة ، وفضالة بن عُبيد – وحديثه موقوف – ورجل من أصحاب النبى ﷺ غير مُسمى . اهـ

ثم ساق رحمه الله هذه الأحاديث ، وانظر حادى الأرواح ص ٣٧٣ – ٤٠٩ .

وراجع ما صُنِّفَ فى هذه المسألة ، مثل : « التصديق بالنظر إلى الله تعالى فى الآخرة » للآجرى ، « وضوء السارى إلى معرفة رؤية البارى » لأبى شامة المقدسى ، وكلاهما مطبوع .

(١) انظر شرح صحيح مسلم ٢/ ٢٨، وفتح البارى ٢/٣٣.

....

* * *

(**وصلاةٍ قبلَ غروبِها**) وهى صلاةُ العصرِ .

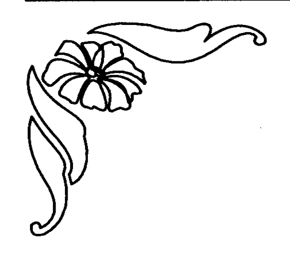
(**فافعلوا**) ؛ أى : حافِظوا على هاتين الصلاتين فى الجماعةِ ، فى أوقاتِهما ، وخصَّ هاتين الصلاتين لاجتماعِ الملائكةِ فيهما[(١)] ، فهما أفضلُ الصلواتِ ، فناسَب أنْ يُجازِىَ مَن حافَظَ عليهما بأفضلِ العَطايا ، وهو النظرُ إلى وجهِ اللَّهِ تعالى .

والشاهدُ مِن الحديثِ : أن فيه إثباتَ رؤيةِ المؤمنين لربِّهم عِيانًا يومَ القيامةِ ، وقد تقَدَّم ذكرُ مَن خالفَ فى ذلك ، مع الردِّ عليه ، عندَ الكلامِ على تفسيرِ الآياتِ التى فيها إثباتُ الرؤيةِ ، واللَّهُ أعلمُ[(٢)] .

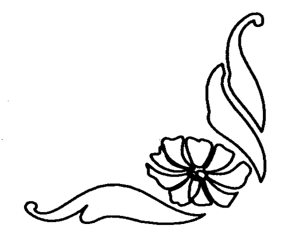
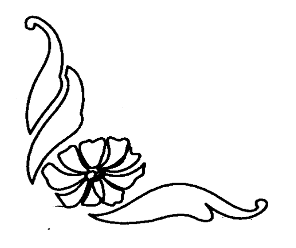
---

(١) يشير الشيخ الشارح حفظه اللَّه إلى الحديث الذى رواه البخارى رحمه اللَّه (٥٥٥، ٣٢٢٣، ٧٤٢٩، ٧٤٨٦) ، ومسلم رحمه اللَّه ٤٣٩/١ (٦٣٢) ، عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يَعْرُج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » .

(٢) تقدم ص٢٠١- ٢٠٤ .

موقفُ أهلِ السنةِ من هذه الأحاديثِ، التى فيها إثباتُ الصفاتِ الربانيةِ

موقفُ أهلِ السنةِ من هذه الأحاديثِ، التى فيها إثباتُ الصفاتِ الربانيةِ

إلى أمثالِ هذه الأحاديثِ التى يُخْبِرُ فيها رسولُ اللَّهِ ﷺ عن ربِّه، بما يُخْبِرُ به، فإنَّ الفِرْقَةَ الناجيةَ؛ أهلَ السنةِ والجماعةِ يُؤْمِنون بذلك، كما يُؤْمِنون بما أخْبَرَ اللَّهُ به فى كتابِه، من غيرِ تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غيرِ تكييفٍ، ولا تمثيلٍ.

الشرحُ:

هذا بيانٌ لموقفِ أهلِ السنةِ والجماعةِ من أحاديثِ الصفاتِ الواردةِ عن الرسولِ ﷺ، أنه كموقِفِهم من آياتِ الصفاتِ فى القرآنِ سواءً، وهو الإيمانُ بها، واعتقادُ ما دلَّت عليه على حقيقتِه.

لا يَصْرِفونها عن ظاهرِها بأنواعِ التأويلِ الباطلِ، ولا يَنْفُون ما دلَّت عليه فيُعَطِّلونها، ولا يُشَبِّهون الصفاتِ المذكورةَ فيها بصفاتِ المخلوقين؛ لأنَّ اللَّهَ (ليس كمثله شىء).

وهم بذلك يُخالِفون طريقةَ المُبْتَدِعةِ، من الجَهْمِيةِ والمُعْتَزِلةِ والأشَاعِرةِ[1]، الذين كان موقفُهم من هذه النصوصِ موقفَ المُنْكِرِ لها، أو المُؤَوِّلِ لما دلَّت عليه.

---

(١) وينسبون إلى أبى الحسن الأشعرى ويقولون بإثبات سبع صفات فقط لأن العقل دل على إثباتها وهى: السمع والبصر والعلم والكلام والقدرة والإرادة والحياة. وقالوا بأن كلام اللَّه هو المعنى القائم، وهو قائم بالذات يستحيل أن يفارقه، والعبارات والحروف دلالات على الكلام الأزلى، وعندهم: أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والعمل والإقرار من فروع الإيمان لا من أصله، وقد رجع أبو الحسن الأشعرى عن قوله فى الأسماء والصفات كما سبق فى ترجمته. الملل والنحل ١/ ١١٩؛ رسالة فى الرد على الرافضة ص ١٦٦.

....

* * *

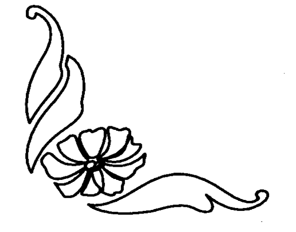
وبخلافِ المُشَبِّهةِ(١) الذين غلَوْا في الإثباتِ حتى شبَّهوا اللَّهَ بخلقِه ، تعَالَى اللَّهُ عما يقولون علوًّا كبيرًا .

* * *

(١) **المشبهة** : هم الذين شبهوا اللّه سبحانه وتعالى بخلقه ، فقالوا : له يد كيد المخلوق ورجل كرجل المخلوق ، تعالى اللّه عما يقولون علوًّا كبيرًا . وكان بدء ظهور التشبيه فى الإسلام من الروافض ، كما أن اليهود أكثرهم مشبهة ، وهم صنفان :
صنف شبهوا ذات البارى بذات غيره ، ومنهم اليهود ، وصنف شبهوا صفاته بصفات غيره ، منهم المعتزلة البصرية والكرامية . الملل والنحل ١/١٣٩، رسالة فى الرد على الرافضة ص ١٦٥ .




مـكـانـةُ أهـلِ الـسـنـةِ
والجماعةِ بيـنَ فِرَقِ الأُمَّةِ




مكانةُ أهلِ السنةِ والجماعةِ بيـنَ فِرَقِ الأمَّةِ

بل هم الوَسَطُ فى فرقِ الأمةِ ، كما أنَّ الأمةَ هى الوسَطُ فى الأممِ :

فهم وسطٌ فى بابِ صفاتِ اللَّهِ سبحانَه وتعالى بينَ أهلِ التعطيلِ ؛ الجَهْميةِ ، وأهلِ التمثيلِ ؛ المشبِّهةِ .

وهم وَسَطٌ فى بابِ أفعالِ اللَّهِ بينَ الجَبْريةِ والقَدَريةِ وغيرِهم .

وفى بابِ وعيدِ اللَّهِ بينَ المُرْجِئةِ والوَعِيديةِ مِن القدريةِ وغيرِهم .

وفى باب أسماءِ الإيمانِ والدينِ بينَ الحَرُوريَّةِ والمعتزلةِ ، وبينَ المرجئةِ والجهميةِ .

وفى بابِ أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بينَ الرافضةِ والخوارجِ .

الشرحُ :

لمَّا بيَّنَ الشيخُ رحمه اللَّهُ موقفَ أهلِ السنةِ والجماعةِ من النصوصِ الواردةِ فى الكتابِ والسنةِ فى صفاتِ اللَّهِ تعالى أراد أن يُبَيِّنَ مكانتَهم بينَ فرقِ الأمةِ حتى يُعْرَفَ قدرُهم وفضلُهم بمقارنتِهم بغيرِهم ؛ فإنَّ الضدَّ يُظْهِرُ حسنَه الضدُّ ، وبضدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ .

قال رحمه اللَّهُ : (بل هم الوسَطُ فى فرقِ الأمةِ) . قال فى المِصْباحِ المنيرِ[(١)] : الوسَطُ بالتحريكِ : المعتدلُ ، والمرادُ بالوسَطِ هنا العَدْلُ الخِيارُ ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

فأهلُ السنةِ وَسَطٌ ، بمعنى أنَّهم عُدولٌ خِيارٌ ، وبمعنى أنهم مُتَوَسِّطون بينَ فريقَي

---

(١) المصباح المنير (و س ط) .

....

الإفراطِ والتفريطِ ، فهم وسطٌ بينَ الفرقِ المُنْتَسِبةِ للإسلامِ ، كما أن الأمةَ الإسلاميةَ وَسَطٌ بينَ الأممِ .

فهذه الأمةُ وَسَطٌ بينَ الأممِ التى تَميلُ إلى الغلوّ والإفراطِ ، والأممِ التى تَميلُ إلى التفريطِ والتساهُلِ ، وأهلُ السنةِ والجماعةِ من هذه الأمةِ وَسَطٌ بينَ فرقِ الأمةِ المبتدعةِ التى انْحَرَفَت عن الصراطِ المستقيمِ ، فَغَلا بعضُها وتطَرَّف ، وتسَاهَل بعضُها وانْحَرَف .

ثم بيَّن الشيخُ رحِمه اللَّهُ تفصيلَ ذلك فقال : (فهم) ؛ أى : أهلُ السنةِ والجماعةِ :

أولًا : (وَسَطٌ فى بابِ صفاتِ اللَّهِ سبحانَه وتعالى بيـنَ أهلِ التعطيلِ الجهميةِ وأهلِ التمثيلِ المشبِّهةِ) فالجهميةُ نسبةٌ إلى الجَهْمِ بن صَفْوانَ الترمذىِّ .

هؤلاء غلَوا وأَفْرطوا فى التنزيهِ حتى نفَوْا أسماءَ اللَّهِ وصفاتِه ؛ حَذَرًا مِن التشبيهِ بزعمِهم ، وبذلك سُمُّوا مُعَطِّلةً ؛ لأنهم عطَّلوا اللَّهَ من أسمائِه وصفاتِه .

(وأهلِ التمثيلِ المشبِّهةِ) سُمُّوا بذلك ؛ لأنهم غَلَوا وأفْرَطوا فى إثباتِ الصفاتِ حتى شبَّهوا اللَّهَ بخلقِه ، ومَثَّلوا صفاتِه بصفاتِهم ، تعالى اللَّهُ عما يقولون .

وأهلُ السنةِ توَسَّطوا بينَ الطرفين ، فأثْبَتوا صفاتِ اللَّهِ على الوجهِ اللائقِ بجلالِه ، من غيرِ تشبيهٍ ، ولا تمثيلٍ ، فلم يَغْلُوا فى التنزيهِ ، ولم يَغْلُوا فى الإثباتِ ، بل نزَّهوا اللَّهَ بلا تعطيلٍ ، وأثبتوا له الأسماءَ والصفاتِ بلا تمثيلٍ .

ثانيًا :وأهلُ السنةِ والجماعةِ وَسَطٌ فى بابِ أفعالِ اللَّهِ بيـنَ الجبريةِ والقَدَريةِ ، فالجبريةُ نسبةٌ إلى الجَبْرِ ؛ لأنهم يقولون : إن العبدَ مَجْبورٌ على فعلِه .

فهْم غَلَوا فى إثباتِ أفعالِ اللَّهِ حتى نَفَوا أفعالَ العبادِ ، وزعَموا أنهم لا يَفْعَلون

....

شيئًا ، وإنما اللَّهُ هو الفاعلُ ، والعبدُ مجبورٌ على فعلِهِ .

فحركاتُه وأفعالُه كلُّها اضْطِراريةٌ كحركاتِ المُرْتَعِشِ ، وإضافةُ الفعلِ إلى العبدِ مجازٌ .

والقدريةُ نسبةٌ إلى القَدَرِ ، غَلَوْا في إثباتِ أفعالِ العبادِ ، فقالوا : العبدُ يَخْلُقُ فعلَ نفسِه بدونِ مشيئةِ اللَّهِ وإرادتِه ، فأفعالُ العبادِ لا تَدْخُلُ تحتَ مشيئةِ اللَّهِ وإرادتِه ، فاللَّهُ لم يُقَدِّرْها ، ولم يُرِدْها ، وإنما فعَلُوها هم استقلالًا .

وأهلُ السنةِ توَسَّطوا ، وقالوا : للعبدِ اختيارٌ ومشيئةٌ وفعلٌ يَصْدُرُ منه ، ولكنه لا يَفْعَلُ شيئًا بدونِ إرادةِ اللَّهِ ومشيئتِه وتقديرِه ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] .

فأثْبَت للعبادِ عملًا هو مِن خلقِ اللَّهِ تعالى وتقديرِه .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩] .

فأثْبَت للعبادِ مشيئةً تأتي بعدَ مشيئةِ اللَّهِ تعالى ، وسيأتي لهذا مزيدُ إيضاحٍ إن شاء اللَّهُ تعالى في مَبْحَثِ القَدَرِ(١) .

ثالثًا : وأهلُ السنةِ والجماعةِ وَسَطٌ في بابِ وَعيدِ اللَّهِ .

الوعيدُ التخويفُ والتهديدُ ، والمرادُ هنا النصوصُ التي فيها توعُّدٌ للعُصاةِ بالعذابِ والنَّكالِ .

وقولُه : (بيـنَ المرجئةِ والوَعِيديةِ من القَدَريةِ وغيرِهم) .

المرجئةُ : نسبةٌ إلى الإرجاءِ ، وهو التأخيرُ ، سُمُّوا بذلك ؛ لأنهم أخَّروا الأعمالَ عن مُسَمَّى الإيمانِ حيث زعَمُوا أن مُرْتَكِبَ الكبيرةِ غيرُ فاسقٍ ، وقالوا : لا يَضُرُّ مع

(١) سيأتي إن شاء اللَّه تعالى ص٣١٧- ٣٣٧ .

....

الإيمانِ ذنبٌ ، كما لا يَنْفَعُ مع الكفرِ طاعةٌ .

فعندَهم أن مُرْتَكِبَ الكبيرةِ كاملُ الإيمانِ ، غيرُ مُعَرَّضٍ للوَعيدِ ، فهم تَساهَلوا في الحكمِ على العاصي ، وأفْرَطوا في التساهُلِ حتى زعَموا أن المعاصيَ لا تَنْقُصُ الإيمانَ ، ولا يُحْكَمُ على مرتكبِ الكبيرةِ بالفسقِ .

وأمّا الوَعيديةُ : فهم الذين قالوا بإنفاذِ الوعيدِ على العاصي وشدَّدوا في ذلك حتى قالوا : إنَّ مرتكبَ الكبيرةِ إذا مات ، ولم يَتُبْ ، فهو مُخَلَّدٌ في النارِ ، وحكَموا بخروجِه من الإيمانِ في الدنيا .

وأهلُ السنةِ والجماعةِ توَسَّطوا بينَ الطَّرَفْين ، فقالوا : إن مرتكبَ الكبيرةِ آثمٌ ، ومُعَرَّضٌ للوعيدِ ، وناقصُ الإيمانِ ، ويُحْكَمُ عليه بالفسقِ ، لا كما تقولُ المرجئةُ : إنه كاملُ الإيمانِ ، وغيرُ مُعَرَّضٍ للوعيدِ .

ولكنه لا يَخْرُجُ من الإيمانِ ، ولا يُخَلَّدُ في النارِ إن دخَلَها ، فهو تحتَ مشيئةِ اللَّهِ ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذَّبه بقدرِ معصيتِه ، ثم يَخْرُجُ من النارِ ، ويَدْخُلُ الجنةَ ، لا كما تَقُولُه الوَعِيديةُ بخروجِه من الإيمانِ ، وتخليدِه في النارِ .

فالمرجئةُ أخَذُوا بنصوصِ الوَعْدِ ، والوعيديةُ أخَذُوا بنصوصِ الوعيدِ ، وأهلُ السنةِ والجماعةِ جمَعوا بينَهما .

رابعًا : وأهلُ السنةِ والجماعةِ وَسَطٌ في بابِ أسماءِ الإيمانِ والدِّينِ ؛ أي : الحكمِ على الإنسانِ بالكفرِ ، أو الإسلامِ ، أو الفسقِ ، وفي جزاءِ العُصاةِ في الدنيا والآخرةِ بينَ الحَرُوريَّةِ والمعتزلةِ ، وبينَ المرجئةِ والجهميةِ .

الحروريةُ هم الخوارجُ ، سُمُّوا بذلك نسبةً إلى « حَرُورَى » قريةٍ بالعراقِ ، اجْتَمَعوا فيها حينَ خرَجُوا على عليٍّ رضِي اللَّهُ عنه .

....

والمعتزلةُ هم أتباعُ واصلِ بنِ عطاءٍ ، الذى اعْتَزَل مجلسَ الحسنِ البَصْرىِّ ، وانحاز إليه أتباعُه بسببِ خلافٍ وقَع بينَهما فى حكمِ مُرْتَكِبِ الكبيرةِ من المسلمين ، فقال الحسنُ رحِمه اللَّهُ عن واصلٍ هذا : إنه قد اعْتَزَلَنا . فسُمُّوا معتزلةً .

فمذهبُ الخوارجِ والمعتزلةِ فى حكمِ مرتكبِ الكبيرةِ من المسلمين مذهبٌ متشدِّدٌ ، حيث حكَموا عليه بالخروجِ من الإسلامِ ، ثم قال المعتزلةُ : إنه ليس بمسلمٍ ، ولا كافرٍ ، بل هو بالمنزلةِ بينَ المنزلتَيْنِ .

قال الخوارجُ : إنه كافرٌ . واتَّفَقوا على أنه إذا مات على تلك الحالِ أنه خالدٌ مُخَلَّدٌ فى النارِ .

وقابَلَتْهم المرجئةُ والجهميةُ فتساهَلُوا فى حكمِ مرتكبِ الكبيرةِ ، وأفْرَطوا فى التساهُلِ معَه ، فقالوا : لا يَضُرُّ مع الإيمانِ معصيةٌ ؛ لأن الإيمانَ عندَهم هو تصديقُ القلبِ فقط ، أو مع نطقِ اللسانِ على خلافٍ بينَهم ، ولا تَدْخُلُ فيه الأعمالُ فلا يزيدُ بالطاعةِ ، ولا يَنْقُصُ بالمعصيةِ ، فالمعاصى لا تَنْقُصُ الإيمانَ ، ولا يَسْتَحِقُّ صاحبُها النارَ ، إذا لم يَسْتَحِلَّها .

وأهلُ السنةِ والجماعةِ توَسَّطوا بينَ الفرقَتَيْن ، فقالوا : إن العاصىَ لا يَخْرُجُ من الإيمانِ لمجردِ المعصيةِ ، وهو تحتَ المشيئةِ ، إن شاء اللَّهُ عفَا عنه ، وإن شاء عذَّبَه فى النارِ ، لكنه لا يُخَلَّدُ فيها ، كما تقولُ الخوارجُ والمعتزلةُ .

والمعاصى تَنْقُصُ الإيمانَ ويَسْتَحِقُّ صاحبُها دخولَ النارِ إلا أن يَعْفُوَ اللَّهُ عنه .

ومرتكبُ الكبيرةِ يكونُ فاسقًا ناقصَ الإيمانِ ، لا كما تقولُ المرجئةُ : إنه كاملُ الإيمانِ ، واللَّهُ تعالى أعلمُ .

خامسًا : وأهلُ السنةِ والجماعةِ وَسَطٌ فى حقِّ أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بينَ

....

* * *

الرافضةِ والخوارجِ .

الصَّحابيُّ هو مَن لَقِى النبيَّ ﷺ مؤمنًا به ، ومات على ذلك .

والرافضةُ اسمٌ مأخوذٌ مِن الرَّفْضِ ، وهو التَّركُ ، سُمُّوا بذلك ؛ لأنهم قالوا لزيدِ ابنِ عليِّ بنِ الحسينِ : تَبَرَّأْ مِن الشيخَيْنِ ؛ أبى بكرٍ وعمرَ . فأبَى ، وقال : مَعاذَ اللَّهِ . فرفَضُوه ، فسُمُّوا رافضةً .

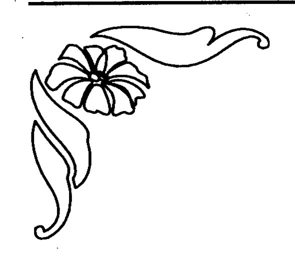
ومذهبُهم فى صحابةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ أنَّهم غَلَوْا فى علىٍّ رضِى اللَّهُ عنه ، وأهلِ البيتِ ، وفضَّلُوهم على غيرِهم ، ونصَبوا العَداوةَ لبقيةِ الصحابةِ ، خصوصًا الخلفاءَ الثلاثةَ ؛ أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ رضِى اللَّهُ عنهم ، وسبُّوهم ، ولَعَنُوهم ، وربَّما كفَّروهم ، أو كفَّروا بعضَهم .

وقابلَهم الخوارجُ ، فكفَّروا عليًّا رضِى اللَّهُ عنه ، وكفَّروا معه كثيرًا من الصحابةِ ، وقاتَلُوهم ، واسْتَحَلُّوا دماءَهم وأموالَهم .

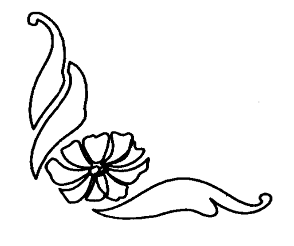
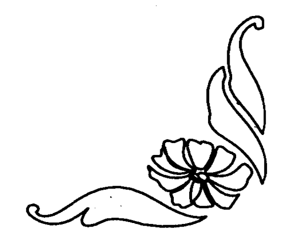
وأهلُ السنةِ والجماعةِ خالَفُوا الجميعَ ، فوالَوْا جميعَ الصحابةِ ، ولم يَغْلُوا فى أحدٍ منهم ، واعْتَرَفوا بفضلِ جميعِ الصحابةِ ، وأنهم أفضلُ هذه الأمةِ بعدَ نبيِّها ، ويأتى لهذا مزيدُ بيانٍ [1] .

---

(١) سيأتى إن شاء اللَّه تعالى ص ٣٥٢ - ٣٨٤ .




وجوبُ الإيمانِ باستواءِ اللَّهِ على عرشِه، وعلوّه على خلقِه، ومعيتِه لخلقِه، وأنه لا تَنافِيَ بينَهما

وجوبُ الإيمانِ باستواءِ اللهِ على عرشِه ، وعلوِّه على خلقِه ، ومعيتِه لخلقِه ، وأنه لا تَنافِيَ بيـنَهما

قال رحِمه اللَّهُ :

فصــــلٌ

وقد دخَل فيما ذكَرْناه من الإيمانِ باللَّهِ الإيمانُ بما أخْبَر اللَّهُ به فى كتابِه ، وتواتَرَ عن رسولِه ، وأَجْمَع عليه سَلَفُ الأمةِ مِن أنه سبحانَه فوقَ سماواتِه ، على عرشِه ، عَلِيٌّ على خلقِه .

وهو سبحانَه معَهم أينَما كانوا ، يَعْلَمُ ما هم عامِلون ، كما جمَع بينَ ذلك فى قولِه : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

الشرحُ :

خصَّص المصنِّفُ رحِمه اللَّهُ هاتَيْن المسألتين : (الاستواءَ على العرشِ ، ومعيتَه للخلقِ) بالتنبيهِ ليُزيلَ الإشكالَ ، فقد يُتَوَهَّمُ وجودُ التنافى بينَهما ، فقد يَظُنُّ الظَانُّ أن ذلك مثلُ صفاتِ المخلوقين ، وأنه مُخْتَلِطٌ بهم .

فكيف يكونُ فوقَ خلقِه ، مُسْتَوِيًا على عرشِه ، ويكونُ مع خلقِه قريبًا منهم ، بدونِ مخالطةٍ ؟!

والجوابُ عن هذه الشُّبْهةِ - كما وضَّحه رحِمه اللَّهُ - من وجوهٍ :

الوجهُ الأولُ : أنَّ هذا لا تُوجِبُه لغةُ العربِ التى نزَل بها القرآنُ الكريمُ ؛ فإنَّ

وليس معنى قولِه : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ . أنه مُخْتَلِطٌ بالخلقِ ؛ فإنَّ هذا لا تُوجِبُه اللغةُ ، وهو خلافُ ما أجْمَعَ عليه سلفُ الأمةِ ، وخلافُ ما فَطَرَ اللَّهُ عليه الخلقَ ، بل القمرُ آيةٌ من آياتِ اللَّهِ ، من أصغرِ مخلوقاتِه ، وهو موضوعٌ في السماءِ ، وهو مع المسافِرِ وغيرِ المسافرِ ، أينَما كان .

وهو سبحانَه فوقَ عرشِه ، رقيبٌ على خلقِه ، مُهَيْمِنٌ عليهم ، مُطَّلِعٌ عليهم ، إلى غيرِ ذلك مِن معانى ربوبيتِه .

كلمةَ (مع) فى اللغةِ لمطْلَق المصاحبةِ ، لا تفيدُ اختلاطًا ، ولا امتزاجًا ، ولا مُجاورةً ، ولا مُماسَّةً .

فإنك تقولُ : زَوْجتى معى . وأنت فى مكانٍ ، وهى فى مكانٍ آخرَ ، وتقولُ : مازِلْنا نَسيرُ ، والقمرُ معَنا . وهو فى السماءِ ، ويكونُ مع المسافرِ وغيرِ المسافرِ أينَما كان .

وإذا صَحَّ أن يقالَ هذا فى حقِّ القمرِ ، وهو مخلوقٌ صغيرٌ ، فكيفَ لا يقالُ فى حقِّ الخالقِ ، الذى هو أعظمُ مِن كلِّ شىءٍ ؟!

الوجهُ الثانى : أن هذا القولَ خلافُ ما أجْمَعَ عليه سلفُ الأمةِ مِن الصحابةِ ، والتابعِين ، وتابعيهم ، وهم القرونُ المُفَضَّلةُ ، الذين هم القُدْوةُ ، فقد أجْمَعوا على أنَّ اللَّهَ مُسْتوٍ على عرشِه ، عالٍ على خلقِه ، بائنٌ منهم[1] .

---

(١) وقد أورد الذهبى رحمه اللَّه آثارًا كثيرة عن الصحابة والتابعين وتابعيهم فى كتابه « العلو » ، تُبيِّنُ أنهم كانوا يؤمنون بأنه سبحانه مُسْتوٍ على عرشه ، عالٍ على خلقه ، بائن منهم ، ومن هذه الآثار :

١ - عن ناس من أصحاب النبى ﷺ فى قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ قال : (إن اللَّه تعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من =

....

———————

....

———————

= الماء دُخانًا فارتفع ، ثم [أيبس] الماء فجعله أرضًا ، ثم فتقها فجعلها سبع أرَضين ، إلى أن قال : فلما فرغ اللّه عز وجل من خلق ما أحب ، استوى على العرش) . أخرجه ابن جرير الطبرى فى « تفسيره » ، والبيهقى فى « الصفات » ٤٣ .

قال الألبانى رحمه اللّه فى مختصر العلو ص ١٠٥: إسناده جيد ، وهو عند البيهقى (ص٣٧٩ - ٣٨٠) ، وأخرجه ابن خزيمة أيضًا ص ٢٤٣.

٢- حديث عائشة رضى اللّه عنها قالت : وايم اللّه إنى لأخشى لو كنت أحب قتله لقتلت - يعنى عثمان رضى اللّه عنه - ولكن علم اللّه فوق عرشه أنى لم أحب قتله / ٤١.

قال الألبانى فى مختصر العلو ص ١٠٤: أخرجه الدارمى فى « الرد على الجهمية » ص ٢٧ وإسناده صحيح .

٣- حديث عائشة أن ابن عباس دخل عليها وهى تموت فقال لها : كنت أحب نساء رسول اللّه ﷺ ولم يكن يحب إلا طيبًا ، وأنزل اللّه براءتك من فوق سبع سماوات .

أخرجه عثمان الدارمى فى « الرد على بشر بن غياث المريسى » .

قال الألبانى فى مختصر العلو ص١٣٠ (ص١٠٥ طبع أنصار السنة فى مصر) : وأخرجه فى « الرد على الجهمية » أيضًا (ص ٢٧-٢٨ - طبع المكتب الإسلامى) ، وسنده صحيح على شرط مسلم . اهـ

٤- حديث قتادة قال : قالت بنو إسرائيل : يارب أنت فى السماء ، ونحن فى الأرض ، فكيف لنا أن نعرف رضاك من غضبك ؟ قال : إذا رضيت عنكم استعملت عليكم خياركم ، وإذا غضبت استعملت عليكم شراركم .

هذا ثابت عن قتادة أحد الحفاظ الكبار /٩٣ .

قال الألبانى رحمه الله فى مختصر العلو ص ١٣١: أخرجه الدارمى فى الكتابين المشار إليهما آنفا ص ١٠٦، ٢٨، وسنده حسن.

٥- روى أبو عبد اللّه الحاكم عن الأوزاعى قال : كنا - والتابعون متوافرون - نقول : =

....

وأجمَعوا على أنه مع خلقِه بعلمِه سبحانَه وتعالى ، كما فسَّروا قولَه تعالى : (وهو معكم) بذلك .

الوجهُ الثالثُ : أن هذا خلافُ ما فَطَر اللَّهُ عليه الخلقَ ؛ أى : رَكَزه فى فِطَرِهم ؛ فإن الخلقَ فُطِروا على الإقرارِ بعلوِّ اللَّهِ سبحانَه على خلقِه ؛ فإن الخلقَ يَتَّجِهون إلى اللَّهِ عندَ الشدائدِ والنوازلِ نحوَ العلوِّ ، لا يَلْتَفِتُونَ يَمْنَةً ، ولا يَسْرةً ، من غيرِ أن يُرْشِدَهم إلى ذلك أحدٌ ، وإنما بمُوجَبِ الفِطْرةِ التى فطَر اللَّهُ الناسَ عليها .

الوجهُ الرابعُ : أن هذا خلافُ ما أخْبَر اللَّهُ به فى كتابِه[1] ، وتَواتَر عن

= إن اللَّه عز وجل فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته .

أخرجه البيهقى فى كتاب الأسماء والصفات ص ٤٠٨ :

قال ابن تيمية فى العقيدة الحموية ١/٤٣١ مجموعة الرسائل الكبرى : إسناده صحيح . وتبعه عليه ابن القيم فى الجيوش الإسلامية ص ٤٣ .

٦- عن مسروق أنه كان إذا حدث عن عائشة قال : (حدثتنى الصديقة بنت الصديق ، حبيبة حبيب اللَّه ، المبرأة من فوق سبع سماوات) . إسناده صحيح .

وكذا صححه ابن القيم فى « الجيوش الإسلامية » ص ١٠٢ ، ولم يعزه أيضًا لمصدر ، وفيه رجل لم يسم ، ولكنه وصف بالثقة . واللَّه أعلم .

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه اللَّه فى شرح العقيدة الواسطية ١/ ٣٨٨، ٣٨٩:**

أولًا : فالكتاب تنوعت دلالته على علو اللَّه ؛ فتارةً بذكر العلو ، وتارةً بذكر الفوقية ، وتارةً بذكر نزول الأشياء من عنده ، وتارةً بذكر صعودها إليه ، وتارةً بكونه فى السماء ...

١- فالعلو مثل قوله : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] .

٢- والفوقية : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٨] ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٠] .

=

....

رسولِه(١) ، من أنه سبحانَه وتعالى عَلى عرشِه ، عليٌّ على خلقِه ، وهو معَهم أينَما كانوا .

= ٣- ونزول الأشياء منه ؛ مثل قوله : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ [السجدة : ٥] ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ [الحجر : ٩] ... وما أشبه ذلك .

٤- وصعود الأشياء إليه ؛ مثل قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] ، ومثل قوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج : ٤] .

٥- كونه في السماء؛ مثل قوله : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴾ [الملك : ١٦]. اهـ

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله في شرح الواسطية ١/٣٨٩ - ٣٩١ : ثانيًا** : وأما السنة فقد تواترت عن النبي ﷺ من قوله وفعله وإقراره :

١- فأما قول الرسول عليه الصلاة والسلام : فجاء بذكر العلو والفوقية ، ومنه قوله ﷺ : « سبحان ربي الأعلى » ، وقوله لما ذكر السماوات ؛ قال : « والله فوق العرش » .

وجاء بذكر أن الله في السماء ؛ مثل قوله ﷺ : « ألا تأمنوني وأنا أمين مَن في السماء » .

٢- وأما الفعل ؛ فمثل رفع أصبعه إلى السماء ، وهو يخطب الناس في أكبر جمع ، وذلك في يوم عرفة ، عام حجة الوداع ؛ فإن الصحابة لم يجتمعوا اجتماعًا أكبر من ذلك الجمع ؛ إذ إن الذي حج معه بلغ نحو مائة ألف ، والذين مات عنهم نحو مائة وأربعة وعشرين ألفًا . يعني : عامة المسلمين حضروا ذلك الجمع ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ألاَ هل بلّغت ؟ » . قالوا : نعم . « ألاَ هل بلغت ؟ » . قالوا : نعم . « ألاَ هل بلغت ؟ » . قالوا : نعم . وكان يقول : « اللهم ! اشهد » ؛ يشير إلى السماء بأصبعه ، وينكتها إلى الناس .

ومن ذلك رفع يديه إلى السماء في الدعاء . وهذا إثبات للعلو بالفعل .

٣- وأما التقرير ؛ فإنه في حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه ؛ أنه أتى بجارية يريد أن يعتقها ، فقال النبي ﷺ : « أين الله ؟ » . قالت : في السماء . فقال : « من أنا ؟ » . قالت : رسول الله . قال : « أعتقها ؛ فإنها مؤمنة » . فهذه جارية لم تتعلم ، والغالب على الجواري =

....

* * *

والمتواترُ من النصوصِ هو ما رواه جماعةٌ تُحيلُ العادةُ تَواطُؤَهم على الكذبِ ، عن مثلِهم ، من الابتداءِ إلى الانتهاءِ ، والآياتُ والأحاديثُ فى هذا كثيرةٌ ، منها الآيةُ التى ذَكَرَها المصنِّفُ رحِمه اللَّهُ .

وقولُ المصنِّفِ رحِمه اللَّهُ : (**وهو سبحانَه فوقَ عرشِه ، رقيبٌ على خلقِه ، مُهَيْمِنٌ عليهم مُطَّلِعٌ عليهم**) . تقريرٌ وتأكيدٌ لما سبَق مِن ذكرِ عُلُوِّه على عرشِه ، وكونِه مع خلقِه ، بذكرِ اسمين من أسمائِه سبحانَه ، وهما (الرقيبُ والمُهَيْمِنُ) .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] . والرقيبُ هو المراقِبُ لأحوالِ عبادِه ، وفى ذلك دَلالةٌ على قربِه منهم .

وقال تعالى : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر : ٢٣] . والمُهَيْمِنُ هو الشاهدُ على خلقِه ، المُطَّلِعُ على أعمالِهم ، الرقيبُ عليهم .

(**إلى غير ذلك من معانى ربوبيتِه**) ؛ أى : أنَّ مُقْتَضَى ربوبيتِه سبحانَه أن يكونَ فوقَ خلقِه بذاتِه ، ويَطَّلِعَ على أعمالِهم ، ويكونَ قريبًا منهم بعلمِه وإحاطتِه ، يُصَرِّفُ شئونَهم ، ويُحْصِى أعمالَهم ، ويُجازِيهم عليها .

* * *

= الجهل ، لا سيما وهى أمة غير حرة ، لا تملك نفسها ، تعلم أن ربها فى السماء ، وضلال بنى آدم ينكرون أن اللَّه فى السماء ، ويقولون : إما أنه لا فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ! أو أنه فى كل مكان . اهـ

ما يَجِبُ اعتقادُه في علوِّه ومعيتِه سبحانَه ، ومعنى كونِه سبحانَه (في السماءِ) وأدلةُ ذلك

وكلُّ هذا الكلامِ الذى ذكَرَه اللَّهُ من أنه فوقَ العرشِ ، وأنه معَنا ، حقٌّ على حقيقتِه ، لا يَحتاجُ إلى تحريفٍ ، ولكن يُصانُ عن الظُّنونِ الكاذبةِ ، مثلَ : أن يُظَنَّ أن ظاهرَ قولِه : ﴿ فِى السَّمَاءِ ﴾ أنَّ السماءَ تُقِلُّه ، أو تُظِلُّه .

وهذا باطلٌ بإجماعِ أهلِ العلمِ والإيمانِ ؛ فإنَّ اللَّهَ قد ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وهو الذى ﴿ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ [فاطر : ٤١] ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٢٥] .

الشرحُ :

يُبَيِّنُ الشيخُ رحِمه اللَّهُ ما يَجِبُ اعتقادُه بالنسبةِ لما أخْبَرَ اللَّهُ عن نفسِه ، مِن كونِه فوقَ العرشِ ، وهو معنى : أنه يَجِبُ الإيمانُ به ، كما أخْبَرَ اللَّهُ ، ولا يَجُوزُ تأويلُه ، وصَرْفُه عن ظاهرِه ، كما يَفْعَلُه المُعَطِّلةُ ، من الجهميةِ والمعتزلةِ وأشباهِهم .

فيَزْعُمون أن ذلك ليس حقيقةً ، وإنما هو مجازٌ ، فيُؤَوِّلون الاستواءَ على العرشِ بالاستيلاءِ على المُلْكِ ، وعلوَّ اللَّهِ على خلقِه بعلوِّ قَدْرِه وقَهْرِه ، ونحوَ ذلك من التأويلاتِ الباطلةِ التى هى تحريفٌ لكلامِ اللَّهِ عن مواضعِه .

ومنهم مَن يقولُ : إن معنى كونِه معنا : أنه حالٌّ فى كلِّ مكانٍ ، كما تقولُه حُلوليةُ الجهميةِ وغيرِهم ، تعالى اللَّهُ عما يقولون عُلُوًّا كبيرًا .

وقولُه : (ولكن يُصانُ عن الظنونِ الكاذبةِ ، مثلَ أن يُظَنَّ أن ظاهرَ قولِه : (فى

....

السماء) أن السماءَ تُقِلُّه ، أو تُظِلُّه . تُقِلُّه ؛ أى : تَحْمِلُه ، وتُظِلُّه ؛ أى : تَسْتُرُهُ ، والظُّلَّةُ : الشيءُ الذى يُظِلُّكَ مِن فوقِكَ .

وليس هذان المعنيانِ مرادَيْنِ فى كونِه سبحانَه فى السماءِ ، ومَن ظنَّ ذلك فقد أخْطَأَ غايةَ الخطأ ، وذلك لأمرَيْنِ .

الأمرُ الأولُ : أن هذا خلافُ ما أجْمَع عليه أهلُ العلمِ والإيمانِ ، فقد أجْمَعوا على أنه سبحانَه فوقَ عرشِه ، بائنٌ من خلقِه ، ليس فى ذاتِه شىءٌ من مخلوقاتِه ، ولا فى مخلوقاتِه شىءٌ من ذاتِه .

وقد تقَدَّم الكلامُ فى تفسيرِ قولِه تعالى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ ﴾ وأنه إنْ أُريدَ بالسماءِ السماءُ المَبْنِيَّةُ فـ « فى » بمعنى « على » ؛ أى : على السماءِ ، كقولِه : ﴿ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ ؛ أى : على جذوعِ النخلِ .

وإن أُريد بالسماءِ العُلُوُّ كان المعنى (فى السماء) ؛ أى : فى العُلُوِّ . واللَّهُ أعلمُ[1] .

الأمرُ الثانى : أن هذا الظَّنَّ مُخالِفٌ ، ومُصادِمٌ لأدلةِ القرآنِ الدالةِ على عَظَمةِ اللَّهِ ، وغِناه عن خلقِه ، وحاجةِ خلقِه إليه ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ .

والكرسىُّ مخلوقٌ عظيمٌ ، بينَ يَدَيِ العرشِ ، وهو أعظمُ من السماواتِ والأرضِ ، والعرشُ أعظمُ منه[2] .

(١) تقدم ص١٧٨ ، ٢٢٤ .

(٢) أورد الذهبى رحمه اللَّه فى كتابه « العلو » ، من حديث أبى ذر ، أن النبى ﷺ قال : « يا أبا ذر ، ما السماوات عند الكرسى إلا كحَلْقة مُلْقاه بأرض فَلاَة ، وفضل العرش على الكرسى كفضل الفَلاَة على الحَلْقة » . وقال رحمه اللَّه : إبراهيم ليس بشىء ، وقد وُثِّق . =

....

* * *

فإذا كانت السماواتُ والأرضُ أصغرَ من الكرسيِّ ، والكرسيُّ أصغرُ من العرشِ ، واللَّهُ أعظمُ مِن كلِّ شيءٍ ، فكيف تَحْوِيه السماءُ ، أو تُقِلُّه ، أو تُظِلُّه ؟!

وكذلك قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ ، ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ فهذه الآياتُ تَدُلُّ على أن السماواتِ والأرضَ بحاجةٍ إليه ، فهو الذى يُمْسِكُها أن تَزولَ ، أو تَقَعَ ، ويكونُ قيامُها بأمرِه وحدَه .

فلا يُعْقَلُ مع هذا أن يكونَ سبحانَه بحاجةٍ إليها لتُقِلَّه ، أو تُظِلَّه ، تعالى اللَّهُ عن هذا الظنِّ الباطلِ علوًّا كبيرًا .

= وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى « مختصر العلو » ص ١٣٠ : لكنه لم يتفرد به ، ولذلك خرجته فى الصحيحة . اهـ

وجوبُ الإيمانِ بقربِه من خلقِه ، وأن ذلك لا يُنافي علوَّه وفوقيتَه

قال رحِمه اللَّهُ :

فصـــلٌ

وقد دخَل فى ذلك الإيمانُ بأنه قريبٌ مُجيبٌ ، كما جمَع بينَ ذلك فى قولِه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وقولِه ﷺ : « إن الذى تَدْعُونه أقربُ إلى أحدِكم مِن عُنُقِ راحلتِه »(١) .

وما ذُكِر فى الكتابِ والسنةِ مِن قربِه ومعيتِه لا يُنافِى ما ذُكِر من علوِّه وفوقيتِه ؛ فإنه سبحانَه ليس كمثلِه شىءٌ فى جميعِ نُعُوتِه ، وهو عَلِيٌّ فى دُنُوِّه ، قريبٌ فى عُلُوِّه .

الشرحُ :

لما قرَّر المصنِّفُ وجوبَ الإيمانِ بعلوِّ اللَّهِ سبحانَه على خلقِه ، واستوائِه على عرشِه نبَّه فى هذا الفصلِ إلى أنه يَجِبُ مع ذلك الإيمانُ بأنه قريبٌ من خلقِه .

وقولُه : (**وقد دخَل فى ذلك**) ؛ أى : فى الإيمانِ باللَّهِ .

(**الإيمانُ بأنه قريبٌ**) ؛ أى : من خلقِه . (**مجيبٌ**) لدعائِهم .

(**كما جمعَ بيـنَ ذلك**) ؛ أى : بينَ القربِ والإجابةِ فى قولِه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ ورَد فى سببِ نزولِ هذهِ الآيةِ : أن رجلًا جاء إلى النبىِّ ﷺ ، فقال : يا رسولَ اللَّهِ ، أقَريبٌ ربُّنا فنُناجِيَه ؟ أم بعيدٌ فنُنادِيَه ؟ فسكَت النبىُّ ﷺ ، فنَزَلَت

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٢٦ .

....

هذه الآيةُ : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] من الداعى ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

وهذا يَدُلُّ على الإرشادِ إلى المناجاةِ فى الدعاءِ ، بدونِ رفعِ صوتٍ ، كما فى قولِه ﷺ : « إن الذى تَدْعُونه أقربُ إلى أحدِكم من عُنُقِ راحلتِه » سبَق شرحُه[(١)] .

وفى هذه الآيةِ وهذا الحديثُ دَلالةٌ على قربِ اللَّهِ تعالى من الداعى بإجابتِه ، وهذا القربُ لا يُناقِضُ علوَّه ، ولهذا قال المصنِّفُ : (وما ذُكِر فى الكتابِ والسنةِ من قربِه ومعيتِه لا يُنافى ما ذُكِر من علوِّه وفوقيتِه) ؛ لأنَّ الكلَّ حقٌّ ، والحقُّ لا يَتَناقَضُ .

ولأنَّ اللَّهَ تعالى : (ليس كمثله شىءٌ فى جميعِ نعوتِه) ؛ أى : صفاتِه ، فلا يقالُ : إذا كان فوقَ خلقِه ، فكيف يكونُ معهم ؟! لأن هذا السؤالَ ناشئٌ عن تصوُّرٍ خاطئٍ ، هو قياسُه سبحانَه بخلقِه ، وهذا قياسٌ باطلٌ ؛ لأنَّ اللَّهَ سبحانَه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

فالقربُ والعلوُّ يَجْتَمعان فى حقِّه لعظمتِه وكِبْريائِه وإحاطتِه ، وأن السماواتِ السبعَ فى يدِه كخَرْدَلةٍ[(٢)] فى يدِ العبدِ ، فكيف يَسْتَحيلُ فى حقِّ مَن هذا بعضُ عظمتِه أن يَكونَ فوقَ عرشِه ، ويَقْرَبَ من خلقِه ، كيف يشاءُ ، وهو على العرشِ ؟!

(**وهو عليٌّ فى دُنُوِّه ، قريبٌ فى علوِّه**) سبحانَه وتعالى ، كما دلَّت على ذلك نصوصُ الكتابِ والسنةِ ، وأجْمَع عليه علماءُ الملةِ ، وهو من خصائصِه سبحانه .

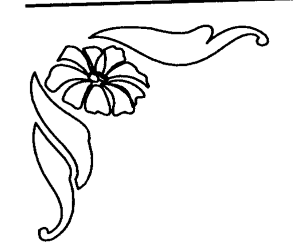
(**وعليٌّ فى دُنُوِّه**) ؛ أى : فى حالِ قربِه من خلقِه .

(**قريبٌ فى علوِّه**) ؛ أى : قريبٌ من خلقِه فى حالِ علوِّه على عرشِه .

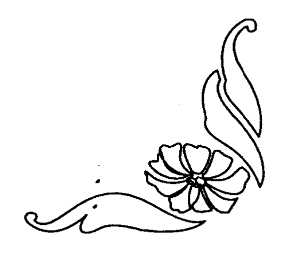
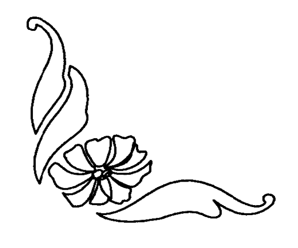
---

(١) تقدم ص٢٢٩، ٢٣٠ .

(٢) روى ابن جرير ، رحمه اللَّه فى تفسيره ١٧/٢٤ عن ابن عباس رضى اللَّه عنه قال : ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهما فى يد اللَّه إلا كخردلة فى يد أحدكم .

وجوبُ الإيمانِ بأنَّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ حقيقةً

وجوب الإيمانِ بأنَّ القرآن كلامُ اللهِ حقيقةً

قال رحِمه اللَّهُ :

فصــلٌ

ومِن الإيمانِ باللَّهِ وكتبِه الإيمانُ بأنَّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ ، مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ ، منه بدَأ ، وإليه يعودُ ، وأنَّ اللَّهَ تكَلَّم به حقيقةً .

وأن هذا القرآنَ الذى أنْزَله على محمدٍ ﷺ هو كلامُ اللَّهِ حقيقةً ، لا كلامُ غيرِه ، ولا يَجوزُ إطلاقُ القولِ بأنه حكايةٌ عن كلامِ اللَّهِ ، أو عبارةٌ .

بل إذا قرَأَه الناسُ ، أو كتَبوه فى المصاحفِ لم يَخْرُجْ بذلك عن أن يكونَ كلامَ اللَّهِ تعالى حقيقةً ؛ فإنَّ الكلامَ إنما يُضافُ حقيقةً إلى مَن قاله مُبْتَدِئًا ، لا إلى مَن قاله مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا .

وهو كلامُ اللَّهِ ، حروفُه ومَعانيه ، ليس كلامُ اللَّهِ الحروفَ دونَ المعانى ، ولا المعانىَ دون الحروفِ .

الشرحُ :

من أصولِ الإيمانِ :الإيمانُ باللَّهِ والإيمانُ بكتبِه ، كما سَبَق ، ويَدْخُلُ فى هذين الأصلين الإيمانُ بأنَّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ .

فالإيمانُ باللَّهِ عزَّ وجلَّ يَتضَمَّنُ الإيمانَ بصفاتِه ، وكلامُه من صفاتِه ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى موصوفٌ بأنه يَتَكَلَّمُ بما شاء ، إذا شاء ، لم يَزَلْ ، ولا يَزَالُ يَتَكلَّمُ .

وكلامُه لا يَنْفَدُ ، ونوعُ الكلامِ فى حقِّه أَزَلِيٌّ أَبدىٌّ ، ومُفْرَداتُه لا تَزالُ تَقَعُ شيئًا فشيئًا ، حَسَبَ حكمتِه تعالى .

....

ومِن كلامِه القرآنُ العظيمُ الذى هو أعظمُ كتبِه ، فهو داخلٌ فى الإيمانِ بكتبِه دخولًا أوليًا ، وهو مُنَزَّلٌ منه سبحانَه ، فهو تكَلَّم به ، وأنْزَلَه على رسولِه ﷺ .

فهو (مُنَزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ) ؛ لأنه صفةٌ من صفاتِه ، أضافه إلى نفسِه إضافةَ الصفةِ إلى موصوفِها ، وصفاتُه غيرُ مخلوقةٍ ، فكلامُه غيرُ مخلوقٍ .

وقد خالَف فى هذا طوائفُ ، ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ هنا مَقالةَ بعضِهم ، فذكَر :

١- مقالةَ الجَهْميةِ ، حيث يقولون : إنَّ اللَّهَ لا يَتَكَلَّمُ ، وإنما خلَق كلامًا فى غيرِه ، وجعَلَه يُعَبِّرُ عنه ، فإضافةُ الكلامِ عندَهم إلى اللَّهِ مجازٌ ، لا حقيقةٌ ؛ لأنه خلَقَ الكلامَ ، فهو متكلِّمٌ ، بمعنى : خالقُ الكلامَ فى غيرِه .

وهذا القولُ باطلٌ مُخالفٌ للأدلةِ السمعيةِ والعقليةِ ، ومخالفٌ لقولِ السلفِ وأئمةِ المسلمين ؛ فإنه لا يُعْقَلُ أن يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا إلا مَن قام به الكلامُ حقيقةً .

فكيف يقالُ : قال اللَّهُ . والقائلُ غيرُه ؟! وكيف يُقالُ : كلامُ اللَّهِ ؟! وهو كلامُ غيرِه ؟!

وقولُ المصنِّفِ : (منه بدَأَ وإليه يعودُ ، وأنَّ اللَّهَ تكَلَّم به حقيقةً ، وأنَّ هذا القرآنَ الذى أنْزَلَه على محمدٍ ﷺ هو كلامُ اللَّهِ حقيقةً ، لا كلامُ غيرِه) قَصْدُه بهذا الردُّ على الجهميةِ الذين يقولون : إنَّ القرآنَ بدَأَ مِن غيرِه ، وإنَّ اللَّهَ لم يَتَكَلَّمْ به حقيقةً ، بل مجازًا ، وهو كلامُ غيرِه ، أُضِيف إليه ؛ لأنه خالقُه .

ومعنى قولِه : (منه بدَأَ) أن القرآنَ بدَأَ ، وخرَج من اللَّهِ تعالى ، وتكَلَّم به و« مِن » لابتداءِ الغايةِ .

وقولُه : (وإليه يعودُ) ؛ أى : أن القرآنَ يَرْجِعُ إلى اللَّهِ تعالى ؛ لأنه يُرْفَعُ فى آخرِ الزمانِ ، فلا يَبْقَى منه شىءٌ فى الصُّدورِ ، ولا فى المصاحفِ ، وذلك من علاماتِ

....

الساعةِ[1] .

أو معنى ذلك : أنه يُنْسَبُ إليه .

٢- ثم ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ هنا مقالةَ الكُلَّابيةِ[2] (أتباع عبدِ اللَّهِ بنِ سعيدِ بن كُلاَّبِ)[3] في القرآنِ ، أنه حكايةٌ عن كلامِ اللَّهِ ؛ لأنَّ كلامَ اللَّهِ عندَهم هو المعنى القائمُ في نفسِه ، لازمٌ لذاتِه ، كلُزومِ الحياةِ والعلمِ ، لا يَتَعلَّقُ بمشيئتِه وإرادتِه .

---

(١) يدل على ذلك الأدلة الآتية :

١- ما رواه ابن ماجه رحمه اللَّه (٤٠٤٩) عن حذيفة بن اليمان رضى اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يَدْرُس الإسلام كما يَدْرُس وَشْئُ الثوب ، حتى لا يدرى ما صيام ، ولا صلاة ، ولا نُسُك ، ولا صدقة ، ولَيُسْرَى على كتاب اللَّه عز وجل فى ليلة ، فلا يبقى فى الأرض منه آية » . قال ابن حجر رحمه فى الفتح ١٣/ ١٦ : سنده قوى . وقال الألبانى ، رحمه اللَّه فى صحيح الجامع (٨٠٧٧) : صحيح .

٢- وما رواه الطبرانى ، عن عبد اللَّه بن مسعود قال : « ولَيُنْزَعَنَّ القرآنُ من بين أظهركم ، يُسْرَى عليه ليلًا ، فيذهب من أجواف الرجال ، فلا يبقى فى الأرض منه شىءٌ » .

قال ابن حجر ، رحمه اللَّه فى الفتح ١٣/ ١٦: سنده صحيح ، ولكنه موقوف .

(٢) هم أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب وهم يزعمون أن صفاته تعالى لا هى هو ولا غيره ويقولون بأن الصفات لا تتغاير وأن العلم لا هو القدرة ولا غيرها وكذلك سائر الصفات كما يقولون أن أسماء اللَّه هى صفاته ولم يفرقوا بين صفات الذات وصفات الأفعال . انظر : تفاصيل مذهبهم فى مقالات الإسلاميين ١/ ٣٥٠، ٣٥٣، ٢/ ٢٢٥، ٢٢٧، نهاية الإقدام ص ١٨١، أصول الدين ص ٩٠.

(٣) هو رأس المتكلمين بالبصرة فى زمانه ، أبو محمد ، عبد اللَّه بن سعيد بن كُلاَّب ، القَطَّان ، البصرى ، صاحب التصانيف فى الرد على المعتزلة ، وربما وافقهم ، وإليه تنسب الكُلاَّبية ، وتوفى حوالى سنة ١٤٠هـ . وانظر ترجمته فى السير ١١/ ١٧٤، ولسان الميزان ٣/ ٢٩٠، ٢٩١.

....

وهذا المعنى القائمُ فى نفسِه غيرُ مخلوقٍ ، وهذه الألفاظُ المكوَّنةُ مِن حروفٍ وأصواتٍ مخلوقةٌ ، وهى حكايةٌ لكلامِ اللَّهِ ، وليست هى كلامَه .

٣ـ وذكَر مقالةَ الأشاعرةِ (أتباعِ أبى الحسنِ الأشعرىِّ)[1] أنَّ القرآنَ عبارةٌ عن كلامِ اللَّهِ ؛ لأنَّ كلامَ اللَّهِ عندَهم معنىً قائمٌ ، وهذا المعنى غيرُ مخلوقٍ .

أما هذه الألفاظُ المقروءةُ فهى عبارةٌ عن ذلك المعنى القائمِ بالنفسِ ، وهى مخلوقةٌ ، ولا يقالُ : إنها حكايةٌ عنه .

وبعضُ العلماءِ يقولُ : إن الخلافَ بينَ الكُلَّابيةِ والأشاعرةِ خلافٌ لفظىٌّ ، لا طائلَ تحتَه ، فالأشاعرةُ والكُلَّابيةُ يقولون : القرآنُ نوعان : ألفاظٌ ومعانٍ ، فالألفاظُ مخلوقةٌ ، وهى هذه الألفاظُ الموجودةُ .

والمعانى قديمةٌ قائمةٌ بالنفسِ ، وهى معنًى واحدٌ ، لا تَبَعُّضَ فيه ، ولا تَعَدُّدَ .

وعلى كلِّ حالٍ فالقولان إن لم يكونا مُتَّفِقَيْنِ فهما مُتقاربان .

وقد أشارَ الشيخُ رحِمه اللَّهُ إلى بطلانِ هذين القولين بقولِه : (**ولا يَجوزُ إطلاقُ القولِ بأنه حكايةٌ عن كلامِ اللَّهِ**) ؛ أى : كما تقولُ الكُلَّابيةُ (**أو عبارةٌ عنه**) كما تقولُ الأشاعرةُ .

---

(١) هو على بن إسماعيل بن إسحاق ، أبو الحسن ، من نسل أبى موسى الأشعرى ، ولد سنة ٢٦٠ وإليه ينسب مذهب الأشاعرة . كان معتزليًا ، ثم أشعريًا ، ثم رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة فى باب الأسماء والصفات كما هو واضح فى مؤلفاته ، منها : « الإبانة عن أصول الديانة » و « مقالات الإسلاميين » ، و « إمامة الصديق » ، توفى سنة ٣٢٤ ببغداد . تبيين كذب المفترى لابن عساكر ، ص ١٢٨ - ١٤٦؛ البداية والنهاية ١١/ ٢١٠، الأعلام ٤/ ٢٦٣، طبقات الشافعية ٣/ ٣٤٧، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٨٥ .

....

* * *

(**بل إذا قَرَأه الناسُ أو كتَبوه فى المصاحفِ لم يَخْرُجْ بذلك عن أن يكونَ كلامَ اللَّهِ حقيقةً**) ،أى : أنَّ القرآنَ العظيمَ كلامُ اللَّهِ ؛ ألفاظُه ومعانيه ، أين وُجِدَ ، سواءٌ حُفِظ فى الصدورِ ، أو تُلِى بالألسنةِ ، أو كُتِب فى المصاحفِ ، لا يَخْرُجُ بذلك عن أن يكونَ كلامَ اللَّهِ تعالى حقيقةً .

ثم ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ دليلَ ذلك فقال : (**فإنَّ الكلامَ إنما يُضافُ حقيقةً إلى مَن قاله مُبتَدِئًا ، لا إلى مَن قاله مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا**)فإنَّ المبلِّغَ المُؤَدِّىَ إنما يُسَمَّى واسطةً فقط .

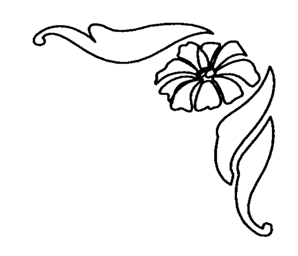
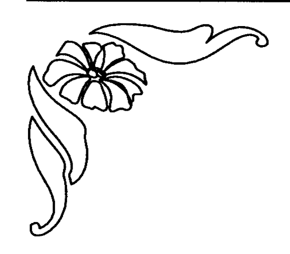
قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] ، والسَّماعُ المذكورُ فى هذه الآيةِ إنما يكونُ بواسطةِ المبلِّغِ .

وسُمِّى المسموعُ كلامَ اللَّهِ ، فدلَّ على أن الكلامَ إنما يضافُ إلى مَن قاله مُبتَدِئًا .

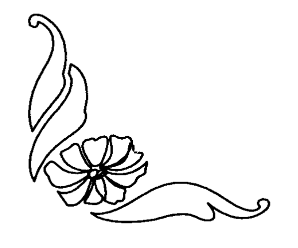
٤ـ ثم ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ مقالةَ المعتزلةِ ، حيث يقولون : إن كلامَ اللَّهِ الحروفُ دونَ المعانى ، فيقولون : إن مُسَمَّى القولِ والكلامِ عندَ الإطلاقِ اسمٌ للفظِ فقط ، والمعنى ليس جزءَ مُسَمَّاه ، بل مدلولُ مُسَمَّاه .

ثم ذكَر رحِمه اللَّهُ المذهبَ المُقابِلَ لذلك فقال : (**ولا المعانىَ دون الحروفِ**) كما هو مذهبُ الكُلَّابيةِ والأشاعرةِ ، وكما سبَق شرحُه .

والمذهبُ الحقُّ أن القرآنَ كلامُ اللَّهِ ، حروفُه ومعانيه ، كما هو قولُ أهلِ السنةِ والجماعةِ ، وهو الذى قامَت عليه الأدلةُ من الكتابِ والسنةِ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ .

وجوبُ الإيمانِ برؤيةِ المؤمنين ربَّهم يومَ القيامةِ، ومواضعُ الرؤيةِ

وجوبُ الإيمانِ برؤيةِ المؤمنيـن ربَّهم يومَ القيامةِ ، ومواضعُ الرؤيـةِ

قال رحِمه اللَّهُ :

فَصْـــلٌ

وقد دخَل أيضًا فيما ذَكَرْناه مِن الإيمانِ به ، وبكتبِه ، وبملائكتِه ، وبرسلِه : الإيمانُ بأن المؤمنين يَرَوْنَه يومَ القيامةِ عِيانًا بأبصارِهم ، كما يَرَوْنَ الشمسَ صَحْوًا ، ليس دونَها سَحابٌ .

وكما يَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ ، لا يَضامُّون فى رؤيتِه ، يَرَوْنَه سبحانَه ، وهم فى عَرَصاتِ القيامةِ ، ثم يَرَوْنَه بعدَ دخولِ الجنةِ ، كما يشاءُ اللَّهُ .

الشرحُ :

وجهُ دخولِ الإيمانِ بالرؤيةِ فى الإيمانِ باللَّهِ وبكتبِه وبرسلِه أنَّ اللَّهَ سبحانَه أَخْبَر بها فى كتابِه ، وأَخْبَر بها رسولُه ﷺ[1] ، فمَن لم يُؤْمِنْ بها كان مُكَذِّبًا للهِ ولكتبِه ولرسلِه ؛ فإنَّ الذى يُؤْمِنُ باللَّهِ وكتبِه ورسلِه يُؤْمِنُ بكلِّ ما أَخْبَروا به .

وقولُه : (عِيانًا) – بكسرِ العينِ –؛ أى : رُؤْيةً مُحَقَّقةً ، لا خَفاءَ فيها ، فليست مجازًا ، كما تقولُه المُعَطِّلةُ .

(كما يَرَوْنَ الشمسَ صَحْوًا ، ليس دونَها سَحابٌ ، وكما يَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ ، لا يَضَامُّونَ فى رؤيتِه) ؛ أى : رؤيةً حقيقيةً ، لا مَشَقَّةَ فيها ، كما دلَّت على

---

(١) تقدم ص ١٩٨ – ٢٠٤، ٢٣١ – ٢٣٣ .

....

* * *

ذلك الآياتُ والأحاديثُ التى سبَق شرحُها .

وقولُه : (**يَرَوْنَه سبحانَه ، وهم فى عَرَصاتِ القيامةِ ، ثم يَرَوْنَه بعدَ دخولِ الجنةِ**) هذا بيانٌ للمَواضعِ التى تَحْصُلُ فيها الرؤيةُ ، وذلك فى موضعين :

الموضعُ الأولُ : فى عَرَصاتِ القيامةِ ، والعَرَصاتُ جمعُ عَرْصةٍ ، وهى المَوضِعُ الواسعُ ، الذى لا بِناءَ فيه ، وعَرَصاتُ القيامةِ : مواقفُ الحسابِ .

وهل يَخْتَصُّ المؤمنون برؤيتِه فى هذا الموضعِ ؟

فى المسألةِ ثلاثةُ أقوالٍ :

قيل : يَراه فى عَرَصاتِ القيامةِ المؤمنون والمنافقون والكفارُ .

وقيل : يَراه المؤمنون والمنافقون فقط ، دونَ الكفارِ .

وقيل : يراه المؤمنون فقط . واللَّهُ أعلمُ .

الموضعُ الثانى : يراه المؤمنون بعدَ دخولِهم الجنةَ ، كما ثبَت ذلك فى الأدلةِ من الكتابِ والسنةِ ، وسبَقَ ذكرُ بعضِ تلك الأدلةِ مشروحةً ، وسبَق ذكرُ شُبَهِ مَن نفَى الرؤيةَ ، مع الردِّ عليها[1] .

والجنةُ فى اللغةِ البُسْتانُ ، والمرادُ بها هنا الدارُ التى أعَدَّها اللَّهُ لأوليائِه ، وهى دارُ النعيمِ المُطْلَقِ الكاملِ .

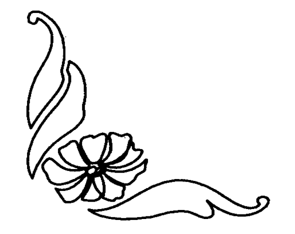
وقولُ الشيخِ : (**كما يشاءُ اللَّهُ**) ؛ أى : من غيرِ إحاطةٍ ، ولا تكييفٍ لرؤيتِه .

---

(١) تقدم ص ١٩٨ - ٢٠٤، ٢٣١ - ٢٣٣ .




مـــا يَـــدْخُـــلُ فـــى الإيـمـانِ بـالـيومِ الآخِـرِ




ما يَدْخُلُ فى الإيمانِ باليومِ الآخِرِ

١- ما يكونُ فى القبرِ :

قال رحِمه اللَّهُ

فصلٌ

(ومن الإيمانِ باليومِ الآخِرِ الإيمانُ بكلِّ ما أخْبَر به النبيُّ ﷺ مما يكونُ بعدَ الموتِ ، فيُؤْمنون بفتنةِ القبرِ ، وبعذابِ القبرِ ونعيمِه .

فأمَّا الفتنةُ فإنَّ الناسَ يُفْتَنون فى قبورِهم ، فيقالُ للرجلِ : مَن ربُّك ، وما دِينُك ؟ ومَن نبيُّك ؟

فيُثَبِّتُ اللَّهُ الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ فى الحياةِ الدنيا ، وفى الآخرةِ ، فيقولُ المؤمنُ : رَبِّىَ اللَّهُ ، والإسلامُ دينى ، ومحمدٌ ﷺ نَبِيِّىَ .

وأمَّا المُرْتابُ فيقولُ : هاه هاه لا أدرى ، سمِعْتُ الناسَ يقولون شيئًا ، فقلتُه . فيُضْرَبُ بمِرْزَبَّةٍ من حديدٍ ، فيصيحُ صَيْحةً ، يَسْمَعُها كلُّ شىءٍ إلا الإنسانَ ، ولوسمِعَها الإنسانُ لصَعِقَ .

ثم بعدَ هذه الفتنةِ إما نعيمٌ ، وإما عذابٌ .

الشرحُ :

اليومُ الآخِرُ هو يومُ القيامةِ ، والإيمانُ به أحدُ أركانِ الإيمانِ[1] ، وقد دلَّ عليه

---

(١) كما تقدم ذلك فى حديث أبى هريرة ص٥٩ ، عندما سأل جبريلُ النبىَّ ﷺ عن الإيمان ، فقال النبى ﷺ : « الإيمان أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخِرِ » .

....

العقلُ والفِطْرةُ[١] ، وصرَّحَت به جميعُ الكتب السمَّاويةِ[٢] ، ونادَى به جميعُ

(١) **قال الدكتور عمر بن سليمان الأشقر فى كتابه « القيامة الكبرى » ص ٧٣:**
الإيمان بالمعاد دلَّ عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والقرآن كله من فاتحته إلى خاتمته مملوء بذكر أحوال اليوم الآخر ، وتفاصيل ما فيه ، وتقرير ذلك بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد ، وكما ذكر القرآن الأدلة عليه ، رد على منكريه ، وبيَّن كذبهم وافتراءَهم .
والفطرة السليمة تدلُّ عليه وتهدى إليه ، ولا صحة لما يزعمه الضالون من أن العقول تنفى وقوع البعث والنشور ، فإنَّ العقول لا تمنع وقوعه ، والأنبياء لا يأتون بما تحيل العقول وقوعه ، وإن جاءوا بما يحيِّر العقول ، ولذلك قال علماؤنا : الشرائع تأتى بمحارات العقول ، لا بمحالات العقول . اهـ . ثم شرع رحمه اللّه فى ذكر الأدلة المثبتة للبعث والنشور .
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه فى مجموع الفتاوى ٣/ ٢٩٩: فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق بنى آدم ، والقدرة عليه أبلغ ، وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك . اهـ

(٢) **قال ابن القيم رحمه اللّه فى كتاب الروح ص ٧٥:** ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى . اهـ
وقال الدكتور عمر بن سليمان الأشقر حفظه اللّه فى كتابه « القيامة الكبرى » ص ٩٢- ٩٤:
لا شك أن الكتب السماوية التى أنزلها الحق تبارك وتعالى كانت تزخر نصوصها بذكر اليوم الآخر ، والتخويف منه ، والتبشير بما أعده اللّه للمؤمنين به فى جنات النعيم ، والتحذير من النار وأهوال القيامة ، إلا أن هذه الكتب طرأ عليها تحريف كثير ، وذهب كثير من نصوصها التى تتعرض لليوم الآخر .
١- ففى التوراة التى تنسب إلى موسى لا نجد إلا نصا واحدا يصرح بيوم القيامة ، وهو فى التوراة السامرية صريح للغاية ، ولكنه فى التوراة العبرية يحتمل معنيين ، ففى سفر تثنية الاشتراع ، الإصحاح الثانى والثلاثون ؛ (٣٤، ٣٥) من التوراة السامرية : « أليس هو مجموعها عندى مختوما فى خزائنى ، إلى يوم الانتقام والمكافأة ، وقت تزل أقدامهم » . =

....

....

= وجاء النص فى التوراة العبرانية هكذا : « أليس ذلك مكنوزا عندى مختوما عليه فى خزائنى ، لى النقمة والجزاء فى وقت تزل أقدامهم » .

فنص السامرية يدل على أن الفصل إنما يكون فى يوم القيامة الذى سماه يوم الانتقام والمكافأة . أما نص العبرانية فإنه يجيز أن يكون الانتقام فى الدنيا ، ويجيز أن يكون فى الآخرة ، ولذلك فإن الصادوقيين من اليهود الذين لا يؤمنون إلا بتوراة موسى العبرية لا يؤمنون بالبعث والنشور ، لعدم وجود دلالة تدل على البعث والنشور .

أما أسفار الأنبياء الأخرى فى التوراة ففيها بعض النصوص التى تصرح بالبعث والنشور ، وكذلك الأناجيل .

٢- ففى سفر دانيال : « كثيرون من الراقدين تحت التراب يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، والازدراء الأبدى » .

٣- وفى سفر المزامير يذكر الحشر إلى النار فيقول : « مثل الغنم إلى النار يساقون ، الموت يرعاهم ، ويسودهم المستقيمون غداة ، وصورتهم تبلى ، والهاوية مسكن لهم » .

٤- وفى إنجيل لوقا إشارة إلى عذاب القبر ، فقد جاء فيه : « ومات الغنى ودفن ، فرفع عينيه فى الهاوية وهو فى العذاب » . فالمقبور من أهل الفجور يكون فى العذاب ويرى مقعده من النار ، والهاوية هى النار .

٥- وفى إنجيل متى « فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى فى النار الأبدية ولك يدان أو رجلان » .

ومن أكثر الكتب التى تحدثت عن الجنة والنار إنجيل برنابا ، فقد تحدث عن أهل الجنة ، وأنهم يأكلون ويشربون ، ولكنهم لا يتبولون ولا يتغوطون ، لأن طعامهم وشرابهم ليس فيه خبث ولا فساد ، ولكن النصارى يكذبون بهذا الإنجيل الذى ظهر أخيرا فى عصرنا هذا .

وبعض اليهود يؤمنون بالبعث والنشور هؤلاء يسمون بحزب الكتبة ، والحزب الآخر وهم « الصادوقيون » لا يؤمنون بالبعث والخلود فى الجنة والنار . وقد ذكر إنجيل « مَتَّى » أن =

....

الأنبياءِ والمُرْسَلين[1]، وسُمِّى باليومِ الآخِرِ لتأخُّرِه عن الدنيا .

= الطائفة المكذِّبة بالقيامة جاءوا إلى عيسى وجادلوه فى القيامة : « فى ذلك اليوم جاء إليه صادوقيون ، الذين يقولون لا قيامة » وأجاب عيسى عن سؤال أحد تلامذته القائل : « أيذهب جسدنا الذى لنا إلى الجنة ؟ » فقال له عيسى عليه السلام : « احذر يا بطرس من أن تصير صدوقيا ، فإن الصدوقيين يقولون : إن الجسد لا يقوم أيضا ، وأنه لا توجد ملائكة ، لذلك حرم على جسدهم وروحهم الدخول فى الجنة » .

والنصارى يعتقدون أن الذى ينعم أو يعذب فى القيامة هو الروح فحسب ، وقال بقولهم بعض الذين ينتسبون إلى الإسلام من الفلاسفة والفرق الباطنية الضالة . اهـ

(١) **قال الدكتور عمر بن سليمان الأشقر ص ٨٧، ٨٨:**

الإيمان بالقيامة والجنة والنار من أصول الإيمان التى يشترك الأنبياء جميعًا وأتباعُهم الصادقون فى معرفتها والإيمان بها ، والقرآن وهو كتاب الله المحفوظ الذى لم يغيَّر ولم يبدَّل يدل دلالة قاطعة على أن الأنبياء جميعًا عرَّفوا أممهم بالقيامة ، وبشروهم بالجنة ، وأنذروهم النار ، ويدلُّ على ذلك أمور :

١ – أخبر القرآن عن جميع الأشقياء الكفار أهل النار أنهم يقرون بأن رسلهم أنذرتهم باليوم الآخر : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ . وقال : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾.

فالكفار جميعا عندما يسألون عند ورودهم النار يقرون بأن رسلهم خوفتهم لقاء ذلك اليوم ، ولكنهم كفروا وكذبوا ، وهذا الذى قررته الآيات السابقة بينه الله فى غير موضع من كتابه ، فقد أخبر الحق تبارك وتعالى أن مقتضى عدله وحكمته أن لا يعذب أحدا لم تبلغه الرسالة ولم تقم عليه الحجة ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا =

....

وقد ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ هنا ضابطًا شاملًا لمعنى الإيمانِ باليومِ الآخرِ بأنه الإيمانُ بكلِّ ما أخْبَر به النبيُّ ﷺ مما يكونُ بعدَ الموتِ .

فيَدْخُلُ فيه الإيمانُ بكلِّ ما دلَّت عليه النصوصُ من حالةِ الاحتضارِ ، وحالةِ الميتِ في القبرِ ، والبعثِ من القبورِ ، وما يَحْصُلُ بعدَه .

ثم أشار الشيخُ رحِمه اللَّهُ إلى أشياءَ من ذلك ؛ منها ما يكونُ في القبرِ ، فقال : (**فيُؤْمِنون بفتنةِ القبرِ وبعذابِ القبرِ ونعيمِه**) فذكَر أمْرَين .

الأمرُ الأولُ : فتنةُ القبرِ ، والفتنةُ لغةً : الامتحانُ والاختبارُ ، والمرادُ بها هنا سؤالُ الملَكَيْنِ للميتِ ، لهذا قال : (فأما الفتنةُ فإنَّ الناسَ يُفْتَنون في قبورِهم ، فيقالُ للرجلِ ؛ أي : الميتِ ، سواءٌ كان رجلًا ، أو امرأةً ، ولعلَّ ذِكْرَ الرجلِ مِن بابِ التغليبِ .

ثم ذكَر الأسئلةَ التي تُوَجَّهُ إلى الميتِ ، وما يُجِيبُ به المؤمنُ ، وما يُجِيبُ به غيرُ المؤمنِ ، وما يكونُ بعدَ هذه الإجابةِ مِن نعيمٍ ، أو عذابٍ .

والإيمانُ بسؤالِ الملكَيْن واجبٌ لثبوتِه عن النبيِّ ﷺ في أحاديثَ ، يَبْلُغُ مجموعُها حدَّ التواترِ[1] .

= ﴿يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ . من أجل ذلك عمت الرسالة كل البشر ، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ . إلى آخر الأدلة التي ذكرها حفظه اللَّه .

(١) **قال ابن أبي العز ، رحمه اللَّه في شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٩**: وقد تواترت الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلًا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك الإيمان به . اهـ .

ومن هذه الأخبار :

١-ما رواه البخاري (١٨٤) ، ومسلم ٢/٦٢٤ (٩٠٥) ، عن أسماء رضي اللَّه عنها =

....

ويدُلُّ على ذلك القرآنُ الكريمُ فى قولِه تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

فقد أخرج الشيخان ، مِن حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ رضى اللَّهُ عنهما ، عن النبىِّ ﷺ قال فى قولِه تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ : « نَزَلَت فى عذابِ القبرِ » . زاد مسلمٌ : « يقالُ له : مَن ربُّك ؟ فيقولُ : ربِّيَ اللَّهُ ، ونَبِيِّى محمدٌ . فذلك قولُه : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ »[1] .

والقولُ الثابتُ هو كلمةُ التوحيدِ التى ثَبَتَتْ فى قلبِ المؤمنِ بالحُجَّةِ والبُرْهانِ .

وتثبيتُ المؤمنين بها فى الدنيا أنهم يَتَمَسَّكون بها ، ولو نالهم فى سبيلِها ما

= قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنه قد أوحى إلىَّ أنكم تفتنون فى قبوركم مثلَ أو قريبًا من فتنة الدجال » .

٢- وما رواه البخارى (١٣٣٨) ، ومسلم ٤/ ٢٢٠٠ (٢٨٧٠) ، عن أنس رضى اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن العبد إذا وُضِع فى قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم ، قال : يأتيه ملكان فيُقْعِدانِه ، فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ قال : فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد اللَّه ورسوله . قال : فيقال له : انظر إلى مَقْعَدك من النار أبدلك اللَّه به مقعدًا من الجنة . قال نبى اللَّه ﷺ : فيراهما جميعًا » .

٣- وما رواه الترمذى ، رحمه اللَّه (١٠٧١) ، عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه ، قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا قُبِر الميت - أو قال : أحدُكم - أتاه مَلَكانِ أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المُنْكَر ، والآخرَ النَّكِير ...» الحديث . قال الشيخ الألبانى ، رحمه اللَّه فى صحيح الجامع (٧٢٤) : حسن .

إلى غير ذلك من الأحاديث التى تدل على فتنة القبر .

(١) البخارى (٤٦٩٩) ، ومسلم ٤/ ٢٢٠١ (٢٨٧١) .

....

نالهم من الأذى والتعذيبِ ، وتثبيتُهم بها فى الآخرةِ توفيقُهم للجوابِ عندَ سؤالِ الـمَلَكَيْنِ .

وقولُه : (وأمَّا الـمُرْتابُ) : أى : الشاكُّ (فيقولُ) إذا سُئِل (هاهْ هاهْ) كلمةُ تَرَدُّدٍ وتوَجُّع (لا أدْرِى ، سمِعْتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه) لأنه غيرُ مؤمنٍ بما جاء به الرسولُ ﷺ ، فيَسْتَعْجِمُ عليه الجوابُ ، ولو كان من أعلمِ الناسِ وأفْصَحِهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

(فيُضْرَبُ بمِرْزَبَةٍ من حديدٍ)[1] وهى المِطْرَقةُ الكبيرةُ (فيَصِيحُ صَيْحةً يَسْمَعُها

(١) ورد ذلك فى حديث البراء بن عازب الطويل ، الذى أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦ (١٨٤٤٣، ١٨٥٢١) ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، قال رضى اللَّه عنه : خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس رسول اللَّه ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير وفى يده عود ينكت به فى الأرض ، فرفع رأسه ، فقال : « استعيذوا باللَّه من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثًا – وقال : « وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له : يا هذا من ربك ؟ وما دينك ؟ وما نبيك ؟ قال : ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى اللَّه . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ قال : فيقول : هو رسول اللَّه ﷺ . فيقولان : وما يدريك فيقول : قرأت كتاب اللَّه فآمنت به وصدقت » « فذلك قول اللَّه عز وجل ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

قال : « فينادى منادٍ من السماء : أن قد صدق عبدى ، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة ، وألبسوه من الجنة » قال : « فيأتيه من رَوْحها وطِيبها » قال : « ويفتح له فيها مد بصره ، قال : وإن الكافر » فذكر موته ، قال : « وتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه ، هاه ، هاه ، لا أدرى . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه ، هاه ، هاه ، لا أدرى . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه ، هاه ، هاه ، لا أدرى . فينادى منادٍ فى السماء : أن كذب ، فأفرشوه من النار ، وألبسوه من =

....

كلُّ شيءٍ إلا الإنسانَ)(١).

ثم بيَّن الحكمةَ مِن عدمِ سماعِ الإنسانِ لها بقولِه : (ولو سمِعَها الإنسانُ لصَعِق) ؛ أى : خرَّ ميتًا ، أو غُشِى عليه .

= النار ، وافتحوا له بابًا إلى النار » قال : « فيأتيه من حرها وسمومها » قال : « ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه » قال : « ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبلًا لصار ترابًا » قال : « فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين ، فيصير ترابًا » قال : « ثم تعاد فيه الروح » وهذا لفظ أبى داود .

وعند أحمد : « ثم يقيض له أعمى أصم أبكم ، فى يده مِرْزَبَّة ، لو ضُرِب بها جبل صار ترابًا ، يعيده الله كما كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين – قال البراء بن عازب – : ثم يفتح له باب من النار ، ويمهد من فرش النار » .

والحديث أخرجه أيضًا الحاكم فى مستدركه ١/ ٣٧، وقال : صحيح على شرط الشيخين . وأقره الذهبى ، ووافقهما الألبانى فى أحكام الجنائز (١٥٩) ، وقال الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ٤/ ٣٦٩: هذا الحديث حديث حسن .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فى شرح العقيدة الواسطية ٢/ ١١٩:

تنبيه :

قول المؤلف رحمه الله : « فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان ؛ لصعق » ؛ إنما ورد قوله « يسمعها كل شيء إلا الإنسان ...» إلخ . فى قول الجنازة إذا احتملها الرجل على أعناقهم ؛ كما قال النبى ﷺ : « فإن كانت صالحة ؛ قالت : قدمونى ! وإن كانت غير صالحة ؛ قالت : يا ويلها ! أين يذهبون بها ؟! يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعه ؛ لصعق » . أما الصيحة فى القبر ؛ فقال النبى ﷺ : « فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » . أخرجه البخارى بهذا اللفظ ، والمراد بالثقلين : الإنس والجن . اهـ وانظر كذلك فى حديث البراء الذى تقدم تخريجه .

....

ومن حكمةِ اللَّهِ أيضًا أنَّ ما يَجْرِى على الميتِ فى قبرِه لا يُحِسُّ به الأحياءُ ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى جعَلَه من الغيبِ ، ولو أظْهَره لفَاتت الحكمةُ المطلوبةُ ، وهى الإيمانُ بالغيب(١) .

الأمرُ الثانى : مما يَجْرِى على الميتِ فى قبرِه ، ما أشار إليه الشيخُ بقولِه : (**ثم بعدَ هذه الفتنةِ ؛ إما نعيمٌ وإما عذابٌ إلى أن تقومَ القيامةُ الكبرى**) . هذا فيه إثباتُ عذابِ القبرِ أو نعيمِه .

---

(١) وقد ذكر الشيخ ابن عثيمين ، رحمه اللَّه حِكمًا أخرى لكون الثَّقَلَيْن يُحْجَب عنهما عذاب القبر ، فقال فى شرح العقيدة الواسطية ٢/ ١١٨، ١١٩:

قوله : « **إلا الإنسان** » ؛ يعنى : أنه لا يسمع هذا الصياح ، وذلك لحكم عظيمة ؛ منها :

أولًا : ما أشار إليه النبى ﷺ بقوله : « لولا أن لا تدافنوا ؛ لدعوت اللَّه أن يسمعكم من عذاب القبر » .

ثانيًا : أن فى إخفاء ذلك سترًا للميت .

ثالثًا : أن فيه عدم إزعاج لأهله ؛ لأن أهله إذا سمعوا ميتهم يعذب ويصيح ؛ لم يستقر لهم قرار .

رابعا : عدم تخجيل أهله ؛ لأن الناس يقولون : هذا ولدكم ! هذا أبوكم ! هذا أخوكم ! وما أشبه ذلك .

خامسًا : أننا قد نهلك ؛ لأنها صيحة ليست هينة ، بل صيحة توجب أن تسقط القلوب من معاليقها ، فيموت الإنسان أو يغشى عليه .

سادسًا : لو سمع الناس صراخ هؤلاء المعذبين ؛ لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة ، لا من باب الإيمان بالغيب ، وحينئذ تفوت مصلحة الامتحان ؛ لأن الناس سوف يؤمنون بما شاهدوه قطعًا ؛ لكن إذا كان غائبًا عنهم ، ولم يعلموا به إلا عن طريق الخبر ، صار من باب الإيمان بالغيب . وانظر كتاب الروح لابن القيم ص ٩٤ .

....

ومذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ أن الميتَ إذا مات يكونُ فى نعيمٍ ، أو عذابٍ ، وأن ذلك يَحْصُلُ لرُوحِه وبدنِه(١) ، كما تَواتَرَت به الأحاديثُ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ(٢) .

---

(١) قال ابن القيم ، رحمه اللَّه فى كتاب الروح ص ٧٤، ٧٥:

فصل : فى أن مذهب السلف أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب مع الروح والبدن : فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد ، وقاموا من قبورهم لرب العالمين . اهـ

(٢) نص على ذلك ابن القيم ، رحمه اللَّه فى كتاب الروح ص ٧٥، وابن أبى العز فى شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٩، وابن رجب فى كتابه أهوال القبور ص ٧٣ .

ومن هذه الأحاديث الواردة عن النبى ﷺ فى شأن عذاب القبر ونعيمه :

١- ما رواه البخارى (١٣٧٨) ، من حديث ابن عباس رضى اللَّه عنهما ، أن النبى ﷺ مر بقبرين ، فقال : « إنهما ليُعَذَّبان ، وما يُعَذَّبان فى كبير ... » الحديث .

٢- وما رواه البخارى (١٣٧٥) ، ومسلم ٤/ ٢٢٠٠ (٢٨٦٩) عن أبى أيوب رضى اللَّه عنه قال : خرج رسول اللَّه ﷺ بعدما غربت الشمس ، فسمع صوتًا ، فقال : « يهودُ تعذب فى قبورها » .

٣- وما رواه مسلم ٤/ ٢١٩٩ (٢٨٦٧) ، عن أبى سعيد الخدرى عن زيد بن ثابت . قال أبو سعيد : ولم أشهده من النبى ﷺ ، ولكن حدثنيه زيد بن ثابت قال : بينما النبى ﷺ فى حائط لبنى النجار ، على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به . فكادت تلقيه وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة (قال : كذا كان يقول الجريرى) فقال : « من يعرف أصحاب هذه الأقبر » ؟ فقال رجل : أنا . قال : « فمتى مات هؤلاء ؟» قال : ماتوا فى الإشراك . فقال : « إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها . فلولا أن لا تدافنوا ، لدعوت اللَّه أن يسمعكم من عذاب القبر الذى =

....

فيجبُ الإيمانُ به ، ولا يُتَكَلَّمُ فى كيفيتِه وصفتِه ؛ لأن ذلك لا تُدْرِكُه العقولُ ؛ لأنه من أمورِ الآخرةِ ، وأمورُ الآخرةِ لا يَعْلَمُها إلا اللَّهُ ، ومَن أطلَعَهم اللَّهُ على شىءٍ منه ، وهم الرسلُ ، صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليهم .

وأنْكَر عذابَ القبرِ المعتزلةُ ، وشُبْهَتُهم فى ذلك أنهم لا يُدْرِكُونه ، ولا يَرَوْنَ الميتَ يُعَذَّبُ ، ولا يُسْأَلُ .

والجوابُ عن ذلك أن عدمَ إدراكِنا ورؤيتِنا للشىءِ لا يَدُلُّ على عدمِ وجودِه ووقوعِه ، فكم من أشياءَ لا نَراها ، وهى موجودةٌ ، ومن ذلك عذابُ القبرِ أو نعيمُه .

وأنَّ اللَّهَ تعالى جعَل أمرَ الآخرةِ ، وما كان مُتَّصِلًا بها غَيْبًا ، وحجَبَها عن إدراكِ العقولِ فى هذه الدارِ ؛ ليَتَمَيَّزَ الذين يؤمنون بالغيبِ مِن غيرِهم ، وأمورُ الآخرةِ لا

= أسمع منه » ثم أقبَل علينا بوجهه ، فقال : « تعوذوا باللَّه من عذاب النار » . قالوا : نعوذ باللَّه من عذاب النار . فقال : « تعوذوا باللَّه من عذاب القبر » قالوا : نعوذ باللَّه من عذاب القبر . قال : « تعوذوا باللَّه من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن » قالوا : نعوذ باللَّه من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن . قال : « تعوذوا باللَّه من فتنة الدجال » قالوا : نعوذ باللَّه من فتنة الدجال .

٤- وما رواه مسلم أيضًا ٤/٢٢٠٠ (٢٨٦٨) :

عن أنس أن النبى ﷺ قال : « لولا أن لا تدافنوا لدعوت اللَّه أن يسمعكم من عذاب القبر » .

وإذا أردت مزيد أدلة من السنة الصحيحة على إثبات عذاب القبر ونعيمه فانظر أهوال القبور لابن رجب ص ٧٣- ٧٥، والروح لابن القيم ص ٧٥ وما بعدها .

واعلم رحمك اللَّه أن هذا كما أنه مقتضى السنة الصحيحة ، فهو متفق عليه بين أهل السنة ، قال المَرْوَزِى : قال أبو عبد اللَّه : عذاب القبر حق لا يُنْكِرُه إلا ضالٌّ مُضِلٌّ . ذكره ابن القيم رحمه اللَّه فى كتاب الروح ص ٨٢.

واعلم أيضًا - رحمك اللَّه - أن عذاب القبر ونعيمه ليس ثابتًا بالسنة فقط ، بل قد دل =

....

تُقاسُ بأمورِ الدنيا . واللَّهُ أعلمُ[1] .

= كتاب اللَّه عز وجل على ذلك فى غير موضع ، وانظر الروح لابن القيم ص ١٠٦ وما بعدها ، وأهوال القبور لابن رجب ص ٦٩ وما بعدها .

(١) وانظر ما أجاب به ابن القيم ، رحمه اللَّه فى كتاب الروح ص ٨٨ - ٩٢ على الملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر ونعيمه وما يتعلق بهما .

هذا وقد أورد ابن القيم ، رحمه اللَّه فى كتابه الروح ص ٩٤ - ٩٩، وابن رجب الحنبلى رحمه اللَّه فى كتابه أهوال القبور ، حكايات عن السلف أنهم قد كُشِف لهم شيء من عذاب القبر أو نعيمه ، ومن ذلك .

قال ابن القيم ، رحمه اللَّه فى كتاب الروح ص ٩٤، ٩٥ : وحدثنى صاحبنا أبو عبد اللَّه محمد بن الوزير الحَرَّانى ، أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قال : فلما كان قبل غروب الشمس ، توسطت القبور ، فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج ، والميت فى وسطه ، فجعلت أمسح عينى وأقول : أنائم أنا أم يقظان ؟ ثم التفت إلى سورة المدينة وقلت : واللَّه ما أن بنائم ، ثم ذهبت إلى أهلى وأنا مدهوش ، فأتونى بطعام فلم أستطع أن آكل ، ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكاس قد توفى ذلك اليوم ، فرؤية هذه النار فى القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحيانًا لمن شاء اللَّه أن يريه ذلك .

وقال أيضًا رحمه اللَّه ص ٩٨، ٩٩: وقال ثابت البنانى : بينما أمشى فى المقابر : وإذا صوت خلفى وهو يقول : يا ثابت لا يغرنك سكوتها فكم من مغموم فيها ، فالتفت فلم أر أحدًا .

ومر الحسن على مقبرة فقال : يا لهم من عسكر ما أسكنهم ، وكم فيهم من مكروب .

وذكر ابن أبى الدنيا أن عمر بن عبد العزيز قال لمسلمة بن عبد الملك : يا مسلمة ، من دفن أباك ؟ قال : مولاى فلان ، قال : فمن دفن الوليد ، قال : مولاى فلان ، قال : فأنا أحدثك ما حدثنى به ، أنه لما دفن أباك والوليد فوضعهما فى قبورهما ، وذهب ليحل العقد عنهما وجد وجوههما قد حولت فى أقفيتهما ، فانظر يا مسلمة إذا أنا مت فالتمس وجهى ، فانظر هل نزل بى ما نزل بالقوم ، أو هل عوفيت مَن ذلك ، قال مسلمة : فلما مات عمر وضعته فى قبره فلمست وجهه فإذا هو مكانه . =

....

....

= وذكر ابن أبى الدنيا عن بعض السلف قال : ماتت ابنة لى فأنزلتها القبر فذهبت أصلح اللبنة ، فإذا هى قد حولت عن القبلة ، فاغتمت لذلك غمًا شديدًا ، فرأيتها فى النوم فقالت : يا أبت اغتممت لما رأيت فإن عامة من حولى محولين عن القبلة ، قال : كأنها تريد الذين ماتوا مصرين على الكبائر .

وقال : عمرو بن ميمون سمعت عمر بن عبد العزيز يقول : كنت فيمن دلى الوليد بن عبد الملك فى قبره ، فنظرت إلى ركبتيه قد جمعتا فى عنقه فقال ابنه : عاش أبى ورب الكعبة ، فقلت : عوجل أبوك ورب الكعبة ، فاتعظ بها عمر بعده .

وقال عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب لما استعمله على العراق : يا يزيد اتق اللّه ، فإنى حين وضعت الوليد فى لحده فإذا هو يركض فى أكفانه .

وقال يزيد بن هارون : أخبرنا هشام بن حسان ، عن واصل مولى ابن عيينة ، عن عمرة بن زهدم ، عن عبد الحميد بن محمود قال : كنت جالسًا عند ابن عباس ، فأتاه قوم فقالوا : إنا خرجنا حجاجا ومعنا صاحب لنا إذ أتينا ذا الصفاح مات ، فهيأناه ثم انطلقنا فحفرنا له ولحدنا له ، فلما فرغنا من لحده ، إذا نحن بأسود قد ملأ اللحد ، فحفرنا له آخر فإذا به قد ملأ لحده فحفرنا له آخر فإذا به ، فقال ابن عباس : ذاك الغل الذى يغل به ، انطلقوا فادفنوه فى بعضها فوالذى نفسى بيده لو حفرتم الأرض كلها لوجدتموه فيه ، فانطلقنا فوضعناه فى بعضها فلما رجعنا أتينا أهله بمتبع له معنا فقلنا لامرأته : ما كان يعمل زوجك ؟ قالت : كان يبيع الطعام فيأخذ منه كل يوم قوت أهله ثم يقرض الفضل مثله فيلقيه فيه . اهـ

وقال ابن رجب الحنبلى رحمه اللّه فى كتاب أهوال القبور ص ٩٥، ١٠٠- ١٠٢:

وقد كشف الله لمن شاء من عباده من عذاب أهل القبور ونعيمهم . وقد وقع بعض ذلك فى زمن النبى ﷺ ووقع بعده كثيرًا .

قال أبو الحسن بن البراء حدثنى عبد اللّه بن محمد المدنى قال : كان لى صديق فقال : « خرجت إلى ضيعتى ، فأدركنى العصر إلى جانب مقبرة ، فصليت العصر قريبًا منها ، =

....

....

= فبينما أنا جالس إذ سمعت من ناحية القبر صوتًا وأنينًا ، فدنوت من القبر ، فإذا هو يقول : آه كنت أصوم ، كنت أصلى . فأصابتنى قشعريرة ، فدعوت من حضرنى ، فسمع كما سمعت ، ومضيت إلى ضيعتى ، ورجعت ، فصليت فى موضعى الأول ، وصبرت حتى غابت الشمس ، وصليت المغرب ، ثم استمعت على ذلك القبر ، فإذا هو يئن : آه كنت أصوم ، كنت أصلى ، فرجعت إلى أهلى فحممت ومرضت شهرين » .

وخرَّج أبو القاسم اللالكائى فى كتابه : « شرح السنة » بإسناده عن يحيى بن معين قال : قال لى حفار مقابر : « أعجب ما رأيت فى هذه المقابر أنى سمعت من قبر أنينًا كأنين المريض » .

وبإسناده عن الحارث المحاسبى قال : « كنت فى الجبانة فى البصرة على قبر ، فأسمع من القبر : أواه من عذاب الله » .

قال الحارث : « وكنت فى مقبرة فى باب مقبرة ، فأسمع صوت القناة ، بعضها على بعض يضرب ، وأنا مشرف على المقبرة من قبر ، وهو يقول : أواه » .

وبإسناده عن صدقة بن خالد الدمشقى ، عن بعض مشايخ أهل دمشق قال : « حججنا ، فهلك صاحب لنا فى بعض الطريق على ماء من تلك المياه ، فأتينا أهل الماء ، نطلب شيئًا نحفر له ، فأخرجوا لنا فأسًا ومجرفة ، فلما وارينا صاحبنا نسينا الفأس فى القبر ، فنبشناه ، فوجدناه قد جمع عنقه ويداه ورجلاه فى حلقة الفأس ، فسوينا عليه التراب ، وأرضينا أصحابه من الثمن ، فلما انصرفنا جئنا إلى امرأته ، فسألناها عنه ؟ فقالت كان على ما رأيتم من حاله يحج ، ويغزو » ، فلما أخبرناها الخبر ، قالت : « صحبه رجل معه مال : فقتل الرجل ، وأخذ المال » - قالت فيه « كان يحج ويغزو ! » .

وخرَّج ابن أبى الدنيا بإسناده ، عن يزيد بن المهلب قال : استعملنى سلمان بن عبد الملك على العراق وخراسان ، فودّعنى عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - فقال : « يا يزيد اتق الله ، فإنى حين وضعت الوليد فى لحده فأهوى يركض فى أكفانه » .

وبإسناده عن عمرو بن ميمون بن مهران قال : سمعت عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - =

....

....

= يقول : كنت فيمن دلى الوليد بن عبد الملك فى قبره ، فنظرت إلى ركبتيه قد جمعت إلى عنقه ، فقال ابنه : عاش واللّه أبى ورب الكعبة . فقلت : عوجل أبوك ورب الكعبة ، قال : فاتعظ بها عمر بعد .

وبإسناده عن الفضل بن يونس ، أن عمر بن عبد العزيز - رضى اللّه عنه - قال لمسلمة بن عبد الملك : حدثنى مولاك عن فلان : أنه لما دفن أباك والوليد ، فوضعهما فى قبرهما ، وذهب ليحل العقد عنهما ، وجد وجوههما قد حولت فى أقفيتهما . .

قال ابن أبى الدنيا : وحدثنا عبد المؤمن بن عبد الله الموصلى : حدثنى رجل من أهل الرملة قال : أصابتنا ريح شديدة كشفت عن القبور قال : فنظرت إلى جماعة منهم قد حولوا عن القبلة .

قال : وحدثنى رجل أنه ماتت له ابنة فأنزلها القبر ، فذهب ليصلح لبنة ، فإذا هى قد حولت عن القبلة ، فاغتممت لذلك غمًّا شديدًا ، قال : فرأيتها فى النوم ، فقالت : « عامة من حولى من أهل القبور محولون عن القبلة » ، قال : « كأنها تريد الذين ماتوا مصرين على الكبائر » .

وروينا من طريق إسحاق الفزارى أنه سأل نباشًا قد تاب ، فقلت : أخبرنى عمن مات على الإسلام أترك وجهه على ما كان أم ماذا ؟ قال : « أكثر ذلك قد حول وجهه عن القبلة » ، قال : فكتبت بذلك إلى الأوزاعى ، فكتب إلىّ : « إنا لله وإنا إليه راجعون - ثلاث مرات - من حُوِّل وجهه عن القبلة فإنه مات على غير السنة » . وخرَّجهما ابن أبى الدنيا مختصرًا .

وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن أبى الحريش ، عن أمه ، قالت : « لما حفر أبو جعفر خندقًا فى الكوفة حول الناس موتاهم ، فرأيت شابا ممن حول عاضًّا على يده » . ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ .

قال : وحدثنا عبد المؤمن بن عبد اللّه القيسى ، قال : قيل لنباش قد كان تاب : ما أعجب ما رأيت ؟ قال : « نبشت رجلًا فرأيته مسمرًا بالمسامير فى سائر جسده ، ومسمار كبير فى رأسه ، وآخر فى رجليه » . =

....

....

= وقيل لنباش آخر : ما أعجب ما رأيت ؟. قال : « رأيت جمجمة إنسان مصبوبًا فيها رصاص » .

وقيل لنباش آخر : ما كان سبب توبتك ؟ قال : « عامة ما كنت أنبش أراه محول الوجه عن القبلة » .

وقال أيضًا رحمه اللّه ص ٣٨ - ٤٢ :

وقد أطلع اللّه من شاء من عباده على كثير مما ورد فى هذه الأحاديث حتى سمعوه وشاهدوه عيانًا . ونحن نذكر بعض ما بلغنا من ذلك :

روى شبابة بن سوار ، حدثنا المغيرة بن مسلم ، عن حصين ، عن عبد اللّه بن عبيد الأنصارى قال : كنت ممن دفن ثابت بن قيس بن شماس - رضى اللّه عنه - وكان أصيب يوم اليمامة ، فلما أدخلناه القبر سمعناه يقول : « محمد رسول اللّه ، أبو بكر الصديق ، عمر الشهيد ، عثمان الرحيم ، فنظرنا فإذا هو ميت » .

خرَّجه أبو عبداللّه بن مخلد ، عن محمد بن عبد اللّه الأصم ، عن شبابة بن سوار بن محمد .

وخرَّجه ابن أبى الدنيا فى كتاب « من عاش بعد الموت » ، عن خلف البزار ، عن خالد الطحان ، عن حصين به ، ولفظه : إن رجلًا من قتلى مسيلمة تكلم فقال : « محمد رسول اللّه ، أبو بكر الصديق ، عثمان اللين الرحيم » .

وخرَّج ابن أبى الدنيا من طريق يزيد بن طريف ، قال : مات أخى ، فلما أُلحِد وانصرف الناس ، وضعت رأسى على قبره ، سمعت صوتًا ضعيفًا - أعرف أنه صوت أخى - وهو يقول : « اللّه . فقال له الآخر : فما دينك ؟ قال : الإسلام » .

ومن طريق العلاء بن عبد الكريم قال : مات رجل ، وكان له أخ ضعيف البصر ، قال أخوه : فدفناه ، فلما انصرف الناس ، وضعت رأسى على القبر ، فإذا أنا بصوت من داخل القبر يقول : « من ربك ؟ ومن نبيك ؟ فسمعت صوت أخى ، وهو يقول : اللّه ربى ، ومحمد ﷺ نبيى ، وقال الآخر : فما دينك ؟ قال : الإسلام » . =

....

....

= وخرَّجه فى كتاب « القبور » بلفظ آخر ، وهو : قال : فإذا أنا بصوت داخل القبر يقول : « مَن ربك ؟ ومَن نبيك ؟ فسمعت أخى ، وعرفته ، وعرفت صوته ، قال : اللَّه ربى ، ومحمد نبيى . ثم ارتفع شبه سهم من داخل القبر ، إلى أُذنى ، فاقشعر جلدى ، وانصرفت .

وقال أبو الحسن بن البراء العبدى فى كتاب « الروضة » : حدثنى الفضل بن سهل الأعرج ، قال أحمد بن نصر : حدثنى رجل رفعه إلى الضحاك قال : توفى أخ لى ، فدفن قبل أن ألحق جنازته ، فأتيت قبره ، فاستمعت عليه ، فإذا هو يقول : ربى اللَّه ، والإسلام دينى .

وروينا من طريق مزداد بن جميل قال : قال أبو المغيرة ما رأيت مثل المعافى بن عمران – وذكر من فضله – قال : وحدثنى بعض إخوانى أن غانمًا جاء المعافى بن عمران بعد ما دفن ، فسمعه وهو يلقن فى قبره ، وهو يقول : « لا إله إلا اللَّه » فيقول المعافى : لا إله إلا اللَّه .

وكذلك شواهد اتساع اللحد وانفراجه :

وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب « المحتضرين » بإسناده عن أبى غالب صاحب أبى أمامة : أن فتى بالشام حضره الموت ، فقال لعمه : « أرأيت لو أن اللَّه دفعنى إلى والدتى ما كانت صانعة بى ؟ » قال : « إذًا واللَّه تدخلك الجنة » . فقال : واللَّه لله أرحم بى من والدتى . فقبض الفتى ، فجزع عليه عبد الملك بن مروان قال : فدخلت القبر مع عمه فخطوا له خطا ، ولم يلحدوه ، قال : فقلنا باللبن فسوينا عليه ، فسقطت منها لبنة ، فوثب عمه ، فتأخر ، قلت : ما شأنك ؟ قال : « ملئ قبره نورًا ، وفسح له مد البصر » .

وبإسناده عن محمد بن أبان عن حميد قال : كان لى ابن أخت فذكر شبهًا بهذه الحكاية إلا أنه قال : فاطلعت فى اللحد ، فإذا هو مد بصرى ، قلت لصاحبى : « رأيت ما رأيت ؟ » قال : « نعم » فليهنك ذلك، قال : « فظننت أنه بالكلمة التى قالها » .

وروى فى كتاب « ذكر الموت » بإسناده عن أبى بكر بن أبى مريم عن الأشياخ قال : كان شيخ من بنى الجرمى بالبصرة ، وكان شيخًا صالحًا ، وكان له ابن أخ يصحب الفتيان الفساق ، فكان يعظه ، فمات الفتى ، فلما أنزله عمه فى قبره ، فسوى عليه اللبن ، شك فى بعض أمره ، فنزع بعض اللبن فنظر فإذا قبره أوسع من جبانة البصرة ، وإذا هو فى وسط منها ، فرد عليه =

....

....

= اللبن وسأل امرأته عن عمله فقالت : « كان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه يقول : وأنا أشهد بما شهدت به ، وأكفيها من تولى عنها » .
وقال أبو الحسن بن البراء : حدثنى عبد الرحمن بن أحمد الجعفى ، حدثنى على بن محمد ، حدثنا يزيد بن نوح النخعى – قرابة لشريك بن عبد اللَّه – قال : صليت فى الكوفة على ميت ، ثم دخلت قبره ، حتى أصلحت عليه اللبن ، فبينا أنا أصلح عليه اللبن ، وقعت لبنة فى القبر ، فإذا أنا بالكعبة والطواف قد مثلا لى فى القبر ، فسوَّيت عليه اللبن ، وصعدت .
قال ابن أبى الدنيا فى كتاب « من عاش بعد الموت » : حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا كثير ابن يحيى بن كثير البصرى ، حدثنا أبى ، حدثنا أبو مسعود الجريرى ، حدثنى شيخ فى مسجد الأشياخ قال : كان يحدثنا عن أبى هريرة – رضى اللَّه عنه – قال : « بينا نحن حول مريض لنا ، إذ هدأ وسكن ، حتى ما يتحرك منه عرق ، فسجيناه وأغمضناه . فأرسلنا إلى ثيابه ، وسدره ، وسريره ، فلما ذهبنا لنحمله لنغسله تحرك ، فقلنا : سبحان اللَّه ، سبحان اللَّه . ما كنا نراك إلا قد مت ! قال : كأنى قد مت وذهب بى إلى قبرى ، فإذا إنسان حسن الوجه ، طيب الريح ، قد وضعنى فى لحدى ، فطواه بالقراطيس ، إذ جاءت إنسانة سوداء منتنة الريح ، فقالت : هذا صاحب كذا وكذا – أشياء واللَّه أستحى منها ، كأنما أقلعت عنها ساعتى تيك – قلت : أنشدتك اللَّه أترد عنى هذه ؟ قالت : انطلق نخاصمك ، فانطلقت إلى دار فيحاء واسعة ، فيها مصطبة ، كأنها فضة ، وفى ناحية منها مسجد ، ورجل قائم يصلى ، فقرأ سورة النحل ، فتردد فى مكان منها ، ففتحت عليه ، فانفتل ، فقال : السورة معك ؟ قلت : نعم ، قال : أما إنها سورة النعم ، ورفع وسادة قريبة منه ، فأخرج منها صحيفة ، فنظر فيها ، فبدرته السوداء ، فقالت : فعل كذا وفعل كذا وفعل كذا ، قال : وجعل الحسن الوجه يقول : وفعل كذا وفعل كذا ، وفعل كذا – يذكر محاسنى – فقال الرجل : عبد ظالم لنفسه ، ولكن اللَّه تجاوز عنه ، لم يجئ أجل هذا بعد ، أجل هذا يوم الاثنين ، قال : فقال : انظروا ، فإن أنا مت يوم الاثنين ، فارجوا لى ما رأيت ، وإن لم أمت يوم الاثنين ، فإنما هو هذيان الوجع ، قال : =

....

وعذاب القبر على نوعين :

النوع الأول : عذابٌ دائمٌ ، وهو عذابُ الكافرِ ، كما قال تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر : ٤٦] .

النوعُ الثانى : يكونُ إلى مدةٍ ، ثم يَنْقَطِعُ ، وهو عذابُ بعضِ العُصاةِ من المؤمنين ، فيُعَذَّبُ بحسَبِ جُرْمِه ، ثم يُخَفَّفُ عنه .

وقد يَنْقَطِعُ عنه العذابُ بسببِ دعاءٍ ، أو صدقةٍ ، أو استغفارٍ [1] .

= فلما كان يوم الاثنين صحَّ بعد العصر ، ثم أتاه أجله ، فمات » .

وفى الحديث : فلما خرجنا من عند الرجل ، قلت للرجل الحسن الوجه : « ما أنت ؟ » قال : أنا عملك الصالح . قلت : فما الإنسانة السوداء المنتنة الريح ؟ قال : « ذلك عملك الخبيث » - أو كلام يشبه هذا .

(١) قال ابن أبى العز رحمه الله فى شرح الطحاوية ص ٤٥٢ : اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعى الأحياء بأمرين ؛ أحدهما : ما تسبب إليه الميت فى حياته . والثانى : دعاء المسلمين واستغفارهم له ، والصدقة والحج ، على نزاع فيما يصل إليه من ثواب الحج : فعن محمد بن الحسن : أنه إنما يصل إلى الميت ثواب النفقة ، والحجّ للحاجّ . وعند عامة العلماء : ثواب الحج للمحجوج عنه ، وهو الصحيح . اهـ

ثم قال رحمه الله ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ : والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه ، الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح ؛ أما الكتاب ، فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر : ١٠] . فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم ، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء . وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له فى صلاة الجنازة ، والأدعية التى وردت بها السنة فى صلاة الجنازة مستفيضة . وكذا الدعاء له بعد الدفن ، ففى « سنن أبى داود » ، من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه =

....

....

* * *

= فقال : « استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل » . وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم ، كما فى « صحيح مسلم » ، من حديث بُريدة بن الحصيب ، قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية » . وفى « صحيح مسلم » أيضًا ، عن عائشة رضى الله عنها : سألت النبى ﷺ : كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور ؟ قال : « قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا [ومنكم] والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » .

وأما وصول ثواب الصدقة ، ففى « الصحيحين » ، عن عائشة رضى الله عنها : أن رجلًا أتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن أمى افتُلتت نفسها ، ولم توص ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ، أفلها أجرٌ إن تصدقت عنها ؟ قال : « نعم » . وفى « صحيح البخارى » ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن أمى توفيت وأنا غائب عنها ، فهل ينفعها إن تصدقت ؟ قال : « نعم » . قال : فإنى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها . وأمثال ذلك كثيرة فى السنة . اهـ

٢- القيامةُ الكُبْرى، وما يَجْرِى فيها

إلى أن تقومَ القيامةُ الكبرى ، فتُعادُ الأرواحُ إلى الأجسادِ ، وتقومُ القيامةُ التى أخْبَرَ اللَّهُ بها فى كتابِه ، وعلى لسانِ رسولِه ، وأجْمَع عليها المسلمون ، فيقومُ الناسُ مِن قبورِهم لربِّ العالمين ، حُفاةً ، عُراةً ، غُرْلاً .

الشرحُ :

أشار الشيخُ رحِمه اللَّهُ فى هذا وما بعدَه إلى ما يكونُ فى الدارِ الآخرةِ ، وهى التى تَبْدَأُ بالقيامةِ الكبرى ؛ فإن الدُّورَ ثلاثٌ : دارُ الدنيا ، ودارُ البَرْزَخِ ، والدارُ الآخرةُ . وكلُّ دارٍ من هذه الدّورِ الثلاثِ لها أحكامٌ تَخُصُّها ، وحوادثُ تَجْرِى فيها ، وقد تكَلَّم الشيخُ على ما يكونُ فى دارِ البَرْزَخِ .

وهنا أخَذ يَتَكَلَّمُ على ما يَكونُ فى الدارِ الآخرةِ ، فيقولُ : (إلى أن تقومَ القيامةُ الكبرى) القيامةُ قيامتان :

قيامةٌ صغرى : وهى الموتُ ، وهذه القيامةُ تقومُ على كلِّ إنسانٍ فى خاصَّتِه ، مِن خروجِ رُوحِه وانْقطاعِ سَعْيِه .

وقيامةٌ كبرى : وهذه تقومُ على الناسِ جميعًا ، وتَأْخُذُهم أخْذةً واحدةً ، وسُمِّيَت قيامةً ؛ لقيامِ الناسِ من قبورِهم لربِّ العالمين .

ولهذا قال : (**فتعادُ الأرواحُ إلى الأجسادِ**) وذلك عندَما يَنْفُخُ إسرافيلُ فى الصُّورِ ، قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ [يس : ٥١- ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] .

والأرواحُ جمعُ رُوحٍ ، وهى ما يَحْيَى به الإنسانُ وغيرُه من ذَواتِ الأرواحِ ،

....

ولا يَعْلَمُ حَقيقتَها إلا اللَّهُ ، قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وقولُه : (وتقومُ القيامةُ التى أخْبَرَ اللَّهُ بها فى كتابِه ، وعلى لسانِ رسولِه ، وأجْمَعَ عليها المسلمون) . إشارةٌ إلى أدلةِ البعثِ ، وأنه ثابتٌ بالكتابِ والسنةِ وإجماعِ المسلمين والعقلِ والفِطَرِ السليمةِ [(١)].

فقد أخْبَرَ اللَّهُ عنه فى كتابِه ، وأقام الدليلَ عليه ، ورَدَّ على المُنْكِرين للبعثِ فى غالبِ سُوَرِ القرآنِ ، ولما كان نبيُّنا محمدٌ ﷺ خاتَمَ النبيِّين بيَّن تفاصيلَ الآخرةِ بَيانًا لا يُوجَدُ فى كثيرٍ من كتبِ الأنبياءِ .

والجزاءُ على الأعمالِ ثابتٌ بالعقلِ ، وواقعٌ فى الشرعِ ؛ فإنَّ اللَّه نبَّهَ العقولَ إلى ذلك فى مواضعَ كثيرةٍ من القرآنِ ، حيث ذكَّرَها أنه لا يَلِيقُ بحكمتِه وحَمْدِه أن يَتْرُكَ الناسَ سُدًى ، أو يَخْلُقَهم عَبَثًا ، لا يُؤْمَرون ، ولا يُنْهَون ، ولا يُثابون ، ولا يُعاقَبون .

وأن يكونَ المُحْسِنُ كالمسيءِ ، أو يَجْعَلَ المسلمين كالمجرمين ؛ فإنَّ بعضَ المُحْسِنين يَموتُ قبلَ أن يُجْزَى على إحسانِه ، وبعضَ المُجْرِمين يموتُ قبلَ أن يُجازَى على إجرامِه ، فلا بدَّ أنَّ هناك دارًا يُجازَى فيها كلٌّ منهما .

ومُنْكِرُ البعثِ كافرٌ ، كما قال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾ [التغابن : ٧] .

وقولُه : (فيقومُ الناسُ من قبورِهم حُفاةً) . جمعُ حافٍ ، وهو الذى ليس على رِجْلِه نَعْلٌ ، ولا خُفٌّ .

---

(١) انظر كتاب القيامة الكبرى للدكتور عمر بن سليمان الأشقر ص ٧٣ - ٨٦، وكتاب الإيمان للدكتور محمد نعيم ياسين ص ٤٣-٥٠ .

....

* * *

(عُراةً) جمعُ عارٍ ، وهو الذى ليس عليه لباسٌ .

(غُرْلًا) جمعُ أَغْرَلَ ، وهو الأَقْلَفُ الذى لم يُخْتَنْ .

وهذه الصفاتُ الثلاثُ يكونون عليها حينَ قيامِهم من قبورِهم ، وهذا ثابتٌ فى الصحيحِ ، عن النبىِّ ﷺ ، ففى الصحيحين ، عن عائشةَ رضِى اللَّهُ عنها ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال : « إنكم تُحْشَرون إلى اللَّهِ يومَ القيامةَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا » الحديثَ[1] .

* * *

(١) البخارى (٦٥٢٧) ، ومسلم ٤/٢١٩٤ (٢٨٥٩) عن عائشة رضى اللَّه عنها ، وكذلك رواه البخارى (٣٣٤٩، ٣٣٤٧، ٤٦٢٥ ، ٤٦٢٦ ، ٤٧٤٠ ، ٦٥٢٤، ٦٥٢٥، ٦٥٢٦) ، ومسلم ٤/٢١٩٤ (٢٨٦٠) عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما .

قال الإمام النووى رحمه اللَّه فى شرح صحيح مسلم ٩/ ٢١٢: الغُرْل ، بضم الغين المعجمة ، وإسكان الراءِ : معناه ، غير مختونين ، جمع أَغْرَل ، وهو الذى لم يختن ، وبقيت معه غُرْلَتُه ، وهى قُلْفَتُه ، وهى الجلدة التى تقطع فى الختان . اهـ

ما يَجْرِى فى يومِ القيامةِ

وتَدْنُو منهم الشمسُ ، ويُلْجِمُهم العرقُ ، فتُنْصَبُ الموازينُ ، فتُوزَنُ بها أعمالُ العبادِ : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٢- ١٠٣] .

وتُنْشَرُ الدَّواوينُ ، وهى صحائفُ الأعمالِ ، فآخِذٌ كتابَه بيمينِه ، وآخِذٌ كتابَه بشمالِه ، أو من وراءِ ظهرِه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١١٣- ١١٤] .

ويُحاسِبُ اللَّهُ الخلائقَ ، ويَخْلُو بعبدِه المؤمنِ ، فيُقَرِّرُه بذنوبِه ، كما وُصِف ذلك فى الكتابِ والسنةِ .

وأما الكفارُ ، فلا يُحاسَبون مُحاسَبةَ مَن تُوزَنُ حَسَناتُه وَسَيِّئاتُه ؛ فإنهم لا حَسَناتِ لهم ، ولكن تُعَدُّ أعمالُهم ، فتُحْصَى فيُوقَفون عليها ، ويُقَرَّرون بها .

الشرحُ :

ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ فى هذا الكلامِ بعضَ ما يَجْرِى فى يومِ القيامةِ مما ذُكِر فى الكتابِ والسنةِ ؛ فإن تفاصيلَ ما يَجْرِى فى هذا اليومِ مما لا يُدْرَكُ بالعقلِ ، وإنما يُدْرَكُ بالنُّقولِ الصحيحةِ عن النبىِّ ﷺ الذى لا يَنْطِقُ عن الهَوَى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ .

....

ومن الحكمةِ فى مُحاسَبةِ الخلائقِ على أعمالِهم ، ووزنِها ، وظهورِها مكتوبةً فى الصُّحُفِ مع إحاطةِ علمِ اللَّهِ بذلك ؛ ليُرِىَ عبادَه كمالَ حمدِه ، وكمالَ عدلِه ، وسَعَةَ رحمتِه ، وعظمةَ مُلْكِه .

وذكَر الشيخُ مما يَجْرِى فى هذا اليومِ العظيمِ على العبادِ :

١ - (أنها تَدْنُو منهم الشمسُ) ؛أى : تَقْرُبُ من رءوسِهم ، كما روَى مسلمٌ ، عن المِقْدادِ رضِى اللَّهُ عنه قال : سمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ : « إذا كان يومُ القيامةِ أُدْنِيَت الشمسُ من العبادِ ، حتى تكونَ قَدْرَ ميلٍ أو ميلَيْنِ »[١] .

وقولُه : (ويُلْجِمُهم العَرَقُ) ؛أى : يَصِلُ إلى أفواهِهم ، فيَصِيرُ بمنزلةِ اللِّجامِ ، يَمْنَعُهم من الكلامِ ، وذلك نتيجةً لدُنُوِّ الشمسِ منهم ، وذلك بالنسبةِ لأكثرِ الخلقِ ، ويُسْتَثْنَى من ذلك الأنبياءُ ، ومَن شاء اللَّهُ [٢].

٢- **ومما ذكَر فى هذا اليومِ قولُه : (وتُنْصَبُ الموازينُ ، وتُوزَنُ بها الأعمالُ)** الموازينُ جمعُ ميزانٍ ، وهو الذى تُوزَنُ به الحسناتُ والسيئاتُ .

وهو ميزانٌ حقيقيٌّ له لسانٌ وكِفَّتانِ ، وهو من أمورِ الآخرةِ ، ونُؤْمِنُ به ، كما جاء ، ولا نَبْحَثُ عن كيفيتِه إلا على ضَوْءِ ما ورَد من النصوصِ [٣].

---

(١) رواه أحمد ٦/٣ (٢٣٧٠٣) ، ومسلم ٤/٢١٩٦ (٢٨٦٤) ، والترمذى (٢٤٢١) .

(٢) نفس التخريج السابق ، وفيه أن النبى ﷺ قال : « فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا » . قال : وأشار رسول اللَّه ﷺ بيده إلى فيه .

(٣) قد ورد فى ذكر الميزان آيات وأحاديث كثيرة ، نذكر طرفًا منها إن شاء اللَّه :

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ . وقوله تعالى : =

....

والحكمةُ فى وزنِ الأعمالِ إظهارُ مقاديرِها ؛ ليكونَ الجزاءُ بحسَبِها .

(**فمن ثقلت موازينه**) ؛ أى : رجَحت حَسَناتُه على سيئاتِه .

(**فأولئك هم المفلحون**) ؛ أى : الفائزون والناجون من النارِ ، المُستَحِقُّون لدخولِ الجنةِ .

(**ومن خفت موازينه**) ؛ أى : ثَقُلَت سيئاتُه على حسناتِه .

= ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ .

وأما من السنة فمن ذلك : ما رواه البخارى (٦٤٠٦، ٦٦٨٢، ٧٥٦٣) ، ومسلم ٤/ ٢٠٧٢ (٢٦٩٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ،ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

ومن ذلك أيضًا ما رواه أحمد ٢/ ٢١٣، والترمذى (٢٦٣٩) ، وابن ماجه (٤٣٠٠) ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله سيخلِّص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا ، كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يا ربِّ . فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يا ربِّ . فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليك اليومَ ، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك ، فيقول ياربِّ ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات فى كفة ، والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله تعالى شىء » .

قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : إسناده صحيح . وقال الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٧٦) : صحيح .

....

(فأولئك الذين خسروا أنفسهم) ؛ أى : خابوا وصاروا إلى النارِ .

(فى جهنم خالدون) ؛ أى : ماكِثون فى النارِ .

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : أن فيها إثباتَ الموازينِ والوزنِ يومَ القيامةِ ، وقد ورَد ذكرُ الوزنِ والموازينِ فى آياتٍ كثيرةٍ من القرآنِ[١] ، وقد أفاد مجموعُ النصوصِ أنه يُوزَنُ العاملُ والعملُ والصُّحُفُ[٢] .

ولا مُنافاةَ بينَها فالجميعُ يُوزَنُ ، ولكنَّ الاعتبارَ فى الثِّقَلِ والخِفَّةِ يكونُ بالعملِ

---

(١) ومن ذلك :

١ – قوله تعالى : ﴿ يومئذ يصدر النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

٢ – وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فى شرح العقيدة الواسطية ٢/ ١٤١ – ١٤٣ : المبحث الثانى : صريح كلام المؤلف أن الذى يوزن العمل ؛ سواء كان خيرًا أم شرًا : وهذا هو ظاهر القرآن ؛ كما قال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٦ – ٨] ؛ فهذا واضح أن الذى يوزن العمل ؛ سواء كان خيرًا أم شرًا .

وقال النبى عليه الصلاة والسلام : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان » ، وهذا ظاهر أيضًا ، بل صريح ، فى أن الذى يوزن العمل ، والنصوص فى هذا كثيرة ، ولكن هناك نصوص قد يخالف ظاهرها هذا الحديث :

منها حديث صاحب البطاقة ؛ رجل يؤتى به على رءوس الخلائق ، وتعرض عليه أعماله فى سجلات ، تبلغ تسعة وتسعين سجلاً ؛ كل سجل منها يبلغ مد البصر ، فيقر بها ، فيقال له : ألك عـذر أو حسنة ؟ فيقول : لا ؛ يارب ! فيقول الله : بلى ؛ إن لك عندنا حسنة . =

....

نفسِه ، لا بذاتِ العاملِ ، ولا بالصحيفةِ . واللّٰهُ أعلمُ .

وقد تأوّل المعتزلةُ النصوصَ فى ذلك على أن المرادَ بالوزنِ والميزانِ العدلُ ، وهذا تأويلٌ فاسدٌ مخالفٌ للنصوصِ ، وإجماعِ سلفِ الأمةِ ، وأئمتِها .

= فيؤتى ببطاقة صغيرة ، فيها : أشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأشهد أن محمدًا رسول اللّٰه . فيقول : يارب ! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟! فيقال : إنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات فى كفة ، والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ... الحديث .

وظاهر هذا أن الذى يوزن صحائف الأعمال .

وهناك نصوص أخرى تدل على أن الذى يوزن العامل ؛ مثل :

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف : ١٠٥] ، مع أنه قد ينازع فى الاستدلال بهذه الآية ؛ فيقال : إن معنى قوله : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ ؛ يعنى : قدرًا .

ومثل ما ثبت من حديث ابن مسعود رضى اللّٰه عنه ؛ أنه كان يجتنى سواكًا من الأراك ، وكان رضى اللّٰه عنه دقيق الساقين ، جعلت الريح تحركه ، فضحك الصحابة رضى اللّٰه عنهم ، فقال النبى ﷺ : « مم تضحكون ؟ » قالوا : من دقة ساقيه . قال : « والذى نفسى بيده ؛ لهما فى الميزان أثقل من أحد » .

فصار ها هنا ثلاثة أشياء : العمل ، والعامل ، والصحائف . فقال بعض العلماء : إن الجمع بينها أن يقال : إن من الناس من يوزن عمله ، ومن الناس من يوزن صحائف عمله ، ومن الناس من يوزن هو بنفسه . وقال بعض العلماء : الجمع بينها أن يقال : إن المراد بوزن العمل أن العمل يوزن وهو فى الصحائف ، ويبقى وزن صاحب العمل ، فيكون لبعض الناس . ولكن عند التأمل نجد أن أكثر النصوص تدل على أن الذى يوزن هو العمل ، ويخص بعض الناس ، فتوزن صحائف أعماله ، أو يوزن هو نفسه . وأما ما ورد فى حديث ابن مسعود وحديث صاحب البطاقة ؛ فقد يكون هذا أمرًا يخص اللّٰه به من يشاء من عباده . اهـ .

....

قال الشوكانيُّ : وغايةُ ما تَشَبَّثوا به مجردُ الاستبعاداتِ العقليةِ ، وليس فى ذلك حُجَّةٌ على أحدٍ ، فهذا إذا لم تَقْبَلْه عقولُهم فقد قبِلَتْه عقولُ قومٍ ، هى أقوى من عقولِهم ، من الصحابةِ والتابعين وتابعيهم ، حتى جاءت البدعُ كالليلِ المظلمِ ، وقال كلٌّ ما شاء ، وترَكُوا الشرعَ خَلْفَ ظهورِهم[1] . اهـ

وأمورُ الآخرةِ ليست مما تُدْرِكُها العقولُ . واللَّهُ أعلمُ .

٣- ومما ذكَرَه الشيخُ من حوادثِ هذا اليومِ العظيمِ قولُه : (**وتُنْشَرُ الدواوينُ ، وهى صحائفُ الأعمالِ**) ؛ أى : الصحائفُ التى كُتِبَتْ فيها أعمالُ العبادِ التى عمِلُوها فى الدنيا ، وكَتَبها عليهم الحَفَظَةُ[2] ؛ لأنها تُطْوَى عندَ الموتِ ، (**وتُنْشَرُ**) ؛ أى : تُفْتَحُ عِندَ الحسابِ ؛ لِيَقِفَ كلُّ إنسانٍ على صحيفتِه ، فيَعْلَمَ ما فيها[3] (**فآخِذٌ كتابَه بيمينِه ، وآخذٌ كتابَه بشمالِه ، أو من وراءِ ظهرِه**) هذا فيه بيانُ كيفيةِ أخذِ الناسِ لصحفِهم ، كما جاء ذلك فى القرآنِ الكريمِ[4] ، وهو على نوعين :

آخذٌ كتابَه بيمينِه ، وهو المؤمنُ .

---

(١) فتح القدير ٢/١٩٠ .

(٢) قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ٩] .

(٣) قال تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء : ١٣- ١٤] .

(٤) قال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ .

و قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ .

....

وآخذٌ كتابَه بشمالِه ، أو من وراءِ ظهرِه ، وهو الكافرُ ، بأن تُلْوَى يدُه اليُسْرَى مِن وراءِ ظهرِه ، ويُعْطَى كتابَه بها ، كما جاءت الآياتُ بهذا وهذا .

ولا مُنافاةَ بينَهما ؛ لأن الكافرَ تُغَلُّ يُمْناه إلى عنقِه ، وتُجْعَلُ يُسْراه وراءَ ظهرِه ، فيَأْخُذُ بها كتابَه .

ثم اسْتَدَلَّ الشيخُ بقولِه تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ ﴾ الآيةَ ، وطائرُه : ما طار عنه مِن عملِه ، من خيرٍ وشرٍّ .

﴿ فِى عُنُقِهِ ﴾ ؛أى : يُلْزَمُ به ، ويُجازَى به ، لا مَحِيدَ له عنه ، فهو لازمٌ له لُزومَ القِلادةِ فى العنقِ .

﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ ؛أى : نَجْمَعُ له عملَه كلَّه فى كتابٍ يُعْطَاه يومَ القيامةِ ؛ إما بيمينِه إن كان سعيدًا ، أو بشمالِه إن كان شَقِيًّا .

﴿ مَنْشُورًا ﴾ ؛ أى : مفتوحًا يَقْرَؤُه هو وغيرُه ، وإنما قال سبحانَه : ﴿ يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ تعجيلًا للبُشْرَى بالحسنةِ ، والتوبيخِ على السيئةِ .

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ ؛ أى : نقولُ له ذلك ، فيَقْرَأُ ذلك الكتابَ مَن كان قارئًا ، ومَن لم يَكُنْ قارئًا .

﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ؛ أى : حاسبًا ، وهو منصوبٌ على التمييزِ ، وهذا أعظمُ العدلِ حيث جعَلَه حَسِيبَ نفسِه ؛ ليَرَى جميعَ عملِه ، لا يُنْكِرُ منه شيئًا .

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ :أن فيها إثباتَ إعطاءِ كلِّ إنسانٍ صحيفةَ عملِه يومَ القيامةِ يَقْرَؤُها بنفسِه، ويَطَّلِعُ عليها هو ، لا بواسطةِ غيرِه .

٤- ثم ذكَرَ الشيخُ رحِمه اللَّهُ الحسابَ ، فقال : (ويُحاسِبُ اللَّهُ الخلائقَ) الحسابُ : هو تعريفُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ للخلائقِ بمَقاديرِ الجزاءِ على أعمالِهم ، وتذكيرُه

....

إياهم ما قد نَسوه من ذلك .

أو بعبارةٍ أخرى : هو توقيفُ اللَّهِ عبادَه قبلَ الانصرافِ من المَحْشَرِ على أعمالِهم ؛ خيرًا كانت أو شرًّا .

ثم ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ أن الحسابَ على نوعين :

النوعُ الأولُ : حسابُ المؤمنِ ، قال فيه : (**ويَخْلُو بعبدِه المؤمنِ ، فيُقَرِّرُهُ بذنوبِه ، كما وُصِف ذلك بالكتابِ والسنةِ**) كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق : ٨- ٩] .

وفى الصحيحين ، عن ابنِ عمرَ رضِى اللَّهُ عنهما ، قال : سمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ : « إن اللَّهَ يُدْنِى المؤمنَ ، فيَضَعُ عليه كَنَفَهُ ، ويَسْتُرُه من الناسِ ، ويُقَرِّرُه بذنوبِه ويقولُ له : أتَعْرِفُ ذنبَ كذا ؟ أتَعْرِفُ ذنبَ كذا ؟ أتَعْرِفُ ذنبَ كذا ؟ حتى إذا قرَّرَه بذنوبِه ، ورأَى فى نفسِه أن قد هلَك ، قال : فإنى قد سَتَرْتُها عليك فى الدنيا ، وأنا أَغْفِرُها لك اليومَ ، ثم يُعْطَى كتابَ حسناتِه »(١) .

ومعنى « **يُقَرِّرُه بذنوبِه** » : يَجْعَلُهُ يُقِرُّ ؛ أى : يَعْتَرِفُ بها ، كما فى هذا الحديثِ : « أتَعْرِفُ ذنبَ كذا ؟ أتَعْرِفُ ذنبَ كذا ؟ » .

ومن المؤمنينَ مَن يَدْخُلُ الجنةَ بغيرِ حسابٍ ، كما صحَّ فى حديثِ السبعين الألفِ الذين يَدْخُلون الجنةَ ، بلا حسابٍ ، ولا عذابٍ(٢) .

والحسابُ يَخْتَلِفُ ، فمنه اليسيرُ ، وهو العَرْضُ ، ومنه المناقشةُ ، وفى

---

(١) البخارى (٢٤٤١، ٤٦٨٥، ٦٠٧٠، ٧٥١٤) ، ومسلم ٤/٢١٢٠ (٢٧٦٨) .

(٢) روى البخارى (٦٥٤١) ، ومسلم ١/١٩٩ (٢٢٠) ، عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما =

....

الصحيحَيْنِ ، عن عائشةَ رضِى اللَّهُ عنها ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال : « ليس أحدٌ يُحاسَبُ يومَ القيامةِ إلا هلَكَ » . فقلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ، أليس قد قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ .

فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إنما ذلكِ العَرْضُ ، وليس أحدٌ يُناقَشُ الحسابَ يومَ القيامةِ إلا عُذِّبَ »[1] .

النوعُ الثانى : حسابُ الكُفَّارِ ، وقد بيَّنه بقولِه : (وأما الكفارُ فلا يُحاسَبون مُحاسَبةَ مَن تُوزَنُ حسناتُه وسيئاتُه ؛ فإنه لا حسناتِ لهم) ؛ أى : ليس لهم حسناتٌ تُوزَنُ مع سيئاتِهم ؛ لأن أعمالَهم قد حَبِطَت بالكفرِ ، فلم يَبْقَ لهم فى الآخرةِ إلا سيئاتٌ .

فحسابُهم معناه : أنهم (تُعَدُّ أعمالُهم ، فتُحْصَى ، فيُوقَفون عليها ، ويُقَرَّرون بها ، ويُجْزَوْنَ بها) ؛ أى : يُخْبَرون بأعمالِهم الكُفْريةِ ، ويَعْتَرِفون بها ، ثم يُجازَوْنَ عليها ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت : ٥٠] .

= قال : قال النبى ﷺ : « عُرِضَت علىَّ الأُمَمُ ، فأخذ النبى يمر معه الأُمة ، والنبى يمر معه النفر ، والنبى يمر معه العشرة ، والنبى يمر معه الخمسة ، والنبى يمر وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قلتُ : يا جبريل ، هؤلاء أمتى ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب ، قلت ، ولم ؟ قال كانوا لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » . فقام إليه عكاشة ابن محصن فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : اللهم اجعله منهم . ثم قام إليه رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : « سبقك بها عكاشة » .

(١) البخارى (٦٥٣٧) ، ومسلم ٤/٢٢٠٤ (٢٨٧٦) .

....

وقال تعالى : ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٣٧] .
وقال : ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[(١)] [الملك : ١١] .

(١) ويدل على ذلك أيضًا ما رواه مسلم ، رحمه اللّه ٤/٢٢٧٩ (٢٩٦٨) ، عن أبى هريرة قال : قالوا : يا رسول اللّه ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تضارون من رؤية الشمس فى الظهيرة ، ليست فى سحابة ؟ » قالوا : لا . قال : « فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ، ليس فى سحابة ؟ » قالوا : لا . قال : « فوالذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . قال فيلقى العبد فيقول : أى فل ! ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس ، وتربع » فيقول : بلى : قال فيقول : أفظننت أنك ملاقى ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثانى فيقول : أى فل : ألم أكرمك ، وأسودك وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى ، أى رب ! فيقول : أظننت أنك ملاقى ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك . فيقول : يارب ! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع . فيقول : ههنا إذًا . قال ثم يُقال له : الآن نبعث شاهدَنا عليك ، ويتفكر فى نفسه : من ذا الذى يشهد علىَّ ؟ فيختم على فيه . ويُقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى . فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله . وذلك ليعذر من نفسه . وذلك المنافق . وذلك الذى يسخط اللّه عليه » .
وما رواه مسلم أيضًا فى ٤/٢٢٨٠ (٢٩٦٩) عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول اللّه ﷺ فضحك فقال : « هل تدرون مما أضحك ؟ » قال قلنا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « من مخاطبة العبد ربه . يقول : يا رب ، ألم تجرنى من الظلم ، قال : قال يقول : بلى . قال فيقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدًا منى . قال فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا . وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال فيُختم على فيه . فيقال لأركانه : انطقى . قال فتنطق بأعماله . قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام . قال فيقول : بعدًا لكن وسُحقًا . فعنكن كنت أناضل » .

حوضُ النبى ﷺ ، ومكانُه ، وصفاتُه

وفى عَرَصاتِ القيامةِ الحوضُ المورودُ للنبيّ ﷺ ، ماؤُه أشدُّ بَياضًا من اللبنِ ، وأحْلَى من العسلِ ، آنيتُه عددَ نجومِ السماءِ ، طولُه شهرٌ ، وعَرْضُه شهرٌ ، مَن يَشْرَبْ منه شربةً لا يَظْمَأْ بعدَها أبدًا .

الشرحُ :

٥- مما يُوجَدُ فى القيامةِ حوضُ النبيّ ﷺ ، وقد ذكَره الشيخُ هنا ، وبيَّن أوصافَه ، فقال : (**وفى عَرَصاتِ القيامةِ الحوضُ المورودُ للنبيّ ﷺ**) كما ثبَت ذلك عن النبيّ ﷺ [(١)] .

قال الإمامُ ابنُ القيمِ : وقد روَى أحاديثَ الحوضِ أربعون صحابيًّا ، وكثيرٌ منها ، أو أكثرُها فى الصحيحِ [(٢)] . اهـ

وتقدَّم بيانُ معنى العَرَصاتِ .

---

(١) فى أحاديث كثيرة ، سيأتى ذكر بعضها فى كلام الشارح حفظه الله .

وقد ذكر صاحب شرح الطحاوية ص ٢٢٧ أن الأحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حد التواتر . وقال ابن حجر رحمه الله فى الفتح ١١/ ٤٦٧ : قال القرطبى فى المفهم تبعا للقاضى عياض فى غالبه : مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به ، أن الله سبحانه وتعالى خص نبيه محمدًا بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه فى الأحاديث الصحيحة الشهيرة التى يحصل بمجموعها العلم القطعى ؛ إذ روى ذلك عن النبى ﷺ من الصحابة نيف على الثلاثين ، منهم فى الصحيحين ما ينيف على العشرين وفى غيرهما بقية ذلك مما صح نقله واشتهرت رواته ، ثم رواه عن الصحابة المذكورين من التابعين أمثالهم ومن بعدهم أضعاف أضعافهم وهلم جرا .

(٢) حاشية ابن القيم على سنن أبى داود ١٣/٥٦ .

....

* * *

والحوضُ لغةً : مَجْمَعُ الماءِ ، وقد أجْمَع أهلُ السنةِ والجماعةِ على إثباتِ الحوضِ ، وخالَفَت في ذلك المعتزلةُ ، فلم تَقُلْ بإثباتِه ، وأوَّلُوا النصوصَ الواردةَ فيه ، وأحالوها عن ظاهرِها[١] .

ثم ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ أوصافَ الحوضِ ، فقال : (ماؤُه أشدُّ بياضًا من اللبنِ . إلخ) وهذه الأوصافُ ثابتةٌ في الأحاديثِ ، كحديثِ عبدِ اللَّهِ بن عمرٍو المتفقِ عليه قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « حَوْضِي مَسِيرةُ شهرٍ ، ماؤُهُ أبيَضُ من اللبنِ ، وريحُه أطيبُ من المسكِ ، وكِيزانُه كنجومِ السماءِ ، مَن شرِب منه لا يَظْمَأْ أبدًا »[٢] .

(١) قال ابن حجر رحمه الله في الفتح ١١/ ٤٦٧ : وأجمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف ، وأنكرت ذلك طائفة من المبتدعة وأحالوه على ظاهره وغلوا في تأويله من غير استحالة عقلية ولا عادية تلزم من حمله على ظاهره وحقيقته ، ولا حاجة تدعو إلى تأويله ، فخرق من حرفه إجماع السلف وفارق مذهب أئمة الخلف . قلت : أنكره الخوارج وبعض المعتزلة ، وممن كان ينكره عبيد الله بن زياد أحد أمراء العراق لمعاوية وولده .

(٢) البخاري (٦٥٧٩) ، ومسلم ٤/ ١٧٩٣، ١٧٩٤ (٢٢٩٢) .

الصراطُ ، ومعناه ، ومكانُه ، وصفةُ مرورِ الناسِ عليه

والصراطُ منصوبٌ على مَتْنِ جَهَنَّمَ ، وهو الجسرُ الذى بينَ الجنةِ والنارِ ، يَمُرُّ الناسُ عليه على قَدْرِ أعمالِهم ، فمنهم مَن يَمُرُّ كلَمْحِ البصرِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالبَرْقِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالريحِ .

الشرحُ :

٦- ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ فى هذا أن مما يَحْصُلُ يومَ القيامةِ المرورَ على الصراطِ ، والصراطُ فى اللغةِ هو الطريقُ الواضحُ .

وأمّا فى الشرعِ فهو ما بيَّنه الشيخُ بقولِه : (وهو الجسرُ الذى بينَ الجنةِ والنارِ) وبيَّن مكانَه بقولِه : (**على مَتْنِ جهنمَ**) ؛ أى : على ظهرِ النارِ .

ثم بيَّن صفةَ مرورِ الناسِ عليه بقولِه : (**يَمُرُّ الناسُ عليه على قَدْرِ أعمالِهم**) ووقتُ المرورِ عليه بعدَ مُفارَقةِ الناسِ للمَوْقِفِ والحَشْرِ والحسابِ ؛ فإن الصراطَ يَنْجُو عليه المؤمنون مِن النارِ إلى الجنةِ ، ويَسْقُطُ منه أهلُ النارِ فيها ، كما ثبَت فى الأحاديثِ[1] .

ثم فصَّل الشيخُ رحِمه اللَّهُ أحوالَ الناسِ فى المرورِ على الصراطِ ، فقال :

---

(١) ومن هذه الأحاديث ما رواه البخارى (٧٤٣٩) ، ومسلم ١/١٦٧ (١٨٣) عن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه عنه ، أن النبى ﷺ قال : « ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ » . قيل : يا رسول اللَّه ، وما الجسر ؟ قال : « دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مُسلَّم ، ومخدوش مُرْسَل ، ومكدوس فى نار جهنم » .

ومنهم مَن يَمُرُّ كالفرسِ الجَوَادِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كركابِ الإبلِ ، ومنهم مَن يَعْدو عَدْوًا ، ومنهم مَن يَمْشِي مَشْيًا ، ومنهم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا ، ومنهم مَن يُخْطَفُ ، ويُلْقَى فى جَهَنَّمَ ؛ فإنَّ الجسرَ عليه كَلاليبُ ، تَخْطِفُ الناسَ بأعمالِهم .

(**فمنهم مَن يَمُرُّ كلَمْحِ البَصَرِ**)إلخ ؛ أى : أنهم يكونون فى سرعةِ المرورِ وبُطْئِه على حسَبِ إيمانِهم وأعمالِهم الصالحةِ التى قدَّموها فى الدنيا .

فبحَسَبِ استقامةِ الإنسانِ على دينِ الإسلامِ وثَباتِه عليه يكونُ ثباتُه ومرورُه على الصراطِ ، فمَن ثبَت على الصراطِ المعنوىِّ – وهو الإسلامُ – ثبَت على الصراطِ الحسِّىِّ المنصوبِ على مَتْنِ جَهَنَّمَ ، ومَن زَلَّ عن الصراطِ المعنوىِّ زَلَّ عن الصراطِ الحسِّىِّ .

وقولُه : (**يَعْدُو عَدْوًا**) ؛أى : يَرْكُضُ رَكْضًا . وقولُه : (**يَزْحَفُ زَحْفًا**) ؛أى : يَمْشِى على مَقْعَدتِه ، بدلَ رِجْلَيه .

وقولُه : (**عليه كَلاليبُ**) جمعُ كَلُّوب – بفتحِ الكافِ واللامِ المشدَّدةِ المضمومةِ – وهى حديدةٌ معطوفةُ الرأسِ .

وقولُه : **تَخْطَفُ** – بفتحِ الطاءِ ، ويجوزُ كسرُها – من الخطفِ ، وهو أخذُ الشىءِ بسرعةٍ .

وقولُه : (**بأعمالِهم**) ؛ أى : بسببِ أعمالِهم السيئةِ ، فيكونُ اخْتِطافُ الكلاليبِ لهم على صراطِ جهنمَ بحسَبِ اختطافِ الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ لهم عن الصراطِ المستقيمِ .

وأهلُ السنةِ والجماعةِ يُؤْمنون بالصراطِ المنصوبِ على مَتْنِ جَهَنَّمَ ومرورِ الناسِ عليه ، على ما جاءت به الأحاديثُ الصحيحةُ ، عن النبىِّ ﷺ[1] .

---

(١) ومنها غير ما ذُكِر ما رواه مسلم ٢٥٢/١ (٣١٥) عن ثَوْبَانَ مولى رسول الله ﷺ ، أن =

....

* * *

وخالفَ في ذلك القاضي عبدُ الجَبَّارِ المُعْتَزِليُّ[1] وكثيرٌ من أتباعِه ، وقالوا : المرادُ بالصراطِ المذكورِ طريقُ الجنةِ ، المشارُ إليه بقولِه تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٥] . وطريقُ النارِ المشارُ إليه بقولِه تعالى : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٢٣] .

وهذا قولٌ باطلٌ ، وردٌّ للنصوصِ الصحيحةِ بغيرِ بُرْهانٍ ، والواجبُ حملُ النصوصِ على ظاهرِها .

= رسول الله ﷺ سُئِل : أين الناس يوم تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسماواتُ ؟ فقال : « هم في الظلمة دون الجسر » .

(١) القاضي عبد الجبار : هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني أبو الحسن ، المشهور بالقاضي عبد الجبار شيخ المعتزلة في عصره ، له كتب منها « شرح الأصول الخمسة » و « المغني في العدل والتوحيد » و« متشابه القرآن » وغيرها . توفي بالري سنة ٤١٥ . ميزان الاعتدال ٢/ ٥٣٣، طبقات المعتزلة ص ١٢١، الأعلام ٣/ ٢٧٣، ٢٧٤ .

القَنْطَرةُ بيـنَ الجنـةِ والنارِ

فمَن مَرَّ على الصراطِ دخَل الجنةَ ، فإذا عبَرُوا عليه وُقِفوا على قَنْطَرةِ بينَ الجنةِ والنارِ ، فيُقْتَصُّ لبعضِهم من بعضٍ ، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخولِ الجنةِ(١) .

الشرحُ :

٧- ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ مما يكونُ يومَ القيامةِ الوقوفُ على القنطرةِ ، فقال : (فمَن مَرَّ على الصراطِ) ؛ أى : تجاوَزَه ، وسَلِم من السقوطِ فى جهنمَ .

(دخَل الجنةَ) لأنَّ مَن نجا من النارِ دخَل الجنةَ ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] . وقال تعالى : ﴿ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ ﴾ [الشورى : ٧] .

لكن قبلَ دخولِ الجنةِ لا بدَّ من إجراءِ القِصاصِ بينَ المؤمنين حتى يَدْخُلوا الجنةَ ، وهم على أكملِ حالةٍ ، قد خلَصوا من المظالمِ ، وهذا ما أشار إليه الشيخُ بقولِه : (فإذا عبَروا) ؛ أى : تجاوَزُوا الصراطَ ، ونجَوْا من السقوطِ فى النارِ .

(وُقِفوا على قَنْطَرةٍ) هى الجسرُ ، وما ارْتَفَع مِن البُنْيانِ ، وهذه القنطرةُ قيل : هى طرفُ الصراطِ مما يَلِى الجنةَ ، وقيل : هى صراطٌ آخرُ خاصٌّ بالمؤمنين .

(فيُقْتَصُّ لبعضِهم من بعضٍ) ؛ أى : يَجْرِى بينَهم القِصاصُ فى المظالمِ ،

---

(١) أخرج البخارى (٢٤٤٠) ، (٦٥٣٥) ، عن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا نقوا وهُذِّبوا أُذن لهم بدخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده ، لأحدهم بمسكنه فى الجنة أدل بمنزله كان فى الدنيا » .

....

* * *

فيُؤْخَذُ للمظلومِ حقُّه ممَّن ظلَمَه .

(فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا) ؛ أى : خلَصوا من التَّبِعاتِ والحقوقِ (أُذِن لهم فى دخولِ الجنةِ) وقد ذهَب ما فى قلوبِ بعضِهم لبعضٍ من الغِلِّ ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧] .

أولُ مَن يَستَفْتِحُ بابَ الجنةِ، وأولُ مَن يَدْخُلها، وشفاعاتُ النبى ﷺ

وأولُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بابَ الجنةِ محمدٌ ﷺ، وأولُ مَن يَدْخُلُها مِن الأممِ أمتُه.

وله ﷺ فى القيامةِ ثلاثُ شفاعاتٍ:

أمَّا الشفاعةُ الأولى فيَشْفَعُ فى أهلِ الموقفِ حتى يُقْضَى بينَهم، بعدَ أن يَتَراجَعَ الأنبياءُ؛ آدمُ ونوحٌ وإبرهيمُ وموسى وعيسى ابنُ مريمَ عن الشفاعةِ حتى تَنْتَهِيَ إليه.

وأمَّا الشفاعةُ الثانيةُ فيَشْفَعُ فى أهلِ الجنةِ أن يَدْخُلوا الجنةَ.

وهاتان الشفاعتان خاصَّتان له.

وأما الشفاعةُ الثالثةُ فيَشْفَعُ فيمَن اسْتَحَقَّ النارَ، وهذه الشفاعةُ له، ولسائرِ النبيِّين والصِّدِّيقِين وغيرِهم، فيَشْفَعُ فيمَن اسْتَحَقَّ النارَ أن لا يَدْخُلَها، ويَشْفَعُ فيمَن دخَلَها أن يَخْرُجَ منها.

الشرحُ:

٨- يُبَيِّنُ الشيخُ رحِمه اللَّهُ ما يَنْتَهى إليه أمرُ المؤمنين يومَ القيامةِ بعدَ اجتيازِهم لتلك الأحوالِ التى مرَّ ذكرُ أهمِّها، فيقولُ: (**فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخولِ الجنةِ**) فهم لا يَدْخُلُون الجنةَ إلا بعدَ إذنٍ مِن اللَّهِ تعالى، وطَلَبٍ لفتحِ أبوابِها.

....

(**وأولُ مَن يَستَفْتِحُ بابَ الجنةِ محمدٌ ﷺ**) كما في الصحيحِ ، عن أنس رضِى اللَّهُ عنه قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « آتى بابَ الجنةِ يومَ القيامةِ ، فأَستَفْتِحُ فيقولُ الخازنُ : مَن أنت ؟ فأقولُ : محمدٌ . فيقولُ : بك أُمِرْتُ أن لا أَفْتَحَ لأحدٍ قبلَك »[١] .

والاسْتِفْتاحُ طلبُ الفتحِ ، وفي هذا تشريفٌ له ﷺ ، وإظهارٌ لفضلِه .

(**وأولُ مَن يَدْخُلُها مِن الأممِ أُمَّتُه**) وذلك لفضلِها على سائرِ الأممِ ، ودليلُ ذلك ما في حديثِ أبي هريرةَ الذى رواه مسلمٌ ، من قولِه ﷺ : « ونحن أولُ مَن يَدْخُلُ الجنةَ »[٢] .

قولُه : (**وله ﷺ في القيامةِ ثلاثُ شفاعاتٍ**) . الشفاعاتُ جمعُ شفاعةٍ ، والشفاعةُ لغةً : الوسيلةُ .

وعُرْفًا : سؤالُ الخيرِ للغيرِ ، مُشْتَقَّةٌ من الشَّفْعِ الذى هو ضدُّ الوِتْرِ ، فكأنَّ الشافعَ ضَمَّ سؤالَه إلى سؤالِ المشفوعِ له بعدَ أن كان مُنْفَرِدًا .

وقولُ الشيخِ رحِمه اللَّهُ : (**وله ﷺ في القيامةِ ثلاثُ شفاعاتٍ**) . بيانٌ للشفاعاتِ التى يَقُومُ بها النبيُّ ﷺ في يومِ القيامةِ بإذنِ اللَّهِ تعالى .

هكذا ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ أنواعَ الشفاعةِ هنا مُخْتَصرةً ، وهى على سبيلِ الاسْتِقْصاءِ ثمانيةُ أنواعٍ ، منها ما هو خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ ، ومنها ما هو مُشْتَرَكٌ بينَه وبينَ غيرِه .

الشفاعةُ الأولى : الشفاعةُ العُظْمَى ، وهى المقامُ المحمودُ ، وهى أن يَشْفَعَ النبيُّ ﷺ أن يَقْضِىَ اللَّهُ سبحانَه بينَ عبادِه ، بعدَ طُولِ الموقفِ عليهم ، وبعدَ مراجعتِهم

---

(١) أحمد في مسنده ٣/١٣٦ (١٢٣٣٧) ، ومسلم ١/١٨٨ (١٩٧) .
(٢) مسلم ٢/ ٥٨٥، ٥٨٦ (٨٥٥) .

....

الأنبياءَ للقيامِ بها ، فيقومُ بها نبيُّنا ﷺ بعدَ إذنِ ربِّه[(١)] .

---

(١) ودليل ذلك ما رواه البخارى (٤٧١٢) ، ومسلم ١/١٨٤ (١٩٤) ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى رسول الله ﷺ يومًا بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة فقال : « أنا سيد الناس يَوْم القيامة ، وهل تدرون بمَ ذاك ؟ يَجْمعُ اللّه الناس يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فيسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ، وما لا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : ائتوا آدم ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر خلقك اللّه بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربى غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة وعصيته ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحًا فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى الأرض ، وسماك اللّه عبدًا شكورًا ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإن قد كانت لى دعوة دعوت بها على قومى ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ . فيأتون إبراهيم فيقولون أنت نبى اللّه وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعد مثله - وذكر كَذَباتِهِ - نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى ﷺ فيقولون : يا موسى ، أنت رسول اللّه ، فضلك اللّه برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى ﷺ : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفسًا لم أومر بقتلها ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى عيسى ﷺ . فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى ، أنت رسول اللّه ، وكلمت الناس فى المهد ، وكلمة ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى ﷺ : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا =

....

الشفاعةُ الثانيةُ : شفاعتُه في دخولِ أهلِ الجنةِ الجنةَ بعدَ الفراغِ مِن الحسابِ[(١)] .

الشفاعةُ الثالثةُ : شفاعتُه ﷺ في عمّه أبي طالبٍ أن يُخَفَّفَ عنه العذابُ ، وهذه خاصةٌ به[(٢)] ؛ لأنَّ اللَّهَ أخبَرَ أن الكافرين لا تَنْفَعُهم شفاعةُ الشافعين[(٣)] ، ونبيُّنا

= لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبًا - نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى محمد ﷺ . فيأتون فيقولون : يا محمد ، أنت رسول اللَّه وخاتم الأنبياء ، وغفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدًا لربى ، ثم يفتح اللَّه على ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحدٍ قبلى ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : يارب أمتى أمتى . فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، أدخل الجنة من أمتك ، من لا حسابَ عليه ، مِن الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس ، فيما سوى ذلك من الأبواب ، والذى نفس محمدٍ بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى » .

(١) وذلك لما رواه مسلم ١٨٦/١ (١٩٥) ، عن أبي مالك ، عن رِبْعِيٍّ ، عن حذيفة قالا : قال رسول اللَّه ﷺ :

« يجمع اللَّه تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة . فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا ، استفتح لنا الجنة . فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ! لست بصاحب ذلك . اذهبوا إلى ابنى إبراهيم خليل اللَّه . قال فيقول إبراهيم : لست بصاحب ذلك . إنما كنت خليلًا من وراء وراء ، اعمدوا إلى موسى ﷺ الذى كلمه اللَّه تكليما . فيأتون موسى ﷺ فيقول : لست بصاحب ذلك . اذهبوا إلى عيسى كلمة اللَّه وروحه فيقول عيسى ﷺ : لست بصاحب ذلك . فيأتون محمدا ﷺ ، فيقوم فيؤذن له » الحديث .

(٢) روى البخارى (٣٨٨٥، ٦٥٦٤) ، ومسلم ١٩٥/١ (٢١٠) عن أبي سعيد الخدرى رضى اللَّه عنه ، أن رسول اللَّه ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال : « لعله شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من نار ، يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه » .

(٣) قال تعالى : ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ، قال الشيخ السعدى ، رحمه اللَّه فى تفسيره =

....

أخبَر أن شفاعتَه لأهلِ التوحيدِ خاصةً[(١)] .

فشَفاعتُه لعمِّه أبي طالبٍ خاصةٌ به ، وخاصةٌ لأبي طالبٍ[(٢)] .

هذه الأنواعُ الثلاثةُ من الشفاعةِ خاصةٌ بنبيِّنا محمدٍ ﷺ[(٣)] .

الشفاعةُ الرابعةُ : شفاعتُه فيمَن اسْتَحَقَّ النارَ مِن عُصاةِ الموحِّدين أن لا

= ص ٤٩٩:

لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم . اهـ

(١) ودليل ذلك ما رواه أحمد ٢/٣٧٣ (٨٨٤٤) ، والبخارى (٩٩، ٦٥٧٠) ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قيل : يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : « لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسأل عن هذا الحديث أحدٌ أوَّلَ منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله ، خالصًا من قلبه ، أو نفسه » .

قال ابن حجر رحمه الله فى الفتح ١/ ١٩٤:

قوله : (من قال لا إله إلا الله) احتراز من المشرك ، والمراد مع قوله محمد رسول الله ، لكن قد يُكتفى بالجزء الأول من كلمتى الشهادة لأنه صار شعارا لمجموعها كما تقدم فى الإيمان . قوله (خالصًا) احتراز من المنافق .

ومعنى أفعل فى قوله : « أسعد » الفعل لأنها أفعل التفضيل أى سعيد الناس ، كقوله تعالى : (وأحسن مقيلًا) . اهـ

(٢) لأنه لا يشفع لكافر غيره ، وهذه الشفاعة ليست من أجل شخصية أبى طالب ، لكن من أجل ما حصل من دفاعه عن النبى ﷺ ، وعن أصحابه .

(٣) **قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله فى شرح الواسطية ٢/ ١٧٧، ١٧٨:**

وأما فيمن استحقها أن لا يدخلها ؛ فهذه قد تستفاد من دعاء الرسول ﷺ للمؤمنين بالمغفرة والرحمة على جنائزهم ؛ فإنه من لازم ذلك أن لا يدخل النار ؛ كما قال النبى عليه الصلاة =

....

يَدْخُلَها .

الشفاعةُ الخامسةُ : شفاعتُه ﷺ فيمَن دخَل النارَ من عُصاةِ الموحِّدين أن يُخْرَجَ منها[١] .

الشفاعةُ السادسةُ : شفاعتُه في رفعِ درجاتِ بعضِ أهلِ الجنةِ[٢] .

الشفاعةُ السابعةُ : شفاعتُه ﷺ فيمَن اسْتَوت حسناتُهم وسيائُهم أن يَدْخُلوا

= والسلام : « اللهم ! اغفر لأبى سلمة ، وارفع درجته فى المهديين ...» الحديث .
لكن هذه شفاعة فى الدنيا ، كما فى قوله صلى اللّٰه عليه وآله وسلم : « ما من رجل مسلم يموت ، فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون باللّٰه شيئًا ؛ إلا شفعهم اللّٰه فيه » .

(١) وهذا النوع قد تواترت به الأحاديث عن النبى ﷺ كما نص على ذلك ابن حجر رحمه اللّٰه فى الفتح ١١/ ٤٢٦، وابن أبى العز فى شرح الطحاوية ص ٢٣٣، والشيخ ابن عثيمين فى شرح الواسطية ٢/ ١٧٧، ومن هذه الأحاديث :

١- ما رواه أحمد ٣/ ٢١٣، وأبو داود (٤٧٣٩) عن أنس بن مالك رضى اللّٰه عنه ، والترمذى (٢٤٣٦) ، وابن ماجه (٤٣١٠) عن جابر بن عبد اللّٰه رضى اللّٰه عنهما عن النبى ﷺ قال : « شَفَاعَتِى لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِى » . قال الشيخ الألبانى رحمه اللّٰه فى صحيح الجامع (٣٧١٤) : صحيح .

٢- أخرجه أحمد فى مسنده ٤/ ٤٣٤، والبخارى فى صحيحه (٦٥٦٦) ، وأبو داود (٤٧٤٠) وغيرهم عن عمران بن حصين رضى اللّٰه عنه ، عن النبى ﷺ قال : « يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، ويسمون الجَهَنَّمِيِّينَ » .

(٢) وهذا النوع قد نصَّ صاحب شرح الطحاوية فى ص ٢٣٢ على تواتره ، ومن الأحاديث الواردة فى هذا النوع من الشفاعة :

١- ما رواه مسلم رحمه اللّٰه ١/١٨٨ (١٩٦) ، عن أنس بن مالك ، أن النبى ﷺ قال : « أنا أول شفيع فى الجنة... » الحديث .

٢- ما رواه الطبرانى رحمه اللّٰه ، عن ابن عمر رضى اللّٰه عنه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : =

....

الجنةَ ، وهم أهلُ الأعرافِ على قولٍ[١] .

الشفاعةُ الثامنةُ : شفاعتُه ﷺ في دخولِ بعضِ المؤمنين الجنةَ ، بلا حسابٍ ، ولا عذابٍ ، كشَفاعتِه ﷺ في عُكَّاشَةَ بنِ مِحْصَنٍ رضِي اللَّهُ عنه حيث دعا له النبيُّ ﷺ أن يكونَ من السبعين الألفَ الذين يَدْخُلُون الجنة بلا حسابٍ ، ولا عذابٍ[٢] .

وهذه الأنواعُ الخمسةُ الباقيةُ يُشارِكُه فيها غيرُه من الأنبياءِ والملائكةِ والصدِّيقين والشهداءِ .

وأهلُ السنةِ والجماعةِ يُؤْمِنون بهذه الشفاعاتِ كلِّها لثبوتِ أدلتِها ، وأنَّها لا تَتَحقَّقُ إلا بشرطَيْنِ :

الشرطُ الأولُ : إذنُ اللَّهِ للشافعِ أن يَشْفَعَ ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس : ٣] .

الشرطُ الثاني : رضا اللَّهِ عن المشفوعِ له ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] . ويَجْمَعُ الشرطَيْنِ قولُه تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ

= « أول من أشفع له يوم القيامة من أمتى أهل بيتى ، ثم الأقرب فالأقرب من قريش ، ثم الأنصار ، ثم من آمن بى واتبعنى من اليمن ، ثم من سائر العرب ، ثم الأعاجم ، ومن أشفع له أولًا أفضل » . قال الشيخ الألبانى ، رحمه اللَّه فى ضعيف الجامع (٢١٤٣) : موضوع . وانظر الفتح لابن حجر ١١/٤٢٨ .

(١) قال ابن حجر رحمه اللَّه فى الفتح ١١/ ٤٢٨ : وظهر لى بالتتبع شفاعة أخرى وهى الشفاعة فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة ، ومستندها ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس قال : السابق يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد برحمة اللَّه ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلونها بشفاعة النبى ﷺ . وقد تقدم قريبًا أرجح الأقوال فى أصحاب الأعراف أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . اهـ

(٢) تقدم تخريجه ص٢٩٦ .

....

فِى السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦] .

وقد خالَفَت المعتزلةُ فى الشفاعةِ لأهلِ الكبائرِ من المؤمنين فيمَن استَحَقَّ النارَ منهم أن لا يَدْخُلَها ، وفيمَن دخَلَها أن يُخْرَجَ منها ؛ أى : فى النوعِ الخامسِ والسادسِ من أنواعِ الشفاعةِ .

ويَحْتَجُّون بقولِه تعالى : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾(١) [المدثر : ٤٨]

والجوابُ عنها : أنها واردةٌ فى حقِّ الكفارِ ، فهم الذين لا تنفعُهم شفاعةُ الشافعين ، أمَّا المؤمنون فتَنْفَعُهم الشفاعةُ بشروطِها .

هذا وقد انْقَسَم الناسُ فى أمرِ الشفاعةِ إلى ثلاثةِ أصنافٍ .

الصِّنفُ الأولُ : غَلَوْا فى إثباتِها ، وهم النصارَى ، والمشركون ، وغلاةُ الصُّوفيةِ والقُبُوريُّون ، حيث جعَلوا شفاعةَ مَن يُعَظِّمونه عندَ اللَّهِ كالشفاعةِ المعروفةِ فى الدنيا عندَ الملوكِ ، فطلَبُوها مِن دونِ اللَّهِ ، كما ذكَر اللَّهُ عن المشركين .

الصِّنفُ الثانى : وهم المعتزلةُ والخوارجُ غَلَوْا فى نفيِ الشفاعةِ ، فأنْكَروا شفاعةَ النبىِّ ﷺ ، وشفاعةَ غيرِه فى أهلِ الكبائرِ .

الصِّنفُ الثالثُ : وهم أهلُ السنةِ والجماعةِ أثْبَتوا الشفاعةَ على وَفْقِ ما جاءت به النصوصُ القرآنيةُ والأحاديثُ النبويةُ ، فأثْبَتوا الشفاعةَ بشروطِها .

---

(١) **قال ابن حجر رحمه الله فى الفتح ١١/ ٤٢٦** : قال ابن بطال : أنكرت المعتزلة الشفاعة فى إخراج من أدخل النار من المذنبين وتمسكوا بقوله تعالى : ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ من الآيات ، وأجاب أهل السنة بأنها فى الكفار ، وجاءت الأحاديث فى إثبات الشفاعة المحمدية متواترة قوله تعالى : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ .

إخراجُ بعضِ العُصاةِ من النارِ برحمةِ اللَّهِ ، بغيرِ شفاعةٍ ، واتِّساعُ الجنةِ عن أهلِها

ويُخْرِجُ اللَّهُ من النارِ أقوامًا بغيرِ شفاعةٍ ، بل بفضلِه ورحمتِه ، ويَبْقَى في الجنةِ فضلٌ عمَّن دخَلَها من أهلِ الدنيا ، فيُنْشِئُ اللَّهُ أقوامًا ، فيُدْخِلُهم الجنةَ .

وأصنافُ ما تَضَمَّنَتْه الدارُ الآخِرةُ من الحسابِ والثوابِ والعقابِ والجنةِ والنارِ ، وتفاصيلُ ذلك مذكورةٌ في الكتبِ المُنَزَّلةِ من السماءِ ، والآثارِ من العلمِ المأثورِ عن الأنبياءِ .

وفي العلمِ الموروثِ عن محمدٍ ﷺ من ذلك ما يَشْفِي ويَكْفِي ؛ فمَن ابْتَغاه وجَدَه .

الشرحُ :

٩- لما ذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ أن من أنواعِ الشفاعاتِ التي تَقَعُ بإذنِ اللَّهِ الشفاعةَ بإخراجِ بعضِ مَن دخَلوا النارَ منها ، ذكَر هنا أن الخروجَ من النارِ له سببٌ آخرُ غيرَ الشفاعةِ ، وهو رحمةُ اللَّهِ سبحانَه وفضلُه وإحسانُه .

فيُخْرِجُ من النارِ مِن عُصاةِ الموحِّدين مَن في قلبِه أدْنَى مِثْقالِ حَبَّةٍ من إيمانٍ ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨] .

وفي الحديثِ المتَّفقِ عليه : « يقولُ اللَّهُ : شفَعَت الملائكةُ ، وشفَع النبيُّون ، وشفَع المؤمنون ، ولم يَبْقَ إلا أرْحَمُ الراحمين ، فيَقْبِضُ قَبْضةً من النارِ ، فيُخْرِجُ منها

....

قومًا لم يَعْمَلُوا خيرًا قطُّ »[١] الحديثَ .

وقولُه : (**ويَبْقى في الجنةِ فَضلٌ**) ؛ أي : مُتَّسَعٌ .

(**عمَّن دخَلَها من أهلِ الدنيا**) لأن اللَّهَ وصَفَها بالسَّعةِ ، فقال : ﴿ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

(**فيُنْشِئُ اللَّهُ**) ؛ أي : يَخْلُقُ ويُوجِدُ (أقوامًا) ؛ أي : جماعاتٍ .

(**فيُدْخِلُهم الجنةَ**) بفضلِه ورحمتِه ؛ لأنَّ الجنةَ رحمتُه يَرْحَمُ بها مَن يشاءُ ، وأمَّا النارُ فلا يُعَذِّبُ فيها إلا مَن قامت عليه حجتُه ، وكذَّب رسلَه[٢] .

وقولُه : (**وأصنافُ ما تضَمَّنَته الدارُ الآخِرةُ .. إلخ**) لمَّا ذكَر رحِمه اللَّهُ ما ذكَر من أحوالِ اليومِ الآخرِ ، وما يَجْرِي فيه أحال على الكتابِ والسنةِ في معرفةِ تفاصيلِ البقيةِ مما لم يَذْكُرْه ؛ لأنَّ ذلك من علمِ الغيبِ الذي لا يُعْرَفُ إلا من طريقِ الوحيِ .

* * *

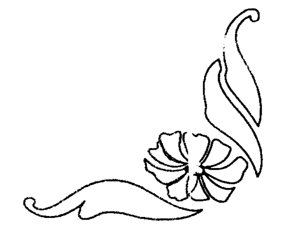
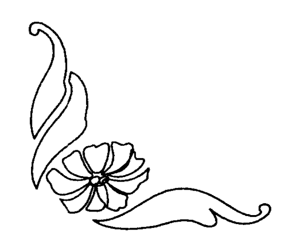
---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٩) ، ومسلم ١٧٠/١ (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري ، واللفظ لمسلم .

(٢) روى البخاري (٧٣٨٤) ، ومسلم ٢١٨٨/٤ (٣٨/٢٨٤٨) من كتاب الجنة ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ قال : « ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ اللَّه لها خلقًا ، فيسكنهم فضل الجنة » .




الإيمانُ بالقَــدَرِ ، وبيانُ ما يَتَضَمَّنُه

الإيمانُ بالقَدَرِ ، وبيانُ ما يَتَضَمَّنُه

وتُؤْمِنُ الفِرْقةُ الناجيةُ ؛ أهلُ السنةِ والجماعةِ ، بالقَدَرِ ؛ خيرِه وشرِّه ، والإيمانُ بالقَدَرِ على درجَتَين ، كلُّ درجةٍ تَتَضَمَّنُ شيئَيْنِ .

الشرحُ :

القَدَرُ : مصدرُ قَدَرْتُ الشيءَ ، إذا أحَطْتَ بمقدارِه . والمرادُ به هنا تعَلُّقُ علمِ اللَّهِ بالكائناتِ ، وإرادتُه لها أزلًا قبلَ وجودِها ، فلا حادثَ إلا وقد قدَّره اللَّهُ ؛ أى : سبَق علمُه به ، وتعَلَّقَت به إرادتُه .

والإيمانُ بالقدرِ هو أحدُ أركانِ الإيمانِ الستةِ ، وهو الإيمانُ بالقدرِ ؛ خيرِه وشرِّه[1] .

وفى قولِ الشيخِ رحِمه اللَّهُ : (**وتُؤْمِنُ الفرقةُ الناجيةُ - أهلُ السنةِ والجماعةِ - بالقدرِ خيرِه وشرِّه**) إشارةٌ إلى أنَّ مَن لم يُؤْمِنْ بالقدرِ فليس مِن أهلِ السنةِ والجماعةِ .

وهذا هو مُقْتَضَى النصوصِ ، كما فى حديثِ جبريلَ حينَ سأَل النبىَّ ﷺ عن الإيمانِ ، فقال : « الإيمانُ أن تُؤْمِنَ باللَّهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخِرِ ، وتُؤْمِنَ بالقدرِ ؛ خيرِه وشرِّه »[1] .

فجَعَل ﷺ الإيمانَ بالقدرِ سادسَ أركانِ الإيمانِ ، فمَن أنْكَرَه فليس بمؤمنٍ ، كما لو لم يُؤْمِنْ بغيرِه من أركانِ الإيمانِ[2] .

---

(١) كما تقدم ذلك فى حديث جبريل ﷺ ص ٥٩ .

(٢) ودل على ذلك حديث جبريل عند مسلم ١/٣٦ (٨) ، عن يحيى بن يَعْمَرَ قال : كانَ أول من قال فى القدر بالبصرة معْبد الجهنى : فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين فقلنا : لو لقينا أحدا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فسألناه عمّا يقول هؤلاء =

....

* * *

وقولُه : (**والإيمانُ بالقدرِ على درجتيـن ... إلخ**) وذكَر الشيخُ رحِمه اللَّهُ هنا أن الإيمانَ يَشْتَمِلُ على أربعِ مراتبَ هى إجمالًا ، كما يلى :

الأولى : علمُ اللَّهِ الأزلىُّ بكلِّ شىءٍ ، ومن ذلك علمُه بأعمالِ العبادِ قبلَ أن يَعْمَلوها .

الثانيةُ : كتابةُ ذلك فى اللَّوْحِ المَحْفوظِ .

الثالثةُ : مشيئتُه الشاملةُ وقدرتُه التامةُ لكلِّ حادثٍ .

الرابعةُ : إيجادُ اللَّهِ لكلِّ المخلوقاتِ ، وأنه الخالقُ ، وما سواه مخلوقٌ .

هذا مُجْمَلُ مراتبِ القدرِ ، وإليك بيانُها بالتفصيلِ .

* * *

= فى القدر . فوُفِّق لنا عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد . فاكتنفته أنا وصاحبى ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلىَّ فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويَتَقَفَّرون العلم . وذكر من شأنهم . وأنهم يزعمون أن لا قدر . وأن الأمر أنف . قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم ، وأنهم برآء منى ، والذى يحلف به عبد اللَّه بن عمر ! لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ، ما قبل اللَّه منه حتى يؤمن بالقدر .

تَفْصيلُ مراتبِ القَدَرِ(١)

« الدرجةُ الأولى وما تَتَضَمَّنُه »

فالدرجةُ الأُولى : الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بما الخلقُ عامِلون بعلمِه القديمِ ، الذى هو موصوفٌ به أزلًا وأبدًا .

وعلِم جميعَ أحوالِهم من الطاعاتِ والمعاصى والأرزاقِ والآجالِ .

ثم كتَب اللهُ فى اللوحِ المحفوظِ مقاديرَ الخلقِ ، فأولُ ما خلَق اللهُ القلمُ ، قال له : اكْتُبْ . قال : ما أَكْتُبُ . قال : اكْتُبْ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ .

الشرح :

قولهُ : (أزلًا) الأَزَلُ القِدَمُ الذى لا بِدايةَ له .

وقولُه : (أبدًا) الأَبَدُ هو الدوامُ فى المستقبلِ ، الذى لا نِهايةَ له .

و(الطاعاتُ) جمعُ طاعةٍ ، وهى موافقةُ الأمرِ ، **و(المعاصى)** جمعُ معصيةٍ ، وهى مخالفةُ الأمرِ ، **و(الأرزاقُ)** جمعُ رِزْقٍ ، وهو ما يَنْفَعُ ، **و(الآجالُ)** جمعُ أجَلٍ ، وهو مدةُ الشىءِ .

وأجَلُ الإنسانِ نهايةُ وقتِه فى الدنيا بالموتِ .

و(اللوحُ المحفوظُ) وهو أُمُّ الكتابِ **(محفوظٌ)** من الزيادةِ والنُّقْصانِ فيه .

ذكَر الشيخُ هنا ما تَتَضَمَّنُه الدرجةُ الأولى من درجتَىِ الإيمانِ بالقدرِ ، وأنها

---

(١) قال النووى ، رحمه الله فى شرح مسلم ١/ ١٩٠: يقال : القَدْر ، والقَدَر - بفتح الدال وإسكانها - لغتان مشهورتان ، وحكاهما ابن قتيبة عن الكسائى ، وقالهما غيره . اهـ

فما أصاب الإنسانَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَه ، وما أَخْطَأَه لم يَكُنْ لِيُصِيبَه ، جَفَّتِ الأقلامُ ، وطُوِيَتِ الصُّحُفُ ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . وقال : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

وهذا التقديرُ التابعُ لعلمِه سبحانَه يكونُ فى مواضعَ جملةً وتفصيلًا ، فقد كتَب فى اللوحِ المحفوظِ ما شاء ، وإذا خلَقَ جسدَ الجنينِ قبلَ نَفْخِ الرُّوحِ فيه بَعَث إليه مَلَكًا ، فيُؤْمَرُ بأربعِ كلماتٍ ، فيُقالُ له : اكْتُب رِزْقَه وأجَلَه وعَمَلَه ، وشَقِيٌّ أو سعيدٌ . ونَحوَ ذلك .

فهذا التقديرُ قد كانُ يُنكِرُه غُلاةُ القَدَريةِ قديمًا ، ومُنْكِروه اليومَ قليلٌ .

تَتَضمَّنُ شيئين ؛ أى مَرْتَبَتَيْنِ .

المرتبةُ الأولى : الإيمانُ بعلمِ اللهِ المحيطِ بكلِّ شىءٍ من الموجوداتِ والمعدوماتِ ، هذا العلمُ الذى هو صفةٌ من صفاتِه تعالى الذاتيةِ ، التى لا يَزالُ مُتصِفًا بها أزلًا وأبدًا ، ومن ذلك علمُه بأعمالِ الخلقِ من الطاعاتِ والمعاصى ، وعلمُه بأحوالِهم من الأرزاقِ والآجالِ وغيرِها.

المرتبةُ الثانيةُ : مرتبةُ الكتابةِ ، وهى أنَّ اللهَ كتَب فى اللوحِ المحفوظِ مقاديرَ الخلقِ ، فما يَحْدُثُ شىءٌ فى الكونِ إلا وقد علِمَه اللهُ ، وكتَبَه قبلَ حدوثِه .

ثم اسْتَدَل الشيخُ رحِمه اللهُ على ذلك بأدلةٍ من الكتابِ والسنةِ ؛

فمن أدلةِ السنةِ على ذلك الحديثُ الذى ذكَر الشيخُ معناه ، ولفظُه كما رواه أبو داودَ فى سننِه ، عن عُبادةَ بنِ الصامتِ رضِى اللهُ عنه قال : سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ

....

يقولُ : « أولُ ما خَلَق اللهُ القَلَمُ فقال له : اكْتُبْ .

قال : وما أَكْتُبُ ؟

قال : اكْتُبْ مقاديرَ كلِّ شيءٍ حتى تقومَ الساعةُ »[(١)] .

فهذا الحديثُ يَدُلُّ على مرتبةِ الكتابةِ وأن المقاديرَ كلَّها مكتوبةٌ .

وقولُه : « أولَ ما خَلَق اللهُ القلمَ قال له : اكْتُبْ » . رُوِى بنصبِ (أول) و(القلم) على أن الكلامَ جملةٌ واحدةٌ ، ومعناه : أنه عندَ أولِ خلقِه القلمَ قال له : اكْتُبْ .

ورُوِى برفعِ (أول) و (القلم) على أن الكلامَ جملتان ، الأولى : « أولُ ما خلَقَ اللهُ القلمُ » ، و« قال له اكْتُبْ » جملةٌ ثانيةٌ ، فيكونُ المعنى أن أولَ المخلوقاتِ من هذا العالـِمِ القَلَمُ .

وقولُه : (**فما أصاب الإنسانَ لم يَكُنْ لِيُخطِئَه إلخ**) . من كلامِ عبادةَ بنِ الصامتِ راوى الحديثِ ؛ أى : ما يُصِبْ الإنسانَ مما يَنْفَعُه أو يَضُرُّه فهو مُقَدَّرٌ عليه ، لابدَّ أن يَقَعَ به ، ولا يَقَعُ به خلافُه .

وقولُه : (**جَفَّت الأقلامُ وطُوِيَت الصُّحفُ**) . كنايةٌ عن سَبْقِ كتابةِ المقاديرِ والفراغِ منها ، وهو معنى ما جاء فى حديثِ ابنِ عباسٍ : « رُفِعَت الأَقلامُ ، وَجَفَّتِ الصحفُ » . رواه الترمذىُّ[(٢)] .

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٣١٧، وأبو داود (٤٧٠٠) ، والترمذى (٢١٥٥) ، وقال الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٨) : صحيح .

(٢) روى أحمد ١/ ٢٩٣، والترمذى (٢٥١٦) من حديث ابن عباس قال : كنت خلف النبى ﷺ يومًا فقال : « يا غلام إنى أُعَلِّمُك كلمات ، احفظ اللَّه يحفظك ، احفظ اللَّه =

....

ثم ذكَر الشيخُ من أدلةِ القرآنِ قولَه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ** ﴾ الاستفهامُ للتقرير ؛ أى : قد علِمْتَ يا محمدُ ، وتيَقَّنْتَ .

﴿ **أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ﴾ فيه إحاطةُ علمِه بالعالَمِ العُلْوِىِّ والعالَمِ السُّفْلِىِّ ، وهذه مرتبةُ العلمِ .

﴿ **إِنَّ ذَلِكَ** ﴾ ؛ أى : الذى فى السماءِ والأرضِ من معلوماتِه .

﴿ **فِى كِتَابٍ** ﴾ ؛ أى : مكتوبٌ عندَه فى أمِّ الكتابِ ، وهذه مرتبةُ الكتابةِ .

﴿ **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ ؛ أى : أن إحاطةَ علمِه بما فى السماءِ والأرضِ ، وكتابتَه ، يسيرٌ عليه .

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : أن فيها إثباتَ علمِ اللهِ بالأشياءِ وكتابتِها فى اللوحِ المحفوظِ ، وهذا هو ما تَتَضَمَّنُه الدرجةُ الأولى .

واسْتَدَلَّ الشيخُ أيضًا بقولِه تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ** ﴾ مِن قَحْطِ مَطَرٍ ، وضعفِ نَباتٍ ، ونَقْصِ ثِمارٍ .

= تجده تُجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .
قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : إسناده صحيح .
وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٩٥٧) : صحيح .

....

﴿ **وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ** ﴾ بالآلامِ والأسْقامِ وضِيقِ العيشِ .

﴿ **إِلَّا فِي كِتَابٍ** ﴾ ؛ أى : إلا وهى مكتوبةٌ فى اللوحِ المحفوظِ .

﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا** ﴾ ؛ أى : قبلَ أن نَخْلُقَها ونُوجِدَها .

﴿ **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ ؛ أى : أن إثباتَها فى الكتابِ على كثرتِها يسيرٌ على اللهِ سبحانَه .

والشاهدُ من الآيةِ الكريمةِ : أن فيها دليلًا على كتابةِ الحوادثِ فى اللوحِ المحفوظِ قبلَ وقوعِها ، ويَتَضَمَّنُ ذلك علمَه بها قبلَ الكتابةِ ، فهى دليلٌ على مرتبتَي العلمِ والكتابةِ .

ثم بعدَ ذلك أشار الشيخُ رحِمه اللهُ إلى أن التقديرَ نوعان .

تقديرٌ عامٌّ شاملٌ لكلِّ كائنٍ ، وهو الذى تقَدَّم الكلامُ عليه بأدلتِه ، وهو المكتوبُ فى اللوحِ المحفوظِ .

وتقديرٌ خاصٌّ ، وهو تفصيلٌ للقدَرِ العامِّ ، وهو ثلاثةُ أنواعٍ :

تقديرٌ عُمُرىٌّ ، وتقديرٌ حَوْلىٌّ ، وتقديرٌ يومىٌّ .

هذا معنى قولِ الشيخِ : (**وهذا التقديرُ التابعُ لعلمِه سبحانَه يكونُ فى مواضعَ جملةً**) ؛ أى : تقديرًا عامًّا ، وهو المكتوبُ فى اللوحِ المحفوظِ ، يَعُمُّ جميعَ المخلوقاتِ .

(**وتفصيلًا**) ؛ أى : تقديرًا خاصًّا مُفَصِّلًا للتقديرِ العامِّ ، وهو :

١- التقديرُ العُمُرىُّ ، كما فى حديثِ ابنِ مسعودٍ فى شأنِ ما يُكْتَبُ على الجنينِ فى بطنِ أمِّه من أربعِ الكلماتِ : رزقُه وأجَلُه وعملُه ، وشقاوتُه أو سعادتُه[(١)] .

---

(١) روى البخارى (٦٥٩٤) ، ومسلم ٢٠٣٦/٤ (٢٦٤٣) ، عن عبد الله بن مسعود =

....

٢- تقديرٌ حوليٌّ ، وهو ما يُقَدَّرُ فى ليلةِ القَدْرِ من وقائعِ العامِ ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : ٤] .

٣- تقديرٌ يوميٌّ ، وهو ما يُقَدَّرُ من حوادثِ اليومِ من حياةٍ وموتٍ ، وعزٍّ وذُلٍّ ، إلى غيرِ ذلك . كما فى قولِه تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] .

وعن ابنِ عباسٍ رضِى اللهُ عنهما : إن اللهَ خَلَقَ لوحًا محفوظًا مِن دُرَّةٍ بيضاءَ ، دَفَّتاه من ياقوتةٍ حمراءَ ، قَلَمُه نورٌ ، وكتابتُه نورٌ ، عَرْضُه ما بينَ السماءِ والأرضِ ، يَنْظُرُ فيه كلَّ يومٍ ثلاثَمائةٍ وستين نظرةً ، يُحْيِى ويُمِيتُ ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ ، ويَفْعَلُ ما يشاءُ ، فكذلك قولُه سبحانَه : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ . رواه عبدُ الرزاقِ ، وابنُ المنذرِ ، والطبرانىُّ ، والحاكمُ[1] .

وقولُه : (**فهذا التقديرُ**) ؛ أى : الذى سبَق بيانُه بنوعَيْهِ العامِّ والخاصِّ (قد كان يُنْكِرُه غُلاةُ القَدَريةِ) ؛ أى : المبالِغون فى نفيِ القَدَرِ ، فيُنكِرون علمَ اللهِ بالأشياءِ قبلَ وجودِها ، وكتابتَه لها فى اللوحِ المحفوظِ وغيرِه ، ويقولون : إنَّ اللهَ أمَرَ ونَهَى ، وهو لا يَعْلَمُ مَن يُطِيعُه مِمَّن يَعْصِيه ، فالأمرُ أُنُفٌ ؛ أى : مُسْتَأْنَفٌ ، لم يَسْبِقْ فى علمِ اللهِ وتقديرِه .

= رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يُجمعُ خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون فى ذلك عَلَقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مُضْغة مثل ذلك ، ثم يُرسل المَلَكُ فينفُخُ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقِهِ ، وأجلِهِ ، وعملِهِ ، وشقىٌّ أو سعيدٌ ... الحديث » .

(١) رواه ابن جرير ٢٧/ ٣٥، والحاكم ٢/٥١٩ . وقال الشيخ الألبانى ، رحمه الله فى تحقيق شرح الطحاوية ، حاشية (٢٧٠) : ضعيف ، رواه الطبرانى فى « المعجم الكبير » (٣/١٦٥/١) ،=

....

وهؤلاء كفَّرهم الأئمةُ[(١)]، لكنهم انْقَرَضوا ، ولهذا قال الشيخُ : (**ومُنْكِروه اليومَ قليلٌ**) وبَقِيَت الفرقةُ التى تُقِرُّ بالعلمِ ، ولكن تَنْفِى دخولَ أفعالِ العبادِ فى القَدَرِ ، وتَزْعُمُ أنها مخلوقةٌ لهم استقلالًا ، لم يَخْلُقْها اللهُ ، ولم يُرِدْها ، كما يأتى بيانُه .

* * *

= وفيه زياد بن عبد اللّه وهو البكائى عن ليث وهو ابن أبى سليم وكلاهما ضعيف ، وقد رواه (٢/٨٨/٣) من طريق أخرى نحوه عن ابن عباس موقوفًا عليه ، وإسناده يحتمل التحسين ، فإن رجالهم كلهم ثقات غير بكير بن شهاب وهو الكوفى قال فيه أبو حاتم : « شيخ » . وذكره ابن حبان فى الثقات ٣٢/٢ . اهـ

وعزاه السيوطى فى الدر المنثور ٦٩٩/٧ إلى ابن المنذر وأبى الشيخ فى العظمة وابن مردوية .

(١) قال الإمام الشافعى رحمه اللّه : ناظِروا القدرية بالعلم ، فإن أَقَرُّوا به خُصِمُوا ، وإن أَنكَرُوا كفَرُوا . وقد نقل القاضى عياض رحمه اللّه فى « إكمال المُعْلِم » ٢٠٢/١ إجماع الأئمة على كفر القَدَرية الأُوَل الذين نَفَوْا تقدُّم علم اللّه تعالى بالكائنات . وانظر شرح مسلم للنووى ١٩٢/١ .

وقال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه اللّه فى شرح الواسطية ٢/ ٢٠٣، ٢٠٤: « هذا التقدير » ؛ يعنى : العلم والكتابة ، وينكره غلاة القدرية قديمًا ، ويقولون : إن اللّه لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها ، وأنها لم تكتب ، ويقولون : إن الأمر أنف ؛ أى : مستأنف ، لكن متأخروهم أقروا بالعلم والكتابة ، وأنكروا المشيئة والخلق ، وهذا بالنسبة لأفعال المخلوقين . أما بالنسبة لأفعال اللّه ؛ فلا أحد ينكر أن اللّه عالم بها قبل وقوعها .

وهؤلاء الذين ينكرون علم اللّه بأفعال العبد حكمهم فى الشرع أنهم كفار ؛ لأنهم كذبوا قول اللّه تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٨٢]، وغيرها من الآيات ، وخالفوا المعلوم بالضرورة من الدين . اهـ

الدرجةُ الثانيةُ ، وما تَتَضَمَّنُه

وأما الدرجةُ الثانيةُ فهى مشيئةُ اللهِ النافذةُ ، وقدرتُه الشاملةُ ، وهو الإيمانُ بأن ما شاء اللهُ كان ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ ، وأنه ما فى السماواتِ وما فى الأرضِ من حركةٍ ، ولا سكونٍ إلا بمشيئةِ اللهِ سبحانَه .

لا يكونُ فى مُلْكِه ما لا يُرِيدُ ، وأنه سبحانَه على كلِّ شىءٍ قديرٌ من الموجوداتِ والمعدوماتِ ، فما من مخلوقٍ فى الأرضِ ، ولا فى السماءِ إلا اللهُ خالقُه سبحانَه ، لا خالقَ غيرُه ، ولا ربَّ سِواه .

الشرحُ :

هذا بيانٌ للمرتبةِ الثالثةِ(*) والمرتبةِ الرابعةِ من مراتبِ القدرِ ، أشار إلى الثالثةِ بقولِه : (**فهى مشيئةُ اللهِ النافذةُ ، وقدرتُه الشاملةُ**) والنافذةُ هى الماضيةُ التى لا رادَّ لها ، والشاملةُ هى العامةُ لكلِّ شىءٍ من الموجوداتِ والمعدوماتِ .

وقولُه : (**وهو الإيمانُ**) ؛ أى : ومعنى الإيمانِ بهذه المرتبةِ اعتقادُ :

(**أن ما شاء اللهُ كان**) ؛ أى : وُجِد .

(**وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ**) ؛ أى : لم يُوجَدْ .

(**وأنه ما فى السماواتِ من حركةٍ ، ولا سكونٍ إلا بمشيئةِ اللهِ**) ؛ أى : لا يَحْصُلُ شىءٌ من ذلك إلا وقد شاءَه اللهُ سبحانَه .

(**لا يكونُ فى ملكِه ما لا يُرِيدُ**) وقوعَه كونًا وقَدَرًا .

(**وأنه سبحانَه على كلِّ شىءٍ قديرٌ من الموجوداتِ والمعدوماتِ**) لدخولِها

---

* اعتبرها المصنف رحمه اللّه الثانية ؛ لأنه جعل العلم والكتابة درجة واحدة (ف) .

....

* * *

تحتَ عمومِ (كلِّ شيءٍ) فاللهُ قد أخْبَر فى آياتٍ كثيرةٍ أنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ .

وقولُه : (فما من مخلوقٍ فى الأرضِ ، ولا فى السماءِ إلا اللهُ خالقُه سبحانَه) . هذا فيه إشارةٌ إلى المرتبةِ الرابعةِ ، وهى مرتبةُ الخلقِ والإيجادِ ، فكلُّ ما سِوَى اللهِ فهو مخلوقٌ ، وكلُّ الأفعالِ ؛ خيرِها وشرِّها ، صادرةٌ عن خَلْقِه وإحداثِه لها .

(لا خالقَ غيرُه ، ولا ربَّ سِواه) .

ولما فرَغَ الشيخُ من ذكرِ مراتبِ القدرِ نبَّه على مسائلَ تَتَعَلَّقُ بهذا الموضوعِ :

المسألةُ الأولى : أنه لا تَعارُضَ بينَ القَدَرِ والشرعِ .

المسألةُ الثانيةُ : لا تَعارُضَ بينَ تقديرِ اللهِ وقوعَ المعاصى ، وبُغْضِه لها .

المسألةُ الثالثةُ : لا تَعارُضَ بينَ تقديرِ اللهِ لأفعالِ العبادِ ، وكونِهم يَفْعَلُونها باختيارِهم .

١، ٢- لا تعارُضَ بينَ القَدَرِ والشَّرْعِ، ولا بينَ تَقْديرِه للمعاصي، وبُغْضِه لها

ومع ذلك فقد أمَرَ العبادَ بطاعتِه وطاعةِ رسلِهِ، ونهاهم عن معصيتِه، وهو سبحانَه يُحِبُّ المُتَّقِين والمُحْسِنين والمُقْسِطين، ويَرْضَى عن الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ، ولا يُحِبُّ الكافرين، ولا يَرْضَى عن القومِ الفاسِقِين، ولا يَأْمُرُ بالفَحْشاءِ، ولا يَرْضَى لعبادِه الكفرَ، ولا يُحِبُّ الفَسادَ.

الشرحُ :

لما قَرَّر الشيخُ رحِمه اللهُ القَدَرَ بمراتبِه الأربعِ: العلمِ، والكتابةِ، والمشيئةِ، والإرادةِ، والخلقِ والإيجادِ، وأنه ما مِن شيءٍ يَحْدُثُ إلا وقد علِمَه اللهُ، وكتَبه، وشاءه، وأراده، وأوْجَده بَيَّن هنا أنه لا تعارُضَ بينَ ذلك وبينَ كونِه أمَرَ العبادَ بطاعتِه، ونهاهم عن معصيتِه، ولا بينَ تقديرِه وقوعَ المعصيةِ وبُغْضِه لها.

فقولُه: (**ومع ذلك**)؛ أى: مع كونِه سبحانَه هو الذى علِم الأشياءَ، وقدَّرَها، وكتَبَها، وأرادها، وأوْجَدَها.

(**فقد أمَرَ العبادَ بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِه، ونهاهم عن معصيتِه**) كما دَلَّت على ذلك أدلةٌ كثيرةٌ من الكتابِ والسنةِ أمَرَ فيها بالطاعةِ، ونَهَى عن المعصيةِ.

ولا تعارُضَ فى ذلك بينَ شرعِه وقَدَرِه، كما يَظُنُّه بعضُ الضُّلّالِ الذين يُعارِضون بينَ الشرعِ والقدرِ.

يقولُ الشيخُ رحِمه اللهُ فى هذا الموضوعِ فى رسالتِهِ التَّدْمُرِيَّةِ[١]: وأهلُ الضَّلالِ

---

(١) الرِّسالة التَّدْمُرية هى من تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه، والظاهر أن هذه =

....

انْقَسَموا إلى فِرَقٍ ؛ مَجُوسِيَّةٍ ، ومُشْرِكيةٍ ، وإبليسيةٍ .

فالمجوسيةُ : الذين كذَّبوا بقَدَرِ اللهِ ، وإن آمَنوا بأمْرِه ونَهْيِه ، فغُلاتُهم أنْكَروا العلمَ والكتابَ ، ومُقْتَصِدوهم أنْكَروا عمومَ مشيئتِه وخلقِه وقدرتِه ، وهؤلاء هم المعتزلةُ ، ومَن وافَقَهم .

والفرقةُ الثانيةُ « المشركيةُ » الذين أقَرُّوا بالقضاءِ والقدرِ ، وأنْكَروا الأمرَ والنهىَ ، قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ الآية [الأنعام : ١٤٨] ، فمَن احْتَجَّ على تعطيلِ الأمرِ والنهيِ ، فهو من هؤلاء .

والفرقة الثالثةُ ، وهم الإبليسيةُ الذين أقَرُّوا بالأمرَيْنِ ، لكن جعَلُوا هذا تناقُضًا من الربِّ سبحانَه وتعالى ، وطعَنوا فى حكمتِه وعدلِه ، كما يُذْكَرُ ذلك عن إبليسَ مُقَدِّمِهم .

= الرسالة وقعت ضمن أجوبة ، أجاب بها الشيخ رحمه الله أهل تَدْمُرَ .

وقد بيَّن رحِمه الله سبب تأليف هذه الرسالة بقوله رحمه الله ص ١١، من الرسالة التدمرية ، مع شرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :

« أما بعد ، فقد سألنى من تعيَّنت إجابتُهم أن أكتب لهم مضمون ما سمعوه منِّى فى بعض المجالس من الكلام فى التوحيد والصفات وفى الشرع والقدر » .

ثم علَّل وجوب إجابتهم بأمرين :

أحدهما : مسيس الحاجة إلى تحقيق هذين الأصلين ، لأنه لا بدَّ أن يخطر على القلب فى هذين الأصلين ما يحتاج معه إلى بيان الهدى من الضَّلال والحق من الباطل .

الثانى : كثرة اضطراب أقوال الناس فيهما ، والخوض فيهما بالحق تارة وبالباطل تارات ، فيلتبس الحق بالباطل على كثير من الناس ، ومن ثمَّ احتيج إلى البيان .

وممن شرح هذه الرسالة فضيلة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله ، وهذا الشرح مطبوع عندنا فى مصر ، طبعته دار الآثار .

....

والمقصودُ أن هذا مما تَقَوَّلَهُ أهلُ الضلالِ ، وأمَّا أهلُ الهُدَى والفَلاحِ فيُؤْمِنون بهذا وهذا ، ويُؤْمِنون بأنَّ اللهَ خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومَلِيكُه ، وما شاء كان ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وأحاط بكلِّ شيءٍ عِلْمًا ، وكلَّ شيءٍ أحْصاه في إمامٍ مبينٍ . اهـ(١)

وقولُه : (وهو سبحانَه يُحِبُّ المُتَّقِين والمُحْسِنين والمُقسِطين) ؛ أي :

(١) الرسالة التدمرية بشرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله ص ٨٩، ٩٠ .

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله في حاشيته على التنبيهات اللطيفة ص ٤١ : من أصول أهل السنة والجماعة إثبات مشيئة الرب العامة ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لا يكن ، كما أن من أصولهم الثابتة صفة الإرادة وهي قسمان :

إرادة كونية قدرية . كالمشيئة ، وهذه الإرادة لا يخرج عن مُرادها شيء كالمشيئة ، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء ، فالطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال كلها بمشيئة الرب وإرادته الكونية .

وقد ذكر سبحانه هذه الإرادة في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية ، وقوله : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ .

القسم الثاني من الإرادة : الإرادة الشرعية الدينية . وتتضمن محبة الرب للمراد ورضاه له ، وهذه الإرادة لا يلزم وجود مرادها بل قد يوجد ، وقد لا يوجد . فاللَّه سبحانه قد أراد من عباده شرعًا أن يعبدوه ويُطيعوه . فمنهم من عبده وأطاعه ، ومنهم من لم يفعل ذلك .

وبهذا يعلم أن الإرادتين تجتمعان في حق المطيع . وتنفرد الإرادة الكونية في حق العاصي . لأن اللَّه لم يُرد منه المعصية شرعًا بل قد نهاه عنها ، وقد ذكر اللَّه هذه الإرادة بقوله : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ، وقوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ .

ومن عرف الفرق بين هاتين الإرادتين سَلِم من شُبهات كثيرة زلَّت فيها أقدام وضَلَّت فيها أفهام . اهـ

....

* * *

يُحِبُّ مَن اتَّصَفَ بالصفاتِ الحميدةِ ، كالتقوى والإحسانِ والقسْطِ .

(**ويَرْضَى عن الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ**) كما أخْبَر بذلك فى آياتٍ كثيرةٍ لما اتَّصَفوا به من الإيمانِ والعملِ الصالحِ .

(**ولا يُحِبُّ الكافرين ، ولا يَرْضَى عن القومِ الفاسِقِين**) ؛ أى : لا يَرْضَى عمَّن اتَّصَف بالصفاتِ التى يَبْغَضُها كالكفرِ والفسوقِ وسائرِ الصفاتِ الذَّميمةِ .

(**ولا يَأْمُرُ بالفَحْشاءِ**) وهى ما تَناهَى قُبْحُه من الأقوالِ والأفعالِ .

(**ولا يَرْضَى لعبادِه الكفرَ ، ولا يُحِبُّ الفسادَ**) لقبحِهما ، ولما فيهما من المَضَرَّةِ على العبادِ والبلادِ .

ويُرِيدُ الشيخُ رحِمه اللهُ بهذا الكلامِ الردَّ على مَن زعَم أن الإرادةَ والمحبةَ بينَهما تلازمٌ ، فإذا أراد اللهُ شيئًا فقد أحَبَّه ، وإذا شاء شيئًا فقد أحَبَّه .

وهذا قولٌ باطلٌ ، والقولُ الحقُّ أنه لا تَلازُمَ بينَ الإرادةِ والمحبةِ ، أو بينَ المشيئةِ والمحبةِ – أعنى : الإرادةَ والمشيئةَ الكونيةَ – فقد يَشاءُ اللهُ ما لا يُحبُّه ، وقد يُحِبُّ ما لا يَشاءُ وجودَه .

مثالُ الأولِ : مشيئةُ وجودِ إبليسَ وجنودِه ، ومشيئتُه العامةُ لما فى الكونِ مع بُغْضِه لبعضِه .

ومثالُ الثانى : محبتُهُ لإيمانِ الكفارِ وطاعاتِ الكفارِ ، ولم يَشَأْ وجودَ ذلك منهم ، ولو شاءَه لوُجِد.

٣- لا تَنافِى بينَ إثباتِ القَدَرِ، وإسنادِ أفعالِ العبادِ إليهم حقيقةً، وأنهم يَفْعَلونها باختيارِهم

والعبادُ فاعِلُون حقيقةً، واللهُ خالقُ أفعالِهم، والعبدُ هو المؤمنُ والكافرُ والبَرُّ والفاجرُ والمُصَلِّى والصائمُ.

وللعبادِ قدرةٌ على أعمالِهم، ولهم إرادةٌ، واللهُ خالقُهم وخالقُ قدرتِهم وإرادتِهم، كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

وهذه الدرجةُ من القدرِ يُكَذِّبُ بها عامَّةُ القَدَريةِ الذين سمَّاهم النبىُّ ﷺ مجوسَ هذه الأمةِ، ويَغْلُو فيها قومٌ من أهلِ الإثباتِ حتى سَلَبوا العبدَ قدرتَه واختيارَه، ويُخْرِجون عن أفعالِ اللهِ وأحكامِه حِكَمَها ومصالِحَها.

الشرحُ:

أراد الشيخُ رحِمه اللهُ بهذا الكلامِ أنْ يُبَيِّنَ أنه لا تَنافِىَ بينَ إثباتِ القدرِ بجميعِ مراتبِه السابقةِ، وبينَ كونِ العبادِ يَفْعَلون باختيارِهم، ويَعْمَلون بإرادتِهم.

وقصدُه بهذا الردُّ على مَن زعَم أن إثباتَ ذلك يَلْزَمُ منه التناقضُ، ومِن ثَمَّ ذَهَبَت طائفةٌ منهم إلى الغُلُوِّ فى إثباتِ القدرِ، حتى سلَبُوا العبدَ قدرتَه واختيـارَه[1].

---

(١) وهم الجبرية من الجهمية وغيرهم.

وهذا القول يؤدى إلى القول بوَحْدة الوجود، وأن الخالق هو الله، ثم يؤدى إلى قول من =

....

وذهَبَتِ الطائفةُ الثانيةُ إلى الغُلُوِّ فى إثباتِ أفعالِ العبادِ واختيارِهم حتى جعَلُوهم هم الخالقين لها ، ولا تعلُّقَ لها بمشيئةِ اللهِ ، ولا تَدْخُلُ تحتَ قدرتِه(1) .

ويقالُ للطائفةِ الأولى : الجَبْرِيةُ . لأنهم يقولون : إن العبدَ مُجْبَرٌ على ما يَصْدُرُ منه ، لا اختيارَ له فيه .

ويقالُ للطائفةِ الثانيةِ النُّفاةُ ؛ لأنهم يَنْفُون القدرَ .

فقولُ الشيخِ رحِمه اللهُ : (**والعبادُ فاعلون حقيقةً**) . ردٌّ على الطائفةِ الأولى ، وهم الجبريةُ ؛ لأنهم يقولون : إن العبادَ ليسوا فاعلين حقيقةً ، وإسنادُ الأفعالِ إليهم من بابِ المجازِ .

وقولُه : (**واللهُ خالقُ أفعالِهم**) . ردٌّ على الطائفةِ الثانيةِ القَدَريةِ النُّفاةِ ؛ لأنهم يقولون : إن اللهَ لم يَخْلُقْ أفعالَ العبادِ ، وإنما هم خلَقُوها استقلالًا ، دونَ مشيئةِ اللهِ ، وتقديرِه لها .

وقَولُه : (**والعبدُ هو المؤمنُ والكافرُ ، والبَرُّ والفاجرُ ، والمُصَلِّى والصائمُ ، وللعبادِ قدرةٌ على أعمالِهم ، ولهم إرادةٌ**) . ردٌّ على الجَبْرِيةِ ؛ أى : ليس العبادُ بمُجْبَرِين على تلك الأعمالِ ؛ لأنه لو كان كذلك لَمَا صَحَّ وصفُهم بها ؛ لأن فعلَ المُجْبَرِ لا يُنْسَبُ إليه ، ولا يُوصَفُ به ، ولا يَسْتَحِقُّ عليه الثوابَ ، أو العقابَ .

وقولُه : (**واللهُ خالقُهم وخالقُ قدرتِهم وإرادتِهم**) . ردٌّ على القَدَريةِ النُّفاةِ ،

= أبطل الباطل ؛ لأن العباد منهم الزانى ، ومنهم السارق ، ومنهم شارب الخمر ، ومنهم المعتدى بالظلم ، فحاشا أن تكون هذه الأفعال منسوبة إلى اللّه ، وله لوزام باطلة أخرى . وانظر شرح الواسطية لابن عثيمين رحمه اللّه ٢/٢١٩ .

(١) وهؤلاء هم القدرية من المعتزلة وغيرهم .

....

حيث زعَموا أنَّ العبادَ يَخْلُقون أفعالَهم بدونِ إرادةِ اللهِ ومشيئتِهِ ، كما سبَق .

ثم استَدَل الشيخُ في الردِّ على الطائفتين بقولِه تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

فقولُه تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ . فيه الردُّ على الجَبْرِيةِ ؛ لأنه أثْبَت للعبادِ مشيئةً ، وهم يقولون : لا مشيئةَ لهم .

وقولُه : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . فيه الردُّ على القَدَريةِ القائلين بأن مشيئةَ العبدِ مُسْتَقِلَّةٌ بإيجادِ الفعلِ ، من غيرِ توقُّفٍ على مشيئةِ اللهِ ، وهذا باطلٌ ؛ لأنَّ اللهَ علَّق مشيئةَ العبادِ على مشيئتِهِ سبحانَه ، ورَبَطَها بها .

قولُه : (وهذه الدرجةُ من القدرِ) . وهي عمومُ مشيئتِهِ وإرادتِهِ لكلِّ شيءٍ ، وعمومُ خلقِه لكلِّ شيءٍ ، وأن العبادَ فاعلون حقيقةً ، واللهُ خالقُهم وخالقُ أفعالِهم .

(يُكَذِّبُ بها عامةُ القَدَريةِ) النُّفاةِ حيث يَزْعُمون أن العبدَ يخْلُقُ فعلَ نفسِه، بدونِ مشيئةِ اللهِ وإرادتِه .

(الذين سمَّاهم النبيُّ ﷺ مجوسَ هذه الأمةِ)[1] لمشابهتِهم المجوسَ الذين يُثْبِتون خالِقَيْنِ ، هما النورُ والظُّلْمةُ ، فيقولون : إن الخيرَ من فعْلِ النورِ ، والشرَّ من فعْلِ الظلمةِ، فصاروا ثَنَوِيَّةً .

وكذلك هؤلاء القَدَريةُ جعَلوا خالقًا مع اللهِ ، حيث زعَموا أن العبادَ يَخْلُقون أفعالَهم بدونِ إرادةِ اللهِ ومشيئتِه ، بل يَسْتَقِلُّون بخَلْقِها .

---

(١) روى أحمد ٢/ ٨٦، وأبو داود (٤٦٩٢) ، أن رسول الله ﷺ قال : « لكل أمة مجوس ، ومجوس أمتي الذين يقولون : لا قدر ...» . وقال الشيخ الألباني ، رحمه الله في صحيح الجامع (٥١٦٣) : حسن .

....

ولم يَثْبُتْ أن النبيَّ ﷺ سَمَّاهم مجوسَ هذه الأمةِ ؛ لتأخُّرِ ظهورِهم عن وقتِ النبيِّ ﷺ[1] ، فأكْثَرُ ما يَجِئ من ذمِّهم إنما هو موقوفٌ على الصحابةِ[2] .

(١) قال الشاطبي رحمه الله في « الاعتصام » ٣/ ٢٢١ : قال صاحب المغني : إنه لم يصح في ذلك شيء . اهـ

والمقصود بالمغني : المغني عن الحفظ والكتاب ، لأبي حفص عمر بن بدر الموصلي رحمه الله ، ت : ٦٢٢ هـ .

وقال الشاطبي أيضًا رحمه الله في الاعتصام ص ٣/ ٢١٩ : وهذا الحديث غير صحيح عند أهل النقل . أهـ .

وانظر بحث الشيخ مشهور بن حسن حفظه الله في تحقيقه لكتاب « الاعتصام » ٣/٢١٩ - ٢٢١ في هذا الحديث .

(٢) ومن ذلك :

١- ما رواه مسلم ١/٣٦ (٨) ، أن ابن عمر رضي الله عنهما قال : فإذا لقِيت أولئك فأخبرهم أني بريئ منهم ، وأنهم بُرَآءُ مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قَبِل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

٢- وما رواه أبو داود (٤٦١٣) ، عن نافع ، قال : كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه ، فكتب إليه عبد الله بن عمر : إنه بلغني أنك تكَلَّمتَ في شيء من القدر ، فإياك أن تكتب إليَّ ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر » .

٣- وما رواه الترمذي (٢١٥٢) ، وابن ماجه (٤٠٦١) ، عن نافع ، أن ابن عمر جاءه رجل فقال : إن فلانًا يقرأ عليك السلام . فقال له : إنه بلغني أنه قد أحدث ، فإن كان قد أحدث فلا تقرئه مني السلام ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكون في الأمة - أو في أمتي - خَسْف ، أو مَسْخ ، أو قذف ، في أهل القدر » . =

....

وقولُه : (ويَغْلُو فيها) أي : هذه الدرجةِ من القدرِ ، والغُلُوُّ هو الزيادةُ في الشيءِ عن الحدِّ المطلوبِ .

(قومٌ من أهلِ الإثباتِ) فاعلُ « يَغْلو »، والمرادُ بهم الجَبْريةُ الذين قالوا: إنَّ العبدَ مُجْبَرٌ على فعلِه .

(حتى سلَبُوا العبدَ قدرتَه واختيارَه) .

= قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

٤- وما رواه أحمد ٥/١٨٢، ١٨٥، ١٨٩ (٢١٤٨١ ، ٢١٥٠٣، ٢١٥٤٦)، وأبو داود (٤٦٩٩) ، وابن ماجه (٧٧) ، عن ابن الديلمي قال : أتيت أُبَيَّ بن كعب ، فقلت له : وقع في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي ، فقال : لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالمهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو متَّ على غير هذا لدخلت النار ، قال : ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك ، قال : ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، قال : ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك .

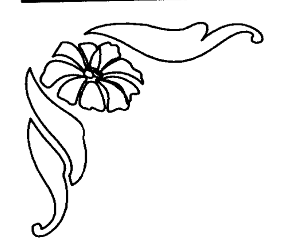
٥- وما رواه الحسن بن عرفة ص ٤٠٧ (١٠) ، واللالكائي في أصول أصول الاعتقاد ٤/ ٦٤٣ (ح ١١٦٢) ، وابن بطة في الإبانة ٢/ ١٩٠، ١٩١، عن عطاء بن أبي رباح قال : أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه ، فقلت له : تكلم في القدر فقال : أو قد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم : ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٨، ٤٩] أولئك شرار هذه الأمة ، فلا تعودوا مرضاهم ، ولا تصلوا على موتاهم ، إن رأيت أحدًا منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين . وانظر معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي ٣/٩٦١ - ٩٦٨ .

....

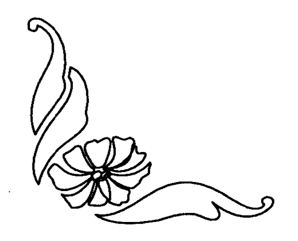
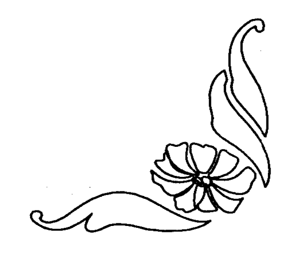
* * *

فالأوَّلون غلَوْا فى إثباتِ أفعالِ العبادِ حتى أخْرَجوها عن مشيئةِ اللهِ ، وهؤلاء غَلَوْا فى نفيِ أفعالِ العبادِ حتى سَلَبُوهمُ القدرةَ والاختيارَ .

وقولُه : (**ويُخْرِجون عن أفعالِ اللهِ وأحكامِه حِكَمَها ومَصالحَها**) . جمعُ حِكْمةٍ ومَصْلحةٍ ؛ أى: أن الجَبْرِيةَ فى مذهبِهم هذا حينَما نفَوْا أفعالَ العبادِ ، وسَلَبوهم القدرةَ والاختيارَ نفَوْا حكمةَ اللهِ فى أمرِه ونهيِه ، وثوابِه وعقابِه ، فقالوا: إنهُ يثِيبُ ، أو يُعاقِبُ العبادَ على ما ليس مِن فعلِهم، ويَأْمُرُهم بما لا يَقْدِرون عليهِ فاتَّهموا اللهَ بالظلم والعَبَثِ ، تَعَالى اللَّهُ عما يقولون عُلُوًّا كبيرًا .




حقيقةُ الإِيمانِ، وحكمُ مُرْتَكِبِ الكبيرةِ

حقيقةُ الإيمانِ، وحكمُ مُرْتَكِبِ الكبيرةِ

فصلٌ

ومن أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ أن الدِّينَ والإيمانَ قولٌ وعملٌ ؛ قولُ القلبِ واللسانِ ، وعملُ القلبِ واللسانِ والجوارحِ .

وأن الإيمانَ يَزيدُ بالطاعةِ ، ويَنْقُصُ بالمعصيةِ .

وهم مع ذلك لا يُكَفِّرون أهلَ القِبْلةِ بمطلقِ المعاصي والكبائرِ ، كما يَفْعَلُه الخوارجُ ، بل الأُخُوَّةُ الإيمانيةُ ثابتةٌ مع المعاصى ، كما قال سبحانَه فى آيةِ القِصاصِ : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

الشرحُ :

قولُه: (ومِن أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ) ؛ أى : القواعدِ التى بُنِيَت عليها عقيدتُهم .

(أن الديـنَ) هو لغةً: الذُّلُّ والانْقيادُ.

وشَرعًا: هوما أَمَرَ اللهُ به.

(والإيمانُ) لغةً : التَّصْديقُ[1] .

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله فى شرح الواسطية ٢/ ٢٢٩، ٢٣٠: وأما الإيمان فأكثر أهل العلم يقولون : إن الإيمان فى اللغة التصديق .
ولكن فى هذا نظر ؛ لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة ؛ فإنها تتعدى بتعديتها ، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه ، والإيمان لا يتعدى بنفسه ؛ فتقول مثلًا : صدقته ، ولا تقول : آمنته ! بل تقول : آمنت به . أو : آمنت له . فلا يمكن أن نفسر فعلًا لازمًا لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعد ينصب المفعول به بنفسه ، ثم إن كلمة (صدقت) لا تعطى معنى كلمة =

وقال : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ .

ولا يَسلُبُون الفاسقَ المِلِّيَّ الإسلامَ بالكُلِّيةِ ، ولا يُخَلِّدونه فى النارِ ، كما تقولُه المعتزلةُ ، بل الفاسقُ يَدْخُلُ فى اسمِ الإيمانِ المُطْلَق ، كما فى قولِه تعالى: ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ .

وقد لا يَدْخُلُ فى اسمِ الإيمانِ المطلقِ ، كما فى قولِة تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾

وقولِه ﷺ : « لا يَزْنِى الزانى حينَ يَزْنِى ، وهو مؤمنٌ ، ولا يَسْرِقُ السارقُ حينَ يَسْرِقُ ، وهو مؤمنٌ ولا يَشْرَبُ الخمرَ حينَ يَشْرَبُها ، وهومؤمنٌ »[1].

ونقولُ : هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ ، أو مؤمنٌ بإيمانِهِ ، فاسقٌ بكبيرتِه ، فلا يُعْطَى الاسمَ المطلَقَ ، ولا يُسْلَبُ مُطْلَقُ الاسم.

= (آمنت) ؛ فإن (آمنت) تدل على طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت) . ولهذا ؛ لو فسر الإيمان بالإقرار ؛ لكان أجود ؛ فنقول : الإيمان : الإقرار ، ولا إقرار إلا بتصديق ؛ فتقول : أقرَّ به ؛ كما تقول : آمن به ، وأقرَّ له ؛ كما تقول : آمن له . اهـ

وقد تقدم ذكر ذلك ص ٥٩، حاشية من كلام الشيخ ابن عثيمين رحمه الله أيضًا ، فى شرح الواسطية ١/ ٥٤، ٥٥ .

(١) البخارى (٢٤٧٥) ، ومسلم ١/ ٧٦ (٥٧) .

....

وشرعًا هو ما ذَكَرَه الشيخُ بقولِه: (**قولٌ وعملٌ، قولُ القلبِ واللسانِ والجوارحِ**) . هذا هو تعريفُ الإيمانِ عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ: أنه قولٌ وعملٌ.

فالقولُ قسمانِ: قولُ القلبِ، وهوالاعتقادُ، وقولُ اللسانِ وهوالتكلُّمُ بكلمةِ الإسلامِ .

والعملُ قسمان: عملُ القَلبِ وهو نيةٌ وإخلاصٌ، وعملُ الجوارحِ ؛ أى: الأعضاءِ ، كالصلاةِ والحجِّ والجهادِ.

والفرقُ بيـنَ أقوالِ القلبِ وأعمالِه: أن أقوالَه هى العقائدُ التى يَعْتَرِفُ بها، ويَعْتَقِدُها.

وأما أعمالُ القلبِ فهى حرَكَتُهُ التى يُحِبُّها اللهُ ورسولُه، وهى محبةُ الخيرِ، وإرادتُهُ الجازمةُ، وكراهيةُ الشرِّ ، والعَزْمُ على تركِه.

وأعمالُ القلبِ تَنْشَأُ عنها أعمالُ الجوارحِ ، وأقوالُ اللسانِ(1)، ومِن ثَمَّ صارت أقوالُ اللسانِ وأعمالُ الجوارحِ من الإيمانِ.

---

(١) ودليل ذلك ما رواه البخارى (٥٢) ، ومسلم ١٢١٩/٣ (١٥٩٩) ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « الحلال بَيِّن ، والحرام بَيِّنٌ ، وبينهما مُشَبَّهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المُشَبَّهات استبرأ لدينه ، وعِرْضه ، ومن وقع فى الشُّبُهات كراعٍ يرعى حول الحِمَى ، يُوشِكُ أن يُواقِعَه ، ألا وإن لكلِّ مَلِكٍ حِمَى ، ألا إن حمى اللَّه فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مُضْغة إذا صَلَحَت صَلَح الجسد كله ، وإذا فَسَدَت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

والشاهد من هذا الحديث : قوله ﷺ : « ألا وإن فى الجسد مضغة ..» قال النووى رحمه اللَّه فى شرح مسلم ٦/ ٣٣: ثم بين أهم الأمور ، وهو مراعاة القلب ، فقال ﷺ : « ألا وإن فى الجسد مضغة ... » فبين ﷺ أنه بصلاح القلب يصلح باقى الجسد ، وبفساده يفسد باقيه . اهـ =

....

أقوالُ الناسِ فى تعريفِ الإيمانِ

١- عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ: أنه اعتقادٌ بالقلبِ، ونُطْقٌ باللسانِ، وعملٌ بالأركانِ.

٢- عندَ المُرجئةِ : أنه اعتقادٌ بالقلبِ، ونُطْقٌ باللسانِ فقط.

٣- عندَ الكَرَّاميةِ(١) : أنه نطقٌ باللسانِ فقط.

٤- عندَ الجَبْرِيةِ: أنه الاعترافُ بالقلبِ، أو مجردُ المعرفةِ فى القلبِ.

٥- عندَ المعتزلةِ: أنه اعتقادُ القلبِ، ونطقُ اللسانِ، وعملُ الجوارحِ.

والفرقُ بينَهم؛ أى: المعتزلةِ وبينَ أَهلِ السنةِ : أن مُرتَكِبَ الكبيرةِ يُسْلَبُ اسمَ الإيمانِ بالكلية: ويُخلَّدُ فى النارِ عندَهم، وعندَ أهلِ السنَةِ لا يُسْلَبُ الإيمانَ بالكليةِ، بل هو مُؤْمنٌ، ناقصُ الإيمانِ، ولا يُخَلَّدُ فى النارِ إذا دخَلَها.

= وقال ابن حجر رحمه الله فى الفتح ١/ ١٢٨: وخص القلب بذلك ؛ لأنه أمير البدن ، وبصلاح الأمير تَصْلُح الرعية ، وبفساده تَفْسُد ، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب ، والحث على صلاحه . اهـ

(١) الكَرَّامية إحدى فرق المرجئة ، وسموا بذلك نسبة إلى محمد بن كرام من أهل سجستان وهم يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب ، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا فى عهد رسول الله ﷺ مؤمنين على الحقيقة ، وزعموا أن الكفر بالله هو جحوده وإنكاره باللسان ، وهم فرق الطريقة الإسحاقية ، العابدية . الهيصمية .. وغيرها ، وكانوا يثبتون الصفات إلا أنهم ينتهون فيها إلى التجسيم والتشبيه . انظر مذاهب الإسلاميين ١/ ٢٢٣، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٠١، الملل والنحل ١/ ١٤٤، رسالة فى الرد على الرافضة ص ١٦٣، ١٦٥ .

....

وكلُّ هذه أقوالٌ باطلةٌ، والحقُّ ما قاله أهلُ السنةِ والجماعةِ لأدلةٍ كثيرةٍ(١) .

وقولُه: (وأنَّ الإيمانَ يَزيدُ بالطاعةِ ويَنْقُصُ بالمعصيةِ) أى: ومن أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ أنَّ الإيمانَ يَتَفاضَلُ بالزيادةِ والنُّقصانِ، فتَزيدُه الطاعةُ ، ويَنْقُصُ بالمعصيةِ.

ويَدُلُّ على ذلك أدلةٌ كثيرةٌ، منها: قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال : ٢] ، وقولُه تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] وغيرُ ذلك من الأدلةِ(٢) .

---

(١) **قال الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله فى شرح الواسطية ٢/ ٢٣١، ٢٣٢:**

فإذا قال القائل : أين الدليل على أن الإيمان يشمل هذه الأشياء ؟

قلنا : قال النبى ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » ؛ فهذا قول القلب : أما عمل القلب واللسان والجوارح ؛ فدليله قول النبى ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ؛ أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » ؛ فهذا قول اللسان وعمله وعمل الجوارح ، والحياء عمل قلبى ، وهو انكسار يصيب الإنسان ويعتريه عند وجود ما يستلزم الحياء ، فتبين بهذا أن الإيمان يشمل هذه الأشياء كلها شرعًا .

ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة : ١٤٣] . قال المفسرون : أى صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فسمى الله تعالى الصلاة إيمانًا ؛ مع أنها عمل جوارح وعمل قلب وقول لسان هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة . اهـ

وروى ابن أبى حاتم ، أن مجاهدًا قال : الإيمان يزيد وينقص ، وهو قول وعمل . وحكى الإجماع على ذلك الشافعى وأحمد وأبو عبيد وغيرهم .

(٢) ومن ذلك ، من كتاب الله عز وجل :

١- قوله تعالى : ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ .

....

وقوله : (وهم مع ذلك لا يُكَفِّرُون أهلَ القبلةِ بِمُطْلَقِ المعاصى والكبائرِ ، كما

٢- وقوله تعالى : ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ .

٣- وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ .

ومن سنة النبى ﷺ :

١- ما رواه البخارى (٣٠٤) ، ومسلم ١/٨٦ (٧٩) ، عن ابن عمر رضى اللَّه عنهما ، أن النبى ﷺ وعظ النساء ، وقال لهن : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن » فأثبت نقص الدين.

٢- وما رواه البخارى (١٥) ، ومسلم ١/٦٧ (٤٤) ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

٣- وما رواه البخارى (٤٤) ، ومسلم ١/١٨٢ (١٩٣) ، عن أنس بن مالك رضى اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا اللَّه وفى قلبه مثقال بُرَّةٍ ، أو خَرْدَلةٍ ، أو ذَرَّة من إيمان » . فجعل النبى ﷺ الإيمان مُتفاضِلًا ، وقد بوَّب البخارى رحمه اللَّه على هذا الحديث بقوله : باب زيادة الإيمان ونقصانه .

وأمَّا الآثار عن الصحابة ، فقد قال ابن أبى العز فى شرح الطحاوية ص ٣٤٣، ٣٤٤:
وكلام الصحابة رضى اللَّه عنهم فى هذا المعنى كثير أيضًا ؛ منه قول أبى الدرداء رضى اللَّه عنه : من فِقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينتقص ، وكان عمر رضى اللَّه عنه يقول لأصحابه : هلموا نزدد إيمانًا ، فيذكرون اللَّه تعالى عز وجل . وكان ابن مسعود رضى اللَّه عنه يقول فى دعائه : اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا . وكان معاذ بن جبل رضى اللَّه عنه يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن ساعة . ومثله عن عبد اللَّه بن رواحة رضى اللَّه عنه . وصح عن عمار بن ياسر رضى اللَّه عنه أنه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان : إنصاف من نفسه ، والإنفاق من إقتار ، وبذل السلام للعالم ، ذكره البخارى رحمه اللَّه فى « صحيحه » . وفى هذا المقدار كفاية وباللَّه التوفيق .

....

يفْعَله الخوارجُ) ؛ أى : وأهلُ السنةِ والجماعةِ – مع أنَّهم يَرَونَ أن الأعمالَ داخلةٌ فى مُسَمَّى الإيمانِ ، وأنه يَزِيدُ بالطاعةِ ، ويَنْقُصُ بالمعصيةِ – هم مع ذلك لا يَحْكُمون بالكفرِ على مَن يَدَّعِى الإسلامَ ، ويَسْتَقْبِلُ الكعبةَ ، بمُطْلَقِ ارتكابِه المعاصى ، التى هى دونَ الشركِ والكفرِ .

(كما يَفعَلُه الخوارجُ) حيث قالوا : مَن فعَل كبيرةً فهو فى الدنيا كافرٌ ، وفى الآخرةِ مُخَلَّدٌ فى النارِ ، لا يَخْرُجُ منها .

فأهلُ السنةِ يَرَوْنَ **(أن الأُخُوَّةَ الإيمانيةَ ثابتةٌ مع المعاصى)** فالعاصى أخٌ لنا فى الإيمانِ .

واستَدَلَّ الشيخُ على ذلك بقولِه تعالى فى آيةِ القِصاصِ : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ المعنى : أن الجانىَ إذا عَفَا عنه المَجْنِىُّ عليه ، أو وَلِيُّه ، عن القِصاصِ ، ورضِى بأخْذِ المالِ فى الدِّيَةِ ، فعلى مُسْتَحِقِّ المالِ أن يَطْلُبَه بالمعروفِ ، من غيرِ عُنْفٍ .

وعلى مَن عليه المالُ أن يُؤَدِّيَه إليه مِن غيرِ مُماطَلةٍ .

ووجهُ الاستدلالِ من الآيةِ :

أنه سمَّى القاتلَ أخًا للمقتولِ ، مع أن القتلَ كبيرةٌ من كبائرِ الذنوبِ ، ومع هذا لم تَزُلْ معَه الأُخُوَّةُ الإيمانيةُ .

واستَدَلَّ الشيخُ بقولِه تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ الآيتين ، ووجهُ الاستدلالِ من الآيتين الكريمتَينِ أنه سمَّاهم مؤمنين مع وجودِ الاقتتالِ والبغيِ بينَهم ، وسمَّاهم إخوةً للمؤمنين بقولِه : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ .

....

ومعنى الآيةِ إجمالاً : أنه إذا تَقاتَل فريقانِ من المسلمين ، **فعلى المسلمين أن** يَسْعَوا فى الصلحِ بينَهم ، ويَدْعُوهم إلى حكمِ اللهِ .

فإن حصَل بعدَ ذلك التَّعَدِّى من إحدىِ الطائفتين على الأخرى ، **ولم تَقْبَلِ** الصلحَ كان على المسلمين أن يُقاتِلوا هذه الطائفةَ الباغيةَ حتى تَرْجِعَ إلى أمْرِ اللهِ وحُكْمِه .

فإن رجَعَت تلك الطائفةُ عن بغيِها ، وأجابَت الدعوةَ إلى كتابِ اللهِ وحُكْمِه فعلى المسلمين أن يَعْدِلوا بينَ الطائفتين فى الحكمِ ، ويَتَحَرَّوُا الصوابَ المطابِقَ لحُكْمِ اللهِ ، ويأْخُذوا على يدِ الطائفةِ الظالمةِ ، حتى تَخْرُجَ من الظلمِ ، وتُؤدِّىَ ما يَجِبُ عليها للأخرى .

ثم أمَرَ اللهُ سبحانَه المسلمين أن يَعْدِلوا فى كلِّ أمورِهم بعدَ أمرِهم بهذا العدلِ الخاصِّ بالطائفتين المُقْتَتِلَتَيْنِ ، فقال : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ؛ أى : اعْدِلوا ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ العادِلِين .

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ . جملةٌ مُسْتَأْنفَةٌ مُقَرِّرةٌ لما قبلَها من الأمرِ بالإصلاحِ ، والمعنى : أنهم يَرْجِعون إلى أمرٍ واحدٍ ، هو الإيمانُ ، فهم إِخْوَةٌ فى الدينِ (فأصلحوا بين أخويكم) يعنى : كلُّ مُسْلِمَيْنِ تَخاصَما وتَقاتَلا ، وتخصيصُ الاثنينِ بالذِّكْرِ لإثباتِ وجوبِ الإصلاحِ فيما فوقَهما بطريقِ الأَوْلَى .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى كلِّ أمورِكم ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بسببِ التقوى .

وقولُه : (**ولا يَسْلُبُون الفاسقَ المِلِّىَّ الإسلامَ بالكليةِ ، ولا يُخَلِّدُونه فى النارِ ، كما تقولُه المعتزلةُ**) ؛ أى : ومن أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ ؛

أنهم (**لا يَسْلُبون**) ؛ أى : لا يَنْفُون عن (**الفاسقِ**) الفِسْقُ : هو الخروجُ عن

....

طاعةِ اللهِ ، والمرادُ بالفاسقِ هنا الذى الذى يَرْتَكِبُ بعضَ الكبائرِ ؛ كشربِ الخمرِ ، والزِّنى ، والسرقةِ ، مع اعتقادِ حُرْمةِ ذلك .

(**الملىّ**) ؛ أى : الذى على مِلَّةِ الإسلامِ ، ولم يَرْتَكِبْ من الذنوبِ ما يُوجِبُ كفرَه ، فأهلُ السنةِ والجماعةِ لا يَسْلُبُونه الإسلامَ بالكليةِ ، فيَحْكُموا عليه بالكفرِ ، كما تقولُه الخوارجُ فى الدنيا .

(**ولا يُخَلِّدُونه فى النارِ**) ؛ أى : يَحْكُمون عليه بالخلودِ فى النارِ فى الآخرةِ ، وعدمِ خروجِه منها ، إذا دخَلَها .

(**كما تقولُه المعتزلةُ**) والخوارجُ ، فالمعتزلةُ يَرَوْنَ أن الفاسقَ لا يُسَمَّى مُسْلِمًا ، ولا كافرًا ، بل هو عندَهم بالمنزلةِ بينَ المنزلتَيْنِ ، هذا حكمُه عندَهم فى الدنيا .

وأما حكمُه عندَهم فى الآخِرةِ فهو مُخَلَّدٌ فى النارِ ، والأدلةُ على بُطْلانِ هذا المذهبِ كثيرةٌ ، وقد مَرَّ بعضُها ، وسيأتى ذِكْرُ بقيتِها .

ثم بيَّن الشيخُ رحِمه اللهُ الحكمَ الصحيحَ الذى يَنْطَبِقُ على الفاسقِ الملىِّ ، مُؤَيِّدًا بأدلتِه من الكتابِ والسنةِ ، فقال : (**بل الفاسقُ يَدْخُلُ فى اسمِ الإيمانِ المطلقِ**) ؛ أى : مُطْلَقِ الإيمانِ الذى يَدْخُلُ فيه الإيمانُ الكاملُ ، والإيمانُ الناقصُ ، كما فى قولِه : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ .

فإنَّ مَن أَعْتَقَ رقبةً مؤمنةً ، وإن كان المُعْتَقُ فاسقًا - فيما يُشْتَرَطُ فيه إيمانُ الرقبةِ المُعْتَقَةِ ؛ ككفارةِ الظِّهارِ والقتلِ - أجزَأه ذلك العتقُ باتفاقِ العلماءِ[1]؛ لأن ذلك يَدْخُلُ فى عمومِ الآيةِ ، وإن لم يَكُنِ المُعْتَقُ من أهلِ الإيمانِ الكاملِ .

---

(١) مراتب الإجماع لابن حزم ص ١٦٢، وانظر حاشية الرَّوض المُربع ٤٤٧/٧ .

....

وقولُه : (وقد لا يَدخُلُ) ؛ أى : الفاسقُ المِلِّيُّ

(فى اسم الإيمانِ المطلق) ؛ أى : إذا أُرِيد بالإيمانِ الإيمانُ الكاملُ ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآيةَ ؛ لأنَّ المرادَ بالإيمانِ المذكورِ فى الآيةِ الكريمةِ الإيمانُ الكاملُ ، فلا يَدْخُلُ فيه الفاسقُ ؛ لأنَّ إيمانَه ناقصٌ .

ولْنَرجِعْ إلى تفسيرِ الآيةِ الكريمةِ : (إنما) أداةُ حَصْرٍ ، تُثْبِتُ الحكمَ للمذكورِ ، وتَنْفِيه عما سواه .

(المؤمنون) ؛ أى : الإيمانَ الكاملَ .

(إذا ذُكِر الله) ؛ أى : ذُكِرَت عظمتُه وقدرتُه ، وما خَوَّف به مَن عَصَاه .

(وجلت قلوبهم) ؛ أى : خافَتْ

(وإذا تليت عليهم آياته) ؛ أى : قُرِئَتْ آياتُه المُنَزَّلةُ ، أو ذُكِرَت آياتُه الكونيةُ .

(زادتهم إيمانا) ؛ أى : زاد إيمانُهم بسببِ ذلك .

(وعلى ربهم يتوكلون) ؛ أى : يُفَوِّضون جميعَ أمورِهم إليه ، لا إلى غيرِه .

ثم ذَكَر الشيخُ دليلًا من السنةِ على أنَّ الفاسقَ المِلِّيَّ لا يَدْخُلُ فى اسمِ الإيمانِ الكاملِ ، وهو قولُه ﷺ : « لا يَزْنِى الزانى حينَ يَزْنِى ، وهو مؤمنٌ » إلخ ؛ أى كاملُ الإيمانِ ، فالمنفىُّ هنا عن الزانى والسارقِ والشاربِ هو كمالُ الإيمانِ ، لا جميعُ الإيمانِ ؛ بدليلِ الإجماعِ على توريثِ الزانى والسارقِ وشاربِ الخمرِ[1] .

فقد دلَّ الحديثُ على أنَّ هؤلاء حينَ فعلِهم المعصيةَ قد انْتَفَى الإيمانُ الكاملُ

(١) يُنظر التمهيد لابن عبد البر ٩/٢٤٣ .

....

عنهم ، وقد دلَّت النصوصُ الكثيرةُ من الكتابِ والسنةِ على أنَّهم غيرُ مُرْتَدِّين بذلك[1]، فعُلِم أنَّ الإيمانَ المنفيَّ فى هذا الحديثِ إنما هو كمالُ الإيمانِ الواجبِ .

---

(١) فمن نصوص الكتاب ما ذُكِر من الآيات ، ومن نصوص السنة :

١- ما رواه الإمام أحمد ٤٥٣/٢، ٥٠٦ (٩٥٨١، ١٠٥٢١) ، والبخارى (٢٤٤٩، ٦٥٣٤) ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت عنده لأخيه اليوم مظلِمة من عرض أو شىء فليتحلله منه اليوم ، قبل ألا يكون درهم ، ولا دينار ، إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه ، فطُرِحت عليه ، ثم أُلقِى فى النار » . فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفى المظلوم ، منها حقه .

٢- وما رواه مسلم رحمه الله ١٩٩٧/٤ (٢٥٨١) ، عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما المُفلس ؟ » . قالوا : المُفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « إن المفلس من أمتى ، يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت قبل أن يُقضى ما عليه ، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه . ثم طرح فى النار » .

٣- وما رواه البخارى (١٢٣٧، ٣٢٢٢، ٧٤٨٧) ، ومسلم ٩٤/١ (٩٤) ، عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبريل عليه السلام ، فبشَّرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة » . قلتُ : وإن زَنَى ، وإن سَرَقَ ؟ قال : « وإن زَنَى ، وإن سَرَقَ » .

وقال صاحب شرح الطحاوية رحمه الله ص ٣٢١:

إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفُر كفرًا ينقل عن الملة بالكلية ، كما قالت الخوارج ؛ إذ لو كفر كفرًا ينقل عن الملّة لكان مرتدًّا يقتل على كل حال ، ولا يُقبل عفو ولى القصاص ، ولا تجرى الحدود فى الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وهذا القول معلومٌ =

....

وقوله : (**ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذاتَ شرفٍ إلخ**) النُّهْبَةُ - بضمِّ النونِ - هى الشيءُ المنهوبُ ، والنَّهْبُ أخذُ المالِ بالغَلَبَةِ والقَهْرِ .

(**ذاتَ شَرَفٍ**) ؛ أى : قَدْرٍ ، وقيل : ذاتُ اسْتِشْرافٍ ، يَسْتَشْرِفُ الناسُ إليها ناظِرِين إليها ، رافِعِين أبصارَهم .

ثم إن الشيخَ رحِمه اللهُ ذكَر النتيجةَ للبحثِ السابقِ ، واسْتَخْلَص الحكمَ بقولِه فى حقِّ الفاسقِ المليِّ : (**ونقولُ : هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ ، أو مؤمنٌ بإيمانِه ، فاسِقٌ بكبيرتِه**) وهذا هو الحكمُ العادلُ ؛ جمعًا بينَ النصوصِ التى نفَتِ الإيمانَ عنه ، كحديثِ : (**لا يَزْنِى الزانى حيـنَ يَزْنِى ، وهو مؤمنٌ**) والنصوصِ التى أثْبَتَتِ الإيمانَ له ؛ كآيةِ القِصاصِ ، وآيةِ حُكْمِ البُغاةِ السابقتَيِنِ .

وبِناءً على ذلك (**فلا يُعْطَى الاسمَ الـمُطْلَقَ**) ؛ أى : اسمَ الإيمانِ الكاملِ .

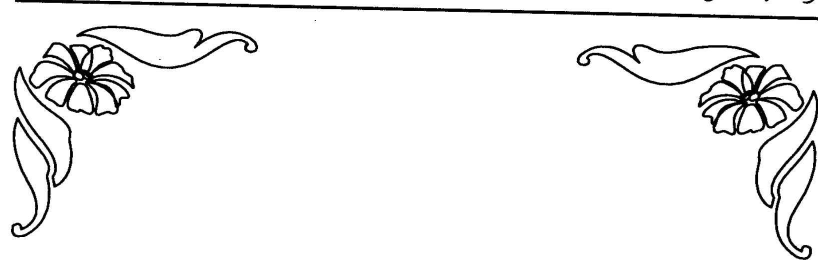
(**ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسمِ**) ؛ أى : الإيمانَ الناقصَ ، فيُحْكَم عليه بالخروجِ من الإيمانِ ، كما تقولُه المعتزلةُ والخوارجُ ، واللهُ أعلمُ .

فالإيمانُ المطلقُ هو الإيمانُ الكاملُ ، ومُطْلَقُ الإيمانِ هو الإيمانُ الناقصُ .

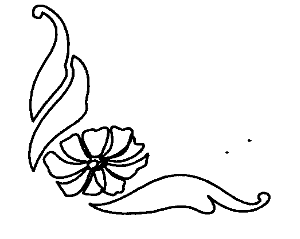
* * *

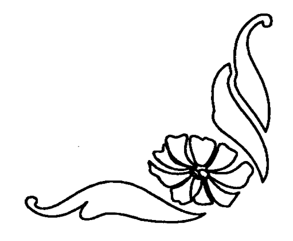
= بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام ، ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ، ولا يدخل فى الكفر ، ولا يستحق الخلود مع الكافرين ، كما قالت المعتزلة . فإن قولهم باطل أيضًا ، إذ قد جعل اللَّه مرتكب الكبيرة من المؤمنين . اهـ

وقال أيضًا رحمه اللَّه : ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزانى والسارق والقاذف لا يقتل ، بل يقام عليه الحد ، فدل على أنه ليس بمرتد . اهـ



الواجبُ نحوَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، وذِكْرُ فَضائِلهم





الواجبُ نحوَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، وذِكرُ فضائِلهم

ومن أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ سلامةُ قلوبهم وألسنتِهم لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، كما وصَفَهم اللهُ به في قولِه تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

وطاعةُ الرسولِ ﷺ في قولِه:

« لا تَسُبُّوا أصْحابِي، فوالذي نَفْسِي بيدِه لو أنَّ أحَدَكم أنفَقَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلَغ مُدَّ أحدِهم، ولا نَصِيفَه »(١).

الشرحُ:

أي: من أصولِ عقيدةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ (سلامةُ قلوبهم) مِن الغِلِّ والحِقْدِ والبُغْضِ، وسلامةُ (ألسنتِهم) من الطعنِ واللعنِ والسبِّ (لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ)، لفضلِهم، وسَبْقِهم، واختِصاصِهم بصُحْبَةِ النبيِّ ﷺ، ولما لهم من الفضلِ على جميعِ الأمةِ؛ لأنهم الذين تَحَمَّلوا الشَّريعةَ عنه ﷺ، وبلَّغوها لمن بعدَهم، ولجهادِهم مع الرسولِ ﷺ، ومُناصَرتِهم له.

وغرضُ الشيخِ مِن عَقْدِ هذا الفصلِ الردُّ على الرافضةِ والخوارجِ الذين يَسُبُّون الصحابةَ، ويَبْغَضُونهم، ويَجْحَدون فضائلَهم، وبيانُ براءةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ من هذا المذهبِ الخبيثِ، وأنهم مع صحابةِ نبيِّهم، كما وصَفَهم اللهُ في قولِه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾؛ أي: بعدِ المهاجرين والأنصارِ، وهم التابعون

---

(١) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم ٤/١٩٦٧ (٢٥٤٠).

....

لهم بإحسانٍ إلى يومِ القيامةِ مِن عمومِ المسلمين .

﴿ **يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ** ﴾ المرادُ بالأُخُوَّةِ هنا أُخُوَّةُ الدينِ ، فهم يَسْتَغْفِرُون لأنفسِهم ، ولمَن تقدَّمهم من المهاجرين والأنصارِ .

﴿ **وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا** ﴾ ؛ أى : غِشًّا وبُغْضًا وحَسَدًا .

﴿ **لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ ؛ أى : لأهلِ الإيمانِ ، ويَدْخُلُ فى ذلك الصحابةُ دخولًا أوليًّا ؛ لكونِهم أشرفَ المؤمنين ، ولكونِ السياقِ فيهم .

قال الإمامُ الشوكانىُّ : فمَن لم يَسْتَغْفِرْ للصحابةِ على العمومِ ، ويَطْلُبْ رِضْوانَ اللهِ لهم فقد خالَف ما أمَرَ اللهُ به فى هذه الآيةِ .

فإن وجَدَ فى قلبِه غِلًّا لهم فقد أصابَه نَزْغٌ من الشيطانِ ، وحَلَّ به نصيبٌ وافرٌ مِن عِصْيانِ اللهِ بعَداوةِ أوليائِه وخيرِ أُمَّةِ نَبِيِّه ﷺ ، وانْفَتَح له بابٌ من الخِذْلانِ ما يَفِدُ به على نارِ جَهَنَّمَ ، إن لم يَتَدارَكْ نفسَه باللجوءِ إلى اللهِ سبحانَه ، والإستغاثةِ به بأن يَنْزِعَ عن قلبِه ما طرَقَه مِن الغِلِّ لخيرِ القرونِ ، وأشرفِ هذه الأمةِ .

فإن جاوَز ما يَجِدُه من الغِلِّ إلى شَتْمِ أحدٍ منهم فقد انْقاد للشيطانِ بزمامٍ ، ووقَع فى غضبِ اللهِ وسَخَطِه .

وهذا الداءُ العُضالُ إنما يُصابُ به مَن ابْتُلِى بمُعَلِّمٍ من الرافضةِ ، أو صاحبٍ مِن أعداءِ خيرِ الأمةِ الذين تَلَاعَبَ بهم الشيطانُ ، وزيَّنَ لهم الأكاذيبَ المُخْتَلَقَةَ ، والأقاصيصَ المُفْتَراةَ ، والخُرافاتِ الموضوعةَ ، وصرَفَهم عن كتابِ اللهِ ، الذى لا يَأْتِيه الباطلُ مِن بينِ يديه ، ولا مِن خلفِه[1] . اهـ

والشاهدُ مِن الآيةِ الكريمةِ : أن فيها فضلَ الصحابةِ ؛ لسَبْقِهم بالإيمانِ ، وفضلَ

---

(١) فتح القدير ٥/٢٠٢ .

....

أهلِ السنةِ الذين يَتَوَلَّوْنهم ، وذمَّ الذين يُعادُونهم .

وفيها : مشروعيةُ الاستغفَارِ للصحابةِ والترضِّى عنهم .

وفيها : سلامةُ قلوبِ أهلِ السنةِ وألسنتِهم لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ففى قولِهم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ﴾ إلخ سلامةُ الألسنةِ ، وفى قولِهم : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ سلامةُ القلوبِ .

وفى الآيةِ تحريمُ سَبِّهم وُبغْضِهم ، وأنه ليس من فعلِ المسلمين ، وأن مَن فعَلَ ذلك لا يَسْتَحِقُّ من الفَىءِ شيئًا .

وقولُه : (**وطاعةُ النبىِّ ﷺ فى قولِه**) ؛ أى : أنَّ أهلَ السنةِ يُطِيعُون النبىَّ ﷺ فى سلامةِ قلوبِهم وألسنتِهم لأصحابِه ، والكَفُّ عن سبِّهم وتَنَقُّصِهم ، حيث نهاهم النبىُّ ﷺ عن ذلك بقولِه : « لا تَسُبُّوا أصحابى » ؛ أى : لا تَتَنَقَّصُوا ، ولا تَشْتُموا.

(**أصحابى**) جمعُ صاحبٍ ، ويقالُ لمن صاحَبَ النبىَّ ﷺ : صَحابىٌّ ، وهو مَن لقِى النبىَّ ﷺ مُؤْمِنًا به ، ومات على ذلك .

(**فوالذى نفسى بيدِه**) هذا قَسَمٌ من النبىِّ ﷺ ، يُرِيدُ به تأكيدَ ما بعدَه .

(**لو أنَّ أحدَكم أنْفَق مثلَ أُحُدٍ ذهبًا**) جوابُ الشرطِ[1] ، و(**أُحُدٌ**) جَبَلٌ معروفٌ فى المدينةِ ، سُمِّى بذلك لتوحُّدِه عن الجبالِ ، و(**ذهبًا**) منصوبٌ على التمييزِ .

(**ما بلَغ مُدَّ أحدِهم**) المُدُّ مِكْيالٌ وهو رُبْعُ الصاعِ النبوىِّ .

(**ولا نَصِيفَه**) لغةٌ فى النِّصْفِ ، كما يقالُ : ثَمِينٌ ، بمعنى الثَّمَنِ .

---

(١) كذا فى المطبوع ، والصحيح أن هذه الجملة جواب القَسَم السابق ، وليست جواب الشرط ؛ إذ إن جواب الشرط لم يأت بعد ، وهو جملة : « ما بلَغَ مُدَّ أحدهم ، ولا نصيفه » .

....

* * *

والمعنى أن الإنفاقَ الكثيرَ فى سبيلِ اللهِ من غيرِ الصحابةِ رضِى اللهُ عنهم لا يُعادِلُ الإنفاقَ القليلَ من الصحابةِ ، وذلك أن الإيمانَ الذى كان فى قلوبِهم حينَ الإنفاقِ فى أولِ الإسلامِ ، وقلةِ أهلِه ، وكثرةِ الصَّوارفِ عنه ، وضعفِ الدواعى إليه ، لا يُمْكِنُ أن يَحْصُلَ لأحدٍ مثلُه ممن بعدَهم .

والشاهدُ من الحديثِ : أن فيه تحريمَ سبِّ الصحابةِ ، وبيانَ فضلِهم على غيرِهم ، وأنَّ العملَ يَتفاضَلُ بحسَبِ نيةِ صاحبِه ، وبحسَبِ الوقتِ الذى أُدِّىَ فيه ، واللهُ أعلمُ .

وفى الحديثِ أنَّ مَن أحَبَّ الصحابةَ ، وأثْنَى عليهم فقد أطاعَ الرسولَ ﷺ ، ومَن سَبَّهم وأبْغَضَهم فقد عَصَى الرسولَ ﷺ .

فضلُ الصحابةِ، وموقفُ أهلِ السنةِ والجماعةِ منه، وبيانُ تفاضُلِهم

ويَقْبَلون ما جاء به الكتابُ والسنةُ والإجماعُ مِن فضائلِهم ومَراتبِهم، ويُفَضِّلون مَن أنْفَق مِن قبلِ الفتحِ – وهو صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ – وقاتَل على مَن أَنفَقَ مِن بعدُ وقاتَل.

ويُفَضِّلون المهاجرين على الأنصارِ، ويُؤْمِنون بأنَّ اللهَ قال لأهلِ بدرٍ – وكانوا ثلاثَمائةٍ و بِضْعةَ عَشَرَ: (اعْمَلوا ما شئْتُم فقد غفَرْتُ لكم).

الشرحُ:

بيَّن الشيخُ رحِمه اللهُ فى هذا المَقْطَعِ مِن كلامِه تَفاضُلَ الصحابةِ، بعدَ أن بيَّن – فيما سبقَ – فضلَهم عمومًا، وموقفَ أهلِ السنةِ والجماعةِ من ذلك.

فقولُه: (**ويَقْبَلُون**)؛ أى: أهلُ السنةِ والجماعةِ (ما جاء فى الكتابِ والسنةِ والإجماعِ)؛ أى: إجماعِ المسلمين.

(**من فضائلِهم ومَراتبِهم**) وكفَى بهذه المصادرِ الثلاثةِ شاهدًا على فضلِهم.

ثم إنهم ليسوا على درجةٍ واحدةٍ فى الفضلِ، بل بحسَبِ سَبْقِهم إلى الإسلامِ والجهادِ والهجرةِ، وبحَسَبِ ما قاموا به من أعمالٍ تُجاهَ نبيِّهم ودينِهم، رضِى اللهُ عنهم.

ولذلك قال الشيخُ رحِمه اللهُ: (**وُيفَضِّلون مَن أنْفَقَ قبلِ الفتحِ، وهو صُلْحُ الـحُدَيْبِيةِ**).

لأنَّ اللهَ سمَّاه فتحًا بقولِه تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]،

وبأنَّه لا يَدْخُلُ النارَ أحدٌ بايَعَ تحتَ الشجرةِ ، كما أخْبَر به النبيُّ ﷺ ، بل لقد رضِي اللهُ عنهم ، ورَضُوا عنه ، وكانوا أكثرَ من ألفٍ وأربعِمائةٍ .

ويَشْهَدون بالجنةِ لمن شَهِد له رسولُ اللهِ ﷺ كالعشرةِ ، وثابتِ بنِ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ وغيرِهم من الصحابةِ .

ويُقِرُّون بما تَواتَرَ به النقلُ عن أميرِ المؤمنين عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضِي اللهُ عنه وغيرِه مِن أنَّ خيرَ هذه الأمةِ بعدَ نبيِّها أبو بكرٍ ، ثم عمرُ ، ويُثَلِّثُونَ بعثمانَ ، ويُرَبِّعون بعليٍّ رضِي اللهُ عنهم .

كما دلَّت عليه الآثارُ ، وكما أجْمَع الصحابةُ على تقديمِ عثمانَ في البَيْعةِ ، مع أن بعضَ أهلِ السنةِ كانوا قد اخْتَلَفوا في عثمانَ وعليٍّ رضِي اللهُ عنهما بعدَ اتفاقِهم على تقديمِ أبي بكرٍ وعمرَ ، أيُّهما أفضلُ ؟ فقدَّم قومٌ عثمانَ ، وسكَتوا ، أو ربَّعوا بعليٍّ ، وقدَّم قومٌ عليًّا ، وقومٌ توَقَّفوا ، لكن اسْتَقَرَّ أمرُ أهلِ السنةِ على تقديمِ عثمانَ ، ثم عليٍّ .

وذلك هو المشهورُ أن المرادَ صُلْحُ الحديبيةِ ؛ لأن سورةَ الفتحِ نزَلَت عَقِيبَه[1] .

والحُدَيْبِيَةُ : بئرٌ قربَ مكةَ ، وقَعَت عندَه البَيْعةُ تحتَ شجرةٍ كانت هناك ، حينَما صدَّ المشركون رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَه عن دخولِ مكةَ ، فبايَعُوه على الموتِ .

وسُمِّيَت هذه البَيْعةُ فتحًا ؛ لما حصَل بسببِها من الخيرِ والنصرِ للمسلمين .

---

(١) ومما يدل على ذلك أيضًا ما رواه البخاري رحمه الله (٤١٥٠) ، عن البراء رضي الله عنه قال : تَعُدُّون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحًا ، ونحن نَعُدُّ الفتح بيعة الرِّضوان يوم الحديبية .

....

والدليلُ على تفضيلِ هؤلاء: قولُه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنْكُم مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

وهؤلاء هم السابقُون الأوَّلُون من المهاجِرين والأنصارِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال: (ويقدِّمون المهاجرين على الأنصارِ). المُهاجرُون جمعُ مُهاجِرٍ، والمرادُ بهم الذين هاجرُوا من مكةَ إلى المدينةِ.

والهجرةُ لغةً: التركُ.

وشرعًا: الانتقالُ من بلدِ الشركِ إلى بلدِ الإسلامِ.

والأنصارُ؛ أى: الذين ناصَرُوا الرسولَ ﷺ، وهم الأوْسُ والخَزْرَجُ، سَمَّاهم النبىُّ ﷺ بهذا الاسمِ.

والدليلُ على تفضيلِ المهاجِرين على الأنصارِ أنَّ اللهَ قدَّمَهم فى الذِّكرِ، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية. [الحشر: ٨، ٩].

فدلَّت هذه الآياتُ الكريمةُ على فضلِ المهاجرين والأنصارِ، وعلى تقديمِ المهاجرين على الأنصارِ فى الفضلِ لتقديمِهم فى الذكرِ، ولما قاموا به من تركِ بلادِهم

....

وأموالِهم وأولادِهم ؛ طَلَبًا للأجْرِ ، ونُصْرَةً للهِ ولرسولِه ، وصِدْقِهم في ذلك ، رضِي اللهُ عنهم .

قال : (**ويُؤْمِنون بأنَّ اللهَ قال لأهلِ بدرٍ – وكانوا ثلاثَمائةٍ و بِضْعةَ عشَرَ – : « اعْمَلُوا ما شِئْتُم فقد غَفَرْتُ لكم »** . كما جاء في الصحيحَيْنِ في قصةِ حاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعةَ[1] .

وبدرٌ : قريةٌ مشهورةٌ على نحوِ أربعِ مَراحلَ من المدينةِ ، حصَلَت عندَها الوَقْعةُ التي أعَزَّ اللهُ بها الإسلامَ ، وسُمِّي يومَ الفُرْقانِ .

وقولُه : (**وكانوا ثلاثَمائةٍ و بِضْعةَ عَشَرَ**) . هكذا ورَدَ عددُهم في صحيحِ البخاريِّ[2] .

وقولُه : (**اعْمَلُوا ما شِئْتُم فقد غفَرْتُ لكم**) . وقال ابنُ القَيِّمِ في الفوائدِ : أشْكَل على كثيرٍ من الناسِ معناه ، ثم ذكَر الأقوالَ في ذلك ، ثم قال : فالذي نَظُنُّ في ذلك ، واللهُ أعلمُ ، أنَّ هذا خطابٌ لقومٍ قد علِم سبحانَه أنهم لا يُفارِقون دينَهم ، بل يَمُوتون على الإسلامِ ، وأنهم قد يُقارِفون ما يُقارِفُه غيرُهم من الذنوبِ ، ولكن لا يَتْرُكُهم سبحانَه مُصِرِّين عليها ، بل يُوَفِّقُهم لتوبةٍ نَصُوحٍ ، واستغفارٍ ، وحَسَناتٍ تَمْحُو أثرَ ذلك .

ويكونُ تخصيصُهم بهذا دونَ غيرِهم ؛ لأنه قد تحقَّق ذلك فيهم ، وأنهم مغفورٌ لهم ، ولا يَمْنَعُ ذلك كونَ المغفرةِ حصَلَت بأسبابٍ تَقُومُ بهم ، كما لا يَقْتَضِي أن يُعَطِّلوا الفرائضَ وُثُوقًا بالمغفرةِ .

---

(١) البخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم ٤/١٩٤١ (٢٤٩٤) .
(٢) البخاري (٣٩٥٧ - ٣٩٥٩) .

....

فلو كانت قد حصَلَت بدونِ الاستمرارِ على القيامِ بالأوامرِ لَمَا احتاجُوا بعدَ ذلك إلى صلاةٍ ، ولا حجٍّ ، ولا زكاةٍ ، ولا جهادٍ ، وهذا مُحالٌ[1]. انتهى .

قال : (وبأنه لا يَدْخُلُ النارَ أحدٌ بايَع تحتَ الشجرةِ ، كما أخبَر به النبىُّ ﷺ ، بل لقد رضِى اللهُ عنهم ، ورَضُوا عنه ، وكانوا أكثرَ مِن ألفٍ وأربعِمائةٍ) . هذا الكلامُ فى شأنِ أهلِ بَيْعةِ الرِّضْوانِ ، وهى البَيْعةُ التى حَصَلَت فى الحديبيةِ حينَ صَدَّ المشركون رسولَ اللهِ ﷺ عن دخولِ مكةَ ، كما سبَق بيانُه قريبًا ، وقد ذكَر لهم الشيخُ مَزِيَّتَيْنِ :

الأُولَى : أنه لا يَدْخُلُ النارَ أحدٌ منهم ، ودليلُ ذلك ما فى صحيحِ مسلمٍ ، من حديثِ جابرٍ رضِى اللهُ عنه ، أن النبىَّ ﷺ قال : « لا يَدْخُلُ النارَ أحدٌ بايَعَ تحتَ الشجرةِ »[2] .

الثانيةُ : أنَّ اللهَ قد رَضِى عنهم . وهذا صريحُ القرآنِ ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] .

وقولُه : (وكانوا أكثرَ من ألفٍ وأربعمائةٍ) . هذا بِناءٌ على الصحيحِ فى عددِهم[3]. واللهُ أعلمُ .

وقولُه: (ويَشْهَدُون بالجنةِ لمن شَهِد له رسولُ اللهِ ﷺ كالعَشَرةِ، وثابتِ بنِ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ وغيرِهم من الصحابةِ) ؛ أى : يَشْهَدُ أهلُ السنةِ والجماعةِ بالجنةِ لمن

---

(١) فوائد الفوائد ص ٢٠٦، ٢٠٧ .

(٢) رواه أحمد فى مسنده ٣/٣٥٠ (١٤٧١٤) ، ومسلم ٤/١٩٤٢ (٢٤٩٦) ، وأبو داود (٤٦٥٣) والترمذى (٣٨٦٠) .

(٣) ودليل ذلك ما رواه البخارى رحمه الله (٤١٥٤) ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية : « أنتم خير أهل الأرض » . وكنا ألفًا وأربعمائة .

....

شَهِد له الرسولُ بذلك .

أمَّا مَن لم يَشْهَد له الرسولُ ﷺ بالجنةِ فلاَ يَشْهَدون له ؛ لأن في هذا تَقَوُّلًا على اللهِ ، لكن يَرْجُونَ للمُحْسِنِين ، ويَخافُون على المسيئِين ، وهذا أصلٌ من أصولِ العَقيدةِ .

وقولُه : (**كالعشرةِ**) . هم : أبو بكرٍ وعمرُ وعثمان وعليٌّ وعبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ والزبيرُ بنُ العَوَّامِ وسعدُ بنُ أبي وقاصٍ وسعيدُ بنُ زيدٍ وأبو عُبَيدَةَ بنُ الجَرَّاحِ وطلحةُ ابنُ عُبيدِ اللهِ رضِى اللهُ عنهم .

وقد صحَّت الأحاديثُ بالشهادةِ لهولاء بالجنةِ(١) .

---

(١) ومن هذه الأحاديث :

١- ما رواه أحمد ١٨٧/١ (١٦٢٩) ، وأبو داود (٤٦٥٠) ، والترمذى (٣٧٤٧) ، وابن ماجه (١٣٣) ، أن النبى ﷺ قال : « أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعثمان فى الجنة ، وعلى فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير فى الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة ، وسعد فى الجنة ، وسعيد فى الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة » .

قال الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠) : صحيح .

٢- وما رواه أحمد ١٨٧/١ - ١٨٩ (١٦٣٠، ١٦٣٨، ١٦٤٤، ١٦٤٥) ، وأبو داود (٤٦٤٨) ، وابن ماجه (١٣٤) ، عن سعيد بن زيد قال : أشهد على رسول الله ﷺ أنى سمعته يقول : « اثْبُتْ حِرَاءُ ، فما عليك إلا نبيٌّ ، أو صِدِّيق ، أو شهيد » .

وعدَّهم رسول الله ﷺ : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وابن عوف ، وسعيد بن زيد . قال الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٣٢) : صحيح .

٣- وما رواه أحمد ١٨٨/١ (١٦٣١، ١٦٣٧) ، وأبو داود (٤٦٤٩) ، والترمذى (٣٧٤٨) ، أن سعيد بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « عشرة فى الجنة : أبو بكر فى =

....

وقولُه : (وثابتِ بنِ قيسِ بنِ شماسٍ) . هو خطيبُ رسولِ اللهِ ﷺ ، وبشارتُه بالجنةِ ثابتةٌ فى صحيحِ البخاريِّ ، عن النبيِّ ﷺ[1] .

وقولُه : (وغيرِهم من الصحابةِ) ؛ أى : غيرِ مَن ذُكِر ممن أخْبَر النبيُّ ﷺ أنهم فى الجنةِ ، كعُكَّاشةَ بنِ محْصَنٍ ، وعبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ ، وغيرِهما[2] .

= الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعثمان ، وعلى ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمن ، وأبو عبيدة ، وسعد بن أبى وقاص » . قال : فعَدَّ هؤلاء التسعة ، ومكث عن العاشرة ، فقال القوم : نَنْشُدُكِ اللَّه يا أبا الأعور ، من العاشر ؟ قال : نَشَدْتُمُونى باللَّه ، أبو الأعور فى الجنة . قال أبو عيسى : أبو الأعور هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .

قال الشيخ الألبانى ، رحمه اللَّه فى صحيح الجامع (٤٠١٠) : صحيح .

هذا وقد أورد صاحب شرح الطحاوية رحمه اللَّه أحاديث كثيرة فى مناقب العشرة ، فانظر شرح الطحاوية ص ٤٧١- ٤٨٩ .

وقال ، رحمه اللَّه ص ٤٨٨ : وقد اتفق أهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم ؛ لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم . اهـ

(١) روى البخارى (٣٦١٣) ، ومسلم ١/ ١١٠ (١١٩) ، عن أنس بن مالك رضى اللَّه عنه أنه قال : لمَّا نزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ إلى آخر الآية . جلس ثابت بن قيس فى بيته وقال : أنا من أهل النار . واحتبس عن النبى ﷺ فسأل النبى ﷺ سعد بن معاذ فقال : « يا أبا عمرو ، ما شأن ثابت ؟ أشتكى » ؟ قال سعد : « إنه لجارى . وما علمت له بشكوى . قال فأتاه سعد فذكر له قول رسول اللَّه ﷺ . فقال ثابت : أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول اللَّه ﷺ فأنا من أهل النار . فذكر ذلك سعد للنبى ﷺ . فقال رسول اللَّه ﷺ : بل هو من أهل الجنة » متفق عليه .

(٢) أما عُكَّاشة بنِ مِحْصَن ؛ فقد دعا له النبى ﷺ بأن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وذلك فى حديث ابن عباس عند البخارى (٦٥٤١) ومسلم ١/ ١٩٩ (٢٢٠) . =

....

قوله : (**ويُقِرُّون بما تَواتَر به النقلُ عن أميرِ المؤمنيـن عليِّ بنِ أبى طالبٍ رضِى اللهُ عنه وغيرِه**) ؛ أى : يَعْتَرِفُ أهلُ السنةِ والجماعةِ ، ويَعْتَقِدون .

(**ما تَواتَر به النقلُ**) ؛ أى : ما ثبَت بطريقِ التـواتُرِ[١] والتواترُ هو أقوى الأسانيدِ .

(**عن أميرِ المؤمنيـن عليّ بنِ أبى طالبٍ رضِى اللهُ عنه[٢] وغيرِه**) من الصحابةِ[٣].

= وأما عبد اللّه بن سلام ؛ ففى حديث سعد بن أبى وقاص رضى اللّه عنه عند البخارى (١٩٨٢) ، ومسلم ١٩٣٠/٤ (٢٤٨٣) ؛ قال : ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : إنه من أهل الجنة ؛ إلا لعبد اللّه بن سلام .

وممن أخبر النبى ﷺ أنهم فى الجنة أيضًا ، سعد بن معاذ ؛ ففى حديث البراء عند البخارى (٣٨٠٢) ، ومسلم (٢٤٦٨) ؛ قال : أهديت لرسول اللّه ﷺ حلة حرير ، فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها ، فقال : « أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير من هذه وألين » .

وبلال : ففى حديث جابر عند مسلم (٢٤٥٧) ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : « أُريت الجنة ، فرأيت امرأة أبى طلحة ، ثم سمعت خشخشة أمامى ؛ فإذا بلال » .

(١) وممن نص على التواتر أيضًا فى هذه المسألة غير شيخ الإسلام الشيخ ابن عثيمين رحمه اللّه فى شرح الواسطية ٢٨/١ .

(٢) روى البخارى رحمه اللّه (٣٦٧١) ، عن محمد ابن الحَنَفية قال : قلت لأبى : أىُّ الناس خير بعد رسول اللّه ﷺ ؟ قال : أبو بكر . قلتُ : ثم مَن . قال : ثم عمر . وخَشِيتُ أن يقول عثمان ، قلتُ : ثم أنت ؟ قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين .

ومحمد ابن الحنفية هو ابن على بن أبى طالب ، واسم الحنفية : خَوْلَة بنت جعفر .

(٣) ومن ذلك ما رواه البخارى (٣٦٥٥) ، عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما قال : كنا نُخَير بين الناس فى زمن النبى ﷺ ، فنخيّر أبا بكر ، ثم عمر بن الخطاب ، =

....

(**أنَّ خيرَ هذه الأمةِ بعدَ نبيِّها أبو بكرٍ ، ثم عمرُ ، ويُثَلِّثون بعُثْمانَ**) ؛ أى : يَجعُلونه الثالثَ فى الترتيبِ .

(**ويُرَبِّعون بعلىٍّ**) ؛ أى : يَجْعَلونه الرابعَ (رضِى اللهُ عنهم) وفى هذه الروايةِ المتواتِرةِ عن علىٍّ رَدٌّ على الرافضةِ الذين يُفَضِّلون عليًّا على أبى بكرٍ وعمرَ ، ويُقَدِّمونه عليهما فى الخلافةِ ، فيَطْعَنون فى خلافةِ الشيخَيْنِ .

وهذا البحثُ يَتَضَمَّنُ مسألتينِ :

الأولى : مسألةُ الخلافةِ ، الثانيةُ : مسالةُ التفضيل ؛

فأما مسألةُ الخلافةِ فقد أجْمَعَ أهلُ السنةِ والجماعةِ بما فيهم الصحابةُ رضِى اللهُ عنهم على أنَّ الخليفةَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ أبو بكرٍ ، ثم عمرُ ، ثم عثمانُ ، ثم علىٌّ[(١)] .

وأمَّا مسألةُ التفضيلِ فقد أجْمَعوا على أن أفضلَ هذه الأمةِ بعدَ نبيِّها أبو بكرٍ ، ثم عمرُ ، كما تواتَر به النقلُ عن علىٍّ[(٢)] .

واخْتَلَفوا فى عثمانَ وعلىٍّ رضِى اللهُ عنهما أيُّهما أفضلُ ، وقد ذكَر الشيخُ هنا

= ثم عثمان بن عفان رضى اللّه عنهم .

ومن ذلك أيضًا ما رواه البخارى (٣٦٦٢) ، ومسلم ١٨٥٦/٤ (٢٣٨٤) ، عن عمرو بن العاص ، أن رسول اللّه ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته ، فقلتُ : أىُّ الناس أحب إليك ؟ قال : « عائشة » . قلتُ : من الرجال ؟ قال : « أبوها » . قلت : ثم مَن ؟ قال : « عمر » . فعَدَّ رجالًا .

(١) انظر شرح الطحاوية ص ٤٧١ وما بعدها .

(٢) قال ابن حجر رحمه اللّه فى الفتح ٧/ ١٧ : ونقل البيهقى فى الاعتقاد بسنده إلى أبى ثور ، عن الشافعى أنه قال : أجمع الصحابة وأتباعهم على أفضلية أبى بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على . اهـ

....

فى المسألةِ ثلاثةَ أقوالٍ ، حيث يقولُ : (**فقدَّم قومٌ عثمانَ وسكَتوا ، أو ربَّعوا بعليٍّ ، وقدَّم قومٌ عليًا ، وقومٌ توَقَّفوا**) .

هذا حاصلُ الخلافِ فى المسألةِ : تقديمُ عثمانَ ، تقديمُ عليٍّ ، التوُّقفُ عن تقديمِ أحدِهما على الآخَرِ ، وأشار الشيخُ إلى ترجيحِ الرأيِ الأولِ ، وهو تقديمُ عثمانَ ؛ لأمورٍ :

الأمرُ الأولُ : أنَّ هذا هو الذى دلَّت عليه الآثارُ الواردةُ فى مناقبِ عثمانَ رضِى اللهُ عنه(١) .

الثانى : إجماعُ الصحابةِ على تقديمِ عثمانَ فى البَيْعةِ ، وما ذاك إلا أنه أفضلُ ، فترتيبُهم فى الفضلِ كترتيبِهم فى الخلافةِ .

الثالثُ : أنه اسْتَقَرَّ أمرُ أهلِ السنةِ على تقديمِ عثمانَ ، ثم عليٍّ ، كما سبَق أنهم قدَّمُوه فى البَيْعةِ .

قال عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ لعليٍّ رضِى اللهُ عنه : إنى نظَرْتُ أمرَ الناسِ ، فلم أَرَهُم يَعْدِلون بعثمانَ(٢) .

قال أبو أيوبَ : مَن لم يُقَدِّمْ عثمانَ على عليٍّ فقد أَزْرَى(٣) بالمهاجرين والأنصارِ(٤) .

فهذا دليلٌ على أن عثمانَ أفضلُ ؛ لأنَّهم قدَّموه باختيارِهم بعدَ تَشاوُرِهم ، وكان عليٌّ رضِى اللهُ عنه من جملةِ مَن بَايَعه ، وكانُ يُقيمُ الحدودَ بينَ يديه .

---

(١) انظر شرح الطحاوية ص ٤٧٨ - ٤٨٢، ومعارج القبول ٣/١١٦٠ - ١١٧٠ .

(٢) البخارى (٧٢٠٧) .

(٣) **الازدراء** : الاحتقار والانتقاص والعيب ، وهو افتعال ، من زَرَيْتُ عليه زِرَايةً ، إذا عِبْتَه ، وأَزْرَيْتُ به إزراءً إذا قَصَّرتَ به وتَهاوَنْتَ . النهاية لابن الأثير (زرى) .

(٤) هذا الأثر إنما هو عن أيوب السَّخْتيانى ، وليس عن أبى أيوب ، وانظر شرح الطحاوية ص ٤٨٥ .

حكمُ تقديمِ عليٍّ رضِىَ اللهُ عنه
على غيرِه من الخلفاءِ الأربعةِ فى الخلافةِ

وإن كانت هذه المسألةُ - مسألةُ عثمانَ وعليٍّ - ليسَتْ من الأصولِ التى يُضَلَّلُ المُخالِفُ فيها عندَ جُمهورِ أهلِ السنةِ ، لكن التى يُضَلَّلُ فيها مسألةُ الخلافةِ .

وذلك لأنهم يُؤْمِنون أن الخليفةَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ أبو بكرٍ ، ثم عمرُ ، ثم عثمانُ ، ثم عليٌّ ، ومَن طعَن فى خلافةِ أحدٍ من هؤلاء فهو أضَلُّ من حمارِ أهلِه .

الشرحُ :

أبْدَى الشيخُ رحِمه اللهُ مُوازَنةً بينَ المسألتَيْن ؛ مسألةِ تقديمِ عليٍّ على عثمانَ فى الفضلِ ، ومسألة تقديمِ عليٍّ على غيرِه فى الخلافةِ ، من حيث ما يَتَرَتَّبُ على ذلك التقديمِ من خُطورةٍ .

فبيَّن أن مسألةَ تفضيلِ عليٍّ على عثمانَ لا يُضَلَّلُ - أى : لا يُحْكَمُ بضلالِ مَن قال بها - نظرًا لوجودِ الخلافِ فيها بينَ أهلِ السنةِ ، وإن كان الراجحُ تفضيلَ عثمانَ رضِى اللهُ عنه .

(**لكن التى يُضَلَّلُ فيها مسألةُ الخلافةِ**) ؛ أى : يُحْكَمُ بضَلالِ مَن خالَفَ فيها ، فرأَى تقديمَ عليٍّ فى الخلافةِ على عثمانَ ، أو غيرِه من الخلفاءِ الذين سبَقُوه ، أو قدَّم عليًّا على أبى بكرٍ وعمرَ فى الفَضيلةِ .

فأهلُ السنةِ والجماعةِ يُؤْمنون بأنَّ الخليفةَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ أبو بكرٍ الصديقُ رضِى اللهُ عنه لفضلِه وسابقتِه ، وتقديمِ النبىِّ ﷺ له على جميعِ الصحابةِ ، وإجماعِ

....

الصحابةِ على بَيْعتِه[١] .

ثم الخليفةُ مِن بعدِ أبى بكرٍ عمرُ بنُ الخطابِ رضِى اللهُ عنه لفضلِه وسابقتِه ، وعهدِ أبى بكرٍ إليه ، واتفاقِ الأمةِ عليه بعدَ أبى بكرٍ[٢] .

ثم الخليفةُ بعدَ عمرَ عثمانُ بنُ عفانَ رضِى اللهُ عنه ؛ لتقديمِ أهلِ الشُّورَى له ، واتفاقِ الأمةِ عليه[٣] .

ثم بعدَ عثمانَ الخليفةُ علىٌّ رضِى اللهُ عنه لفَضْلِه وإجماعِ أهلِ عصرِه عليـــه[٤] .

فهؤلاء هم الخلفاءُ الأربعةُ المُشارُ إليهم فى حديثِ العِرْباضِ بنِ ساريَةَ رضِى اللهُ عنه بقولِه ﷺ : « عليكم بسُنَّتى وسنةِ الخلفاءِ الراشدين المهديِّين مِن بعدى »[٥] .

ولهذا قال الشيخُ : (ومَن طعَن فى خلافةِ أحدٍ من هؤلاء) . يعنى : الأربعةَ المذكورين .

---

(١) انظر الأحاديث الدالة على فضله ، وتقديم النبى ﷺ له على جميع الصحابة ، وإجماع الصحابة على بيعته ، فى شرح الطحاوية ص ٤٧١ - ٤٧٦، ومعارج القبول ٣/١١٢٦ - ١١٥١.

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٧٦، ٤٧٧، ومعارج القبول ٣/١١٥١ - ١١٦٠.

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٧٨ - ٤٨٢، ومعارج القبول ٣/١١٦٠ - ١١٧٠.

(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٨٢ - ٤٨٤، ومعارج القبول ٣/١١٧٠ - ١١٩٠.

(٥) رواه أحمد ٤/ ١٢٦، ١٢٧ (١٧٠٧٧، ١٧٠٧٩، ١٧٠٨٠) ، وأبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذى (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢ - ٤٤) . قال الشيخ الألبانى رحمه اللَّه فى صحيح الجامع (٢٥٤٩) : صحيح .

....

* * *

(**فهو أضَلُّ من حمارِ أهلِه**) لمخالفتهِ النصَّ والإجماعَ من غيرِ حُجَّةٍ، ولا برهانٍ، وذلك كالرافضةِ الذين يَزْعُمون أن الخلافةَ بعدَ النبيِّ ﷺ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ.

والحاصلُ في مسألةِ تقديمِ عليٍّ رضِي اللهُ عنه على غيرِه من الخلفاءِ الثلاثةِ:

١- مَن قدَّمه في الخلافةِ فهو ضالٌّ بالاتفاقِ.

٢- مَن قدَّمه في الفضيلةِ على أبي بكرٍ وعمرَ فهو ضالٌّ، ومَن قدَّمه على عثمانَ في الفضيلةِ فلا يُضَلَّلُ، وإن كان هذا خلافَ الراجحِ.

مكانةُ أهلِ بيتِ النبى ﷺ عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ

ويُحِبُّون أهلَ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ويَتَوَلَّوْنهم ، ويَحْفَظُون فيهم وصيةَ رسولِ اللهِ ﷺ ، حيث قال يومَ غَدِيرِ خُمٍّ : « أُذَكِّرُكم اللهَ فى أهلِ بيتى » .

الشرحُ :

بيَّن الشيخُ رحِمه اللهُ فى هذا مكانةَ أهلِ البيتِ عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ ، وأنهم (**يُحِبُّون أهلَ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ**) .

وأهلُ البيتِ هم آلُ النبىِّ ﷺ الذين حَرُمَت عليهم الصدقةُ[1] ، وهم آلُ علىٍّ ، وآلُ جعفرٍ ، وآلُ عَقِيلٍ ، وآلُ العباسِ ، وبنو الحارثِ بنِ عبدِ المطلبِ .

وأزواجُ النبىِّ ﷺ وبناتُه من أهلِ بيتِه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

فأهلُ السنةِ يُحِبُّونهم ويَحْتَرِمُونَهم ؛ لأن ذلك مِن احترامِ النبىِّ ﷺ وإكرامِه ، ولأنَّ اللهَ ورسولَه قد أمَرَا بذلك ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى ﴾ [الشورى : ٢٣] .

وجاءَتْ نصوصٌ من السنةِ بذلك ، منها ما ذكَرَه الشيخُ[2] .

---

(١) ودليل ذلك ما رواه مسلم ٢/٧٥٢ (١٠٧٢) ، وأبو داود (٢٩٨٥) ، أن النبى ﷺ قال : « إن الصدقة لا تنبغى لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » .
وأيضًا ما رواه أحمد ١/٢٠٠ (١٧٢٥، ١٧٢٧) ، عن الحسن بن على ، أن النبى ﷺ قال : « إنَّا آلَ محمدٍ ، لا تَحِلُّ لنا الصدقة » . قال الشيخ أحمد شاكر رحمه اللَّه : إسناده صحيح . وقال الشيخ الألبانى رحمه اللَّه فى صحيح الجامع (٢٢٨٠) : صحيح .

(٢) سيأتى تخريجها قريبًا إن شاء اللَّه ص٣٧٤ - ٣٧٧ .

وقال أيضًا للعباسِ عمِّه ، وقد اشْتَكَى إليه أنَّ بعضَ قريشٍ يَجْفُو بنى هاشمٍ ، فقال : « والذى نفسى بيدِه لا يُؤْمِنون حتى يُحِبُّوكم للهِ ولقَرَابتى » .

وقال : « إنَّ اللهَ اصْطَفَى بنى إسماعيلَ ، واصْطَفَى من بنى إسماعيلَ كِنانةَ ، واصْطَفَى من كِنانةَ قُرَيْشًا ، واصْطَفَى من قريشٍ بنى هاشمٍ ، واصْطَفانى مِن بنى هاشمٍ » .

وذلك إذا كانوا مُتَّبِعِين للسنةِ ، مُسْتقِيمين على الملةِ ، كما كان عليه سَلَفُهم كالعباسِ وبَنِيه وعليٍّ وبَنِيه ، أمَّا مَن خالَف السنةَ ، ولم يَسْتَقِمْ على الدِّينِ ، فإنه لا تَجوزُ محبَّتُه ، ولو كان من أهلِ البيتِ .

وقولُه : (ويَتَوَلَّوْنهم) ؛ أى : يُحبُّونهم من الوَلايةِ - بفتحِ الواوِ - وهى المحبَّةُ .

وقولُه : (ويَحْفَظون فيهم وصيةَ رسولِ اللهِ ﷺ) ؛ أى : يَعْمَلون بها ، ويُطَبِّقونها .

(حيث قال يومَ غديرِ خُمٍّ) الغَديرُ هنا هو مَجْمَعُ السَّيْلِ **(وخُمّ)** قيل : اسمُ رجلٍ ، نُسِب الغديرُ إليه .

وقيل : هو الغَيْضَةُ ؛ أى : الشجرُ المُلْتفُّ ، نُسِب هذا الغديرُ إليها ؛ لأنه واقعٌ فيها .

وهذا الغديرُ كان فى طريقِ المدينةِ ، مرَّ به ﷺ فى عودتِه من حَجَّةِ الوَداعِ ، وخطَب فيه ، فكان من خطبتِه ما ذكَره الشيخُ : « أُذَكِّرُكم اللهَ فى أهلِ بيتى »(١) ؛ أى : أُذَكِّرُكم ما أمَرَ اللهُ به فى حقِّ أهلِ بيتى ؛ من احترامِهم وإكرامِهم والقيامِ

---

(١) رواه مسلم ٤/١٨٧٣ (٢٤٠٨) .

....

بحقِّهم .

وقال أيضًا : (**للعباسِ عمِّه**) . هو العباسُ بنُ عبدِ المطَّلِبِ بنِ هاشمِ بنِ عبدِ مَنافٍ .

(**وقد اشتَكَى إليه**) ؛ أى : أخْبَره بما يَكْرَهُ .

(**أن بعضَ قريشٍ يَجْفُو**) الجَفاءُ تركُ البرِّ والصلةِ .

(**فقال**) ؛ **أى : النبىُّ** ﷺ :

(**والذى نفسى بيدِه**) هذا قَسَمٌ منه ﷺ .

(**لا يُؤْمِنون**) ؛ أى : الإيمانَ الكاملَ الواجبَ .

(**حتى يُحِبُّوكم للهِ ولقَرابتى**)[1] ؛ أى : لأمرين :

الأولُ : التقرُّبُ إلى اللهِ بذلك ؛ لأنهم من أوليائِه .

الثانى : لكونِهم قَرابةَ رسولِ اللهِ ﷺ ، وفى ذلك إرضاءٌ له ، وإكرامٌ له .

(**وقال**) النبىُّ ﷺ مُبَيِّنًا فضلَ بنى هاشمٍ الذين هم قرابتُه : (**إنَّ اللهَ اصْطَفَى**) ؛ أى : اختارَ ، والصَّفْوةُ الخِيارُ .

(**بنى إسماعيلَ**) بنِ إبراهيمَ الخليلِ ، عليهما السلامُ .

(**واصْطَفَى من بنى إسماعيلَ كِنانةَ**) اسمُ قبيلةٍ ، أبوهم كِنانةُ بنُ خُزَيْمةَ .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ١/٢٠٧ (١٧٧٢) عن العباس ، ولفظه : « والذى نفسى بيده ، لا يدخل قلبَ رجل الإيمانُ ، حتى يحبكم للّه ولرسوله » . ورواه أيضًا ١/٢٠٧، ٢٠٨ (١٧٧٧) ، عن العباس ، ولفظه : « واللّهِ ، لا يدخل قلبَ امرئٍ إيمانٌ ، حتى يحبكم لله ولقرابتى » . وقال الشيخ أحمد شاكر : إسنادهما صحيح .

....

* * *

(واصْطَفَى مِن كِنانَةَ قُرَيْشًا) وهم أولادُ مُضَرَ بن كِنانةَ .

(واصْطَفَى مِن قريشٍ بنى هاشمٍ) وهم بنو هاشمِ بنِ عبدِ منافٍ .

(واصطفانى من بنى هاشمٍ)[1] فهو محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمِ بنِ عبدِ منافِ بنِ قُصَىٍّ بنِ كِلابِ بنِ مُرَّةَ بنِ كعبِ بنِ لُؤَىٍّ بنِ غالبِ بنِ فهرِ ابنِ مالكِ بنِ النَّضْرِ بنِ كِنانةَ بنِ خُزَيمةَ بنِ مُدْرِكةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ بنِ نِزارَ بنِ مَعَدِّ بنِ عَدْنانَ .

والشاهدُ من الحديثِ : أن فيه دليلًا على فضلِ العربِ ، وأنَّ قريشًا أفضلُ العربِ ، وأن بنى هاشم أفضلُ قريشٍ ، وأنَّ الرسولَ ﷺ أفضلُ بنى هاشمٍ ، فهو أفضلُ الخَلْقِ نَفْسًا ، وأفضلُهم نَسَبًا .

وفيه فضلُ بنى هاشمٍ ، الذين هم قَرابةُ الرسولِ ﷺ .

(١) رواه أحمد فى مسنده ١٠٧/٤ (١٦٩٢٤) ومسلم ١٧٨٢/٤ (٢٢٧٦) ، والترمذى (٣٦٠٥، ٣٦٠٦) .

مكانةُ أزواجِ النبى ﷺ عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ

ويَتَوَلَّوْن أزواجَ النبىِّ ﷺ أُمَّهاتِ المؤمنين ، ويُؤْمِنون بأنَّهن أزواجُه فى الآخِرةِ ، خصوصًا خديجةَ رضِى اللهُ عنها ، أمَّ أكثرِ أولادِه ، وأولَ مَن آمَن به ، وعاضَدَه على أمره .

وكان لها منه المنزلةُ العاليةُ .

والصِّدِّيقةَ بنتَ الصِّدِّيقِ رضِى اللهُ عنها قال فيها النبىُّ ﷺ : « فَضْلُ عائشةَ على النساءِ كفَضْلِ الثَّرِيدِ على سائرِ الطَّعامِ » .

الشرحُ :

ذكَر الشيخُ رحِمه اللهُ تعالى فى هذه الجملةِ عقيدةَ أهلِ السنةِ والجماعةِ فى أزواجِ النبىِّ ﷺ ، فقال : (ويَتَوَلَّوْنَ أزواجَ رسولِ اللهِ ﷺ) ؛ أى : يُحِبُّونهن ويُوَقِّرُونَهُنَّ ؛ لأنَّهن (أمَّهاتُ المؤمنين) فى الاحترامِ والتوقيرِ وتحريمِ نكاحِهن على الأُمَّةِ .

أما بقيةُ الأحكامِ فحكمُهن حكمُ الأجْنَبيَّاتِ ، من حيث تحريمُ الخَلْوةِ بهن والنظرِ إليهن ، قال اللهُ تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ الآية [الأحزاب : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ الآية [الأحزاب : ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] ، فهن أمهاتُ المؤمنين فى الاحترامِ والتحريمِ ، لا فى المَحْرَمِيَّةِ .

وقد تُوُفِّى ﷺ عن تِسْعٍ ، وهن : (عائشةُ وحَفْصةُ وزينبُ بنتُ جَحْشٍ وأمُّ

....

سلمةَ وصَفيَّةُ ومَيْمونةُ وأمُّ حَبيبةَ وسَوْدَةُ وجُوَيْرِيَةُ) .

وأمَّا خديجةُ فقد تزوَّجَها قبلَ النُّبوةِ ، ولم يَتَزَوَّجْ عليها حتى ماتت ، وتزوَّج ﷺ زينبَ بنتَ خُزَيْمةَ الهِلالية ، ولم تَلْبَثْ إلا يسيرًا ، ثم تُوُفِّيَت .

هؤلاء جملةُ مَن دخَل بهن من النساءِ ، وهن إحْدَى عَشْرَةَ ، رضِي اللهُ عنهن .

(**ويؤمنون**) ؛ أي : أهلُ السنةِ والجماعةِ .

(**بأنهن أزواجه في الآخِرةِ**)[1] وفي هذا شرفٌ لهن ، وفضيلةٌ جَليلةٌ .

(**خُصوصًا خديجةَ رضِي اللهُ عنها**) فلها مِن المَزايا والفَضائلِ الشيءُ الكثيرُ ، وقد ذكَر الشيخُ منها :

---

(١) **دل على ذلك كتاب الله عز وجل وسنة النبي ﷺ :**

أما الكتاب فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر : ٧- ٨] ، فقال : ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ ؛ فأثبت الزوجية لهن بعد دخول الجنة ، وهذا يدل على أن زوجة الإنسان في الدنيا تكون زوجته في الآخرة إذا كانت من أهل الجنة .

وأما السنة ، فمنها :

١- ما رواه البخاري (٣٧٧٢، ٧١٠٠، ٧١٠١) : أن عليًّا لمَّا بعث عَمَّارًا والحسن إلى الكوفة ليستنفرهم ، خطب عمار فقال : إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها .

٢- وما رواه ابن حبان ، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها : « أمَا تَرْضَيْنَ أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة ؟ » .

٣- وما رواه أن سودة لما أراد النبي ﷺ فراقها قالت : يا رسول الله ، والله مالي بالرجال من حاجة ، ولكن أحب أن أُبْعَثَ مع نسائك يوم القيامة . الحديث .

....

١- أنها أمُّ أكثرِ أولادِه ، فكلُّ أولادِه منها ما عدا إبراهيمَ فمن مَارِيَةَ القِبْطيةِ .

٢- أنها أولُ مَن آمَن به مُطْلَقًا على قولٍ ، وهو الذى ذكَر الشيخُ هنا ، أو هى أولُ مَن آمَن به من النساءِ على القولِ الآخَرِ .

٣- هى أولُ مَن عاضَدَه وأعانه فى أولِ أمرِه ، وكانت نُصْرَتُها له فى أعظمِ أوقاتِ الحاجةِ .

٤- أنها كان لها منه ﷺ المنزلةُ العاليةُ ، فكان يُحِبُّها ، ويَذْكُرُها كثيرًا ، ويُثْنِى عليها[١] .

(**والصِّدِّيقةَ بنتَ الصِّدِّيقِ رضِى اللهُ عنها**) يعنى : عائشةَ بنتَ أبى بكرٍ ، والصِّدِّيقُ هو المبالِغُ فى الصِّدْقِ ، وقد لَقَّب النبىُّ ﷺ أبا بكرٍ بذلك[٢] .

ولعائشةَ رضِى اللهُ عنها فضائلُ كثيرةٌ منها :

أنها أحَبُّ أزواجِ النبىِّ ﷺ إليه[٣] .

وأنه لم يَتَزَوَّجْ بِكْرًا غيرَها[٤] .

---

(١) البخارى (٣٨١٦ - ٣٨١٨) ، ومسلم ٤/ ١٨٨٨، ١٨٨٩ (٢٤٣٥) .

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك ٣/ ٦٢، وصححه ووافقه الذهبى ، وعزاه ابن كثير فى أول تفسير سورة الإسراء للبيهقى ، وانظر السلسلة الصحيحة للألبانى (٣٠٦) .

(٣) ودليل ذلك ما رواه البخارى (٣٦٦٢، ٤٣٥٨) ، ومسلم ٤/١٨٥٦ (٢٣٨٤) ، عن عمرو بن العاص أن رسول اللَّه ﷺ بعثه على جيش ذات السَّلاسِل ، فأتَيْتُه فقلتُ : أىُّ الناس أحب إليك ؟ قال : « عائشة » . قلت : من الرجال ؟ قال : « أبوها » قلتُ : ثم مَنْ ؟ قال : « عمرُ » . فعَدَّ رجالًا .

(٤) روى البخارى (٥٠٧٧) ، عن عائشة رضى اللَّه عنها قالت : قلت : يا رسول اللَّه ، أرأيت لو نزلْتَ واديًا ، وفيه شجرةٌ قد أُكِلَ منها ، ووجَدْتَ شجرًا لم يُؤْكَلْ منها ، فى أيِّها كنتَ تُرْتِعُ بعيرَك ؟ قال : « فى التى لم يُرْتَعْ منها » . يعنى : أن رسول اللَّه ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها . =

....

وأنه ﷺ كان يَنْزِلُ عليه الوَحْيُ فى لِحافِها[١] .

وأنَّ اللهَ بَرَّأها مما رمَاها به أهلُ الإفْكِ[٢] .

وأنها أفقهُ نسائِه ، وكان أكابرُ الصحابةِ إذا أشْكَلَ عليهم الأمرُ اسْتَفْتَوْها[٣] .

وأنَّ الرسولَ ﷺ تُوُفِّى فى بيتِها بينَ سَحْرِها ونَحْرِها ، ودُفِن فى بيتِها[٤] ، إلى غيرِ ذلك من فضائِلها .

= وروى أيضًا البخارى رحمه اللّه (٤٧٥٣) ، أن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال لعائشة رضى اللّه عنها : لم يَنْكِحْ بكرًا غيرَك .

(١) روى البخارى رحمه اللّه (٣٧٧٥) ، أن النبى ﷺ قال : « يا أمَّ سلمة ، لا تُؤْذِينى فى عائشة ؛ فإنه واللّه ما نزل علىَّ الوحى وأنا فى لِحافِ امرأة منكن غيرَها » .

(٢) البخارى (٤٧٥٠) ، ومسلم ٤/٢١٢٩ (٢٧٧٠) . **وقال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد فى « التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية » ص ٢٩٤ :** ويحرم الطعن فى أزواج النبى ﷺ وقذفهن ، لاسيما عائشة أمُّ المؤمنين ، فمن قذفها مما برَّأها اللّه فهو كافر ، وأما من قذف غيرها من نساء النبى ﷺ ففيه قولان ، قال ابن كثير : والأصح أنهن كعائشة رضى اللّه عنهن أجمعين . اهـ

وقال أيضًا رحمه اللّه ص ٢٩٧ : أنزل اللّه براءتها من فوق سبع سماوات ، واتفقت الأمة على كفر قاذفها ، وأفتى غير واحد بقتل سابِّها رضى اللّه عنها . اهـ

وكذا نقل الاتفاق على كفر قاذفها الشيخ زيد بن عبد العزيز فى الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ص ٤٤٦ .

(٣) ذكر ابن القيم رحمه اللّه فى إعلام الموقعين ٢٦/١ عن أبى موسى أنه قال : ما أشكل علينا - أصحابَ محمد ﷺ - حديث قطُّ ، فسألناه عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا . وقيل لمسروق : كانت عائشة تحسن الفرائض ؟ قال : واللّهِ لقد رأيْتُ الأحبار من أصحاب رسول اللّه ﷺ يسألونها عن الفرائض .

(٤) البخارى (١٣٨٩) ، ومسلم ١٨٩٣/٤ (٢٤٤٣) .

....

* * *

وقد ذكَر الشيخُ من فضائِلها هنا (**أن النبىَّ ﷺ** قال فيها : « فضلُ عائشةَ على النساءِ كفَضْلِ الثَّريدِ على سائرِ الطعامِ »[(١)] . والثَّريدُ هو أفضلُ الأطْعِمةِ ؛ لأنه خبزٌ ولحمٌ ، والخبزُ من البُرِّ ، وهو أفضلُ الأقْواتِ ، واللحمُ أفضلُ الإدامِ ، فإذا كان اللحمُ سيدَ الإدامِ ، والبُرُّ سَيِّدَ القُوتِ ، ومجموعُها الثريدُ ، كان الثريدُ أفضلَ الطعامِ .

---

(١) البخارى (٣٧٧٠) ، ومسلم ١٨٩٥/٤ (٢٤٤٦) .

تَبَرُّؤ أهلِ السنةِ والجماعةِ مما يَقولُه المُبْتَدِعةُ فى حقّ الصحابةِ وأهلِ البيتِ

ويَتَبَرَّءُون من طريقةِ الروافضِ الذين يَبْغَضون الصحابةَ ، ويَسُبُّونهم ، ومن طريقةِ النَّواصِبِ الذين يُؤْذُون أهلَ البيتِ بقولٍ أو عملٍ .

ويُمْسِكُون عما شجَرَ بينَ الصحابةِ ، ويقولون : إنَّ الآثارَ فى مساويهم ، منها ما هو كذبٌ ، ومنها ما قد زِيد فيه ، ونقَص ، وغُيِّر عن وجهِه .

والصحيحُ منه هم فيه مَعْذُورون ، إما مُجْتَهِدون مُصِيبون ، وإما مجتهدون مُخْطِئون .

وهم مع ذلك لا يَعْتَقِدون أن كلَّ واحدٍ من الصحابةِ معصومٌ عن كبائرِ الإثمِ وصغائرِه ، بل تَجوزُ عليهم الذنوبُ فى الجملةِ .

ولهم من السوابقِ والفضائلِ ما يُوجِبُ مغفرةَ ما يَصْدُرُ منهم إن صدَرَ ، حتى إنهم يُغْفَرُ لهم من السيئاتِ ما لا يُغْفَرُ لمن بعدَهم ؛ لأن لهم من الحسناتِ التى تَمْحُو السيئاتِ ما ليس لمن بعدَهم .

وقد ثبَت بقولِ رسولِ اللهِ ﷺ أنهم خيرُ القرونِ ، وأن المُدَّ من أحدِهم إذا تصَدَّق به كان أفضلَ من جبلِ أُحُدٍ ذهبًا ممن بعدَهم .

ثم إذا كان قد صدَرَ من أحدِهم ذنبٌ ، فيكونُ قد تاب منه ، أو أَتَى بحسناتٍ تَمْحُوه ، أو غُفِر له بفضلِ سابقتِه ، أو بشفاعةِ محمدٍ ﷺ الذين هم أحقُّ الناسِ بشفاعتِه .

أو ابْتُلِى ببلاءٍ فى الدنيا كُفِّرَ به عنه .

فإذا كان هذا فى الذنوبِ المحقَّقةِ فكيف الأمورُ التى كانوا فيها مُجْتَهِدِين ، إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخْطَئوا فلهم أجرٌ واحدٌ ، والخطأُ مغفورٌ .

ثم القَدْرُ الذى يُنْكَرُ من فعلِهم قليلٌ نَزْرٌ مَغْمورٌ فى جَنْبِ فضائلِ القومِ ومحاسنِهم ، من الإيمانِ باللهِ ورسولِه والجهادِ فى سبيلِه والهجرةِ والنُّصْرةِ والعلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ .

ومَن نظَرَ فى سِيرةِ القومِ بعلمٍ وبَصيرةٍ ، وما مَنَّ اللهُ عليهم به من الفضائلِ علِم يقينًا أنهم خيرُ الخلقِ بعدَ الأنبياءِ ، لا كان ، ولا يكونُ مثلُهم .

وأنهم الصَّفْوةُ من قرونِ هذه الأمةِ ، التى هى خيرُ الأممِ ، وأكرمُها على اللَّهِ .

الشرح :

بيَّـن الشيخُ رحمه اللهُ فى هذا :

أولًا : موقفَ أهلِ السنةِ والجماعةِ من الصحابةِ وأهلِ البيتِ ، وأنه موقفُ الاعتدالِ ، والوَسَطِ بينَ الإفراطِ والتفريطِ ، والغُلُوِّ والجَفاءِ .

· يَتَوَلَّوْن جميعَ المؤمنين ، لاسيما السابقين الأولين من المهاجرين والأنصارِ والذين اتَّبَعوهم بإحسانٍ .

ويَتَوَلَّوْن أهلَ البيتِ ، يَعْرِفون قَدْرَ الصحابةِ وفضلَهم ومناقبَهم ، ويَرْعَوْن حقوقَ أهلِ البيتِ التى شَرَعَها اللهُ لهم .

(ويَتَبَرَّءُون من طريقةِ الروافضِ) الذين يَسُبُّون الصحابةَ ويَطْعَنون فيهم ،

....

ويَغْلُون فى حقِّ عليٍّ بنِ أبى طالبٍ وأهلِ البيتِ .

(**ومن طريقةِ النَّواصِبِ**) الذين يَنْصِبون العَداوةَ لأهلِ البيتِ ، ويُكَفِّرونهم ويَطْعَنون فيهم ، وقد سبَق بيانُ مذهبِ أهلِ السنةِ والجماعةِ فى الصحابةِ وأهلِ البيتِ[1] ، ولكنَّ الغرضَ من ذكْرِه هنا مقارنتُه بالمذاهبِ المُنْحَرِفةِ المُخالفةِ له .

ثانيًا : بيَّن الشيخُ رحِمه اللهُ موقفَ أهلِ السنةِ والجماعةِ من الاختلافِ الذى وقَع بينَ الصحابةِ فى وقتِ الفتْنةِ ، والحروبِ التى حصَلَت بينَهم ، وموقفَهم مما يُنْسَبُ إلى الصحابةِ مِن مساوئَ ومَثالبَ ، اتَّخذَها أعداءُ اللهِ سببًا للوَقيعةِ فيهم ، والنَّيْلِ منهم .

كما حصَلَ من بعضِ المتأخِّرين والكُتَّابِ العَصْريِّين الذين جعَلوا أنفسَهم حَكَمًا بينَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فصَوَّبوا وخطَّئوا بلا دليلٍ ، بل باتباعِ الهَوَى ، وتقليدِ المُغْرِضِين الذين يُحاوِلون الدَّسَّ على المسلمين بتشكيكِهم بتاريخِهم المجيدِ وسَلَفِهم الصالحِ الذين هم خيرُ القرونِ ؛ ليَنْفُذُوا من ذلك إلى الطعنِ فى الإسلامِ وتفريقِ كلمةِ المسلمين .

وما أحْسَنَ ما ذكَره الشيخُ هنا من تَجْلِيةِ الحقِّ وإيضاحِ الحقيقةِ ، فقد ذكَر أن موقفَ أهلِ السنةِ مما نُسِب إلى الصحابةِ ، وما شَجَر بينَهم - أى : تَنازَعوا فيه - يَتَلَخَّصُ فى أمرين :

الأمرُ الأولُ : أنهم (**يُمْسِكون عما شَجَرَ بينَ الصحابةِ**) ؛ أى : يَكُفُّون عن البحثِ فيه ، ولا يَخُوضُون فيه ؛ لِمَا فى الخوضِ فى ذلك من توليدِ الإِحَنِ[2]

---

(١) تقدم ص ٣٥٦ - ٣٧٧ .

(٢) الإِحَنُ ، جمعُ إِحْنَة : وهى الحِقْد . النهاية لابن الأثير (أ ح ن) .

....

والحِقْدِ على أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وذلك من أعظمِ الذنوبِ ، فطريقُ السلامةِ هو السكوتُ عن ذلك ، وعدمُ التحدُّثِ به .

الأمرُ الثاني : الاعْتذارُ عن الآثارِ المرويةِ فى مساويهم ؛ لأن فى ذلك دفاعًا عنهم ، ورَدًّا لكَيْدِ أعدائِهم .

وقد ذَكَر أن جملةَ الاعتذاراتِ تَتَلَخَّصُ فيما يلى :

١- (**هذه الآثارُ المَرْويةُ فى مساويهم منها ما هو كَذِبٌ**) قد افْتراه أعداؤُهم ؛ ليُشَوِّهوا سُمْعَتَهم ، كما تَفْعَلُه الرافضةُ - قبَّحهم اللهُ - والكذبُ لا يُلْتَفَتُ إليه .

٢- هذه المساوئُ المرويةُ (**منها ما قد زِيد فيه ، ونُقِص ، وغُيِّر عن وجهِه الصحيحِ**) ودخَلَه الكذبُ ، فهو مُحَرَّفٌ ، لا يُعْتَمَدُ عليه ؛ لأن فضلَ الصحابةِ معلومٌ ، وعدالتَهم مُتَيَقَّنَةٌ ، فلا يُتْرَكُ المعلومُ المتيقَّنُ لأمرٍ مُحَرَّفٍ مَشْكوكٍ فيه .

٣- (**الصحيحُ منه**) ؛ أى : من هذه الآثارِ المرويةِ (**هم فيه مَعْذُورون ؛ إما مُجْتَهِدون مُصِيبون ، وإما مُجْتَهِدون مُخْطِئون**) فهو من مواردِ الاجتهادِ التى إن أصاب المجتهدُ فيها فله أجران ، وإن أخْطَأ فله أجرٌ واحدٌ .

لما فى الصحيحَيْن عن أبى هريرةَ وعمرِو بنِ العاصِ رضِى اللهُ عنهما ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إذا اجْتَهَد الحاكمُ فأصاب فله أجْران ، وإن اجْتَهَد وأخْطَأ فله أجرٌ واحدٌ »[1] .

٤- أنهم بَشَرٌ يَجوزُ على أفرادِهم ما يَجوزُ على البشرِ مِن الخطأ ، فأهلُ السنةِ : (**لا يَعْتَقِدون أن كلَّ واحدٍ من الصحابةِ معصومٌ عن كبائرِ الإثمِ وصغائرِه ، بل يَجوزُ عليهم الذنوبُ فى الجملةِ**) ، لكن ما يَقَعُ منهم من ذلك فله مُكفِّراتٌ عَديدةٌ ، منها :

---

(١) البخارى (٧٣٥٢) ، ومسلم ٣/١٤٤٣ (١٧١٦) .

....

أ–أنَّ (**لهم من السوابقِ والفضائلِ ما يُوجِبُ مَغفرةَ ما يَصْدُرُ منهم إن صَدَرَ**) فما يَقَعْ مِن أحدِهم يُغْتَفَره بجانبِ ما لَهُ من الحسناتِ العظيمةِ ، كما فى قصةِ حاطِبٍ ، لمَّا وقَعَ منه ما وقَعَ فى غزوةِ الفتحِ غُفِر له بشهودِه وَقْعةَ بدرٍ[(١)] .

(**حتى إنهم يُغفَرُ لهم من السيئاتِ ما لا يُغفَرُ لمن بعدَهم ؛ لأن لهم من الحسناتِ التى تَمْحو السيئاتِ ما ليس لمن بعدَهم**)، وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾.

ب –أنهم تُضاعَفُ لهم الحسناتُ أكثرَ من غيرِهم ، ولا يُساوِيهم أحدٌ فى الفضلِ .

(**وقد ثبَت بقولِ رسولِ الله ﷺ** أنهم خيرُ القرونِ ، وأن المُدَّ مِن أحدِهم إذا تصَدَّق به كان أفضلَ من جَبَلِ أُحُدٍ ذهبًا ممن بعدَهم)[(٢)] .

أخْرَجَ الشيخانِ ، وغيرُهما أحاديثَ عن أبى هريرةَ وابنِ مسعودٍ وعِمْرانَ بنِ حُصَيْنٍ ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « خيرُ القرونِ قَرْنى ثم الذين يَلُونهم »[(٣)] الحديثَ .

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣٥٩ .

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٥٢ .

(٣) **أولًا** :حديث عبد اللَّه بن مسعود رضى اللَّه عنه رواه البخارى (٢٦٥٢، ٣٦٥١، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨)، ومسلم ٤/ ١٩٦٢، ١٩٦٣ (٢٥٣٣) .

ثانيًا :حديث أبى هريرة رضى اللَّه عنه ، رواه مسلم ٤/ ١٩٦٣، ١٩٦٤ (٢٥٣٤) .

ثالثًا : حديث عمران بن الحصين رضى اللَّه عنه ، رواه البخارى (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥)، ومسلم ٤/ ١٩٦٤، ١٩٦٥ (٢٥٣٥)، وأبو داود (٤٦٥٧)، والترمذى (٢٢٢١، ٢٢٢٢)، والنسائى (٣٨١٨) .

....

والقرونُ جمعُ قرنٍ ، والقرنُ أهلُ زمانٍ واحدٍ مُتقارِبٍ ، اشْتَرَكوا فى أمرٍ من الأمورِ المقصودةِ ، ويُطْلَقُ القَرْنُ على المدةِ من الزمانِ .

جـ – كثرةُ مُكَفِّراتِ الذنوبِ لدَيْهم ، فإنهم يَتَوَفَّرُ لهم من المكفِّراتِ ما لم يَتَوَفَّرْ لغيرِهم .

(**فإذا كان قد صدَرَ من أحدِهم ذنبٌ قد تاب منه ، أو أتَى بحسناتٍ تَمحوه ، أو غُفِر له بفضلِ سابقتِه**) ؛ أى : الأعمالِ الصالحةِ التى أسْبَقَها قبلَه .

(**أو بشفاعةِ محمدٍ ﷺ الذى هم أحقُّ الناسِ بشفاعتِه ، أو ابْتُلِى ببلاءٍ فى الدنيا كُفِّر به عنه**) ؛ أى : امْتُحِن وأُصِيب بمُصيبةٍ مُحِى عنه ذلك الذنبُ بسببِها .

كما فى الصحيحِ ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « ما يُصيبُ المؤمنَ مِن وَصَبٍ ، ولا نَصَبٍ ، ولا غَمٍّ ، ولا هَمٍّ ، ولا حَزَنٍ ، حتى الشوكةِ يُشاكُها ، إلا كفَّر اللهُ بها مِن خطاياه » . متفقٌ عليه[1] ، والصحابةُ أَوْلَى الناسِ بذلك .

قال : (**فإذا كان هذا فى الذنوبِ المحقَّقةِ**) ؛ أى : الواقعةِ منهم فعلًا ، وأنَّ لدَيْهم رصيدًا من الأعمالِ الصالحةِ التى تُكَفِّرُها .

(**فكيف الأمورُ التى كانوا فيها مجتهدين**) الاجتهادُ هو بَذْلُ الطاقةِ فى معرفةِ الحكمِ الشرعىِّ .

(**إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطَئوا فلهم أجرٌ واحدٌ ، والخطأُ مغفورٌ**) كما سبَق بيانُ دليلِ ذلك قريبًا .

وإذًا فما يَصْدُرُ من الصحابىِّ من خطأ على قِلَّتِه ؛ فهو بينَ أمرين :

الأولُ : أن يكونَ صدَر عن اجتهادٍ ، وهو فيه مأجورٌ ، وخطؤُه مغفورٌ .

والثانى : أن يكونَ صدَر عن غيرِ اجتهادٍ ، وعندَه من الأعمالِ والفضائلِ

---

(١) البخارى (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ، ومسلم ٤/ ١٩٩٢، ١٩٩٣ (٢٥٧٣) .

....

والسوابقِ الخَيْرَةِ ما يُكَفِّرُه ويَمْحُوه .

وقولُه : (ثم القَدْرُ الذى يُنْكَرُ من فعلِ بعضِهم) إلخ ، هو كالتلخيصِ لما سبَق ، وبيانِ فضائلِ الصحابةِ إجمالًا ، وهى :

١- الإيمانُ باللهِ ورسولِه ، وهو أفضلُ الأعمالِ .

٢- الجهادُ فى سبيلِ اللهِ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ ، وهو ذِرْوةُ سَنامِ الإسلامِ[(١)] .

٣- الهجرةُ فى سبيلِ اللهِ ، وهى من أفضلِ الأعمالِ .

٤- النُّصْرةُ لدينِ اللهِ ، قال تعالى فيهم : ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

٥- العلمُ النافعُ والعملُ الصالحُ .

٦- أنهم خيرُ الخلقِ بعدَ الأنبياءِ ، فأُمَّةُ محمدٍ ﷺ خيرُ الأممِ ، كما قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ، وخيرُ هذه الأمةِ صحابةُ رسولِ اللهِ ﷺ ؛ لقولِه عليه الصلاةُ والسلامُ : « خيرُكم قَرْنى ، ثم الذين يَلُونَهم » الحديثَ[(٢)] .

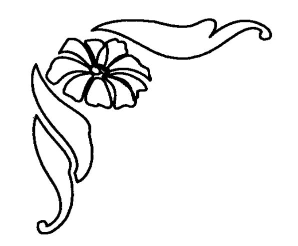
٧- أنهم الصَّفْوةُ من قرونِ هذه الأمةِ ، التى هى خيرُ الأممِ ، وأكرمُها على اللهِ ، كما فى الحديثِ الذى رواه الإمامُ أحمدُ ، أن النبىَّ ﷺ قال : « أنتم تُوَفُّونَ سبعين أُمَّةً ، أنتم خيرُها وأكرمُها على اللهِ سبحانَه » . رواه الترمذىُّ ، وابنُ ماجه ، والحاكمُ فى مُسْتَدْرَكِه[(٣)] .

---

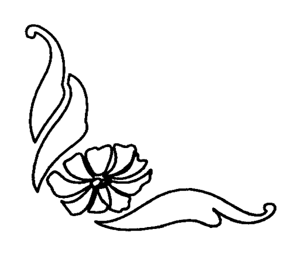
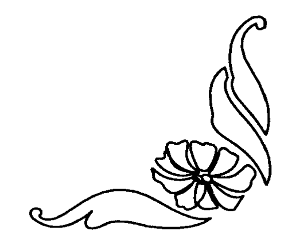
(١) رواه أحمد فى مسنده ٥/٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٤٦ (٢١٩١٥، ٢١٩٤٦، ٢١٩٥٠، ٢١٩٦٧، ٢٢٠٢١) ، والترمذى (٢٦١٦) ، وابن ماجه (٣٩٧٣) . وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥١٣٦) : صحيح .

(٢) تقدم تخريجه ص٣٨٢ .

(٣) رواه أحمد فى مسنده ٤/٤٤٧، ٥/٥ (١٩٩٠٠، ١٩٩٣٢) ، والترمذى (٢٩٢٧) ، وابن ماجه (٤٢٨٨) ، والحاكم فى المستدرك ٤/٨٤ .




مذهبُ أهلِ
السنةِ والجماعةِ
فى كراماتِ الأولياءِ

مذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ فى كراماتِ الأولياءِ

ومن أصولِ أهلِ السنةِ التصديقُ بكراماتِ الأولياءِ وما يُجْرِى اللهُ على أيدِيهم مِن خوارقِ العاداتِ فى أنواعِ العلومِ والـمُكاشَفاتِ ، وأنواعِ القدرةِ والتأثيراتِ .

والمأثورِ عن سالفِ الأممِ فى سورةِ الكهفِ وغيرِها ، وعن صدرِ هذه الأمة من الصحابةِ والتابعين وسائرِ فرقِ الأمةِ ، وهى موجودةٌ فيها إلى يومِ القيامةِ .

الشرحُ :

قولُه : (ومن أصولِ أهلِ السنةِ) ؛ أى : من أصولِ عقيدتِهم .

(التصديقُ بكراماتِ الأولياءِ) الكراماتُ جمعُ كرامةٍ ، وهى **(ما يُجْرِى اللهُ على أيديهم من خوارقِ العاداتِ)** فالكرامةُ أمرٌ خارقٌ للعادةِ ؛ أى : لمألوفِ الآدميين .

والأولياءُ جمعُ ولىٍّ ، وهو المؤمنُ المُتَّقِى ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

سُمِّى وَلِيًّا اشْتِقاقًا مِن الوَلاءِ ، وهو المحبةُ والقربُ ، فولِىُّ اللهِ مَن والَى اللهَ بموافقتِه فى محبوباتِه ، والتقربِ إليه بمَرْضاتِه .

وكراماتُ الأولياءِ حقٌّ ، وقد دلَّ عليها الكتابُ والسنةُ والآثارُ المتواتِرةُ عن الصحابةِ والتابعين[1] .

---

(١) الكرامات الثابتة فى الكتاب قصة أصحاب الكهف ، الذين عاشوا فى قوم مشركين ، وهم قد آمنوا باللَّه ، وخافوا أن يغلبوا على أمرهم ، فخرجوا من القرية مهاجرين إلى اللَّه عز وجل ، =

....

....

= فيسر اللّه لهم غارًا فى جبل ، وجه هذا الغار إلى الشمال ، فلا تدخل الشمس عليهم فتفسد أبدانهم ولا يحرمون منها ، إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه ، وبقوا فى هذا الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا ، وهم نائمون ، يقلبهم اللّه ذات اليمين وذات الشمال ، فى الصيف وفى الشتاء ، لم يزعجهم الحر ، ولم يؤلمهم البرد ، ما جاعوا وما عطشوا وما ملوا من النوم . فهذه كرامة بلا شك ، بقوا هكذا حتى بعثهم اللّه وقد زال الشرك عن هذه القرية ، فسلموا منه .

– ومن ذلك قصة مريم رضى اللّه عنها ، أكرمها اللّه حيث أجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، وأمرها اللّه أن تهز بجذعها لتتساقط عليها رطبًا جنيًا .

– ومن ذلك قصة الرجل الذى أماته اللّه مائة عام ثم بعثه ؛ كرامة له ؛ ليتبين له قدرة اللّه تعالى ، ويزداد ثباتًا فى إيمانه .

ومن الكرامات الثابتة فى السنة : ما رواه البخارى (٧١٣٢) ، ومسلم ٢٢٥٦/٤ (٢٩٣٨) ، عن أبى سعيد الخدرى قال : حدثنا رسول اللّه ﷺ يومًا حديثًا طويلًا عن الدجال ، فكان فيما حدثنا قال : « يأتى وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة . فينتهى إلى بعض السباخ التى تلى المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ، أو من خير الناس . فيقول له : أشهد أنك الدجال الذى حدثنا رسول اللّه ﷺ حديثه . فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته ، أتشكون فى الأمر ؟ فيقولون : لا . قال : فيقتله ثم يحييه ؟ فيقول حيث يحييه : واللّه ما كنت فيك قط أشد بصيرة منى الآن . قال : فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه » .

فعدم تمكن الدجال من قتل ذلك الشاب من الكرامات بلا شك ، وكذلك قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة ، وقد رواها البخارى (٣٤٥٦) ، ومسلم ٢٠٩٩/٤ (٢٧٤٣) . وقد قال الشيخ السعدى رحمه اللّه فى التنبيهات اللطيفة ص ٩٧: وتواترت نصوص الكتاب والسنة والوقائع قديمًا وحديثًا على وقوع كرامات اللّه لأوليائه المتبعين لأنبيائه . اهـ

=

....

....

ومن الآثار عن الصحابة والتابعين :

١- ما رواه البخاري (٥٠١٨) ، ومسلم ٥٤٨/١ (٧٩٦) ، أن أُسَيْد بنَ حُضَيْر بينما هو ليلةً يقرأ في مِرْبَدِ إذ جالت فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ثم جالت أيضًا . قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى . فقمت إليها . فإذا مثل الظلة فوق رأسي . فيها أمثال السرج . عرجت في الجو حتى ما أراها . قال فغدوت على رسول الله فقلت : يا رسول الله ، بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي . إذ جالت فرسي . فقال رسول الله ﷺ : « اقرأ ابن حضير ! » قال : فقرأت . ثم جالت أيضًا . فقال رسول الله ﷺ : « اقرأ ابن حضير ! » قال : فقرأت . ثم جالت أيضًا . فقال رسول الله ﷺ : « اقرأ ابن حضير ! » قال : فانصرفت ، وكان يحيى قريبًا منها . خشيت أن تطأه . فرأيت مثل الظلة . فيها أمثال السرج . عرجت في الجو حتى ما أراها . فقال رسول الله ﷺ : « تلك الملائكة كانت تستمع لك . ولو قرأت لأصبحت يراها الناس . ما تستتر منهم » .

٢- وما رواه البخاري (٦٠٢) ، ومسلم ١٦٢٧/٣ (٢٠٥٧) ، عن عبد الرحمن بن أبي بكر ، أنَّ أصحاب الصُّفَّة كانوا ناسًا فقراء ، وإن رسول الله ﷺ قال مرة : « من كان عنده طعام اثنين ، فليذهب بثلاثة ، ومن كان عنده طعام أربعة ، فليذهب بخامس ، بسادس » . أو كما قال ، وإن أبا بكر جاء بثلاثة وانطلق نبي الله ﷺ بعشرة وأبو بكر بثلاثة . قال : فهو وأنا وأبي وأمي – ولا أدري هل قال : وامرأتي وخادم بين بيتنا وبيت أبي بكر – قال : وإن أبا بكر تَعَشَّى عند النبي ﷺ . ثم لبث حتى صليت العشاء . ثم رجع فلبث حتى نَعَسَ رسول الله ﷺ . فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله . قالت له امرأته : ما حبسك عن أضيافك ، أو قالت : ضيفك ؟ قال : أو ما عشَّيتهم ؟ قالت : أبَوْا حتى تجئ . قد عرضوا عليهم فغلبوهم قال : فذهبت أنا فاختبأت . وقال : يا غُنْثَرُ . فجدَّع وسب . وقال : كلوا لا هنيئًا . وقال : والله ! لا أطعمه أبدًا . قال : فايم الله ! ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها . قال حتى شبعنا وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك . فنظر إليها أبو بكر فإذا هي كما هي أو أكثر . قال لامرأته : يا أخت بني فراس ، ما هذا ؟ قالت : لا وقرة عيني ! لهي الآن أكثر منها قبل =

....

والناسُ فى كراماتِ الأولياءِ على ثلاثةِ أصنافٍ :

الصِّنفُ الأولُ : مَن يَنفِيها مِن المُبتَدعةِ كالمعتزلةِ والجَهْمِيَّةِ وبعضِ الأشاعرةِ ، وشُبْهَتُهم : أن الخوارقَ لو جاز ظهورُها على أيدى الأولياءِ لالْتَبَس النبىُّ بغيرِه ؛ إذ الفرقُ بينَ النبىِّ وغيرِه هو المُعْجِزةُ التى هى خَرْقُ العادةِ .

الصنفُ الثانى : مَن يَغْلُو فى إثباتِ الكرامةِ مِن أصحابِ الطُّرُقِ الصُّوفيةِ ، والقُبُوريِّين الذين يَدْجُلُون على الناسِ ، ويَأْتُون بخَوارقَ شيطانيةٍ ، كدخولِ النارِ ، وضربِ أنفسِهم بالسلاحِ ، وإمساكِ الثَّعابينِ ، وغيرِ ذلك مما يَدَّعُونه لأصحابِ القُبورِ من التصرُّفاتِ التى يُسَمُّونها كراماتٍ .

الصنفُ الثالثُ : الذين ذكَرَهم الشيخُ هنا ، وهم أهلُ السنةِ والجماعةِ ، فيُؤْمِنون بكراماتِ الأولياءِ ، ويُثْبِتُونها على مُقْتَضَى ما جاء فى الكتابِ والسنةِ .

ويَرُدُّون على مَن نفاها بحُجَّةِ منعِ الاشتباهِ بينَ النبىِّ وغيرِه بأنَّ هناك فوارقَ

= ذلك بثلاث مرار . قال : فأكل منها أبو بكر وقال : إنما كان ذلك من الشيطان - يعنى يمينه - ثم أكل منها لقمة . ثم حملها إلى رسول الله ﷺ فأصبحت عنده . قال : وكان بيننا وبين قوم عقد فمضى الأجل فعرَّفنا اثنا عشر رجلًا . مع كل رجل منهم أناس . الله أعلم كم مع كل رجل إلا أنه بعث معهم فأكلوا منها أجمعون . أو كما قال .

٣- وما رواه البخارى رحمه الله (٣٨٠٥) ، عن أنس رضى الله عنه أن رجلين خرجا من عند النبى ﷺ فى ليلة مظلمة ، وإذا نور بين أيديهما حتى تفرّقا ، فتفرّق النور معهما .

٤- وما رواه أبو نعيم فى الحلية ١/ ٧، عن سهم بن منجاب قال : غزونا مع العلاء ابن الحضرمى . فسرنا حتى أتينا دارين ، والبحر بيننا وبينهم ، فقال : يا عليم ، يا حليم ، يا علىّ ، يا عظيم ، إنا عبيدك ، وفى سبيلك نقاتل عدوك ، اللهم فاجعل لنا إليهم سبيلًا فنقتحم البحر ، فخضنا ما يبلغ لبودنا الماء .

٥- وما جاء فى صفة الصفوة ٤/ ٢٠٨ لابن الجوزى ، من أن أبا مسلم الخولانى ألقاه الأسود العنسى المتنبى فى النار ، فلم تضره ، فكان يُشَبَّه بالخليل عليه السلام .

....

عظيمةً بينَ الأنبياءِ وغيرِهم غيرَ خوارقِ العاداتِ ، وأنَّ الوليَّ لا يَدَّعِي النبوةَ ، ولو ادَّعاها لخَرَجَ عن الوَلايةِ ، وصار مُدَّعِيًا كَذَّابًا ، لا وليًّا ، ومن سُنَّةِ اللهِ أن يَفْضَحَ الكاذبَ ، كما حصَل لمُسَيْلِمةَ وغيرِه .

ويَرُدُّون على مَن غَلَا في إثباتِها ، فادَّعاها للمُشَعْوِذين والدجَّالين ، بأنَّ هؤلاء ليسوا أولياءَ اللهِ ، وإنما هم أولياءُ للشيطانِ ، وما يَجْرِي عليهم ، إما كذبٌ وتَدْجيلٌ ، أو فتنةٌ لهم ولغيرِهم ، واستِدراجٌ . واللهُ أعلمُ(١) .

(١) **قال الشيخ ابن باز رحمه الله في التنبيهات اللطيفة ص ٩٧ - ٩٩:**
الفرق بين المعجزة والكرامة والأحوال الشيطانية الخارقة للعادة على يد السحرة والمشعوذين :
أن المعجزة هي ما يُجرى الله على أيدي الرسل والأنبياء من خوارق العادات التي يتحدون بها العباد ويخبرون بها عن الله لتصديق ما بعثهم به ويؤيدهم بها سبحانه ، كانشقاق القمر ونزول القرآن ، فإن القرآن هو أعظم معجزة لرسول على الإطلاق ، ولحنين الجذع ونبوع الماء من بين أصابعه . وغير ذلك من المعجزات الكثيرة .
وأما الكرامة فهي ما يُجرى الله على أيدي أوليائه المؤمنين من خوارق العادات كالعلم والقدرة وغير ذلك ، كالظلة التي وقعت على أسيد بن حضير حين قراءته القرآن . وكإضاءة النور لعباد ابن بشر وأسيد بن حضير حين انصرفا من عند النبي ﷺ فلما افترقا أضاء لكل واحد منهما طرف سوطه .
وشرط كونها كرامة أن يكون من جرت على يده هذه الكرامة مستقيمًا على الإيمان ومتابعة الشريعة ، فإن كان خلاف ذلك فالجاري على يده من الخوارق يكون من الأحوال الشيطانية .
ثم ليعلم أن عدم حصول الكرامة لبعض المسلمين لا يدل على نقص إيمانهم ؛ لأن الكرامة إنما تقع لأسباب ؛ منها تقوية إيمان العبد وتبنيته ، ولهذا لم ير كثير من الصحابة شيئًا من الكرامات لقوة إيمانهم وكمال يقينهم .
ومنها : إقامة الحجة على العدو كما حصل لخالد لما أكل السم وكان قد حاصر حصنًا فامتنعوا عليه حتى يأكله فأكله وفتح الحصن . ومثل ذلك ما جرى لأبي مسلم الخولاني لما ألقاه =

....

ولشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ فى هذا الموضوعِ كتابٌ جليلٌ ، اسمُه : (الفُرْقانُ بينَ أولياءِ الرحمنِ وأولياءِ الشيطانِ) .

وفى قولِه : (**فى أنواعِ العلومِ والـمُكاشَفاتِ وأنواعِ القدرةِ والتأثيراتِ**) إشارةٌ إلى أن الكرامةَ منها ما يكونُ من بابِ العلمِ والكشفِ بأن يَسْمَعَ العبدُ ما لا يَسْمَعُه غيرُه ، أو يَرَى ما لايَرَاه غيرُه ، يَقَظَةً أو مَنَامًا ، أو يَعْلَمَ ما لا يَعْلَمُه غيرُه ، ومنها ما هو من بابِ القدرةِ والتأثيرِ .

مثالُ النوعِ الأولِ : قولُ عمرَ : يا ساريةُ ، الجبلَ . وهو بالمدينةِ ، وساريةُ فى المشرقِ[(١)] ، وإخبارُ أبى بكرٍ بأنَّ ببطنِ زوجتِه أُنْثَى[(٢)] ، وإخبارُ عمرَ بمَن يَخْرُجُ مِن ولدِه ، فيكونُ عادلًا[(٣)] ، وقصةُ صاحبِ موسى ، وعلمُه بحالِ الغلامِ[(٤)] .

ومثالُ النوعِ الثانى : قصةُ الذى عندَه علمٌ مِن الكتابِ ، وإتيانُه بعرشِ بِلْقِيسَ إلى سليمانَ عليه السلامُ ، وقصةُ أهلِ الكهفِ ، وقصةُ مريمَ ، وقصةُ خالدِ بنِ الوليدِ

= الأسود العنسى فى النار فأنجاه الله من ذلك لحاجته إلى تلك الكرامة . وكقصة أم أيمن لما خرجت مهاجرة واشتد بها العطش سمعت حسًا من فوقها فرفعت رأسها فإذا هى بدلو من ماء فشربت منها ثم رفعت .

وقد تكون الكرامة ابتلاء فيسعد بها قوم ويشقى بها آخرون وقد يسعد بها صاحبها إن شكر وقد يهلك إن أعجب ولم يستقم . اهـ

(١) رواه البيهقى فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية وقال : إسناده حسن جيد ، وحسنه الشيخ الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (١١١٠) .

(٢) رواه اللالكائى فى كرامات الأولياء (٦٣) ، وأورده ابن حجر فى « الإصابة » ٢٦١/٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ١١٦/٥ .

(٤) يعنى : الخَضِر ، والغلام ، يعنى : الغلام الذى قتله . وهذه القصة رواها البخارى رحمه الله (٣٤٠١) ، ومسلم رحمه الله ١٨٤٧/٤ - ١٨٥٣ (٢٣٨٠) .

....

* * *

لما شرِب السُّمَّ ، ولم يَحْصُلْ له منه ضررٌ[1] .

وقولُه : **(والمأثورِ عن سالفِ الأمَمِ فى سورةِ الكهفِ ، وغيرِها ، وعن صَدْرِ هذه الأمةِ من الصحابةِ والتابعين ، وسائرِ فرقِ الأمةِ)** . يُشِيرُ بذلك إلى الكراماتِ التى وَقَعَت وذُكِرَت فى القرآنِ الكريمِ ، وغيرِه من النُّقولِ الصحيحةِ .

فمما ذكَرَه اللهُ فى القرآنِ الكريمِ عن سالفِ الأمَمِ ما ذكَرَه اللهُ عن حَمْلِ مَرْيَمَ بلا زوجٍ ، وما ذكَرَ فى سورةِ الكهفِ من قصةِ أصحابِ الكهفِ ، وقصةِ صاحبِ موسى ، وقصةِ ذى القَرْنَيْن .

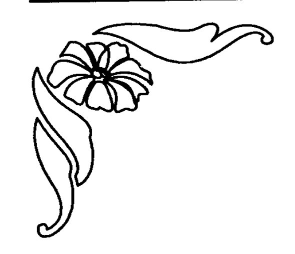
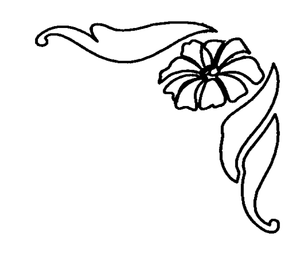
(وكالمأثورِ) ؛ المنقولِ بالسندِ الصحيحِ عن **(صدرِ هذه الأمةِ)** ؛ أى : أولِها من الصحابةِ والتابعين ، كرؤيةِ عمرَ لجيشِ ساريةَ وهو على منبرِ المدينةِ ، وساريةُ بنهاوند بالمشرقِ ، وندائِه له : يا ساريةُ ، الجبلَ . فسمِعه ساريةُ ، وانْتفَع بهذا التوجيهِ ، وسلِم من كيدِ العدوِّ .

وقولُه : **(وهى موجودةٌ فيها إلى يومِ القيامةِ)** ؛ أى : لا تَزالُ الكراماتُ موجودةً فى هذه الأمةِ إلى يومِ القيامةِ ، ما وُجِدَت فيهم الوَلايةُ بشروطِها ، واللهُ أعلمُ .

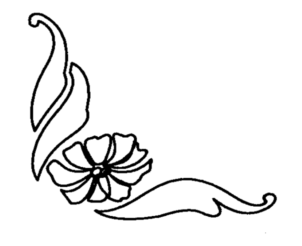
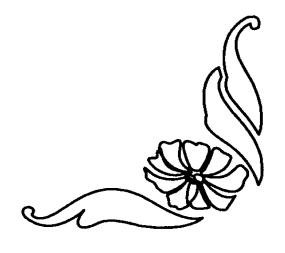
* * *

---

(١) أورده الهيثمى فى المجمع ٩/ ٣٥٠، وقال : رواه أبو يعلى والطبرانى بنحوه ، وأحد إسنادى الطبرانى رجاله رجال الصحيح ، وهو مرسل ، ورجالهما ثقات ، إلا أن أبا السفر وأبا بُرْدَةَ بن أبى موسى لم يَسْمَعا من خالد ، واللَّه أعلم . أهـ . وانظر المطالب العالية . (٤٠٤٣) .

فصلٌ : فى صفاتِ أهلِ السنةِ والجماعةِ ، ولِمَ سُمُّوا بذلك

فصلٌ : فى صفاتِ أهلِ السنةِ والجماعةِ ، ولِمَ سُمُّوا بذلك

ثم من طريقةِ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ اتِّباعُ آثارِ رسولِ اللهِ ﷺ باطنًا وظاهرًا ، واتباعُ سبيلِ السابِقِين الأوَّلين من المهاجرين والأنصارِ ، واتِّباعُ وصيةِ رسولِ اللهِ ﷺ حيث قال : « عليكم بسُنَّتى وسنةِ الخلفاءِ الراشدين المهْدِيِّين مِن بعدى ، تَمَسَّكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ ، وإياكم ومُحْدثاتِ الأمورِ ، فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ » .

ويَعْلَمون أن أصدقَ الكلامِ كلامُ اللهِ ، وخيرَ الهَدْيِ هَدْىُ محمدٍ ﷺ .

ويُؤْثِرون كلامَ اللهِ على غيرِه من كلامِ أصنافِ الناسِ ، ويُقَدِّمون هَدْىَ محمدٍ ﷺ على هَدْيِ كلِّ أحدٍ ، ولهذا سُمُّوا أهلَ الكتابِ والسنةِ .

وسُمُّوا أهلَ الجماعةِ ؛ لأن الجماعةَ هى الاجتماعُ ، وضدُّها الفُرْقةُ ، وإنَ كان لفظُ الجماعةِ قد صار اسمًا لنفسِ القومِ المُجْتَمِعِين .

والإجماعُ هو الأصلُ الثالثُ الذى يُعْتَمَدُ عليه فى العلمِ والدينِ .

وهم يَزِنُون بهذه الأصولِ الثلاثةِ جميعَ ما عليه الناسُ من أقوالٍ وأعمالٍ باطنةٍ أو ظاهرةٍ ، مما له تعَلُّقٌ بالدينِ .

والإجماعُ الذى يَنْضَبِطُ هو ما كان عليه السلفُ الصالحُ ؛ إذ بعدَهم كثُر الاختلافُ ، وانْتَشَرَتِ الأُمَّةُ .

الشرحُ :

لما ذكَر الشيخُ طريقةَ أهلِ السنةِ فى مسائلِ العقيدةِ ذكَر فى هذا الفصلِ والذى

....

بعدَه طريقتَهم فى عمومِ الدينِ ؛ أصولِه وفروعِه ، وأوصافَهم التى تميَّزوا بها عن أهلِ البدعِ والمخالفاتِ ، فمِن صفاتِهم :

١ - (**اتِّباعُ آثارِ النبىِّ ﷺ باطنًا وظاهرًا**) ؛ أى : سلوكُ طريقِه ، والسَّيْرُ على مِنْهاجِه .

(**باطنًا وظاهرًا**) بخلافِ المنافِقِين الذين يَتَّبِعونه فى الظاهرِ دونَ الباطنِ .

وآثارُ الرسولِ ﷺ سنتُه ، وهى ما رُوِى عنه ، وأُثِر عنه من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ ، لا آثارُه الحسيةُ كمواضعِ جلوسِه ونومِه ونحوِ ذلك ؛ لأنَّ تَتَبُّعَ ذلك سببٌ للوقوعِ فى الشركِ ، كما حصَل فى الأممِ السابقةِ(١) .

---

(١) **قال الشيخ ابن باز رحمه الله فى « التنبيهات اللطيفة » ص ١٠١، ١٠٢ حاشية ٣:**
مراد المصنف بذلك اتباع ما أثر عن النبى ﷺ من قول أو عمل أو تقرير وذلك هو اتباع السنة والتمسك بها ، وأوجه السنة ثلاثة ؛ قول وعمل وتقرير ، أما آثاره الحسية كموضع جلوسه وما هو عليه وما وطئه بقدمه الشريفة أو استند إليه أو اضطجع عليه ونحو ذلك فلا يشرع اتباعه فى ذلك . بل تتبع هذه الآثار من وسائل الغلو فيه .
وقد أنكر بعض أعيان الصحابة على ابن عمر ذلك . وقطع عمر الشجرة التى بويع النبى تحتها لما علم أن الناس يقصدونها خوفًا من الفتنة ، ولما بلغه أن ناسًا يقصدون مسجدًا صلى فيه النبى ﷺ فى الطريق أنكر وقال ما معناه : إنما أهلك من كان قبلكم مثل هذا ، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ، فمن أدركته الصلاة فى شىء من هذه المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يقصدها .
وأما ما صلى فيه صلوات التشريع فالصلاة فيه مشروعة كمسجده ﷺ ومسجد قباء والموضع الذى صلى فيه فى بيت عثمان كما طلب منه ذلك ليتخذه مصلى فأجابه ﷺ على ذلك ، وهكذا التبرك بشعره ﷺ وريقه وعرقه وما ماس جلده فكله لا بأس به ، لأن السنة قد صحت بذلك . وقد قسم ﷺ فى حجة الوداع بين الناس شعر رأسه لما قد جعل الله فيه من البركة ، =

....

٢- ومن صفاتِ أهلِ السنةِ (**اتباعُ سبيلِ السابِقِين الأوَّلِين مِن المهاجرِين والأنصارِ**) لِمَا خصَّهم اللهُ به من العلمِ والفقهِ ، فقد شاهَدُوا التنزيلَ ، وسمِعوا التأويلَ ، وتلَقَّوْا عن الرسولِ ﷺ بدونِ واسطةٍ ، فهم أقربُ إلى الصوابِ ، وأحقُّ بالاتباعِ بعدَ الرسولِ ﷺ .

فاتباعُهم يأتي بالدرجةِ الثانيةِ بعدَ اتباعِ الرسولِ ﷺ ، فأقوالُ الصحابةِ حُجَّةٌ يَجِبُ اتباعُها إذا لم يُوجَدْ نصٌّ عن النبيِّ ﷺ ؛ لأنَّ طريقَهم أسلمُ وأعلمُ وأحكمُ ، لا كما يقولُ بعضُ المتأخِّرين : إن طريقَةَ السلفِ أسلمُ ، وطريقةَ الخلفِ أعلمُ وأحكمُ . فيَتَّبِعون طريقةَ الخلفِ ، ويَتْرُكون طريقةَ السلفِ[1] .

= وليس هذا من الغلو الممنوع ، وإنما الغلو الممنوع هو أن يعتقد فيه ﷺ ما لا يجوز أو يصرف له شيئًا من العبادة وأما التبرك بغيره ﷺ فالصحيح منعه لأمرين :

أحدهما : أن غيره لا يقاس به لما جعل الله فيه من الخير والبركة بخلاف غيره فلا يتحقق فيه ذلك .

الأمر الثاني : أن ذلك ربما يوقع فى الغلو وأنواع التبرك ، فوجب سد الذرائع بالمنع من ذلك وإنما جاز فى حق النبى لمجيء النص به .

وهناك أمر ثالث أيضًا : وهو أن الصحابة لم يفعلوا مثل ذلك مع غير النبى ﷺ لا مع الصديق ولا مع عمر ولا مع غيرهما ، ولو كان ذلك سائغًا أو قربة لسبقونا إليه ولم يجمعوا على تركه ، فلما تركوه علم أن الحق ترك ذلك وعدم إلحاق غير النبى به فى ذلك .

(١) **قال الدكتور عمر بن سليمان الأشقر حفظه الله فى كتابه « أسماء الله وصفاته » ص ٢٤٥- ٢٥١ :**

ومما يدل على أن مذهب السلف هو المذهب الأحكم والأسلم والأعلم أن كثيرًا من الذين بلغوا الغاية فى علم الكلام تراجعوا عنه وذموه ، بعضهم تراجع عنه وفى العمر بقية ، وبعضهم أعلن توبته وهو على فراش الموت ، ومنهم من كان يدرك ضلاله وحيرته ، ولكنه لم =

....

....

= يكن يعرف سبيل الهداية .
هذا الرازى – وهو أحد هؤلاء – يعلن فى نهاية المطاف بعد أن أضناه المسير ، وعالج فى مسيره كثيرًا من العنت أنه لم يصل إلى شىء ، لقد ابتعد عن المنهج القرآنى النبوى ، وجرى وراء نتائج العقول الإنسانية ، فلم تقده الأفكار والنظريات والمقالات إلى اليقين الذى يجده الناهل من وحى السماء ، لقد أدرك فى نهاية المسار أن روحه لم ترتو من المنهل الذى ورده ، وأن الغاية التى سعى إليها لم تتحقق ، وأن ما اعتمد عليه وجمعه أقوال تتصارع وتتضارب .
إنى كلما قرأت أبياته التى أوردها فى كتابه « أقسام اللذات » أشتمُّ منها رائحة النواح الحزين الصاعد من قلب مكلوم ، إنه النواح على النفس التى ضيعت المسيرة فى غير مسارها الحق ، اسمعه وهو ينوح على نفسه فيقول :

نهاية إقدام العقول عقال … وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا … وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا … سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
وكم قد رأينا رجالا ودولة … فبادوا جميعًا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علا شرفاتِها … رجال فزالوا والجبال جبال

ووعظ يوما بحضرة السلطان شهاب الدين الغورى فناداه قائلا : « يا سلطان العلماء لا سلطانك يبقى ، ولا تلبيس الرازى يبقى » .
وقال ابن الصلاح : أخبرنى القطب الطوغانى مرتين أنه سمع فخر الدين الرازى يقول : يا ليتنى لم أشتغل بعلم الكلام . وبكى .
ويقول فى كتابه « أقسام اللذات » : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ فى الإثبات : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] .
وأقرأ فى النفى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ .
ويختم حديثه قائلًا : « ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى » . =

....

....

= ويصور لنا عبد الكريم الشهرستاني – وهو العلم الذى لا يشق له غبار فى علم الملل والنحل – حال أصحاب الكلام فى علوم العقائد فى مقدمة كتابه « نهاية الإقدام فى علم الكلام » فيقول :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلَّها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعًا كفَّ حائر على ذقن أو قارعًا سنَّ نادم

ولا يجوز أن ننسى فى هذا المقام الجوينى ، وهو الذى كان يدعى بإمام الحرمين ، وهو من هو فى علم الكلام والجدل والبحث والنظر ، وقد حضره الموت ، فإذا به ينظر فى مساره فى الحياة ، وينظر إلى حصيلته التى حصلها ، فيبكى بكاء الثكلى ، لقد أضاع الكثير من عمره فى مسار لم يوصله إلى الشاطئ ، لقد كان يخوض فى بحر خضم من الأفكار والعقائد والموازين ، لا يقر قلبٌ من خاضها على قرار ، استمع إليه يوصى أصحابه وهو يعالج سكرات الموت فيقول : « لقد خُضْتُ البحر الخضم ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم ، وخُضْتُ فى الذى نَهَوْنى عنه ، والآن إن لم يتداركنى الله برحمته فالويل لى ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمى » .

وهذا عالم آخر من علماء الكلام يفتش عن حصيلة العمر ، وهو على فراش الموت فلا يجد عنده من الحق شيئًا ، فيعلن ذلك لمن حوله ، ويقول : « اشهدوا علىَّ أنى أموت وما عرفت إلا أنَّ الممكن مفتقر إلى واجب ، ثمَّ قال : والافتقار أمر عدمى ، فلم أعرف شيئًا » .

ويقول آخر من علماء الكلام : « أكثر الناس شكًّا عند الموت أصحاب الكلام » .

وقال شمس الدين الخسروشاهى ، وكان من أجل تلامذة الفخر الرازى لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يومًا : ما تعتقد ؟ قال : ما يعتقده المسلمون . فقال : وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به ؟ قال : نعم .

فقال : اشكر اللَّه على هذه النعمة ، لكنى واللَّه ما أدرى ما أعتقد ، واللَّه ما أدرى ما أعتقد ، وبكى حتى أخضل لحيته :

ولابن أبى الحديد من شعره :

فيك يا أُغْلُوطة الفكر حار أمرى وانقضى عمرى =

....

....

= سافرتْ فيك العقولُ فما ربحتْ إلا أذى السفر
فلحى اللّه الألى زعموا أنك المعروف بالنظر
كذبوا إنّ الذى ذكروا خارج عن قوة البشر

وقال المرتضى اليمانى الشهير بابن الوزير : خالف بعض المتكلمين والمبتدعة أسلوب الأنبياء والأولياء والأئمة والسلف فى النظر ، فتكلفوا وتعمقوا وعَبَّرُوا عن المعانى الجليّة بالعبارات الخفية ، ورجعوا بعد السفر البعيد إلى الشكّ والحيرة والتعادى والتكاذب .

وقد اعترف أكثر المتكلمين بالوقوع فى الحيرة ، والأمور المشكلة المتعارضة ، فقال ابن أبى الحديد – وهو من كبراء المعتزلة – بعد عظيم توغله فى علم الكلام :

فإذا الذى استكثرت منه هو الـ جانى على عظائم المحن
فظللتُ فى تيهٍ بلا علم وغرقتُ فى بحر بلا سفن

وقال صاحب كتاب الإمام :

تجاوزت حد الأكثرين إلى العلا وسافرتُ واستبقيتهم فى المراكز
وخضت بحارًا ليس يُدْرَك قعرها وسَيَّرتُ نفسى فى فسيح المفاوز
ولججت فى الأفكار ثمّ تراجع اخـ تيارى إلى استحسان دين العجائز

ومن المتأخرين الذين خاضوا فى علم الكلام ولم يرجعوا منه بفائدة ، ووقعوا فى الحيرة الشوكانى ، فإنه حَدَّث عن نفسه فقال : « ها أنا أخبرك عن نفسى ، وأوضح لك ما وقعت فيه أمسى ، فإنى فى أيام الطلب وعُنفُوان الشباب ، شغلت بهذا العلم الذى سموه تارة علم الكلام ، وتارة علم التوحيد ، وتارة علم أصول الدين ، وأَكْبَبْتُ على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم ، ورمت الرجوع بفائدة والعود بعائدة ، فلم أظفر بغير الخيبة والحيرة ، وكان ذلك من الأسباب التى حببت إلىّ مذهب السلف ، على أنى كنت قبل ذلك عليه ، ولكن أردت أن أزداد منه بصيرة وشغفًا ، وقلت فى تلك المذاهب :

وغاية ما حصلته من مباحثى ومن نظرى من بعد طول التدبر
هو الوقف بين الطريقين حيرة فما علم من لم يلق غير التحير =

....

....

= على أنى قد خضت منه غِمَاره وما قَنِعَتْ نفسى بغير التبحر
إن الناظر فى حيرة علماء الكلام يعلم صدق قول شيخ الإسلام فيهم : « أوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً ، وأعطوا فهومًا ، وما أعطوا علومًا ، وأعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة ، ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف : ٢٦] » .
ويقول شيخ الإسلام مبينًا حال علماء الكلام : أهل الكلام أعظم الناس شكًا واضطرابًا ، وأضعف الناس علمًا ويقينًا ، وهذا أمر يجدونه فى أنفسهم ، ويشهده الناس منهم ، ولذا تجدهم أكثر الناس انتقالًا من قول إلى قول ، وجزمًا بالقول فى موضع ، وجزمًا بنقيضه وتكفير قائله فى موضع آخر ، وهذا دليل عدم اليقين .
وإنما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدال ، ومن المعلوم : أن الاعتراض والقدح ليس بعلم ، ولا فيه منفعة ، وأحسن أحوال صاحبه أن يكون بمنزلة العامى ، وإنما العلم فى جواب السؤال ، ولهذا تجد غالب حججهم تتكافأ ، إذ كل منها يقدح فى الآخر .
وقد قيل : إنَّ الأشعرى - مع أنه أقربهم إلى السنة والحديث وأعلمهم بذلك - صنف فى آخر عمره كتابًا فى تكافؤ الأدلة ، يعنى أدلة علم الكلام .
وكان ابن واصل الحموى - وهو من فضلاء المتأخرين وأبرعهم فى الفلسفة والكلام - يقول : « أستلقى على قفاى ، وأضع الملحفة على نصف وجهى ، ثم أذكر المقالات ، وحجج هؤلاء وحجج هؤلاء ، واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجح عندى شيء ، ولهذا أنشد الخطابى :

حُجَجٌ تَهافَتُ كالزُّجاجِ تَخالُها حقًّا وكلٌّ كاسرٌ مكسورُ

والسر وراء هذه الحيرة والشقوة التى تحدَّث عنها أساطين علماء الكلام أن طبيعة المنهج الذى أخذوا به وسلكوه يسقط هيبة الرب من القلوب ، والقلب إذا عَرِىَ من الهيبة عرى من الإيمان كما يقول الجنيد رحمه الله تعالى : إن علم الكلام يتحدث عن الله كما يتحدث عن أى موضوع من الموضوعات ، أو مخلوق من المخلوقات أضف إلى هذا أن أدلة علم الكلام =

....

٣- ومن صفاتِ أهلِ السنةِ (اتباعُ وصيةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، حيث قال : « عليكم بسُنَّتِي وسنةِ الخلفاءِ الراشدِين المهْدِيِّين من بعدى ، تمَسَّكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنواجذِ ، وإياكم ومحدثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ » . رواه الإمامُ أحمدُ ، وأبو داودَ ، والترمذيُّ ، وابنُ ماجه ، وقال الترمذيُّ : حسنٌ صحيحٌ[1] .

وغَرَضُ الشيخِ أن يُبيِّنَ أن أهلَ السنةِ والجماعةِ يَتَّبِعون طريقةَ الخلفاءِ الراشدين على الخصوصِ ، بعدَ اتباعِهِم لطريقةِ السابقين الأولين من المهاجرين والأنصارِ ، على وجهِ العمومِ ؛ لأن النبيَّ ﷺ أوْصَى باتباعِ طريقةِ الخلفاءِ الراشدين وصيةً خاصةً فى هذا الحديثِ .

ففيه قرنُ سنةِ الخلفاءِ الراشدين بسنتِه عليه الصلاةُ والسلامُ ، فدلَّ على أن ما سنَّه الخلفاءُ الراشدون، أو أحدُهم لايَجوزُ العدولُ عنه.

(**والخلفاء الراشدون**) هم الخلفاءُ الأربعةُ: أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ، ووُصِفوا بالراشدين ؛ لأنهم عرَفُوا الحقَّ واتَّبعوه ، فالراشدُ هو مَن عَرَفَ الحقَّ، وعمِلَ به ، وضدُّه الغاوى ، وهو مَن عرَفَ الحقَّ، ولم يَعْمَلْ به.

وقولُه : (**المَهْدِيينَ**) ؛ أى : الذين هَداهُمُ اللهُ إلى الحقِّ.

(**تَمَسَّكوا بها**) ؛ أى : الْزَمُوها.

(**وعَضُّوا عليها بالنواجذِ**) كِنايةً عن شدةِ التمسُّكِ بها ، والنواجذُ آخِرُ الأضْراسِ و(**محدثاتِ الأمورِ**) هىالبدعُ.

= أدلة عقلية من صنع الإنسان ، فيها مجال واسع للأخذ والرد ، يقول الغزالى رحمه الله : الإيمان المستفاد من الدليل الكلامى ضعيف جدًّا مشرف على الزوال بكل شبهة ، بل الإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل بتواتر السماع . اهـ

(١) تقدم تخريجه ٣٩٤ .

....

(**فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ**) والبدعةُ لغةً: ما ليس له مثالٌ سابقٌ.

وشرعًا : ما لم يَدُلَّ عليه دليلٌ شرعيٌّ ، فكلُّ مَن أحْدَث شيئًا ، ونَسَبه إلى الدينِ ، ولم يَكُنْ له دليلٌ فهو بدعةٌ وضَلالة ، سواءٌ فى العقيدةِ ، أو فى الأقوالِ أو الأفعالِ.

٤- ومن صفاتِ أهلِ السنةِ أنهمُ يُعَظِّمون كتابَ اللهِ وسنةَ رسولِه ، ويُجِلُّونَهما ، ويقَدِّمونهما فى الاستدلالِ بهما ، والاقتداءِ بهما ، على أقوالِ الناسِ وأعمالِهم ؛ لأنهم (**يَعْلَمون أن أصدقَ الكلامِ كلامُ اللهِ**) ، قال اللهُ تعالي: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ .

ويَعْلَمون : (**أن خيرَ الهَدْيِ هَدْىُ محمدٍ**) « الهَدْىُ » بفتحِ الهاءِ وسُكونِ الدالِ : السَّمْتُ والطريقةُ والسِّيرةُ ، وقُرِئ بضمِّ الهاءِ وفتحِ الدالِ ؛ أى : الدَّلالةُ والإرشادُ.

(**ويُؤْثِرون كلامَ اللهِ على غيرِه من كلامِ أصنافِ الناسِ**) ؛ أى : يُقَدِّمونه ، ويَأْخُذُون به ، ويَتْرُكون ما عارَضَه من كلامِ الخلقِ ، أيًّا كانوا ، رُؤَساءَ ، أوعلماءَ ، أو عُبَّادًا .

(**ويُقَدِّمون هَدْىَ محمدٍ ﷺ**) ؛ أى: سنتَهَ ، وسِيرتَه ، وتعليمَه ، وإرشادَه.

(**على هَدْيِ كلِّ أحدٍ**) من الخلقِ ، مهما عَظُمَت مكانتُه ، إذا كان هديُه يُعارِضُ هَدْىَ رسولِ اللهِ ﷺ ، وذلك عملًا بقولِه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ الآيةَ [النساء : ٥٩] .

وقولُه : (**ولهذا سُمُّوا أهلَ الكتابِ والسنةِ**) ؛ أى : لأجلِ تمسُّكِهم بكتابِ اللهِ ، وإيثارِهم لكلامِه على كلامِ كلِّ أحدٍ ، وتمسُّكِهم بهديِ رسولِ اللهِ ، وتقديمِه

....

على هدي كلِّ أحدٍ[1] ، سُمُّوا أهلَ الكتابِ والسنةِ .

لأجْلِ ذلك لُقِّبوا بهذا اللَّقَبِ الشريفِ الذى يُفِيدُ اختصاصَهم بهما دونَ غيرِهم ، ممن حادَ عن الكتابِ والسنةِ من فِرَقِ أهلِ الضلال ؛ كالمعتزلةِ ، والخوارجِ ، والروافضِ ، ومَن وافَقَهم فى أقوالِهم ، أو فى بعضِها.

وقولُه : (وسُمُّوا أهلَ الجماعةِ) ؛ أى : كما سُمُّوا أهلَ الكتابِ والسنةِ ، سُمُّوا(أهلَ الجماعةِ) والجماعةُ ضدُّ الفُرْقةِ ؛ لأن التَّمَسُّكَ بالكتابِ والسنةِ يُفِيدُ الاجتماعَ والائتلافَ ، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ فالجماعةُ هنا هم المُجْتَمِعون على الحقِّ.

٥- فمن صفاتِ أهلِ السنةِ الاجتماعُ على الأخذِ بالكتابِ والسنةِ ، والاتفاقُ على الحقِّ ، والتعاونُ على البرِّ والتقوى ، وقد أثْمَر هذا وجودَ الإجماعِ .

(والإجماعُ هو الأصلُ الثالثُ الذى يُعْتَمَدُ عليه فى العلمِ والدينِ) وقد عرَّف

---

(١) روى الإمام أحمد ٣٣٧/١، والخطيب فى « الفقيه والمتفقه » ١٤٥/١، وابن عبد البر فى « جامع بيان العلم وفضله » ٢٣٩/٢، وابن حزم فى « حَجَّة الوداع » ص٢٦٨، ٢٦٩، عن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنه قال : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ﷺ ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللّه : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأى سفيان ، واللّه تعالى يقول : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع فى قلبه شىء من الزَّيْغ فيهلك . اهـ

وقال ابن القيم رحمه اللّه فى إعلام الموقعين ١/ ١٦ : قال الإمام الشافعى رحمه اللّه : أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس . اهـ

....

الأُصوليّون الإجماعَ بأنه : اتفاقُ علماءِ العصرِ على أمرٍ دينيٍّ[1] ، وهو حجةٌ قاطعةٌ يَجِبُ العملُ به .

وقولُه : (**وهو الأصلُ الثالثُ**) ؛ أي : بعدَ الأصْلَيْنِ الأوَّلَيْنِ ، وهما الكتابُ والسنةُ .

٦- من صفاتِ أهلِ السنةِ أنهم (**يَزِنون بهذه الأصولِ الثلاثةِ**) ؛ الكتابِ والسنةِ والإجماعِ (**جميعَ ما عليه الناسُ من أقوالٍ ، وأعمالٍ باطنةٍ ، أو ظاهرةٍ ، مما له تعلُّقٌ بالدينِ**) .

فهم يَجْعَلون هذه الأصولَ الثلاثةَ مِيزانًا لبيانِ الحقِّ من الباطلِ ، والهُدَى من الضَّلالِ ، فيما يَصْدُرُ من الناسِ ، من تصرُّفاتٍ قوليةٍ ، أو فعليةٍ ، اعتقاديةٍ أو عَمَليةٍ .

(**مما له تعلُّقٌ بالدينِ**) من أعمالِ الناسِ؛ كالصلاةِ ، والصيامِ ، والحجِّ ، والزكاةِ ، والمعاملاتِ ، وغيرِها .

أمَّا ما ليس له تعَلُّقٌ بالدينِ من الأمورِ العاديةِ ، والأمورِ الدنيويةِ فالأصلُ فيه الإباحةُ .

ثم بيَّن الشيخُ رحِمه اللهُ حقيقةَ الإجماعِ الذى يُجْعَلُ أصلًا فى الاستدلالِ ، فقال : (**والإجماعُ الذى يَنْضَبِطُ**) ؛ أى : يُجْزَمُ بحصولِه ووُقوعِه .

(**هو ما كان عليه السلفُ الصالحُ**) لمَّا كانوا قَلِيلِين مُجْتَمِعِين فى الحجازِ ، يُمْكِنُ ضبطُهم ، ومعرفةُ رأيِهم فى القضيةِ .

وبعدَهم كثُرَ الاختلافُ ، وانْتَشَرَت الأمةُ ؛ أى : بعدَ السلفِ الصالحِ صار

---

(١) انظر إرشاد الفحول للشوكانى (ص١٣٢، والمذكرة للشنقيطى ص١٧٩، وشرح الأصول من علم الأصول للشيخ ابن عثيمين رحمه الله ص ٤٨٨.

....

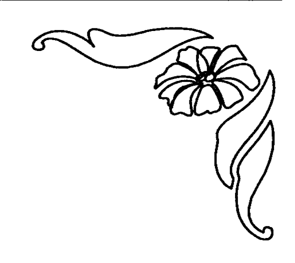
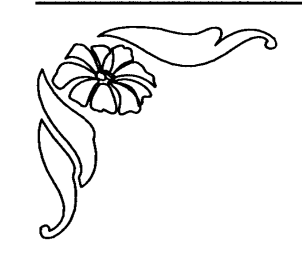
* * *

الإجماعُ لا يَنْضَبِطُ لأمْرَيْنِ :

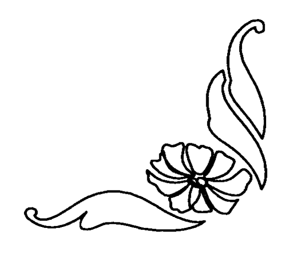
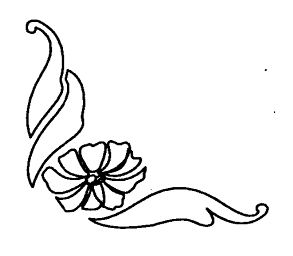
أولًا : كثرةُ الاختلافِ ، بحيث لا يُمْكِنُ الإحاطةُ بأقوالِهم .

ثانيًا : انتشارُ الأمةِ فى أقطارِ الأرضِ بعدَ الفتوحِ ، بحيث لا يُمْكِنُ عادةً بلوغُ الحادثةِ لكلِّ واحدٍ منهم ، ووُقوفُه عليها ، ثم لا يُمْكِنُ الجزمُ بأنهم أطْبَقوا على قولٍ واحدٍ فيها .

تنبيهٌ : إنما اقْتَصَر الشيخُ رحِمه اللهُ على ذكرِ الأصولِ الثلاثةِ ، ولم يَذْكُرِ الأصلَ الرابعَ ، وهو القياسُ ؛ لأنَّ القياسَ مُخْتَلَفٌ فيه ، كما اخْتَلَفوا فى أصولٍ أخرى ، مَرْجِعُها كتُبُ الأصولِ .

فصلٌ: فى بيانِ مُكَمّلاتِ العقيدةِ من مكارمِ الأخلاقِ، ومحاسنِ الأعمالِ التى يَتَحَلَّى بها أهلُ السنةِ

فصلٌ : في بيانِ مُكمّلاتِ العقيدةِ من مكارمِ الأخلاقِ، ومحاسنِ الأعمالِ التى يَتَحلَّى بها أهلُ السنةِ

ثم هم مع هذه الأصولِ يَأمُرُون بالمعروفِ ، ويَنْهَونَ عن المنكرِ ، على ما تُوجِبُه الشَّريعةُ ، ويَرَوْنَ إقامةَ الحجِّ والجُمَعِ والأعيادِ مع الأمراءِ ، أبْرارًا كانوا ، أو فُجّارًا .

ويُحافِظون على الجماعاتِ ، ويَدِينون بالنَّصيحةِ للأمةِ ، ويَعْتَقِدون معنى قولِه ﷺ : « المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضًا » . وشَبَّكَ بينَ أصابعِه .

الشرحُ :

هذا الفصلُ كالمُتَمِّمِ للفصلِ الذى قبلَه ، فيه بيانٌ لصفاتِ أهلِ السنةِ ، التى هى من مُكَمِّلاتِ العقيدةِ .

فقولُه : (ثم هم) ؛ أهلُ السنةِ .

(مع هذه الأصولِ) ؛ أى : التى مَرَّ ذكرُها ؛ أى : مع قيامِهم بها علمًا وعملًا ، يَتَحلَّون بصفاتٍ ، هى من مُكَمِّلاتِها وثَمَراتِها فهم :

(يأمُرُون بالمعروفِ ويَنْهَوْن عن المنكرِ) كما وصَفَهم اللهُ بذلك فى قولِه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

والمعروفُ هو اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحِبُّه اللَّهُ مِن الإيمانِ والعملِ والصالحِ ، والمنكرُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يَكْرَهُه اللهُ ، ويَنْهَى عنه .

(على ما تُوجِبُه الشَّريعةُ) ؛ أى : باليدِ ، ثم باللسانِ ، ثم بالقلبِ تَبَعًا للقدرةِ

وقوله ﷺ : « مَثَلُ المؤمنين فى تَوَادِّهم وتَرَاحُمِهم وتَعَاطُفِهم ، كمَثَلِ الجسدِ ، إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَداعَى له سائرُ الجسدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ » .

ويأمُرُون بالصبرِ عندَ البلاءِ ، والشكرِ عندَ الرخاءِ ، والرضا بمُرِّ القَضاءِ .

والمصلحةِ[1] ، خلافًا للمعتزلةِ الذين يُخالفون ما تُوجِبُه الشريعةُ فى هذا ، فيَرَوْنَ أن الأمرَ بالمعروفِ والنهىَ عن المنكرِ هو الخروجُ على الأئمةِ .

قولُه : (ويَرَوْنَ إقامةَ الحجِّ والجُمَعِ والأعيادِ مع الأمراءِ ، أبرارًا كانوا أو فُجَّارًا) ؛ أى : ويَعْتَقِدُ أهلُ السنةِ وجوبَ إقامةِ هذه الشعائرِ مع وُلاةِ أمورِ المسلمين .

(أبرارًا كانوا أو فُجَّارًا) ؛ أى : سواءٌ كانوا صالحين مُسْتَقيمينَ ، أو فُسَّاقًا فِسْقًا لا يُخْرِجُهم عن الملةِ .

وذلك لأن غَرضَ المسلمين من ذلك هو جمعُ الكلمةِ والابتعادُ عن الفُرْقةِ والخلافِ ؛ ولأن الوالىَ الفاسِقَ لا يَنْعَزِلُ بفِسْقِه ، ولا يَجوزُ الخروجُ عليه ؛ لِما يَتَرَتَّبُ على ذلك من ضياعِ الحقوقِ وإراقةِ الدماءِ .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحِمه اللهُ[2] : ولعلَّه لا يَكادُ يُعْرَفُ طائفةٌ خرجَت على ذى سلطانٍ ، إلا وكان فى خروجِها من الفسادِ أكثرُ من الذى فى إزالتِه . اهـ

وأهلُ السنةِ يُخالِفون فى ذلك أهلَ البدعِ من الخوارجِ والمعتزلةِ والشِّيعةِ الذين

---

(١) ودليل ذلك ما رواه مسلم ١/٦٩ (٤٩) ، عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

(٢) منهاج السنة النبوية ٣/٣٩١ .

....

يَرونَ قتالَ الوُلاةِ والخروجَ عليهم ، إذا فعَلُوا ما هو ظلمٌ ، أو ظَنُّوه ظلمًا ، ويَرَوْن ذلك من بابِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ .

وقولُه : (ويُحافِظون على الجماعاتِ) ؛ أي : ومن صفاتِ أهلِ السنةِ أنهم يُحافِظون على حُضورِ صلاةِ الفريضةِ مع الجماعةِ ؛ جمعةً أو غيرَها ؛ لأن ذلك من أعظمِ شعائرِ الإسلامِ وطاعةٌ للهِ ورسولِه في ذلك .

خلافًا للشِّيعةِ الذين لا يَرَوْنَ الصلاةَ إلا مع الإمامِ المعصومِ .

وخلافًا للمنافِقِين الذين يَتَخلَّفون عن صلاةِ الجماعةِ ، وقد وَرَدَت أحاديثُ في فضلِ صلاةِ الجماعةِ ، والأمرِ بها ، والنهيِ عن تركِها ، ليس هذا موضعَ ذكرِها[1] .

---

(١) **ومن هذه الأحاديث :**

١ـ ما رواه البخاري (٦٤٤) ، ومسلم ١/٤٥١ (٦٥١) ، عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد هممت أن آمر بالصلاة فتُقام ، ثم آمُر رجلًا فيُصَلِّي بالناسِ ، ثم أَنْطَلِق معي برجالٍ معهم حُزَمٌ من حَطَبٍ إلى قومٍ لا يَشْهَدون الصلاةَ ، فأُحرِّق عليهم بيوتَهم بالنارِ » .

٢ـ وما رواه مسلمٌ ١/٤٥٢ (٦٥٣) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : أَتَى النبيَّ ﷺ رجلٌ أعْمَى ، فقال : يا رسولَ اللهِ ، إنه ليس لي قائدٌ يَقُودُني إلى المسجدِ ، فسأَل رسولَ اللهِ ﷺ أن يُرَخِّصَ له فيُصَلِّيَ في بيتِه ، فرخَّص له ، فلمَّا ولَّى دعاه ، فقال : « هل تَسْمَعُ النداءَ بالصلاة ؟ » قال : نعم . قال : « فأَجِبْ » .

٣ـ وما رواه أبو داود (٥٥١) ، وابن ماجه (٧٩١) ، والطبراني (١٢٢٦٥) ، والدارقطني ١/٤٢٠، والحاكم ١/٢٤٥، والبيهقي ٣/٥٧، والبغويُّ (٧٩٥) ، وابنُ حزمٍ في المُحَلَّى ١/٢٦٧، عن ابنِ عباسٍ رضي اللَّه عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « مَن سمِع النداءَ فلم يُجِبْ فلا صلاةَ له إلا مِن عُذْرٍ » . =

....

قولُه : (ويَدِينون بالنصيحةِ للأمةِ) ؛ أى : يرَوْنَها من الدينِ ، وأصلُ النُّصْحِ فى اللغةِ : الخُلُوصُ[(١)] .

وشرعًا : هى إرادةُ الخيرِ للمنصوحِ له ، وإرشادُه إلى مصالحِه ، فأهلُ السنةِ يُريدون الخيرَ للأمةِ ، ويُرْشِدُونها إلى ما فيه صلاحُها .

ومن صفاتِ أهلِ السنةِ التعاونُ على الخيرِ ، والتألُّمُ لألمِ المصابِين منهم .

فهم (يَعْتَقِدون معنى قولِه ﷺ : « المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا » وشبَّكَ بينَ أصابعِه) رواه البخاريُّ ومسلمٌ[(٢)] .

وقولِه ﷺ : « مَثَلُ المؤمنين فى تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتعاطُفِهم ، كمَثَلِ الجسدِ ، إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَداعَى له سائرُ الجسدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ » . رواه البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما[(٣)] .

فالحديثان يُمَثِّلان ما يَنْبغى أن يكونَ عليه المسلمون ، من تعاونٍ ، وتَراحُمٍ ،

= وصححه الحاكم على شرط الشيخين ، وصحح الحافظ ابن حجر فى التلخيص الحبير ٣٠/٢ إسناد ابن ماجه والحاكم والدارقطنى ، وصحح أحمد شاكر إسناد ابن ماجه فى تعليقه على المحلى .

٤- وما رواه مسلمٌ ٤٥٣/١ (٦٥٤) عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : لقد رأيتُنا - يعنى : مع رسول الله ﷺ - وما يَتَخلَّفُ عنها إلا مُنافِقٌ معلومُ النِّفاقِ ، ولقد كان الرجلُ يُؤْتَى به يُهادَى بينَ الرجلين حتى يُقامَ فى الصفِّ .

(١) يقال : نَصَحَتْ توبتُه ؛ أى : خَلَصَت من شوائب العَزْم على الرجوع . المعجم الوسيط (ن ص ح) .

(٢) البخارى (٦٠٢٦) ، ومسلم ١٩٩٩/٤ (٢٥٨٥) .

(٣) رواه أحمد ٢٧٠/٤ (١٨٢٨٧، ١٨٢٩٣) ، والبخارى (٦٠١١) ، ومسلم ١٩٩٩/٤ (٢٥٨٦) .

....

وأهلُ السنةِ يَعْمَلون بمُقتَضاهما .

وقولُه : (**المؤمنُ للمؤمنِ**) ، وقولُه : (مَثَلُ المؤمنين) المرادُ بالإيمانِ هنا الإيمانُ الكاملُ .

(**كالبُنْيانِ**) هذا التمثيلُ يُقْصَدُ منه التقريبُ للفهمِ .

(**يَشُدُّ بعضُه بعضًا**) بيانٌ لوجهِ الشَّبَهِ .

(**وشبَّك بينَ أصابعِه**) تمثيلٌ آخَرُ ، يُقْصَدُ منه التقريبُ للفهمِ .

قولُه : (**كمَثَلِ الجسدِ الواحدِ**) ؛ أى : بالنسبةِ إلى جميعِ أعضائِه من حيث الشعورُ بالراحةِ أو التعبِ .

(**توادِّهم**) ؛ أى : محبةِ بعضِهم لبعضٍ .

(**تعاطُفِهم**) ؛ أى : عطفِ بعضِهم على بعضٍ .

(**إذا اشتكى**) تألَّم .

(**تَداعَى**) شارَك بعضُه البعضَ الآخَرَ فى الألمِ .

(**سائرُ الجسدِ**) باقيه .

(**بالحُمَّى**) ما يَنْشَأُ عن الألمِ مِن حرارةِ الجسمِ .

(**السَّهَرِ**) عدمُ النومِ .

وهذا الحديثُ خبرٌ ، معناه الأمرُ ؛ أى : كما أنه إذا تَأَلَّم بعضُ جسدِه سَرَى ذلك الألمُ إلى جميعِ جسدِه ، فكذا المؤمنون ؛ ليكونوا كنفسٍ واحدةٍ ، إذا أصاب أحدَهم مُصيبةٌ يَغْتَمُّ جميعُهم ، ويَعْمَلون على إزالتِها .

وفى هذا التشبيهِ تقريبٌ للفهمِ ، وإظهارٌ للمعانى فى الصورِ المَرْئيةِ .

ومن صفاتِ أهلِ السنةِ ثَباتُهم فى مواقفِ الامتحانِ .

(**يَأمُرُون بالصبرِ عندَ البلاءِ**) الصبرُ لغةً : الحبسُ ، ومعناه هنا : حبسُ النفسِ

....

* * *

عن الجزَع ، وحبسُ اللسانِ عن التَّشَكِّى ، والتَّسَخُّطِ ، وحبسُ الجوارحِ عن لَطْمِ الخدودِ ، وشَقِّ الجُيُوبِ .

(البلاءِ) الامتحانُ بالمصائبِ والشدائدِ .

(والشكرِ عندَ الرَّخاءِ) الشكرُ : فعلٌ يُنْبِىءُ عن تعظيمِ المُنْعِمِ ؛ لكونِه مُنْعِمًا ، وهو صرفُ العبدِ ما أنْعَم اللهُ به عليه فى طاعتِه .

(الرَّخاءِ) اتساعُ النعمةِ .

(والرضا بمُرِّ القَضاءِ) الرضا ضدُّ السَّخَطِ ، والقضاءُ لغةً : الحُكْمُ .

وعُرْفًا : إرادةُ اللهِ المتعلِّقةُ بالأشياءِ على ما هى عليه .

ومُرُّ القضاءِ : ما يَجْرِى على العبدِ ، مما يَكْرَهُه ؛ كالمرضِ ، والفقرِ ، وأذى الخَلْقِ ، والحرِّ ، والبَرْدِ ، والآلامِ .

ويَدْعُون إلى مكارمِ الأخلاقِ ، ومَحاسِنِ الأعمالِ ، ويَعْتَقِدون معنى قولِه ﷺ : « أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا » .

ويَنْدُبون إلى أن تَصِلَ مَن قَطَعَكَ ، وتُعْطِيَ مَن حَرَمَك ، وتَعْفُوَ عمَّن ظَلَمَك .

ويَأْمُرُون ببرِّ الوالدَيْنِ ، وصِلَةِ الأرحامِ ، وحُسْنِ الجِوارِ ، والإحسانِ إلى اليَتَامَى ، والمساكينِ ، وابنِ السبيلِ ، والرِّفْقِ بالمملوكِ .

ويَنْهَوْنَ عن الفَخْرِ والخُيَلاءِ والبغيِ والاستطالةِ على الخلقِ بحقٍّ أو بغيرِ حقٍّ .

ويأمُرُونَ بمَعالِي الأخلاقِ ، ويَنْهَوْن عن سَفْسَافِها ، وكلُّ ما يقولَونه ويَفْعَلونه من هذا وغيرِه فإنما هم فيه مُتَّبِعون للكتابِ والسنة .

الشرحُ :

يَهْتَمُّ أهلُ السنةِ بالأخلاقِ ، فيَتَحَلَّوْن بالأخلاقِ الفاضلةِ ، ويُرَغِّبون فيها غيرَهم ، فهم (**يَدْعُون إلى مكارمِ الأخلاقِ**) ؛ أى : أحْسَنِها ، والأخلاقُ : جمعُ خُلُقٍ - بضمِّ الخاءِ واللامِ - وهو الصورةُ الباطنةُ ، والخَلْقُ - بفتحِ الخاءِ ، وسكونِ اللامِ - هو الصورةُ الظاهرةُ ، وهو[1] الدِّينُ والسَّجِيَّةُ والطَّبْعُ .

ويَدْعُون إلى (**محاسنِ الأعمالِ**) كالكرمِ والشجاعةِ والصدقِ والأمانةِ .

(**ويَعْتَقِدون معنى قولِه ﷺ**) ؛ أى : يُؤْمنون به ، ويَعْمَلون بمُقْتَضَاه .

(**أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا**) رواه أحمدُ والترمذىُّ ، وقال : حسنٌ

---

(١) أى : الخُلُق .

....

صحيحٌ[(١)] .

وقولُه : (**أحسَنُهم خُلُقًا**) ؛ أى : ألينُهم وألْطَفُهم ، وأجْمَلُهم .

ففى الحديثِ الحثُّ على التخلُّقِ بأحسنِ الأخلاقِ ، وفيه : أن الأعمالَ تَدْخُلُ فى مُسَمَّى الإيمانِ وأنَّ الإيمانَ يَتفاضَلُ ، وأهلُ السنةِ يَدْعُون إلى التعامُلِ مع الناسِ بالتى هى أحسنُ ، وإلى إيتاءِ ذَوِى الحقوقِ حقوقَهم ، ويُحَذِّرون من أضدادِ تلك الأخلاقِ من الكِبرِ والتَّعَدِّى على الناسِ .

فهم (**يَنْدُبون**) ؛ **أى : يَدْعُون** .

(**إلى أن تَصِلَ مَن قَطَعَك**) ؛ **أى : تُحْسِنَ إلى مَن أساء إليك** .

(**وتُعْطِيَ مَنَ حرَمَك**) ؛ أى : تَبْذُلُ العَطاءَ ، وهو التبرُّعُ والهديةُ ونحوُها لمن منَع عنك ؛ لأن ذلك من الإحسانِ .

(**وتَعفُوَ عمَّن ظَلَمَك**) ؛ أى : تُسامِحَ مَن تَعَدَّى عليك فى مالٍ ، أو دمٍ ، أو عِرْضٍ ؛ لأنَّ ذلك مما يَجْلُبُ المودَّةَ ، ويُكسِبُ الأجرَ والثوابَ .

(**ويَأمُرُون**) ؛ أى : أهلُ السنةِ بما أمَرَ اللهُ به من إعطاءِ ذَوِى الحقوقِ حقوقَهم .

(**ببرِّ الوالدَيْنِ**) ؛ أى : طاعتِهما فى غيرِ معصيةٍ ، والإحسانِ إليهما بالقولِ والفعلِ .

(**وصلةِ الأرحام**) ؛ أى : الإحسانِ إلى الأقْرَبين ، والأرحامُ جمعُ رَحِمٍ ، وهو مَن تَجْمَعُك به قَرابةٌ .

(**وحُسْنِ الجِوارِ**) ؛ أى : الإحسانِ إلى مَن يَسْكُنُ بجوارِك ببَذْلِ المعروفِ ،

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٢٥٠ (٧٣٩٦) ، وأبو داود (٤٦٨٢) ، والترمذى (٢٦١٢) .
وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٢٣٠) : صحيح .

....

وكَفّ الأذى .

(**والإحسانِ إلى اليتامَى**) جمعُ يتيمٍ ، وهو لغةً : المُنْفَرِدُ .

وشرعًا : مَن مات أبوه قبلَ بلوغِه .

والإحسانُ إليهم هو برعايةِ أحوالِهم وأموالِهم ، والشفقةِ عليهم .

(**والمساكينِ**) ؛ أى : والإحسانِ إلى المساكينِ ، جمعُ مسكينٍ ، وهو المحتاجُ الذى أسْكَنَتْه الحاجةُ والفقرُ ، والإحسانُ إليهم يكونُ بالتصدُّقِ عليهم ، والرفقِ بهم .

(**وابنِ السبيلِ**) ؛ أى : والإحسانِ إلى ابنِ السبيلِ ، وهو المسافرُ المُنْقَطَعُ به ، الذى نَفِدَت نفقتُه ، أو ضاعت ، أو سُرِقَت .

وقيل : هو الضيفُ .

(**والرفقِ بالمملوكِ**) ؛ أى : ويأمُرُون بالرفقِ بالمملوكِ ، وهو الرقيقُ ، ويَدْخُلُ فيه المملوكُ من البهائمِ ، والرفقُ ضدُّ العُنْفِ ، وهو لِينُ الجانبِ .

(**ويَنْهَونَ عن الفخرِ**) وهو المباهاةُ بالمكارمِ والمناقبِ ، من حَسَبٍ ونَسَبٍ .

(**والخُيَلاءِ**) - بضمِّ الخاءِ - : الكِبْرُ والعُجْبُ .

(**والبغيِ**) وهو العُدْوانُ على الناسِ .

(**والاستطالةِ على الخَلْقِ**) أى : التَّرَفُّعِ عليهم ، واحتقارِهم ، والوَقيعةِ فيهم .

(**بحقٍّ وبغيرِ حقٍّ**) لأن المستطيلَ إن استطال بحقٍّ فقد افْتَخَر ، وإن اسْتَطال بغيرِ حقٍّ فقد بَغَى ، ولا يَحِلُّ ، لا هذا ، ولا هذا .

(**ويأمُرُون بمَعالى الأخلاقِ**) ؛ أى : يَأْمُرُ أهلُ السنةِ بالأخلاقِ العاليةِ ، وهى الأخلاقُ الحسنةُ .

(**ويَنْهَوْن عن سَفْسافِها**) ؛ أى : رَديئِها وحَقيرِها .

....

والسَّفسَافُ : الأمرُ الحقيرُ والرَّدِيءُ من كلِّ شيءٍ ، وهو ضدُّ المعالى والمكارمِ . وأصله ما يَطِيرُ من غُبارِ الدقيقِ ، إذا نُخِل ، والترابِ إذا أُثِيرَ .

(**وكلُّ ما يَقولُونه ويَفعَلُونه من هذا وغيرِه فإنما هم فيه مُتَّبِعون للكتابِ والسنةِ**) ؛ أى : كلُّ ما يَقولُه ويَفْعَلُه أهلُ السنةِ ، ويَأْمُرُون به ، ويَنْهَوْن عنه مما تَقَدَّم ذكرُه فى هذه الرسالةِ ، وما لم يُذْكَرْ ، فقد اسْتَفادوه من كتابِ ربِّهم وسنةِ نبيِّهم ، لم يَبْتَدِعوه مِن عندِ أنفسِهم ، ولم يُقَلِّدوا فيه غيرَهم .

فقد قال اللهُ تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ .

والأحاديثُ فى هذا كثيرةٌ ، منها ما ذكَره الشيخُ(١) .

---

(١) **ومما لم يذكره الشيخ رحمه الله ، والذى يدعو إلى هذه الأمور :**

١ـ ما رواه البخارى رحمه الله (٥٩٩١) ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، أن النبى ﷺ قال : « ليس الواصل بالمكافئ ، ولكنَّ الواصل الذى إذا قُطِعَت رحِمُه وَصَلها » .

٢ـ وما رواه البخارى (٥٩٧١) ، ومسلم ١٩٧٤/٤ (٢٥٤٨) ، عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من أحق الناس بحُسْنِ صَحابتى ؟ قال : « أمك » . ثم مَن ؟ قال : « ثم أمُّك » . قال : ثم مَن ؟ قال : « ثم أمُّك » . قال : ثم مَنْ ؟ قال : « ثم أبوك » .

٣ـ وما رواه البخارى (٦١٣٥) ، ومسلم ٦٩/١ (٤٨) عن أبى شُرَيْح الخزاعى ، أن النبى ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيُحْسِنْ إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيُكْرِمْ ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت » .

٤ـ وما رواه البخارى (٦٠٠٥) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » . وقال بالسَّبَّابة والوُسْطَى .

٥ـ وما رواه البخارى (١٧٣٩) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، =

وطريقتُهم هى دينُ الإسلامِ الذى بعَث اللهُ به محمدًا ﷺ .

لكن لما أخْبَر النبىُّ ﷺ أن أمَّتَه ستَفْتَرِقُ على ثلاثٍ وسبعينَ فرْقةً ، كلُّها فى النارِ إلا واحدةً ، وهى الجماعةُ[١] .

وفى حديثٍ عنه أنه قال : « هم مَن كان على مثلِ ما أنا عليه اليومَ وأصْحابى »[٢] صار المُتَمَسِّكون بالإسلامِ المَحْضِ الخالِصِ عن الشَّوْبِ هم أهلَ السنةِ والجماعةِ .

وفيهم الصِّدِّيقون والشُّهداءُ والصالحون ، ومنهم أعلامُ الهُدَى ومَصابِيحُ الدُّجَى ، أُولُو المناقبِ المأثورةِ ، والفضائلِ المذكورةِ .

وفيهم الأَبدَالُ ، وفيهم أئمةُ الدينِ الذين أجْمَع المُسْلِمون على هدايتِهم ، وهم الطائفةُ المنصورةُ الذين قال فيهم النبىُّ ﷺ : « لا تَزالُ طائفةٌ من أمتى على الحقِّ منصورةً ، لا يَضُرُّهم مَن خالَفَهم ، ولا مَن خذَلَهم حتى تَقُومَ الساعةُ »[٣] .

فنَسْأَلُ اللهَ أن يَجْعَلَنا منهم ، وأن لا يُزِيغَ قلوبَنا بعدَ إذ هدانا ، وأن يَهَبَ لنا مِن لَدُنْهُ رحمةً ، إنه هو الوَهَّابُ ، وصلّى اللهُ على محمدٍ وآلِه وصَحْبِه ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا .

= ومسلم ٤/١٣٠٥ ، عن أبى بَكْرَة ، أن النبى ﷺ قال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم » . إلى غير ذلك من الأحاديث التى تدل على هذه المعانى العظيمة .

(١) رواه أحمد ٤/١٠٢ (١٦٨٧٦) ، وأبو داود (٤٥٩٧) . وقال الألبانى رحمه الله فى صحيحه الجامع (٢٦٤١) : صحيح .

(٢) رواه الترمذى (٢٦٤١) . وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٣٤٣) : حسن .

(٣) البخارى (٧٣١١) ، ومسلم ٣/١٥٢٣ (١٩٢٠) .

....

الشرحُ :

يُواصِلُ الشيخُ رحمه اللهُ بيانَ مَزايا أهلِ السنةِ والجماعةِ ، فبيَّن مَزيَّتَهم العُظْمَى ، وهى : أنَّ (**طريقتَهم دينُ الإسلامِ**) ؛ أى : هو مذهبُهم وطريقُهم إلى اللهِ ، وأنهم عندَ الافتراقِ الذى أخْبَر النبىُّ ﷺ عن حدوثِه فى هذه الأمةِ ثبَتوا على الإسلامِ ، وصاروا هم الفِرْقةَ الناجيةَ مِن بينِ تلك الفرقِ .

وهم الجماعةُ الثابتةُ على ما كان عليه النبىُّ ﷺ وأصحابُه ، وهو الإسلامُ المَحْضُ الخالصُ مِن الشَّوائبِ ، ولذلك فازوا بلَقَبِ أهلِ السنةِ والجماعةِ .

وصار فيهم (**الصِّدِّيقون**) المُبالِغون فى الصدقِ والتصديقِ .

(**والشهداءُ**) القَتْلَى فى سبيلِ اللهِ .

(**والصالحون**) أهلُ الأعمالِ الصالحةِ .

(**وفيهم أعلامُ الهُدَى ... إلخ**) ؛ أى : وفى أهلِ السنةِ العُلَماءُ الأعلامُ المُتَّصِفون بكلِّ وصفٍ حَميدٍ ؛ علمًا وعَمَلًا .

(**وفيهم الأبدالُ**) وهم الأولياءُ والعُبَّادُ ، سُمُّوا بذلك ، قيل : لأنهم كُلَّما مات أحدٌ أُبْدِل بآخَرَ ، وفى روايةٍ عن أحمدَ : أنهم أصحابُ الحديثِ .

(**وفيهم أئمةُ الدِّينِ**) ؛ أى : فى أهلِ السنةِ العلماءُ المُقْتَدَى بهم كالأئمةِ الأربعةِ وغيرِهم .

(**وهم الطائفةُ المنصورةُ**) ؛ أى : وأهلُ السنةِ هم الطائفةُ المذكورةُ فى الحديثِ : « لا تَزالُ طائفةٌ من أمتى » الحديثَ . رواه البخارىُّ ومسلمٌ .

ثم ختَم الشيخُ رسالتَه المباركةَ بالدعاءِ والصلاةِ والسلامِ على النبىِّ ﷺ ، وهو خيرُ خِتامٍ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبِّينا محمدٍ ، وعلى آلِهِ وصَحْبِه وسَلَّم .

* * *

أولًا : فهرس الأحاديث المرفوعة القولية والفعلية حسب حروف المعجم

باب الهمزة

« همزة الوصل »

الحديث | الصفحة

« همزة القطع »

* * *

باب الباء

* * *

باب التاء

باب الثاء

* * *

باب الحاء

* * *

باب الخاء

* * *

باب الدال

* * *

باب الراء

* * *

باب السين

* * *

باب الشين

* * *

باب العين

* * *

باب الفاء

* * *

باب القاف

* * *

باب الكاف

* * *

باب اللام

* * *

باب الميم

* * *

باب النون

* * *

باب الهاء

* * *

باب الواو

* * *

باب « لا »

* * *

باب الياء

* * *

ثانيًا : فهرس الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين مرتبة حسب حروف المعجم

باب الجيم

* * *

باب الحاء

* * *

باب الخاء

* * *

باب الشين

* * *

باب الصاد

* * *

باب العين

* * *

باب الفاء

* * *

باب القاف

* * *

باب الكاف

* * *

باب اللام

* * *

باب الميم

* * *

باب الواو

* * *

باب الياء

* * *

ثالثًا : فهرس الأعلام المترجم لهم فى الحاشية

* * *

رابعًا : فهرس الفِرَق المترجم لهم فى الحاشية

* * *

خامسًا : فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

توزيع
دار العقيدة للتراث
الإسكندرية : ١٠١شارع الفتح – باكوس ت : ٥٧٤٧٣٢١
القاهــرة : ٥ درب الأتــراك – خــلف الجــامــع الأزهــر

طبعـــت بمطابـــع الحرمين
ت: 2979735 - 0101009352